دزموند ستيورت

تاريخ الشرق الأوسط الحديث

معبد جانوس

دار النهار للنشر

دزموند ستيورت



تاريخ الشرق الأوسط الحديث

معبد جانوس

نقله الى العربية زهدي جارالله



دار النهار للنشر

Desmond Stewart
The Middle East
Temple of Janus
Hamish Hamilton Ltd.

دار النهار للنشر
بيروت ١٩٧٤

المحتويات

مُقدّمة

لو اردت ان اعدد أسماء جميع الذين ساهموا في هذا الكتاب بالبصائر والمعلومات لكان علي أن اضع قائمة طويلة تسبب علامات ضبط اللفظ (لأن معظم الأسماء عربية) للطباع سكتة دماغية . سأبدأ بالدكتور صالح العلي الذي كتب في اكسفورد في صيف ١٩٤٨ تقريراً بذل فيه جهده بما سأجده كمحاضر في جامعة بغداد التي كانت في ذلك الحين في طور النشوء ، وانتهي بالمقاول الشاب الاسرائيلي الذي قابلته على ظهر الباخرة ابولونيا في سنة ١٩٦٩ فأخبرني ان بعض خير اصدقائه من العرب . ستضم القائمة أيضاً بعض اولئك الذين يظهرون كممثلين في هذا التاريخ : الرئيس أنور السادات ، والمرحوم الرئيس عبدالناصر وكميل شمعون رئيس لبنان السابق ، كما سيضم من بين أولئك الذين ختموا معتقداتهم بدمائهم تلميذي الخاص عبد الكريم قاسم زعيم العراق الاوحد، وعدنان سعود موظف بنك في بيروت الذي مات وهو يفجر دبابة تابعة للرئيس شمعون . بيد أن القائمة ستكون مجرد هيكل عظمي ان لم تضم كتاباً مثل فتحي غانم وعبد الرحمن الشرقاوي اللذين سمحا لي بترجمة قصصهم ، وشعراء من اليسار واليمين قرأوا لي قصائدهم ، ومخرجين بحثوا معي في افلامهم ، ورجال أعمال مثل أميل البستاني تحدثوا عن أنظار تكمن وراء جمع الارباح ، ومغنيات مثل أم كلثوم وفيروز بحثن في موحى قصائدهن . ولا بدّ لي من أن أذكر سائقي سيارات أبطالاً مثل علي مراد الذي سار بي في الطرق الموحلة إلى كردستان ، أو السيد حسن الذي سار بي عبر الانهر في جنوبي تركيا . ويقودني هذا الى أطباء مخلصين ، مثل خالد ناجي أو زهير فريد ، اعتنوا بي بعد مشقة تينك الرحلتين . هذا وقد علمني الطلاب الصابرون عن الشرق أكثر مما استطعت ان أعلمهم عن الغرب . علمني اصدقاء لا يحصون أكبر الدروس وهو ما يشعر به الناس العاديون نحو الجديد من حوادث تاريخهم . إن هؤلاء الناس الذين لن أذكر أسماءهم الذين أعطوني بصائر مهمة ، أعدائي أو الذين يكتمون معلومات قد ترتاب فيها الانظمة الدكتاتورية . علي في الواقع أن أكتب سيرة حياتي لا مقدمة .

على أنني لا أستطيع ان أسمح بصدور هذا الكتاب دون ان أذكر وأشكر اولئك الذين كانت مساهمتهم فيه مباشرة بقراءة ما كتبت ، أو اقتراح مصادر للمعلومات ، أو السماح لي بالاقتباس من كتبهم . سأذكرهم لا بترتيب خاص أبجدي أو سياسي :

مستر إيان جيلمور ، مسز ريني واينجارتن ، الدكتور يوسف صايغ ، مستر فنسنت
شيئان ، الدكتور زكي صالح ، مستر جون كيمشي ، مستر ماريك دوبسون ،
السيد عدنان الحميري ، الدكتور وليد الخالدي ، مس جين سالزبيرجر ، السيد علي
حيدر الركابي ، مستر جون هايلوك ، الدكتور دورين وانيرر ، مستر ألان نيم ،
السيد أحمد بهاء الدين ، السيد ميشيل ابو سعودي ، الدكتور عزت عبد الكريم ،
موظفو مكتبة لندن ومكتبة الجمعية الجغرافية في القاهرة .

الكتاب الأول

إسماعيل الكبير ووصل بحرين

الفصل الاول

في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٦٩ ركزت أوروبا المسؤولة عن ثروات العالم وازيائه اهتمامها على البحر المتوسط الشرقي . هنا في حاجز رملي بين البحر وبين مستنقع راكد تحولت مجموعة من أكواخ العمال خلال عقد واحد الى مدينة فيها عشرة الآف ، قد تصبح منافسة للإسكندرية . على بعد من ساحل هذه المدينة، بور سعيد ، تجمعت سفن تسع دول اوروبية وسفن مصر للقيام بعمل لائق بالقرن التاسع عشر ... برحلة رسمية من « البحر الأبيض المتوسط » ، كما يدعوه العرب ، الى البحر الأحمر عبر خندق حفره الانسان، هو عبارة عن قناة أعادت توحيد بحار قسمت منذ ما قبل التاريخ . لقد وصلت المحيط الأطلسي الشمالي والبحر المتوسط بالمحيط الهندي وجمعت الشرق والغرب اللذين افترقا منذ سقوط روما وظهور الإسلام .

في ٢٨ ايلول (سبتمبر) أبرق الرجل الذي أوجد بدأبه هذا الممر المائي الجديد ـــ الذي وصفته مجلة بريطانية دون مغالاة بأنه « أغلى وأروع مشروع في العصور الحديثة » ـــ إلى رعاته في باريس مايلي :

« تركنا بور سعيد في هذا الصباح ووصلنا السويس في المساء بعد رحلة بالباخرة مستمرة غير متقطعة دامت خمس عشرة ساعة » .

فردينان دي ليسبس .

استغرق شق القناة منذ توقيع الامتياز حتى إكمالها خمسة عشر عاماً . هدّد نقص المال والتعقيدات الدولية أكثر من مرة بترك برزخ السويس مغلقاً، أما وقد أصبح رعاة القناة اخيراً يستطيعون أن ينتظروا استرجاع أموالهم ، فقد تطلب الأمر افتتاحاً مثيراً .

كانت اوروبا المقاولين متأثرة ، لا محكومة، بالأباطرة والامبراطورات، بالملوك والملكات . بهذه الشخصيات الخيالية ، بأرديتها الرسمية وحلاها ، رأى رجال السياسة بشواربهم وستراتهم السوداء والجماهير التي تنصب في المصانع الشيطانية تجليّهم . ذلك بأن يوجين امبراطورة فرنسا ، وفرانس جوزيف امبراطور النمسا ، وولي عهد بروسيا ، وأمير هولندا وأميرتها حضروا الى مصر لتعميد القناة الجديدة

بأنوار خرافية .

نستطيع ان ننظر الى تلك المناسبة ، التي شعرت فيها اوروبا القرن التاسع عشر بأكبر ثقة بنفسها ، بعدسة ذات بؤرتين ، ترينا احداهما مجموعة صور تذكارية عنوانها « افتتاح قناة السويس : رحلة الملوك ! » ، ونصها بقلم ج.نيقول ، وألوانها ولوحاتها لريّو رسام سموّ الخديوي . تروي المجموعة انه « طوال شهر كامل ، والفضل لضيافة الخديوي السخية ، خضعت مصر لغزوة سلمية من العلماء والكتاب وممثلي الصناعة والتجارة » . فقد حضر إبسن من النرويج ، وارسلت المانيا لبسيوس ودوميشن المتخصصين بالآثار المصرية، وارسلت بريطانيا مستر جريف رئيس بلدية منشستر ولويد ورمزى رئيسي غرفتي التجارة في جلاسجو وبيرمنجهام . أما أكبر فريق فقد جاء من فرنسا وكان يضم ، علاوة على ريّو وجيروم ، الرسام يوجين فورمنتين الذي يصدر مجلة ايضاً ، والذي صححت روايته وروايات آخرين النظرة الرسمية .

ننظر أولاً الى الرجل الذي دعا الى هذا العيد السحري ، ودفع فواتير أكثر من تسعمائة ضيف، وأخذ اكثر من مائة منهم في رحلة الى مصر العليا ، ووصل الى بور سعيد للترحيب بضيوفه : الى الخديوي اسماعيل .

تظهر لوحة ريّو عاهلاً هادئاً في التاسعة والثلاثين من عمره ، يعلو وجهه المستدير اللطيف طربوش أحمر ناعم تتدلى شرابته الى الخلف، وتزيد في إخفاء عظامه لحية كثة . لا تكاد ريشة ريّو تشير الى ما تميز به رجال أسرة اسماعيل من بدانة مبكرة . يتألق صدر الخديوي بأوسمة كبيرة كالكعك ، ثم يصبح غير واضح عند الخصر . أما اليدان فغير واضحتين . لا تستطيع لوحة أن تبرز جمودهما . يشعر من يصافح يده اليمنى أنها كقفاز محشوّ بشعر جواد . ولا تستطيع تمييز حركات العينين المميزة اللتين يظللهما حاجبان أشعثان وتكاد تخفيهما رموش كثيفة ، ويديرهما حين يحدق تقلص عضلات الوجه . ومن الغريب ان سحره — روى القنصل الاميركي في الاسكندرية « ان كلماته حين يقصد الارضاء تصحبها عادة ابتسامة تملق ساحرة » — يدوم بعد نظراته . يغمض في المقابلات عينه اليسرى بينما تجول اليمنى في الزائر باحثة عن ضعف فيه . واذا ضايقه القول إنه يتكلم بعين ويصغي بأخرى أجاب : « ويمكنكم ان تضيفوا أنني أفكر بهما معاً ! » .

أما حدة ذهن اسماعيل فان مجموعة الصور تقرّها . ان إكمال القناة التي بدأت في عهد عمه سعيد الذي سمي الميناء الجديد باسمه « يعزى الى نفوذ الخديوي الشخصي ، والى العطف الذي أثاره في اوروبا هذا الأمير المستنير الكريم الذي تابع بهمة لا يمكن أن يقعدها شيء المهمة الشاقة التي تقلدها ألا وهي إصلاح شعب ، وكان من وسائل

ذلك الإصلاح أن وضعت روح الخديوي العملية اعمال المنافع العامة أولاً . كل ما يمكن أن يربط مناطق دولته المختلفة بعضها ببعض ، ويسهل على مصر الأقتراب السلمي من رجال أوروبا واشيائها ، ويساهم في سرعة تنمية الزراعة والصناعة والتجارة ، أصبح موضوع عنايته الدائمة . ولهذا كانت كل سنة ترى حفر موانىء جديدة ، وفتح قنوات جديدة ، وانشاء سدود وخزانات جديدة ، بينما غطي البلد كله بشبكة من السكك الحديد . واخيراً ، بإشارة من الخديوي ، تحولت العاصمة خلال بضعة أشهر الى مدينة جديدة مرحة وجميلة » .

كان آخر مشاريعه قصراً فخماً أقامه في الجزيرة ، وسط النيل ، لأعزّ ضيوفه يوجين دي مونتيجو ابنة عم دي ليسبس وزوجة نابوليون الثالث . إنه طراز شرقي فكتوري مصنوع من حديد مطرق مدموج في منظر مثير ، تماثيله الرخامية — كتمثال عذراء ملتفة بثوب مجعّد ينساب عن ظهر عار جميل — منظر مدهش في مدينة إسلامية انتجت طوال ألف عام أشياء كثيرة لكن لم تنتج شيئاً كهذا . أمّا الكراسي الفخمة ذات المقاعد الواسعة فليست غير عملية، ذلك بأن أرداف الارستقراطيين الألبانيين والاتراك تحتاج الى فسحة أوسع مما تحتاج اليه ارداف نظرائهم الاوروبيين . ان البدانة في الشرق الجائع دليل على نعمة الله !

يسخر بعضهم من الذوق الخديوي : وصف انجليزي قاعة الاستقبال في قصر عابدين بأنها « أثر عهري الطراز ، مبتهج بالذهب واللون القرمزي والمرايا الجدارية » . واعترض الناقد نفسه على استعداد الخديوي لتهوية عاصمته بفتح الشوارع العريضة المشجرة عبر مساجد العصور الوسطى ، و« هدم الدور القديمة الشرقية الطراز والسماح للبنائين المحليين بإقامة ما يشاؤون مكانها » . وتحدث هولندي عن تجديد المدينة القديمة فقال انه سيمضي قرن قبل ان يقدر الناس ذوق اسماعيل وان كان عرضة للنقد لأنه ذوق بالفعل . ان اجزاء المدينة التي تختفي واحداً بعد الآخر ، في قرن بناياته من الخرسانة التي ليست لها مميزات خاصة ومن الواجهات الزجاجية ، ستكتسب بالكثير من الخشب المزخرف والمعدن المتشابك صفة وان كانت قليلة إلاّ أنها إنسانية ودقيقة الى جانب البنايات غير المميزة التي خلفتها .

إذاً فاسماعيل هو علاء الدين في زي رئيس نُدل دعا الف ضيف ، وقرر ان يدفع (أو يقترض) مليون جنيه استرليني آخر — ما يعادل خمسة ملايين دولار — ليرى مصر تنفصل مادياً عن الشرق وتنضم روحياً الى اوروبا التي اعجب بها .

عاد ضيوفه الآن من مصر العليا ، وحضروا في القاهرة افتتاح الأوبرا الجديدة . بناءً على ما اقترحه الخديوي على ماريت طلب من فيردي ان يكتب اوبرا في موضوع فرعوني ، ولكن بناء دار الاوبرا انتهى قبل ان تنتهي كتابة مسرحية

« عايدة » ، فمثلت « رجوليتو » بدلها. وفي ليلة أخرى شاهدت يوجين الأهرام مضاءة بشعلات المغنيزيوم . والآن حان وقت افتتاح القناة .

انتقل الخديوي الى بور سعيد على ظهر يخته المحروسة ، وكان معه شريف التركي وزير الداخلية ، ونوبار باشا رئيس الوزراء وهو أول ارمني واول مسيحي يمنح لقب الباشوية . ووصل في الموعد المحدد ايضاً أمير هولندا وأميرتها على ظهر الباخرة « فولك ». هبت عاصفة على يافا ميناء فلسطين التي كانت جزءاً من الامبراطورية المصرية في طفولة اسماعيل ثم استرجعها العثمانيون في سنة ١٨٤١ ، فهدد البحر الهائج بتأخير وصول أهم ثاني ضيف ، فرانز جوزيف امبراطور النمسا ، الذي قام بزيارة قصيرة للاماكن المقدسة ، ولكن الهتاف تعالى للباخرة « جريف » التي تحدت العاصفة وأوصلت الامبراطور النمسوي (وهو في عمر الخديوي) في الموعد ليرحب بأمبراطورة فرنسا .

نحن الآن في اليوم السادس عشر من الشهر . أطلق اول مدفع ترحيباً بولي عهد بروسيا ، زوج ابنة فكتوريا ملكة انجلترا ، وقد وصل في الوقت المعين تماماً . أما اليخت الامبراطوري الفرنسي « إيجل » فقد ظلّ ينتظر ساعات خارج بور سعيد ، وكان قد نقل الامبراطورة يوجين من الاسكندرية التي ذهبت اليها من القاهرة بالقطار في صباح اليوم السابق . كان أول من حيّا الامبراطورة المدرعات البريطانية : لورد ووردن ، ورويال أوك ، وبرنس كونسورت وكاليدونيا ، وبلروفون . ثم حيتها سفن الدول الأخرى ، واستمرّ اطلاق المدافع ساعة .

كان اليخت « إيجل » يمثل ذروة الأناقة البحرية : له عجلات تغديف بخارية ، وثلاثة صوار مائلة ، ومدخنة سوداء طويلة ورفيعة بين المقدمة والصاري الرئيسي ، أما خطوط سيّرها فلا تعيقها عجلات التغديف الكبيرة التي تكسبها قوة . وهناك صالون ومظلة يرتفعان فوق سطح المؤخرة بين الصاري الرئيسي وصاري المؤخرة . هناك تقف الإمبراطورة. مضت ست عشرة سنة على زواجها من شهواني يثق برأيها ، وبلغت الاربعين من عمرها وهي لا تزال محافظة على جمالها الاسباني . غمر يوجين هتاف البحارة . سيسجل وصولها ببرقية الى باريس حيث يواجه الإمبراطور العليل أخطر إثني عشر شهراً في حياته : يواجه وضعاً مزعجاً الى حدّ ان الامبراطورة ترددت في الحضور.« وصلت بور سعيد الآن بصحة جيدة. الاستقبال سحري. لم أر أبداً شيئاً كهذا في حياتي » .

حياها البحارة بتسع لغات : العربية من الأسطول المضيف المؤلف من ست سفن ، والفرنسية من اسطول صغير مماثل ولكن تفوق فرنسا بامبراطورتها لا بعدد سفنها ، والانجليزية من سفن يزيد عددها على سفن اي دولة أخرى (ان انجلترا التي قاومت

القناة تعرف أنها أكثر من سيستعملها) ، والالمانية من ثماني سفن ولكنها غير صديقة لأن خمساً منها تخص اتحاد ألمانيا الشمالية وثلاثا تخص النمسا التي هزمها الاتحاد الألماني في حرب دامت سبعة اسابيع قبل ثلاثة أعوام ، والهولندية والاسبانية والسويدية (أو النرويجية لأن النروج لم تكن قد استقلت بعد) والروسية من سفينتين لكل منها ، والدانيمركية لغة احدى ضحايا الدولة البروسية وقد سمعت من سفينة واحدة . وكان الاسطول الايطالي راسياً في الاسكندرية منذ شهر ايلول (سبتمبر) ولكنه اضطر الى العودة الى ايطاليا بسبب مرض فكتور عمانوئيل الملك الذي أتعبه الصراع المتقطع في سبيل وحدة بلده وان كان صراعاً ناجحاً . أما اللغة البرتغالية فقد كان بالامكان ان تسمع ايضاً لولا أن الأسطول البرتغالي وصل متأخراً . والى جانب الأساطيل سمع هتاف الموظفين والمضيفين والخدم في البواخر التجارية من فرنسية ونمسوية وايطالية وبريطانية .

اليوم مكفهر ، مضت ثماني ساعات والمطر ينهمر ، ولكن المطر في الشرق هبة سماوية وفأل حسن .

قدس افتتاح القناة بالشعائر الدينية . كان الأمراء الأوروبيون والخديوي المصري مرتبطين بشعائر توحيد مختلفة وجدت مهدها في الشرق الأوسط وخصوصاً في مصر في أيام أخناتون وموسى . أما الفرق المسيحية التي تؤمن بالتوحيد فقد كانت غالباً في قتال : البروتستنت ضد الكاثوليك ، والأرثوذكس ضد الأقباط . هنا في الشرق اصطدم مسيحيو اوروبا الغربية اللاتين بالإسلام في الماضي البعيد ، فقد اندفع الصليبيون الفرنسيون من فلسطين نحو دلتا مصر ، ووصلوا القاهرة . والآن سيتضرعون جميعاً الى الله أن يبارك القناة المقدر لها أن تغيرّ عالم الله لكل مخلوقاته . كذا كانت خطة الخديوي العالمية . وستبدأ الحفلة على شاطىء بور سعيد في الساعة الثالثة من بعد ظهر الثلاثاء .

على المشتركين أن يسيروا في موازاة ألواح خشبية ، أولاً الأميرة الهولندية تتأبط ذراع الأمير الشاب توفيق وليّ عهد الخديوي ، ثم امبراطورة فرنسا . انها ترتدي ثوباً بسيطاً من الحرير الأرجواني ، وتغطي شعرها الأسود بقبعة سوداء ليست طويلة كثيراً فيها ريشة سوداء ، ، وتخفي نصف وجهها الجميل بقناع أسود منقط ، لم تلبس شيئاً من جواهرها الشهيرة ما عدا علبة بسيطة في عنقها . تسير معتمدة على ذراع امبراطور النمسا الذي لا يمكن لسترته البيضاء وسرواله القرمزي وقبعته المردودة الحافات أن تنافس لباس اسماعيل : بذلة زرقاء ، ومشد ذهبي ، ووشاح أخضر عريض ، وسيف معقوف يتلألأ مقبضه بالجواهر . يضاف الى كل هذا المنظر الشعري للبدلات الرمادية الداكنة التي يرتديها خمسة من اعضاء البرلمان

الانجليزي وعدد من رجال التجارة .

جلس أصحاب المقام الرفيع في أكثر ثلاثة سرادقات تأثيراً في النفس، مواجهة للبحر . صفت كراسيهم المذهبة بين مظلات معلقة من القماش الأحمر والذهب ، وفي الأجنحة تحت أعلام دول كثيرة جلس رجال الدين الأقباط والأرثوذكس لابسين قبعات مميزة، وعن اليمين والشمال سرادقان آخران لرجال الدين المسلمين والكاثوليك الرومانيين . يزين زوايا السرادقين الهلال ، رمز المسلمين الذي حاربه الصليبيون. يجلس في السرادق الاسلامي قاضي القضاة الذي تعينه القسطنطينية، والمفتي الأكبر ، والعلماء ، يلبسون جميعاً العمائم . ان رجل الدين الذي يتلو وهو جالس آيات من القرآن ، ثم يتوسل الى الله ان يبارك القناة ، هو شيخ بائعي الماء . على الرغم من أن دخل باعة الماء قليل إلاّ أنهم كونوا منذ زمن طويل نقابة لها مقام شبه ديني .

جاء في القرآن « وجعلنا من الماء كل شيء حيّ » ، ودون السقائين وعضلاتهم تموت المدن عطشاً أو تهلك من الحريق ، ودون مساعدتهم لا تستطيع قوافل الحجاج أن تقطع القفار التي لا ماء فيها . بيد أن الهندسة الحديثة ستخفف أهمية هذه الطبقة ، فان الانابيب التي تنتجها المصانع الانجليزية ستوصل الماء الى البيوت في القاهرة القديمة ، كما اوصل خط انابيب ماء النيل الى بور سعيد . لذلك كان الشيخ يرحب بالمستقبل بمعنىً يطرد الماضي .

بما ان مصر بلد اسلامي ، فإن الكهنة الكاثوليك يؤدون شعائرهم الدينية بعد رجال الدين المسلمين . ان ثيابهم المتألقة تناقض الجبب الخشنة التي يرتديها رجال دين الأكثرية . بعد القداس الذي قام به المونسيور كيرسيا اسقف الإسكندرية ، تقدم المونسيور بووير ، كاهن اعتراف الامبراطور، فامتدح فردينان دي ليسبس وحياه كأنه كولمبس جديد .

لا تبدو هذه المقابلة خيالية بالنسبة الى أحد. لقد أصبح دي ليسبس بشاربه الطويل وبذلته السوداء وعينيه النفاذتين أسطورة في حياته . قال يوماً : « ان المعارضين معلمون لا يتقاضون أجراً ! » كان له معلمون كثيرون من هذا النوع : الحكومة البريطانية ، والسلطان العثماني ، واحياناً الخديوي ، وحملة الأسهم في فرنسا ، بغض النظر عن الضمائر الانسانية التي هزّها استعماله عمل السخرة في حفر القناة .
رأى دي ليسبس الخيالي المغامر طرقاً أصعب مما رآه الآخرون، واندفع وراء ما رأى.
« ليست المسألة وصل النيل بالبحر الأحمر » — فذلك عمل فذّ حققه الفراعنة وأبقى عليه أباطرة روما والخلفاء الأوائل — « بل حفر ترعة طويلة مستقيمة من البحر المتوسط الى البحر الأحمر . وبكلمة خلق بوسفور حقيقي ». ان في دي ليسبس شيئاً اكثر من الهندسة والاندفاع ، وشيئاً أكثر من بضاعته . ذلك بأن دي

ليسبس متشائم ، شأن الكثير من العظماء . وصف في رسالة بعث بها الى صديقة الرؤيا التي شجعته على ان يتصل بسعيد باشا ، عم اسماعيل ، ويطلب لا امتياز حفر القناة فحسب بل ايضاً منحاً أخرى .

« أوشك المخيم ان يصحو ، وبدا ان الشمس ستشرق قريباً . عن يميني كان الشرق رائعاً ، وعن شمالي كان الغرب غائماً كئيباً . فجأة رأيت طيفاً زاهي الألوان يمتد طرفاه من أرض الغرب الى الشرق . دقّ قلبي بعنف ، وأخذت اهدىء خيالي بتلك الإشارة في الكتاب المقدس الى الفترة التي يتحد فيها الغرب والشرق » .

بعد ظهر ذلك اليوم نفسه — ١٥ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٥٤ — تأثر سعيد باشا بمبادرة الفرنسي في الحضور الى مصر لتهنئته بوراثة الحكم، فعانق دي ليسبس وقال له: « لقد اقنعتني يا دي ليسبس. قبلت مشروعك، ويمكنك ان تعتمد عليّ».

لم يكن الخيالي العملي ينوي أن يفعل شيئاً آخر . لقد عزّز صداقته لسعيد مذ كان قنصلاً لفرنسا في القاهرة وكان حاكم مصر المقبل طالباً . حمل محمد علي ، الوالد والحاكم المستبد ، ولده سعيد على تسلق الصواري ، والجري ، وأكل السلطة فقط فكان دي ليسبس يرحب بالصبي في بيته ويقدم له سراً المعكرونة التي يحبها .
وإذ نشأت بينهما صداقة المعكرونة هذه أراد دي ليسبس أن يستغلها. هناك في القاهرة ، على رأس جيش مؤلف من عشرة آلاف رجل أعلن سعيد باشا في استقبال الصباح في القلعة أنه عزم على رعاية قناة تشق برزخ السويس ، وأنه فوض الى صديقه دي ليسبس تأليف « شركة من رأسماليين من كل الدول » تأخذ امتياز تنفيذ المشروع .
ان فوائد القناة الاقتصادية تعادل الافتخار بها . ذلك بأن « المائتي مليون أوروبي الذين يرسلون مصنوعاتهم الى الشرق ، والسبعمائة مليون شرقي الذي يستهلكون هذه المصنوعات ويرسلون بدلها الى الغرب موادهم الخام، ستنشأ بينهم علاقات أقرب وأوثق وأقل كلفة ». ولكن دي ليسبس رأى ان القناة ستغري المستثمرين العاديين فقط اذا ما قدم الحكام المصريون بعض المنح ، أولها مورداً كبيراً من العمال دون أجر ، أي ان يطبق على شق القناة مبدأ تجنيد القرويين في اوقات الفيضان واصلاح السدود المحطمة . كذلك حصل دي ليسبس لشركته على حق في قطع واسعة من الصحراء بين الدلتا وبين قناة المستقبل.فاذا رويت هذه الأرض بالماء العذب الذي سيؤتى به بقناة مجاورة للقناة البحرية ارتفعت قيمتها وقد تصبح نواة مستعمرة فرنسية بين افريقيا وآسيا ، وعلى أي حال ستكون شيئاً نافعاً .

عادت رؤيا الطيف في مساء ١٦ تشرين الثاني (نوفمبر) ، وكان بالنسبة الى الكهنة الكاثوليك الذين قاموا بالقداس في بور سعيد يرمز الى شيء أنبل من الظفر التجاري .

شهدت الكنيسة الرومانية قرناً من اليأس يخالطه الأمل . في فرنسا توجت الثورة بغياً رمزاً للعقل في نوتردام ، وخدش رأي الكنيسة الكاثوليكية في اصل الانسان بنظرية داروين تماماً كما خدشت اكتشافات غاليليو من قبل رأيها في أصل الكون ، وأنذر الحكم الشيوعي على الدين بأنه أفيون الشعوب بحركة مقاومة للإكليروس اشدّ مما كان في الماضي . حدثت ضد هذه الهزائم تكهنات بالمقاومة والنصر . اذا كان البابا سيخسر روما ويصبح سجيناً فقد أعلن مجلس الفاتيكان الذي اجتمع في السنة نفسها ان البابا معصوم من الخطأ . وقبل ذلك بأحد عشر عاماً ظهرت العذراء في لورد لفتاة فلاّحة تدعى بيرناديت سوبيرو ، والماء من الكهف الذي ظهرت فيه العذراء شفى الأمير الامبراطوري ولد يوجين الوحيد من ضربة شمس . كان تأثير يوجين في نابليون الثالث ملائماً للكنيسة ، وقد رمز القداس الذي قيل الآن في ارض اسلامية وبحضورها الى آفاق متسعة . كان المدفع الفرنسي أو النفوذ الفرنسي يعيد فتح شمال افريقيا ، تلك المنطقة الطويلة التي فقدتها الكنيسة وفقدها الكاثوليك . أصبحت الجزائر فرنسية منذ سنة ١٨٣٠ ، ومعظم الأوروبيين الذين هاجروا الى مصر بأعداد كبيرة في عهد اسماعيل المحب لفرنسا كان من الكاثوليك ، فقد هبط الاسكندرية منهم ثمانون الفاً في سنة ١٨٦٥ وحدها . وبدا للذين يحلمون بكنيسة قوية على الأرض ان التحالف بين المدفع والدين سيؤدي الى نتائج حسنة .

أشار اطلاق المدافع الى فجر اليوم السابع عشر . وفي وقت الفطور ، نحو الساعة الثامنة ، بدأت الأساطيل الصغيرة تتجه جنوباً . أخذت السفن تدخل واحدة بعد أخرى الخندق الكبير الذي خططه دي ليسبس ، ووظف الفرنسيون والمصريون فيه أموالهم ، وحفر معظمه مجندون إلزاميون يتكلمون العربية .

سارت «ايجل» في الطليعة ، والى جانب الاباطرة ، في مكان الشرق ، وقف فردينان دي ليسبس. كان الفرنسي الذي بلغ الرابعة والستين من عمره قد خطط لاحتفال خاص به ، زواجه الثاني من هيلين دي براجارد التي تصغره اربعة وثلاثين عاماً . ستحمل له أربعة عشر طفلاً علاوة على ما لديه منهم .

بعد فرنسا جاءت النمسا على ظهر « جريف »، ثم بروسيا على ظهر «جريل» ، فسفير بريطانيا في القسطنطينية على ظهر الطراد « رابيد » . بعد ذلك جاءت السفينة اركونتيا تحمل السفير الروسي اجناتييف ، والسفينة إلزابيتا تحمل الأمير عبد القادر ، وعدد من السفن الحربية واليخوت الخاصة والسفن الانجليزية وسفن الركاب والشحن التي تربط بين انحاء العالم .

لم يكن الخديوي حاضراً في البداية . تقترح مجموعة الصور أنه جرياً على عادته في المجاملة تقدم ضيوفه وسيستقبلهم في منتصف القناة عند بحيرة التمساح التي

ما زالت حتى الآونة الأخيرة تعج بالبط وتغري الصيادين واصحاب اليخوت . ان مياهها الصافية الزرقاء تغسل أرصفة ميناء الاسماعيلية ، المدينة الجديدة التي رتب اسماعيل فيها الاحتفالات الرئيسة بالقناة .

في الشرق حيث تمتزج الثروة بالفوضى لا شيء واضح . قضى الخديوي المجامل أول ليلة متوتر الاعصاب. يصور لنا يوجين فرومنتين، الفنان الفرنسي ، ما جرى . لم يهتم فرومنتين ببور سعيد ، بل ركب القطار من الاسكندرية قاطعاً الدلتا الى الاسماعيلية . سافر مع ضجيج الحجاج الدوليين. لاحظت عينه الفنانة التتار ذوي العيون المنحرفة يرتدون معاطف الفراء ، والأتراك ذوي البشرة الصفراء ، والشيوخ التي تعلن عمائمهم الخضراء أنهم من نسل النبي ، والنساء يحملن أطفالهن ، والشباب يحملون العجائز ، والأصحاء والعميان والمشلولين ، ومعداتهم من الفرش واللحف وأدوات الطبخ وأباريق القهوة . وصل فرومنتين تعباً مدينة الاسماعيلية فوجدها فوضى : الأوروبيون ضيعوا أمتعتهم أو أصدقاءهم ، بعضهم تقاذفه البحر أكثر من ثلاث ليال ، وآخرون انزلوا على الرمال بعيدين أميالاً عن اي مكان . كان الجميع ، من الخدّيوي الى الفلاح ، يرتجفون خشية أن يحدث مكروه .

بدا من المؤكد أن خطأ ما سيقع . ذلك بأن المركب الشراعي المصري « لطيف » ارتطم ، لسوء حظه ، بقاع القناة عند القنطرة وأغلقها . إن الشرق الساذج يؤمن بالمؤامرات ، وقد كان قبطان « لطيف » بريطانياً ، واثبت البريطانيون أنهم ألدّ أعداء القناة ، فليس الاستنتاج صعباً .

كان دي ليسبس ونوبار باشا يفعلان ما يستطيعان، والمسؤولون يفركون أيديهم ، والخديوي يهدد بانزال عقوبة قاسية بالضباط المذنبين تجعل الأشجع يرتعد . وأخذت جماعة من المصريين — الذين حفروا القناة — تعمل في سحب المركب .

ترى أتستطيع « إيجل » العبور ؟ سيكون ذلك امتحاناً للقناة . اذا عبرت كانت القناة مفتوحة ، واذا عجزت حلت الكارثة وعار لا يزول .

استبدت الإثارة بفرومنتين ، فأراد ان يرى ما سيحدث . ركب إلى منحدر حيث القناة عبارة عن واد ضيق قبل ان تدخل البحيرة . ليست في البرزخ نقطة ترتفع عن مستوى سطح البحر اكثر من ستين قدماً ، ولكن المنحدر نقطة صالحة للرؤية . « حشد كبير. على الشاطىء بطاريات مدفعية وكتائب تحمل الرماح مستعدة . الساعة الرابعة مساءً . دخلت من طرف القناة الى البحيرة ثلاث بواخر رافعة أعلامها والقت مراسيها . وفي الخامسة والنصف صعد دخان ، ثم رأس صارٍ فوق ضفتي القناة الرمليتين . لا يمكن رؤية السفينة نفسها ، ولكن العلم الفرنسي الامبراطوري كان يرفرف فوق صاريهــا . انهــا السفينة « إيجل » ... مرت

أمامنا ببطء تكاد عجلاتها لا تتحرك. ان هذا الحذر ، وهذه الاحتياطات ، دليل على خطورة اللحظة . اخيراً دخلت البحيرة ، وحيتها المدفعية ، وهتفت لها الجماهير . انه حقاً شيء رائع ! الامبراطورة على ظهر السفينة تلوّح بمنديلها والى جانبها دي ليسبس،ولكنها اذ واجهت هذا الحشد الهائل القادم من كل ناحية في أوروبا ، تغلبت عليها العاطفة ونسيت أن تصافحه » .

ان عمر المدينة التي ينتظر اسماعيل فيها ثماني سنوات . تقع على منتصف القناة تقريباً ، على بعد ثمانية واربعين ميلاً جنوبي بور سعيد وخمسة وستين ميلاً شمالي السويس . انها مدينة نموذجية في القرن التاسع عشر كما كانت سانت بطرسبيرج في القرن الثامن عشر . مثلت سانت بطرسبيرج دخول روسيا الى عالم القوة ، ويمثل هذا الميناء الداخلي بالنسبة الى مصر اعادة ربط التجارة بين اوروبا والشرق . أسقط دي ليسبس اسم التمساح وهو يعرضُ خريطة المدينة المنتظرة على حاكم عام سابق للهند البريطانية وقال :

« خلدت بور سعيد الحاكم الذي بدأت القناة تحت رعايته ، فلنضع هذه المدينة الجديدة تحت حماية الخديوي الذي سيرئس إكمالها . وهكذا فستعلن السفن لشعوب السند والهند انها مدينة لأسرة محمد علي بفوائد الحضارة وتحقيق الأحلام . وسيكون ذلك شكراً منا لشعبه ، للعرب الذين سيحولون أرض البرزخ القاحلة الى منطقة خصبة » .

واذ سميت المدينة الاسماعيلية فقد تمتعت بعناية اسماعيل الخاصة .

لا يمكن ان تعيش الاسماعيلية دون قناة الماء العذب التي تصل النيل بالبرزخ القاحل . وحين تمّ ذلك بدأ العمال يمهدون كثبان الرمال الجرداء . وضع أول حجر في الاسماعيلية في ١٧ نيسان (ابريل) ١٨٦٢ ، وجاء تخطيطها على النسق الأوروبي . زار القاهرة فرنسي يدعى فولني ، قبيل الثورة الفرنسية ، واشتكى قائلاً ان القاهرة تفتقر الى « المباني العامة والخاصة ، والساحات العامة ، والطرق المرصوفة ، التي تمكن هندسة المعمار من عرض جمالها » . هذه الأخطاء قد صححت في هندسة الاسماعيلية . أقيمت المدينة على قطعة أرض مستطيلة طولها نحو ٢٤٠٠ ياردة وعرضها ٤٥٠ ياردة ، وقسمت إلى خمسة أقسام تفصل كل قسم منها عن الأقسام الأخرى أربعة شوارع عريضة أطلقت عليها أسماء امبراطورة فرنسا ، وفكتوريا ملكة انجلترا ، وايزابيلاّ ملكة قشتالة ، وكليوبتره . وهناك خمسة ميادين ، كل ميدان يتوسط احد الأقسام ، اطلقت عليها اسماء مونجي ، لايبنتز ، سان فرانسيس دي سال ، شمبليون ، وابراهيم . وما لبث ان استبدل باليوكابا باسم سان فرانسيس ،وهو احد اعضاء اللجنة الدولية التي أقرت خريطة القناة ،واستبدل توفيق وريث اسماعيل

باسم العالم الرياضي مونجي .

اكتست المدينة التي ولدت في الصحراء بالخضرة التي يحبها الأوروبيون ، فقد اينعت في الرمال المروية اشجار وشجيرات غريبة استوردت من كل انحاء العالم ، وانشىء رصيف مستقيم بجانب بحيرة التمساح اطلق عليه اسم محمد علي ، جدّ اسماعيل ومؤسس أسرته . هنا بنى الخديوي قصراً ، وبنى دي ليسبس كوخاً سويسرياً. ظهرت انسانية دي ليسبس في مبدئه القائل «إن الرجال كالجياد لا يصبحون سيئين إلاّ إذا خافوا » . قبض على طفل يتسلق سياج كوخه ويسرق أزهاره ، فأمر بترك الأبواب مفتوحة في المستقبل بحيث لا يحتاج أحد الى تسلق السياج ودوس الأزهار .

في مدينة الحدائق والفيلاّت الصغيرة هذه المحاطة بقناة الماء العذب والمواجهة للبحيرة كانت البنايات الرئيسة محطات تضخ الماء العذب الى بور سعيد في الشمال وكنيسة وجامع ومحطة سكة حديد . بلغ عدد المستوطنين الاوروبيين بين خمسة وستة آلاف ، معظمهم من الذكور ، وقد دعيت احدى ساحات المدينة « ساحة العازبين » . ومع أن معظم العازبين جاء من أحياء جنوبي اوروبا القذرة الاّ ان جوّ الاسماعيلية يختلف عن جوّ الاسكندرية ، فإن المهاجرين الكثيرين حولوها إلى فردوس للمحتالين واللصوص والقوادين والعاهرات، أمّا الذين استوطنوا الاسماعيلية وكانوا يعملون لدى الشركة فقد كانت لهم تسليات بريئة . يمتطون الجياد بعد العمل الى الصحراء للتنزه ، وأحب هدف اليهم في تلك النزهات الاستراحة التي بناها الخديوي بين كثبان الرمل التي تطلّ على القناة . سحرت الصحراء اسماعيل تماماً كما سحر الريف ملوك أوروبا . فالهواء فيها اكثر انعاشاً منه في القاهرة ، وفي الصحراء ينسى المرء همومه . كانت الاستراحة كوخاً ، على النسق السويسري ، من القرميد الاحمر والخشب المزخرف ، قائماً على منصة حجرية ، سقفه مروشن يعلوه برج ، وأمامه درج يؤدي الى شرفة لها درابزين مقطع ، ومن هذه الشرفة تؤدي أبواب كبيرة مقوسة الى غرف مؤثثة على الطراز الفرنسي . وقد كان الموظفون المسؤولون في شركة القناة يربطون جيادهم خارج الكوخ أحياناً فيرحب بهم الخديوي كضيوف ويدعوهم الى عشاء مرتجل أو حفلة راقصة . وفي اكثر الاحيان كانوا يرجعون إلى الاسماعيلية لبعض التسليات البريئة .

أمّا العازبون الذين لا تغريهم الموسيقى فلا داعي الى ان ييأسوا فإن لديهم الكثير من المسرات السريّة . ذلك بأن وراء مدينة الاسماعيلية الأوروبية بلدة ثانية أقل تنظيماً تنتشر فيها أكواخ صغيرة بسيطة يسكنها سائقو الجمال والبحارة والحمالون وسواهم من العمال ، وكلهم من اصول شرقية استخدمتهم المدينة الجديدة والميناء،

هنا كما في الأحياء البلدية في بور سعيد أو السويس رجال لا يستطيع قلم الرجل الأبيض ان يقاوم مظاهرهم الغريبة : « حبشي عريض الوجه مجعد الشعر بارز الأنف ، صيني مستدير الوجنتين يمتد أنفه الأفطس وعيناه فوق صدغيه ، هندي أسود متلألىء ناعم الشعر ، زنجي أجعد غليظ الشفتين ، ياباني رقيق البشرة ، عربي متكبر نبيل الإيماءات بطيء الخطى ، سوري قلق ، تركي ثقيل ، يوناني أنيق اللباس ، بدوي أنوف ، وفلاح طيّع » . كانت هذه البلدة الجديدة تعجّ بأماكن المسرات الشرقية . كان الكبار يروون قصصاً من ألف ليلة وليلة ، والمغنون يغنون أغاني الحب الكئيبة ،والراقصات يعرضن مفاتنهن .

كانت المدينة المزدوجة تستعد للترحيب بالسفن الأوروبية . علقت الأعلام بالنوافذ ، وزينت الشوارع ، وأقيم بين المدينة الأوروبية وبين قناة الماء العذب مخيم لضيوف الخديوي ، وصفت في مبنى كبير الموائد الملآنة بالطعام من الفجر حتى ساعة متأخرة من الليل .

في الجانب الآخر من المدينة ، قرب البحيرة ، مخيم ثان . هنا كما أمر اسماعيل يستطيع الأجانب أن يختلطوا برعايا العرش المصري ، فيقبلوا الدعوة لشرب قهوة الصحراء التقليدية المنعشة في ظل الخيام ، ويشاهدوا الفرسان ذوي البشرة النحاسية ، أو حركة النساء المحجبات .

بدأ يوم الاسماعيلية العظيم — ١٨ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٦٩ — باكراً حين نزلت الامبراطورة الى الشاطىء ، وكانت قد امضت ليلتها في السفينة ، فركبت جواداً الى المنحدر الذي اتخذه فرومنتين مركزاً له ، ثم زارت كوخ الخديوي فكوخ قريبها دي ليسبس ، ورجعت كالكثير من السياح في ذلك الزمان على ظهر جمل .

تميز بعد الظهر بنزهة قام بها الضيوف الى الرمال الصفراء في العربات وعلى ظهور الجمال والجياد . جلست يوجين الى جانب فرانز جوزيف في عربة مكشوفة تجرها أربعة جياد ، يتبعها ولي عهد بروسيا وامير هولندا وأميرتها في عربتين مماثلتين . وكان الأمير يواكيم مورات يسوق عربته بنفسه، وكذلك الخديوي على بعد قليل يسوق جواديه الرماديين بصورة اثارت الإعجاب ، وقد تقدم الموكب سواس لهم منظر الفرسان يرتدون معاطف حمراء مذهبة الكتفين ، أما فرسان الخديوي فكانوا يحاولون ان يبعدوا عن الضيوف راكبي الجياد والجمال والاولاد الحفاة والشباب المتحمسين ، وقد أثار هذا الحشد العظيم الرمال وكوّن منها عاصفة محلية حتى ان صواري الأعلام الستة فوق القصر أصبحت لا تكاد ترى .

تأخر فرومنتين في النوم ليلة أمس ولم يحلق ذقنه بعد . أطلّ من وراء سجف خيمته. سيبلغ الخمسين في السنة القادمة . رأيه متميز ، فالمنظر يبدو له عادياً ، وليس هناك

مجال كاف للعرض الحقيقي . ثم إن عدو الجياد سيء لأنها لا تستطيع تثبيت حوافرها في الرمل المتحرك ، وسلاح الفرسان سيء ، ولا يجيدون الركوب ما عدا شاباً يمتطي جواداً أسود استرعى انتباهه . الألحان الموسيقية لا تقابل بما سمع في الجزائر ، والجلابية حقيرة اذا قوبلت بالبرنس ، كما ان المصريين ينتعلون بدلاً من الجزمة ذات المهماز خفاً يدخلونه في ركاب كبير مضحك يشبه المزلج .

تلا اليوم المحموم ليل مهيب . سكنت العاصفة الرملية ، واخذت النجوم تشع من بعيد في السماء الصافية ، وراح الاوروبيون الذين اعتادوا الجوّ الرطب يطلقون الآهات والتأوهات .

بدأت الالعاب النارية ، والتقى في المخيمات الشرقي والاوروبي في الأفراح .

والآن تأتي الذروة ... الحفلة الراقصة الكبرى التي أقامها اسماعيل لضيوفه جميعاً . يصل الناس اليها كل كما يستطيع : على ظهور الجياد أو الحمير ، ويتقدمون نحو قاعة مزينة بالستائر والازهار والنباتات تنتظر الضيوف العظام .

كيف نشرح لأهالي هذا القرن صور المجموعة الباهرة؟ لم تكن الحفلة الراقصة كتلك التي تقيمها الامبراطورة في فرنسا . كانت فيها موسيقى ولم يكن فيها رقص لعدم اشتراك النساء . ذلك بأن التقاليد الشرقية كانت لا تسمح للنساء بالاشتراك في مثل هذه الحفلة ، بل كن يشاهدنها من وراء ستار . وهكذا اقتصرت الحفلة في غياب النساء على سماع الموسيقى وتبادل الحديث وتناول العشاء .

تبدو الامبراطورة ، التي من عادتها التواضع ، حتى البساطة ، فاتنة في هذه الحفلة . كانت ترتدي ثوباً من الساتان الأحمر الفاتح وتنورة من الدنتلاّ الرقيقة ذيلها مردود الى الخلف بمشابك من الألماس ، ويتلألأ على جبينها تاج يكوّن على وجهها قناعاً شفافاً . اما امبراطور النمسا فقد كان يرتدي معطفاً أسود وسروالاً رمادياً ، ويضع على صدره أكبر أوسمة الامبراطورية العثمانية . وأما الخديوي فقد كان يرتدي ثياباً زاهية ويحتفظ بالطربوش على رأسه .

دار الحديث بالفرنسية. ولدت الامبراطورة في ملقا من أم نصف اسكتلندية وأب اسباني كان إعجابه بنابليون لا يقل عن محمد علي أو القصصي ستندال. ان الفرنسية لغة بلاطات الملوك الآخرين، وقد أمضى اسماعيل فترة المراهقة في فرنسا (كانت عائلة الخديوي في البيت تتكلم اللغة التركية المختلطة بكلمات عربية وفارسية ، ومع ان الخديوي كان يحفظ آيات من القرآن إلاّ أنه لم يكن يتكلم لغة شعبه). لم يطل الحديث ، فقد انهك اليوم حتى عظماء الضيوف . وبعد كلام تافه جاء طعام العشاء .

جلست الإمبراطورة على مائدة بين امبراطور النمسا وولي عهد بروسيا ،

وجلس الخديوي أمامها بين أمير هولندا وأميرتها ، بينما جلس على الموائد الأخرى البعيدة الكتاب والرسامون ورجال العلم والآثار ورؤساء البلديات ورجال الأعمال ، وعلى بعد من هؤلاء ، في الخيام ، ألوف من الفقراء من مختلف الشعوب .

مع ان القسطنطينية ممتازة بأطعمتها إلاّ ان شيئاً منها لم يقدم ، فلم يظهر على المائدة الإمام بايولدى ، او الكباب ، أو ورق العنب ، بل أنواع مختلفة من الصحون والحلوى الفرنسية والنبيذ .

الليل في الصحراء بارد . وكان قد طلب الى الضيوف ألاّ يحضروا معهم معاطفهم ، فأسف كثيرون منهم على امتثالهم لذلك الطلب ، فقد كانت مشاهدة بحيرة التمساح متعة ولاسيما منظر الأسطول الراسي فيها الذي أضاءت المصابيح صواريه .

واذ كان يوجين فرومنتين في منتصف العمر ، ضعيف المعدة ، يحذر البرد ويكره التجمعات ، فقد ترك الحفلة . تجول قليلاً ، وألقى نظرة الى الناس الجالسين على الرمل ، وانكفأ الى خيمته ليقوم بما اعتبره فيثاغورس أنبل الأدوار ، اي دور المراقب ، وليلخص ما لاحظه في مصر .

لا مثيل لكرم الضيافة هذا في العصور الحديثة أو في أوروبا . نحو ثمانية آلاف من الناس كانوا يطعمون في الصحراء المكشوفة . أي سحر يقدم لهم الخدمات أو يعدّ لهم الطعام ؟ « نحن في ليالي الف ليلة وليلة ، في وسط الرمال . نقيم على حصر فوق الرمل ، وتحيط الرمال بالخيام وتصل الى الفرش . إنه خليط من الاسراف في الترف والحرمان الذي لا يصدق ! » .

يحاول فرومنتين أن يحدد هذا الخليط من التخطيط والفوضى ، ومن الكرم واللامبالاة . إنها فوضى تحير الغربيين ، فمن الخير أن تصفها ريشة دقيقة .

« من الصعب ايجاد مثل أكثر بياناً للعناصر التي تكوّن الأبهة المصرية : العقم ، والمبالغة ، والحرمان ، والإفراط ... أو لذلك الالتحام بين الحظ والسحر الذي اعتنى بنا أربعين يوماً وأوجد لنا المفاجآت المضحكة . هذه هي النقطة الحقيقية التي يجب ان يبدأ بها تصوير هذه الرحلة المدهشة التي تقرب من الحلم قرب قطرة الماء من أختها .

« اننا في وسط المستحيل ، ومع ذلك يبدو كل شيء صحيحاً . توضع الخطط ولكن تنحرف . الناس ييأسون ، وينتظرون ، ويهتفون : من يدري ؟ ان شاء الله! بيد أننا برهان حيّ على ان المرء يتقدم مخطئاً او مصيباً ، واحياناً يكون مصيباً تماماً » .

غداً يبدأ التحرك نحو السويس ، لكن متى ؟ سأل فرومنتين رئيس الوزراء نوبار باشا ، والمقاول دي ليسبس، فلم يعرفا. انه بلد الارتجال ، والذي يرتجل هو اسماعيل ، وتسير التمثيلية بإدارته . حين تمرّ السفن بمدينة الأكواخ المهجورة على

ضفة القناة الشرقية التي كان العمال يقيمون فيها قبل تأسيس الاسماعيلية ، ويرى الضيوف العمال يملؤون سلالهم ، يدركون كيف شقت قوة العضلات هذه القناة . سيلقي الاسطول مراسيه في البحيرات المرة الكبرى ، وتقام حفلة استقبال على ظهر اليخت « ايجل » للممتازين من الضيوف الذين سيعجبون « بالليل الهادىء اللطيف الصافي » . في الصباح تجدد التحيات باطلاق المدافع والهتافات ، ويقود اليخت « ايجل » الاسطول المكون من تسع وستين سفينة الى البحر الأحمر ، ويدون الحادث التاريخي في سجله :

رسا في السويس (البحر الأحمر)
في الساعة ١١،٣٠ من صباح ٢٠ نوفمبر ١٨٦٩ .
يوجين
فردينان دي ليسبس
الأمير يواكيم مورات
جي . دي سيرفيل ، القائد .

بعد ظهر ذلك اليوم سيرجع الخديوي وامبراطور النمسا الى القاهرة في القطار ، وستقام في قصر النيل حفلة راقصة للامبراطور ، وبعدها حفلة اخرى لولي عهد بروسيا الذي ذهب الى النيل الأعلى لمشاهدة الآثار القديمة . أما يوجين فإنها بعد زيارة ينابيع موسى قرب السويس سترجع عبر القناة الى فرنسا ، ولن تنضم الى زوجها يوم الافتتاح التاسع والعشرين لمجلسي الامبراطورية الديمقراطية :

« اذا كانت الامبراطورة لا تستطيع اليوم حضور افتتاح المجلسين فذلك لأنني اردت ان يكون وجودها في بلد اثبت سلاحنا فيه تفوقه في الماضي شاهداً على عطف فرنسا على عمل قام على جلد أحد الفرنسيين وعبقريته » .

لم يذكر الامبراطور الخديوي ولا المصريين . كذلك لم يذكرهم اللورد كلارندون وزير خارجية بريطانيا ، فإنه في برقية التهنئة التي ارسلها الى شركة قناة السويس العالمية ربط الحادث العظيم بالفرنسيين لا بالمصريين .

بيد ان المصريين لا يهتمون ، لأن المضيف في نظر الشرقيين مبارك أكثر من الضيف . لكن فيمَ يفكر الخديوي ، حين ترده الفواتير ، ويقوّم انتصار الخريف ؟ لقد كلفته الأبهة مليون جنيه استرليني ، أفكانت تستحق ذلك ؟

الفصل الثاني

كان اسماعيل يعي موقفه بين بحرين : أمامه بحر أوروبا في أوج مدّه ، ووراءه بحر الاسلام في حالة جزر ، وحيات البحر من الاتجاهين تهدد في جعله « لا كون » القرن التاسع عشر .

كي نفهم اسرافه في تكريم ضيوفه في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٦٩ علينا ان نسبر غور الرجل ونكتشف المخبأ وراء صدره البراق وسيفه المرصع بالجواهر . إن إسماعيل الكبير ، كما دعاه المتملقون الغربيون الطامعون بماله ، قد كونته كغيره من الرجال ظروف الأسرة ، ولكن هذه الظروف في حالة اسماعيل التي جمعت الشرق القديم والغرب الحديث لا سابقة لها ولا لاحقة .

شكّل حياته حتى سن الرابعة عشرة الشرق الذي كانت أوهامه لا تزال راسخة . أما مولده فقد كان في قصر في القاهرة مبني بحجارة اقتطعت من المقالع التي استخدمها الفراعنة ، ولا يزال يعدّ أحد القصور القليلة الرائعة التي بقيت من القرن الثامن عشر . ان غرفه الواسعة اليوم خالية من الأثاث والحياة ، أما في سنة ١٨٣٠ وهي السنة التي ولد فيها اسماعيل فقد كان القصر محور مملكة مستقلة ، يعجّ بالاتباع والخدم والسائقين والجياد ، وفيه طاحونة تطحن القمح والشعير لأهل القصر يديرها جاموس على عينيه غماء . ذلك بأن صاحب القصر هو ابراهيم باشا أكبر أبناء محمد علي . أما نساء القصر فكن يراقبن حركة الرجال من وراء ستائر متقاطعة مزخرفة ، ويسمعن ما يدور بين الجنود من حديث عن إمكانات حرب قادمة : غزوة لفلسطين وسوريا ، فإن ابراهيم باشا لم يكن ولي عهد محمد علي فحسب بل ايضاً قائد جيوشه التي أوشكت ان تمدّ نفوذ مصر من حدود السودان في الجنوب الى هضبة الأناضول في الشمال .

في بداية السنة ١٨٣٠ كانت اثنتان من زوجات ابراهيم تنتظران الوضع ، وقد وضعت احداهما اسماعيل في ١٢ كانون الثاني (يناير) ، ووضعت الثانية مصطفى فاضل بعد ثلاثة اسابيع . سرّ أم اسماعيل الطامحة أن تضع قبل ضرّتها. لا ريب ان لابراهيم ولداً أكبر اسمه أحمد ، ولكن ليس من الضروري أن يرث أباه . ذلك بأن نظام ولاية العهد العثماني يختلف عن النظام الأوروبي حيث يرث الحاكم أكبر أبنائه ، فكان السلطان العثماني منذ القرن السابع عشر يرثه أكبر

عصبته من الذكور ، وقد يكون هذا أخاً أو ابن عمّ . اتبعت مصر هذا النظام العثماني . كان عباس أكبر الذكور سناً بعد ابراهيم ، وهو ابن أخ له قتل في احدى الحملات في السودان . ولكن قد تهيىء الحوادث والأمراض لاسماعيل يوماً وراثة أبيه ، فاذا حدث ذلك ، وكان النظام العثماني لا يزال متبعاً ، فان ولي عهد اسماعيل لن يكون ولده بل أخاه مصطفى كامل . وهكذا فقد شجع نظام الوراثة التنافس والحسد لا المحبة الأخوية .

بدا في سنة ١٨٣٠ ان أمام حاكم مصر أشياء كثيرة يرثها ، مع الأمل في اشياء أخرى . كان القصر الذي سكنه ابراهيم ملكاً لتاجر مصري استولى عليه محمد علي كما استولى على مصر كلها . وكان محمد علي يحكم مصر من القلعة التي تسيطر على القاهرة . أما الصبي اسماعيل ذو المزاج اللطيف فقد كان المستفيد من أنجح مذابح التاريخ وأشدها قسوة . أمضى السنوات السبع الأولى مع الحريم ، ثم ختُن وعُلّم القرآن ، وأنشىء على أسطورة تتعلق بسلالته الحاكمة مثل فيها جده دوراً كبيراً ، تلك الأسطورة التي عرض فيها ذبح نحو خمسمائة ضيف غدراً كتطهير خلاّق للحياة المصرية وبدء عهد جديد مفعم بالأمل .

شملت الاسطورة مصر والشرق الأوسط بأسره لا اسماعيل وحده ، وكانت قريبة من الجيل الذي شهد فتح قناة السويس قرب حربين عالميتين من الجيل الذي شهد وصول الإنسان الى القمر .

يرجع اساس الاسطورة ، أو القصة، الى الامبراطورية العثمانية ، آخر دولة إسلامية كبيرة . كانت هذه الامبراطورية في أوجها ، في القرن السابع عشر ، أحسن ادارة ، وأشدّ حيوية في اندفاعها ، واكثر تسامحاً مع الأقليات من أي مملكة اوروبية في ذلك الحين ، وكان جنودها الانكشارية الذين جمعوا من صبيان العائلات المسيحية في البلقان العثماني خير محاربين في العالم . ثم ان الهاربين من ضروب التعصب في أوروبا المسيحية ، من يهود وبروتستنت ومختلف المنشقين ، كانوا يلجأون الى مدن مثل سلانيك وازمير والقسطنطينية عاصمة الدولة العثمانية .

بيد أن هذه الامبراطورية بدأت ، منذ القرن السابع عشر ، تنحط بصورة مستمرة ، وعرض تأخرها التقني والتجاري أرضها وهيبتها لتآكل متواصل .

حدث انقضاض مثير على ممتلكاتها في سنة ١٧٩٨ حين نزل نابليون ، وكان دون الثلاثين من عمره ، بجيش قرب الاسكندرية ومنها تقدم نحو القاهرة . كانت مصر في ذلك الوقت ولاية عثمانية بالإسم فقط ، أما حكامها الحقيقيون فقد كانوا المماليك . بعد أن سحق نابليون فرسان المماليك في معركة دارت رحاها قرب الأهرام أرسل السلطان العثماني قوة من سبعة آلاف متطوع لمقاومة نابليون . دعمت

الحملة العثمانية قوة بحرية بريطانية (فقد أدركت بريطانيا ان هدف نابليون من غزو مصر قطع مواصلاتها مع الشرق) ، وكان ثاني قوادها محمد علي ، وهو شاب مكدوني مسلم في عمر نابليون يعمل أبوه في زراعة التبغ قرب كفالا . استولت القوة العثمانية على شبه جزيرة أبو قير الصغيرة الواقعة شرقي الاسكندرية ، ولكن جيش نابليون الذي امتاز بفرسانه تغلب عليها حالاً ، ونجا محمد علي سباحة فاخرجه البحارة البريطانيون الى قارب الاميرال سير سدني سميث الذي رافق هذه الحملة التعيسة .

لم تفعل اعمال محمد علي العسكرية شيئاً في اضعاف الغزاة الفرنسيين الذين تابعوا سيرهم فغزوا فلسطين وسوريا أيضاً . وحين ترك الفرنسيون مصر في سنة ١٨٠١ إنما جاء ذلك نتيجة تفوق الأسطول البريطاني الذي حطم بقيادة نلسون الاسطول الفرنسي الراسي في ميناء ابو قير ، فقد جعل ذلك التفوق من المستحيل على الفرنسيين ان يحتفظوا بقوتهم في الشرق الأوسط الى أجل غير محدود . بل ان نابليون نفسه رجع الى صراع القوى في باريس بعد تغلبه على المتطوعين العثمانيين آخذاً معه أفكاراً فرعونية أثرت في طريقة حكمه الامبراطوري ، ناظراً الى مغامرته المصرية « كأجمل شيء في حياته لأنها كانت الأكثر مثالية » ، وربما كانت الأكثر ثمراً . ذلك بأن معظم منجزاته في أوروبا كان سريع الزوال بينما انتصاره الرائع على المماليك أدّى الى انهيار اول سدّ في طريق التغيير ، لأن الاتصال بالأفكار الفرنسية اضطر أهل الشرق الأوسط الى الرجوع الى الحلبة التي مثلوا فيها في الماضي البعيد أدواراً مهمة .

تأثر محمد علي ، كالكثيرين غيره من الشباب الأوروبيين ، بالقائد الفرنسي وبالمطامح التي بدا أنه قد جسّدها . وفيما يتعلق بمصر شارك المكدوني الشاب نظرة نابليون في كيفية تحويلها خلال خمسين سنة من الرخاء والحكم الجيّد . كتب نابليون ما يلي : « يسرّ المرء ان يسرح خياله في الآفاق الساحرة . ان ألف قناة للري تتحكم في تدفق مياه النيل وتوزعها على كل جزء من الأرض ، وبذلك يتم تحويل بين ثمانية وعشرة بلايين ياردة مكعبة من الماء تضيع الآن في البحر الى الاجزاء السفلى من الصحراء ... ومنها الى الواحات ، حتى الى الغرب البعيد » .

حين خرج الفرنسيون من مصر رجع محمد علي الى مصر بأمر السلطان محمود . وكان المماليك قد تجمعوا بعد الهزيمة ، ورجع كثيرون من الذين هربوا الى السودان . ثم ان السلطان محمود ثبت محمد علي حاكماً على مصر في سنة ١٨٠٥ . ولكن محمد علي قرر ألاّ يكون كالحكام السابقين ألعوبة في يد المماليك ، بل ان يكمل ما بدأه نابليون من القضاء على هذه الطبقة ، وبعد ذلك يحقق أحلام نابليون بتأويله الشخصي

لها ، ولمصلحته الخاصة لا لمصلحة السلطان العثماني . وكان نابليون قد ربط اصلاح مصر بالإدارة الحسنة والهندسة الجيدة ، وفكر في تجنيد العلماء للمساهمة في هذا العمل العظيم الضروري لإحياء مصر . اما محمد علي ، البلقاني العثماني لا الفرنسي المنطقي ، فقد تصور الاصلاح قائماً على الاستبداد .

تمّ تحطيم المماليك في ١ آذار (مارس) ١٨١١ . أحسن محمد علي اختيار الفرصة لذلك . كان السلطان محمود الثاني قد فوض اليه ارسال حملة ضد الوهابيين الذين سيطروا على وسط شبه الجزيرة العربية وحاربوا ما اعتبروه انحطاطاً في الاسلام ولا سيما عبادة الأماكن المقدسة والأولياء . والأرجح أن ما دفع السلطان الى ذلك هو توريط حاكم مصر القوي في حرب مضنية والقضاء على الوهابيين . قاد الحملة عباس الابن الثاني لمحمد علي — الذي هلك بعد خمس سنوات في السودان — على ان يحمل لقب « باشا جدة » ، وتقرر ان يمنحه مبعوث السلطان هذا اللقب في حفلة تقام في قلعة القاهرة . دعي الى هذه الحفلة زعماء المماليك جميعاً ولم يتخلف منهم سوى واحد . قدمت القهوة الى الضيوف جرياً على العادة الشرقية ، أما ما حدث بعد ذلك فلا يتفق مع أصول الضيافة سواء في الشرق أو في الغرب . ذلك بأن زعماء المماليك حين همّوا بالانصراف ركبوا جيادهم وساروا في ممرّ جبلي ، ولكن الباشا أمر باغلاق بوابتي الممر عند طرفيه ، وأخذ رجالة يطلقون النار على المماليك من الجانبين فقتلوا منهم أربعمائة وسبعين في هذه المذبحة وما بعدها ، ونهبت أملاكهم .

الآن وقد ضمن محمد علي السيطرة على مصر ، أمكنه أن يبدأ إصلاحها . لم يهتم بالافكار الثورية المجردة ، كالحرية والمساواة والاخاء ، بل رأى معظم التقدم على أسس عسكرية . احتاج اولاً الى قوة اساسية خاصة به ، الى جيش نشيط تحت اشرافه وحده . وهنا نشأت مشكلة : من أين يأتي بالجنود ؟ كان المماليك جزءاً من نظام طبقي ، المصريون فيه يزرعون الأرض ويتعبدون ، والاقليات كاليهود والمسيحيين السوريين ، والأقباط يعملون في جمع الضرائب ، والمماليك يحاربون ويحكمون . ثم انه كان لا يثق بالمماليك الباقين ولا يثق هؤلاء به ، وكذلك كان لا يستطيع استيراد العبيد البيض لأن مورد هؤلاء قد خفّ في القفقاس واواسط آسيا ، وفي بلاد البلقان التي أخذت حركات الاستقلال فيها تستولي على المناطق التي كان تجار العبيد يجدونها في يوم من الايام خصبة . لذلك قرر محمد علي ان يتبع حلاً للمشكلة جريئاً وجديداً : سيجند المصريين ويحمل الاتراك والالبانيين على تدريبهم على الاعمال العسكرية ، ثم قد يرقي بعضهم الى عرفاء أو رقباء .

كانت لمطامح محمد علي العسكرية نتائج قيمة وان لم تكن مباشرة . بدأت

المدارس تدرب الضباط والفنيين العسكريين ، ونظمت خدمة صحية تتبعها مستشفيات حديثة للمحافظة على صحة الجنود ، وأسست مصانع لانتاج المعدات الحربية كانت الأولى من نوعها في افريقيا ، واستخدم الخبراء الاوروبيون ولا سيما الفرنسيون كمستشارين أو مدراء لهذه المشاريع النافعة . كلفت هذه الاصلاحات محمد علي مالاً كثيراً ولكنه أثبت براعة في الحصول على أموال جديدة براعته في تهيئة جنود جدد . كانت الزراعة مصدر الثروة الرئيس في مصر ، وكان المماليك قد قسموا البلد الى مزارع كبيرة سيئة الإدارة ، أما محمد علي فقد وحّد كل الأرض الصالحة للري وجعلها ملكاً له ، وجعل الفلاحين عبيد الأرض في مزرعة دولة واحدة هائلة . في هذه المزرعة نجح الباشا في زرع محصول جديد هو القطن الذي احضر من كارولينا الجنوبية ، فحلّ هذا القطن الطويل الألياف محل القطن القصير الألياف الذي يزرع منذ أيام الفراعنة . أمر محمد علي بزرع تسع أرض مصر الصالحة للزراعة قطناً ، فارتفعت صادرات القطن من ٦٥٠ رطلاً في سنة ١٨٢٠ الى ١٨ مليون رطل بعد ثلاث سنوات فقط . بيد أن قطن محمد ، كالكثير من التجديد في الشرق ، لم يحافظ على قوة الاندفاع التي بدأ بها ، ذلك بأن انحطاط معنويات الفلاحين الذين كانوا يدفعون الى العمل بالسياط ويؤخذ أبناؤهم للخدمة العسكرية في أراض بعيدة ساهم في تأخير الإصلاح ، فلم يتحقق من حلم الباشا في تصدير مليون قنطار من القطن سنوياً سوى ثلثه في حياته ، ومع ذلك اصبح القطن مصدر دخل مصر الأساسي في القرن التالي . أوحت الحقائق القاسية للباشا بأفكار جديدة أخرى . ان المحاصيل التي تصورها تحتاج الى أفضل طرق للري والنقل . لذلك بدأ ، وان لم يكمل في حياته ، قناطر كبيرة على النيل عند عنق الدلتا شمالي القاهرة تجعل الري طوال السنة ممكناً . وبعد أن قضى على القراصنة الذين كانوا يهددون حركة النقل في النيل شق قناة سماها المحمودية تكريماً للسلطان محمود الثاني وصلت الاسكندرية بالنيل ، فأصبح بالامكان شحن المحاصيل الزراعية بعد تحسين الري بالسفن الى اسواق اوروبا عن طريق ميناء موسع جديد في الاسكندرية ، فبدأت الاسكندرية نفسها تستعيد بسرعة أهميتها الضائعة .

ان طاقة محمد علي المبدعة — وقد ذكرت هنا باختصار شديد — جعلته أغنى من سيده السلطان وأقوى . أصبح حاكماً مستقلاً بالفعل ، ولكن ليس تماماً ، فقد عاش ومات وهو لا يزال تابعاً اسمياً للقسطنطينية ، بينما مثل محمود الثاني تلميذه ومنافسه المكبوت ، طوال الواحد والثلاثين عاماً التي امضاها محمد علي في حكم مصر ، دور السلطان « أمير المؤمنين » وخليفة المسلمين . ذلك بأن محمود الثاني قلّد أولاً تابعه القوي ثم غضب عليه وعارضه .

ارتقى محمود العرش العثماني في سنة ١٨٠٨ بعد أن عزل الانكشارية ابن عمه . وكان الانكشارية قد انحطوا على مرّ القرون خلقياً ومهنياً ، وأصبحوا في مطلع القرن التاسع عشر طبقة كبيرة معارضة لأي اصلاح جذري في الامبراطورية ، ذات اثر سيء في المجتمع العثماني كأثر المماليك في مصر . قرر السلطان محمود أن يحطم الانكشارية كما حطم محمد علي المماليك . أوجد أولاً فرقة مدفعية مستقلة خاصة به ، وكانت حجته في ذلك قوية وهي الحاجة الى قوة حديثة قادرة على مقاومة الاوروبيين الذين أدى دعمهم لليونان في حرب الاستقلال الى اضعاف السيطرة العثمانية في جميع انحاء البلقان . وحين بلغ الصراع ضد اليونان ذروته في سنة ١٨٢٦ قلب الانكشارية أوعية الحساء الحديدية الثقيلة إشارة مألوفة يأتونها في بدء كل شغب دوري يقومون به . كان الشغب عادة يكسبهم ما يريدون ، إما زيادة في الراتب أو رأس احد كبار الموظفين الذين لا يوافقون عليهم ، أما هذا اليوم فقد كان مفاجأة قاسية ، ذلك بأن المدافع الجديدة وجهت نحو ثكناتهم ، وحين تجمعوا فتحت نيرانها عليهم فقتلت منهم الألوف .

كان محمود حتى الآن مقلداً لمحمد علي . وقد أصبح في وضع يمكنه من تأليف جيش أقوى وحكومة بيروقراطية مركزية تحت سيطرته شخصياً ، وقد أمل بهاتين الأداتين من أدوات السلطة أن يعيد توحيد الامبراطورية الممزقة التي سيطر على معظم مقاطعاتها الزعماء المحليون ومن ضمن ذلك الوديان في جبال الأناضول . لم يبد محمد علي في هذا المجال معلماً أبداً ، بل ألدّ عدو لسلطة عثمانية متمركزة .

في الصراع بين سلطان يحاول ان يقوي امبراطوريته وبين تابع يحاول أن يزيد استقلاله كانت كفة محمد علي هي الراجحة ، فقد قضى على المماليك قبل قضاء محمود على الانكشارية بخمسة عشر عاماً ، واستغل صعوبات محمود في اليونان التي بلغت ذروتها بتحطيم الأسطول العثماني في نفارينو سنة ١٨٢٧ ، فاحتلت الجيوش المصرية فلسطين وسوريا وجزءاً من الاناطول الجنوبي من ١٨٣١ الى ١٨٤١ . كان حكم ابراهيم باشا ، نائب والده في هذه المناطق المحتلة ، مفيداً من نواح كثيرة . سمح للارساليات بأن تزرع الافكار الغربية في أجزاء الشرق التي كانت تحت سيطرته ، فأسس اليسوعيون الفرنسيون والبروتستنت الأميركيون بتشجيع من المصريين المدارس والكليات ، ونشرت المطابع المحلية اول مرة كتابات بالعربية والفرنسية والانجليزية تركت في الشرق الأوسط أثراً دائماً .

جعلت انتصارات ابراهيم العسكرية ، التي هددت يوماً القسطنطينية ، بالامكان ان تصبح القاهرة عاصمة امبراطورية جديدة تجدد الشرق الأوسط كله بسرعة . بيد ان هذا الامكان قد احبطه لا السلطان محمود بل الغرب الذي كان محمد علي

ووالده معجبين به كثيراً . ان دول اوروبا التي تباعد بينهـا الاحقاد قد وحدها الاهتمام بالامبراطورية العثمانية المحتضرة ، ذلك الاهتمام الذي ينطوي على رغبة واضحة في تحطيم الامبراطورية أو إحيائها . لو حدث هذا في القرن السابع عشر حين احتل الهلال رودس وهدد فينا لبدا انهيار العثمانيين نعمة من الله . ولكن الأمور اصبحت أكثر تعقيداً . فالهلال لم يعد يهدد احداً ، ودور الصليب في سياسة اوروبا أصبح ضعيفاً . أغرى الجشع بالولايات العثمانية المنحلة ، أما المحافظ فقد أفزعه أن يؤدي ذلك الجشع الى اختلال التوازن بين السلاف والألمان . وقد بدا لبريطانيا ، بعد انتصارها على نابوليون ، أن المحافظة على الامبراطورية المتداعية الواقعة علـى خطوط مواصلاتها أقل خطراً من القضاء عليها ، ذلك بأن دولة مستقلة راسخة على ملتقى الطرق بين آسيا وافريقيا ستكون لها سياسة خاصة ، وقد تهدد هذه السياسـة مصالح بريطانيا ، ومما زاد هذا الخطر النفوذ الفرنسي القوي في بلاط محمد علي .

قررت بريطانيا أن تقصر أذيال محمد علي ، ولكن كيف ؟ أسف لورد بالمرستون مخطط السياسة البريطانية في القرن التاسع عشر على أن فلسطين مفصلة الامبراطورية المصرية الجديدة لا تحوي أقلية تتخذ بريطانيا من حمايتها ذريعة لإخراج المصريين. (استعملت الدول الأخرى ذرائع مماثلة في الولايات العثمانية الأخرى ، كما استغلت فرنسا مثلاً علاقتها التقليدية بالموارنة المسيحيين في جبل لبنان) . لكن أكثرية سكان فلسطين كانوا ، كالأتراك والمصريين ، من المسلمين السنيين ، وقد ظهر اندماجهم في العالم الاسلامي بصورة واضحة خلال غزوة نابليون لبلادهم . وبما أنه لم تكن في فلسطين أقلية تقوم بريطانيا بحمايتهـا فقد تساءل بالمرستون ان كان بالامكان ايجادها . أيمكن استعمال حنين اليهود الى الأراضي المقدسة في مصلحة بريطانيا ؟ واذ تأكد من نائب القنصل البريطاني ان في فلسطين عشرة آلاف يهودي ، كتب الى السفير البريطاني في القسطنطينية ما يلي :

« سيكون من المهم كثيراً للسلطان ان يشجع اليهود على العودة الى فلسطين والاستقرار فيها. ذلك بان الثروة التي سيأتون بها معهم ستزيد واردات ممتلكاته . واذا عاد الشعب اليهودي بموافقة السلطان وحمايته ودعوته كان كابحاً لأي خطط شريرة يصنعها في المستقبل محمد علي وخلفاؤه » .

بيد ان السلطان لا يمكن ، كحام للشريعة الاسلامية ، أن يؤيد مشروعاً خيالياً كهذا . ثم كانت القدس احدى المدن الثلاث المقدسة في الإسلام ، واذا كان قد سمح لليهود بممارسة دينهم وتصريف شؤونهم الطائفية الا انهم اعتبروا ، مـع المسيحيين ، أتباع نوع من الوحدانية اقل كمالاً مما يمارسه المسلمون الذين يكونون اكثرية السكان في فلسطين .

خططت بريطانيا ، بدلاً من ذلك ، هزيمتين للباشا الطامح ، اعتمدت كلتاهما على النفوذ البريطاني في القسطنطينية . كانت الضربة الأولى إقتصادية ، فقد عقدت الحكومة العثمانية مع بريطانيا في سنة ١٨٣٨ اتفاقية تجارية بدأ تنفيذها في سنة ١٨٤٢ منحت بريطانيا حرية مزدوجة : حرية شراء المواد الخام أو البضائع المنجزة من كل أنحاء الامبراطورية العثمانية ، وحرية بيع بضائعها في هذه السوق الواسعة نفسها ، على أن تدفع بريطانيا ضريبة قدرها ١٢ بالمئة عن البضائع العثمانية التي تشتريها و٥ بالمئة عن بضائعها الخاصة التي تدخلها وتبيعها . وبما ان مصر جزء من الامبراطوريـة العثمانية ، فقد انهارت سياسة محمد علي في ادارة الزراعة والصناعة كاحتكار تحت سيطرته . وأخطر من هذا أن المصنوعات البريطانية التي تتمتع بحرية الدخول الى مصر ستتفوق بالجودة والرخص على منتوجات الثمار الصناعية المصرية التي لم تنضج بعد .

قامت الاتفاقية التجارية نظرياً على مبدأ حرية التجارة، أما عملياً فقد وجهت ضربة قاضية الى الاقتصاد المصري . ان قبول السلطان بحرية التجارة جعل إقدام محمد علي على إقامة حواجز وقائية اجراء غير قانوني ، فضعفت دونها خططه الصناعية ، ولم تصبح مصر كما أراد لها ورشة افريقيا . لقد كان عدم القدرة على التصنيع كارثة بالنسبة الى بلد كمصر معظم أراضيه صحراوي غير صالح للزراعة والمنتظر لسكانه ان يتضاعفوا مراراً .

أما الضربة الثانية فكانت سياسية ، وكان الغرض منها جعل الضربة الاقتصادية فعالة . في سنة ١٨٣٩ مات السلطان محمود وخلفه ولده عبد المجيد الذي قرأ الصحف الفرنسية وكان أكثر ميلاً الى الاصلاح من أبيه المستبد . في تشرين الثاني (نوفمبر) أعلن وزراء السلطان الجديد « الخط الشريف كولخانة » ، وهو عبارة عن وثيقة وعدت بإلغاء الفساد الذي شوّه المجتمع العثماني ، كما وعدت أول مرة بالمساواة بين جميع المواطنين على اختلاف عقائدهم . وسواء أكان هذا الاعلان التحرري سينفذ أم لا فقد سلب اصلاحات ابراهيم باشا قوتهـا . واذ تسلحت انجلترا به ، وكانت حريصة على الاتفاقية التجارية التي وقعها السلطان الراحل ، بدأت استعمال القوة العسكرية ضد محمد علي . ساعد اسطول انجليزي ونمسوي العثمانيين على استعادة سوريا وفلسطين ومن ضمنهما لبنان ، واضطر محمد علي الى اعادة جيشه وتسريحه ، اما اسطوله الذي كلفه غالياً فقد اهترأ في الميناء .

على ان السياسة البريطانية لم تهدف الى ارجاع السيطرة العثمانية على مصر لأن تقوية السلطان الى هذا الحدّ قد تكون خطرة ، ولم يكن من المستحسن استفزاز الباشا كثيراً بحيث يستقل عن القسطنطينية نهائياً. لذلك نصح السلطان بأن يسترضيه بفرمان

رسمي يضمن بقاء حكم مصر وراثياً في أسرة محمد علي ، وأن يكون نظام الوارثة طبقاً لنظام السلطنة . بهذا أصبح ابراهيم وريث محمد علي ، يليه عباس ، وبعد عباس أخوه سعيد . وفي حالة موت سعيد يصبح أحمد بن ابراهيم حاكماً ، واذا لم يكن أحمد في قيد الحياة حلّ محله اسماعيل نفسه .

في هذه الأسرة التي نعمت بالانتصارات ومنيت بخيبة الأمل نشأ اسماعيل . وقد قدر له ، كما عرف ، أن يلعب دوراً في مباراة شطرنج البيدق فيها مزدرىً ، والرخ وهو محمد علي رب الأسرة يقهر الأفيال والأفراس ، ولكنها لوحة لا يزال السلطان العثماني فيها الملك الإسمي بينما تقوم اوروبا بدور الوزير — الذي يدعوه لاعبو الشطرنج الشرقيون الملكة — القادر على الضرب بسرعة في كل اتجاه .

ادرك اسماعيل منذ صباه ان السلطان العثماني هو العاهل الذي يقيد استقلال باشا مصر ، والذي يتردد اسمه في الصلاة في مساجد مصر كصاحب السلطة الروحية ، واذ تقدم في السن ادرك ايضاً ان اوروبا أتون طاقة ومصدر خطر .

وطئت قدم اسماعيل أرض اوروبا أول مرة وهو في الرابعة عشرة من عمره ، فامضى صيف ١٨٤٤ يعالج عينيه في فيينا ، وبدلاً من ان يرجع الى القاهرة أمضى فصل الربيع في باريس . وكان قد تقرر ان يكمل تربيته على الطريقة الأوروبية في الكلية العسكرية المصرية التي أسسها محمد علي حديثاً وربطها ببعثة مصرية مقيمة في فرنسا منذ ١٨٢٦ . انجب محمد علي ، كالكثير من الحكام الشرقيين ، أطفالاً عديدين لكن أكثرهم ماتوا صغاراً . كانت الغاية من تأسيس الكلية تعليم اثنين من ابنائه الصغار واثنين من أحفاده هما اسماعيل وأحمد ، وكي يخلق لهم الجوّ المدرسي الملائم ألحق بالكلية ثمانين من أبناء الطبقة المصرية الراقية ، اي الألبانية أو التركية . عين وزير الحربية الفرنسي مدير الكلية ومدرسيها . وفي سنة ١٨٤٨ خلع لويس فيليب ملك فرنسا ، وكان صديقاً لمحمد علي وهو الذي أهداه كرمز لتلك الصداقة ساعة كبيرة لمسجد القلعة ، وصادف ان كان محمد علي يزور نابولي ، ففكر في حشد جيش مصري والدخول به الى اوروبا لارجاع صديقه الملك المخلوع ، ولكن مستشاريه أرجعوه الى مصر حيث حجز في قصره وقد بان عليه الخرف ، ونصب ابراهيم باشا وصياً عليه . بيد أن ابراهيم توفي بعد حكم قصير الأمد ، وخلفه ابن أخيه عباس في الوصاية على محمد علي الذي توفي في سنة ١٨٤٩ .

اغلقت الكلية العسكرية المصرية إثر خلع فيليب لويس ونقل اسماعيل للدراسة سنة أخيرة في سان—سير ، وعاد الى مصر في سنة ١٨٤٩ وقد أكمل تربيته الرسمية . وقد حصل على علامات جيدة في الكلية المصرية وفي سان — سير على الرغم من أن ضعف عينيه كان يعيق تقدمه .

قال حاكم انجليزي « ان اسماعيل واخاه مصطفى كانا ، وهما في باريس ، يشتريان كل شيء يريانه . كانا كالأطفال لا شيء يكفيهما . يشتريان المركبات والجياد كالتي لدى الملكة فكتوريا أو الامبراطور ويتركانها تتلف لعدم توفر الملجأ أو النظافة » . كذلك كانت لهذا الناقد ، سير إفلين بارنج الذي عرف فيما بعد باللورد كرومر ، أسباب للاستخفاف باسماعيل .

لتأييد الانطباع القائل إن اسماعيل لم يتأثر بالثقافة الفرنسية اقتبس بارنج قول حوذي انجليزي كان في خدمة اسماعيل : « رأيته احياناً يحاول قراءة قصة فرنسية ، ولكن قراءة الصفحة الواحدة كانت تستغرق ساعتين . ورأيته مرة أو مرتين يحاول أن يكتب فكان طول الحرف نصف بوصة كالتي يخطها الأطفال في دفاترهم . لا اظنه أنهى جملة أبداً » . وألقى الحوذي نفسه الشك على اصحاب اسماعيل فقال : « ان الذين يفضل التحدث اليهم هم الخدم ، والغلمان الذين كانوا يحضرون له الغلايين ويقفون أمامه متكتفين . كان احياناً يجلس على أريكته ساعات يدخن ويحدثهم عن النساء وما أشبه ذلك » .

ان الحاكم والحوذي اللذين استشهد بهما الناقد فاتهما ان يدركا نقطتين حيويتين في نشأة اسماعيل : طريقة بقائه شرقياً وطريقة تأثره بالغرب .

لم تقتلعه الخبرة الفرنسية من اصوله ، ولم يشعر حين رجع الى القاهرة أنه أسير غريب عن الشرق الذي ولد فيه . ان الحاكم المطلق في الشرق يستطيع ان يتبع طرقاً ديمقراطية ، والحاكم المسلم المستبد يستطيع ان يبحث في النساء وفي امور مماثلة مع خدمه على أساس من التكافؤ يستحيل على السيد في العصر الفكتوري ، وتجعله هذه الإلفة محترماً وليس العكس .

ثم ان تجارب اسماعيل في فرنسا عدلت في الوقت نفسه نظرته الى الحياة . كان محمد علي محباً لفرنسا وهو لا يعرفها ويجهل لغتها ، أما اسماعيل فقد عرف كلتيهما ولكن دراسة القصصيين والشعراء الفرنسيين لا تساعد على اصلاح مصر . ومما لا ريب فيه أيضاً أن التأثيرات الفرنسية التي تقبلها اسماعيل كانت في الغالب سطحية . بينما أمه التي تعيش في قصرها على ضفة النيل ترتدي الملابس الشرقية كانت نساؤه وبناته يتبعن في ملابسهن الطراز الأوروبي ويقمن حيث « تتدلى الثريات الكبيرة من السقف وتتعلق الشمعدانات بالجدران » . اراد اسماعيل لأطفاله تربية أوروبية . في سنة ١٨٦٨ ، مثلاً ، ارسل ولديه حسين كامل وحسن الى أوروبا ، الأول الى باريس والثاني الى لندن . كتب شخصياً بالفرنسية الى رئيس وزرائه ما يلي : « يجب أن يكون منزل حسين باشا ملائماً لمنزلته . يجب ان تكون له داران

تستأجران ان امكن لأربع سنوات ، ومدير لشؤون المنزل ، وعدد كاف من الخدم المحليين ، وثلاث عربات ، وسبع جياد من ضمنها جياد للركوب وجواد لمعلمه . لا اريد المغالاة في الترف ، ولا شيء يقرب من الإسراف ، فسيخصص ما بين ١٥٠ ـ ٢٠٠ الف فرنك لمصروفات حسين السنوية » . كذلك احضر لابنته الأميرة زينب مربية انجليزية مسؤولة عن رؤيتها ترتدي المخمل الأسود الرائع على آخر طراز باريسي ، مزركش بريش النعام الأبيض ، ويتلألأ على صدرها دبوس ألماسي يكون احياناً بحجم البرتقالة وقلادة ، وفي أذنيها قرطان من الألماس ، وحول خصرها مشبك من الاحجار الكريمة نفسها ، تنتعل جزمة من المخمل الأسود إبزيمها من الألماس ، وتضع على رأسها قبعة مخملية مزينة بريش النعام نفسه الذي يزين فستانها .

لم يكن قبول الأساليب الغربية سهلاً ولا شاملاً . فعادات الأكل ، مثلاً ، كانت تتردد بين العالمين . قالت المربية الانجليزية ، الآنسة شانلز : « يأكل سموه معنا في عابدين دوماً كعائلة واحدة . تعدّ المائدة على الطريقة الإفرنجية ، أما في رمضان فيتوقف ذلك طبعاً ، وبعد ذلك ، حين تبدأ الوجبات العادية ، فإن الخدم الذين يكرهون ازعاج انفسهم باعدادها على الطريقة الافرنجية ولم يتلقوا اوامر جديدة في هذا الشأن يقدمونها لنا على الطريقة التركية ، وهي طريقة بسيطة جداً ، إذ توضع مائدة مستديرة وسطها طبق كبير ، ويوضع امام كل شخص صحن صغير وملعقة وقطعة خبز كبيرة . تستعمل الملعقة اذا كان في الطعام سائل ، ما اذا كان لحماً أو شيئاً جامداً فتستعمل الاصابع » . ان اسماعيل يستحق العطف ، فليس سهلاً أن يكيف المرء نفسه للعادات الغربية فجأة في مجتمع شرقي .

بيد أن النواحي الخلقية في الحضارة الفرنسية ، التي تعدّ خلاصة ما يمكن لأوروبا ان تقدمه في ذلك الحين ، أثرت في اسماعيل كما أثرت فيه بهارجها ، فأكتسب شيئاً من العزلة الأوروبية تراث الفلاسفة الذين ربت روحهم فرنسا التي ربته ، وقد ساعدته تلك العزلة على البقاء خلال الأربع عشرة سنة التي مضت منذ وفاة محمد علي في سنة ١٨٤٩ الى توليه الحكم في سنة ١٨٦٣ ، تلك السنوات المتأرجحة الخطرة التي جنى اسماعيل فيها بحصافة الشيء الكثير .

رجع عباس باشا الى اساليب القرن الثامن عشر التركي ، تلك الاساليب التي وصفتها السيدة ماري ورتلى مونتاجو ، زوجة السفير البريطاني في القسطنطينية لأصدقاء مثل الكساندر بوب ، بأنها جمود وحسد في قصور كسلانة . عاكس عباس باشا الخط الذي سار عليه جده محمد علي في كل شيء . اراد الجدّ أن يهتدي

بنجم غربي جديد واراد عباس أن يرسو في شرق معروف ومألوف ، ووثق محمد علي بالفرنسيين والإيطاليين واستخدمهم في مشاريعه فجاء عباس المرتاب وطردهم ، وحارب محمد علي الانجليز الذين قضوا على مطامحه الرئيسة ولكن عباس فضلهم على الفرنسيين ، ثم أغلق المدارس والمستشفيات والمصانع وحوّل الجيش الى مجرد ظل ، واهتم بالابتكار الغربي الجديد الذي يرتبط ببريطانيا خاصة ، اي السكة الحديد . عارض فكرة القناة البحرية (التي راودت نابليون الى ان أخبر خطأً أن سطح البحر الأحمر يرتفع عشرة أمتار على سطح البحر الأبيض المتوسط) ووافق البريطانيين على أن سكة حديد تربط الاسكندرية بالسويس عن طريق القاهرة أسلم وأربح . ولم يكن في ذلك مخطئاً لأن هذه السكة ستقوي طريقاً ازداد استعماله في الأربعينات . كانت البواخر تأتي بالمسافرين من أوروبا الى الاسكندرية ، ثم ينقلون في مراكب تقطرها قوارب بخارية عبر قناة المحمودية الى قرب القاهرة ، ومن هناك في العربات الى السويس حيث تنتظرهم باخرة هندية . قصرت هذه الوسيلة في النقل عن طريق الدلتا الرحلة من انجلترا الى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح من أربعة أشهر الى أربعين يوماً ، أما القطار فسيجعل هذه الرحلة أسرع وأكثر راحة ، وستكون السيطرة على خطه اكثر من السيطرة على قناة تخترق الصحراء وقد تفصل عن مصر . ثم ان السكة الحديد ستأتي بالعمل الى القاهرة عاصمة البلد . وهكذا ربط عباس في سنة ١٨٥١ جورج ستيفنسون الذي اكتشف والده « الصاروخ » بعقد لمدّ سكّة حديد من الاسكندرية . ان هذه السكة ، التي خطط لها محمد علي ولم تبدأ في زمنه ، قد اكملت في سنة ١٨٥٦ فكانت الأولى في أفريقيا وآسيا ، ثم اضيف اليها الخط من القاهرة الى السويس في سنة ١٨٥٧ ، ومن اجل تسهيل الأمور على المسافرين وافق عباس على ان يبني لهم مستر صموئيل شبارد فندقاً .

ربما كان عباس بريبته الغريزية في الأوروبيين الذين احتشدوا حول أبيه الثري أعقل من بقية أفراد أسرته ، ولكنه بدا لأبناء محمد علي واحفاده رجلاً عنيداً ورجعياً يخاف ، بشعوره انه تركي ، أخاً قرب العرش او ابن عم . وقد اصبح اسماعيل في بلد لا يعرف المعارضة ، رئيس « حزب من الأمراء » الذين حافظوا خلال فترة الرجعية هذه على موقف محمد علي المحب لفرنسا . بيد ان العمل السياسي كان مستحيلاً لأن الأمراء (المنغمسين في الملذات والمنصرفين الى مصالحهم الخاصة) لم يكونوا اولئك الرجال الذين يخرج من بينهم الشهداء ، ولذلك صرفوا طاقاتهم الفائضة في تحسين أملاكهم ، فظهرت في مصر التكنولوجيا الغربية في صورة مضخات بخارية وآلات لحلج القطن .

الأرجح ان بقاء اسماعيل يعود الى موت عباس قبل الأوان بطريقة شرقية

نموذجية أكثر منه الى تركيزه على الزراعة . كان عباس ، كالكثير من العثمانيين ، يسرّ بمعانقة الغلمان . وحدث ان اشترى أحد أقربائه الحاسدين أو حراسه الحاقدين من سوق العبيد في القاهرة التي كانت لا تزال منتعشة مملوكين وسيمين ووضعهما في خدمة الباشا . ومهما يكن فقد حفر عباس قبره بيده حين عين الغلامين لخدمة مخدعه . وفي ليلة ظلماء في قصر بنها قتل المملوكان سيدهما وهربا الى القسطنطينية حيث لم توجه اليهما اي تهمة . وكان عباس قد ترك ولداً في سن المراهقة اسمه إلهامي لا يحق له بحسب القانون العثماني أن يخلف أباه ، بيد ان احد افراد الحاشية حاول مخالفة القانون ، فرجع بعباس الى القلعة مظهراً أنه وسنان لا ميت ، وهناك أراد إعلان إلهامي خلفاً له ولكن ممثلي الدول احبطوا الخطة فنصب محمد سعيد الإبن الرابع لمحمد علي حاكماً على مصر حالاً .

رجع سعيد باشا الى فرنسا والفرنسيين . كان رجلاً سميناً ، مؤيداً للزواج من واحدة فقط ، محباً للأكل ، وقد استخدم رئيس طهاة فرنسياً ، وكان يفتخر بتذوقه للخمور ، كما كان التأثير فيه سهلاً . لم يمض على تنصيبه سوى اسابيع قليلة حتى أعطى دي ليسبس امتياز حفر القناة . ومع ان الامراء الباقين كانوا ميالين مثله الى فرنسا إلاّ ان ذلك لم يشعرهم بالأمن وخصوصاً لأن مزاج الباشا الجديد تغير تبعاً لاعتلال صحته . كان اسماعيل في المرتبة الثانية بالنسبة الى ارتقاء العرش ، ولكنه أصبح في المرتبة الأولى بسبب « حادث » أمكن أن يقتل فيه كما قتل أخوه الأكبر أحمد . ذلك بأن سعيد باشا دعا في يوم عطلة في سنة ١٨٥٩ الشباب من أمراء العائلة لزيارته في الاسكندرية ، وأمر من اجل الراحة والسرعة أن ينقلهم قطار خاص عبر الدلتا . وفيما كان القطار عائداً بالضيوف الى القاهرة كان عليه ان يعبر جسراً متحركاً أقامه الانجليز على النيل قرب كفر الزيات ، ولم يلاحظ سائق القطار إلاّ متأخراً ان الجسر مفتوح . قفز الأمير حليم أحد الباقين من أبناء محمد علي الى النيل ونجا بنفسه ، أما احمد أخو اسماعيل فقد قفز هو الآخر الى النيل ولكنه غرق إمّا لأنه ارتبك أو بسبب بدانته . وامّا اسماعيل فقد كان متوعك الصحة فبقي في القاهرة .

كانت الصلات بين سعيد ووريثه الجديد حسنة في الظاهر ، فقد عمل وصياً على العرش حين ذهب سعيد الى الخارج ، وارسله سعيد في بعثات الى البابا ونابليون الثالث والسلطان . وفي سنة ١٨٦١ أبرز اسماعيل نفسه بقمعه ثورة في السودان البلد المضطرب التابع لمصر ، وعلى الرغم من ذلك حصر اسماعيل بلباقة اهتمامه الرئيسي في الزراعة ، وتمشى اشتهاؤه لمزيد من الأرض مع العناية الدقيقة بالمحافظة عليها فاشتهر بأنه مالك أرض بخيل لديه أجود القطن في مصر ، وأصبحت أرضه كما كتب القنصل العام النمسوي في تقرير بعث به في نيسان (ابريل) ١٨٦٢ « تدار

خير إدارة في مصر ، ومحصولاته أجود ما في السوق وتأتي بأعلى الأسعار . ان الاقتصاد ميزته القوية . فاذا كنت مستقيماً معه أمكنك ان تعامله بصراحة وثقة تامة وان تحصل على أفضل النتائج ، أما عيوبه فاعرف منها واحدا فقط وهو أنه بخيل . لكن هذا العيب قد يجعله ، بالنسبة الى حكم مصر ، أقدر أفراد أسرته » .

ان نجاح اسماعيل في زراعة القطن (وليس ذلك بعجيب اذا ذكرنا أن اسلافه كانوا يزرعون التبغ في مكدونيا) جاء في وقت ملائم . ذلك بأن الحرب الاهلية الأميركية أدت الى ازمة اقتصادية امتدت طوال سنوات سعيد الأخيرة (توفي في سنة ١٨٦٣) وبداية حكم اسماعيل ، فقطع حصار الشمال لموانىء الجنوب عن أوروبا مصدرها التقليدي للقطن . لم يتم الشعور بآثار ذلك فجأة لأن مخازن المصانع المصرية كانت ملآنة ، لكن اذ تعدت الحرب الأهلية السنة الاولى بدأت أسوأ مجاعة اقتصادية عرفها القرن التاسع عشر ، وارتفع سعر القطن لأن الحصول على هذه السلعة اصبح عسراً ، واخذ المستوردون يتطلعون بصورة مسعورة الى مصادر جديدة .

بلغ سعر القطن أربعة اضعاف في السنوات الخمس التي تلت ١٨٦٠ ، وفي الفترة نفسها ارتفع الانتاج السنوي من نصف مليون قنطار الى اكثر من مليونين ، وارتفعت قيمة الصادرات من نحو ٣،٥ مليون جنيه انجليزي في ١٨٦١ الى ١٤،٥ مليون جنيه تقريباً في ١٨٦٤ ، فدخل اسماعيل حالة خطرة ، حالة عمى يكفّ المرء فيها عن ادراك وضعه الحقيقي .

نسي اسماعيل ان مصر كانت لا تزال فقيرة وغير نامية ، وعجز عن تصور توقف ازدهار القطن بانتهاء الحرب الأهلية الأميركية . ان جذور التلهف في أحلامه والتبذير في أعماله قائمة في موقف شرقي من المال لا يفيد إلاّ قليلاً في القرن التاسع عشر .

ورث العالم الاسلامي ككل ، من مراكش في الغرب الى اندونيسيا في الشرق ، عدا عن القرآن والحديث ، أشياء عن بدو الصحراء العربية ، أحدها الموقف من المال الذي يتميز به البدو الرحل الذين يتألف ما يملكون مما تستطيع جمالهم حمله . كان المسافر في عالم الصحراء القاحلة ، حيث العواصف النادرة تأتي بالخضرة فجأة أو الرياح الشديدة بالجفاف المدمر ، يعتمد على كرم الخيام التي يمرّ بها ودون ذلك يهلك . ان سهوب الصحراء تتلف الزراعة وتضعف الاقتصاد . لقد وصل الكرم العربي المثالي حداً غير معقول ، عبرت عنه قصة الشاب السخيّ الذي ذبح إبل أبيه جميعاً لبعض الضيوف المارين . هذا المثل الأعلى البدوي ، الذي مجّد التبذير ، قد نقل الى الشعوب التي اعتنقت الإسلام ، لم يشذ عن ذلك الأتراك القساة ، وكان مهراجات

المغول وسلاطين العثمانيين يتباهون بعرض ثرواتهم بينما يحتقرون العمل الذي انتجها والإدارة التي حفظت حساباتها . وبما ان الاسلام حرم الربا لم ينشأ نظام مصرفي أهليّ ، أما الصراف الشرقي فليس سوى رجل يستبدل عملة بأخرى . كذلك لم يكن هناك نظام محليّ لتوفير رأس المال اللازم للتنمية .

اشتهر اسماعيل كمدير هادىء وبخيل حين عاد من فرنسا التي يعدّ فلاحها الأقلّ إسرافاً في اوروبا . استاء حين جعل عمه سعيد من نفسه أول حاكم مصري يأخذ قرضاً من المرابين الغربيين . (الواقع أن سعيد باشا اورث اسماعيل ديناً من كل المصادر يزيد على ستة عشر مليون جنيه) . لكن اذ أخذ الذهب الاصفر ينصب على الاسكندرية لقاء ذهب القطن الأبيض ، اضطرب رأسه المقسم ، فاحتوى قسم على أحلام من الغرب ، والقسم الآخر على ردود فعل مهدئة من الشرق . كتب احد المعاصرين له يقول : « اراد بجرة قلم واحدة أن يحوّل اكثر الشعوب محافظة على وجه الأرض إلى مثال حي للحضارة المتقدمة وا لمستنيرة . لم يطق التحويل البطيء لشعب متبلد ثابت كأهرامه ، بل عمد الى تغيير نظامهم كله بانقلاب مسرحي » . وكي يضع اسماعيل مصر في مستوى اوروبا ، ويوفر لها الطرق المعبدة والخطوط الحديدية ، والموانىء ومكاتب البريد ، والمنارات والمدارس ، احتاج الى المال . وكي يحافظ على سمعته بحيث يستطيع طلب المزيد من المال دون خجل ، ويكون كل قرض جديد ضخماً يسدد منه قرضاً سابقاً وتبقى لديه فضلة لمشاريعه الجديدة ، بذل جهده في تزيين عاصمته . ان القاهرة المتلألئة ، سواء كانت أوروبية أو اوروبية زائفة ، ستجتذب اليها الدائنين كما يجتذب المصباح الفراش ... « في المساء ، اذا اردنا ، نستطيع أن نستمع الى أوبيرا فرنسية أو نشاهد البالية الفرنسي في مسرح يشبه تماماً ما تركنا وراءنا في لندن . واذا زرنا وزيرنا وجدناه في فيلاّ على النسق الغالي تحيط بهـــا مئات الفيلات . حيثما نذهب نجد قصور الخليفة او افراد اسرته . ان عابدين والاسماعيلية هما القصران الرئيسان في القاهرة نفسها، ولكن هناك قصور أخرى ، واسماء هذه القصور الرائعة فيما وراء حدود العاصمة خرافية . ففي قصر النيل وعلى طول ضفتي النيل، وفي الروضة والجزيرة وسط النيل، وفي الجيزة والعباسية وشبرا ، ترتفع قصور قبيحة المنظر سيئة البناء وجد فيهـــا التبذير والتباهي منفذاً لهما » .

ان هذا الحالم المسرف ، والمبذر المتباهي ، هو الذي فتح قناة السويس. انه كشرقي يحب الغرب ، وعثماني تربى في باريس ، رعى مطامحــه الشديدة المتهورة : اراد ان يرى مصر متحررة من السلطان ما أمكن ، ثم عن طريق توازن المعاهدات والنفوذ آمنة كأي دولة ثابتة في اوروبا .

لم يتصور اسماعيل ان السنة التي عينت لافتتاح القناة ستكون السنة التي سيختل فيها التوازن في اوروبا نفسها ويترك في ضيوفه جميعاً آثاراً يصعب التكهن بهـــا . كذلك لم يفهم القوى الخفية التي سيطرت على القرن التاسع عشر والتي بدأت تتحرك الآن لتحطيمه .

الفصل الثالث

بعد حفلات عادية يزن المضيف ضيوفه مقابلاً من حضر بمن تخلف عن الحضور ، ويتساءل هل أصاب بدعوة هذا أم اخطأ باستثناء ذاك . وبعد الحفلة الرائعة في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٦٩ فعل اسماعيل الشيء نفسه .

كانت يوجين ، امبراطورة فرنسا ، الجائزة التي حصل عليها . اطلق اسمها على شارع مشجر في الاسماعيلية ، وعلى شاطىء رملي في بور سعيد ، ودام القصر الذي بناه لإقامتها القصيرة طوال حياتها المديدة (توفيت سنة ١٩٢٠ ولها من العمر خمسة وتسعون عاماً) ، وهو القصر الذي عرف فيما بعد بقصر لطف الله نسبة الى العائلة القبطية الثرية التي اشترته الى ان امّم في الستينات وحوّل الى فندق عمر الخيام .

خصص مستر هارولد كورتز ، آخر من كتب سيرة يوجين ، نصف صفحة من أربعمائة لرحلتها الى مصر . وقد علق على تلك الرحلة بقوله : « إن ما جعلها سعيدة بصورة خاصة هو رؤية فرانز جوزيف لا يفارقها » . ذلك بأنه كانت ليوجين في هذه الرحلة مصلحة سياسية لا علاقة لها بمصر وهي الأمل في كسب النمسا الى جانب فرنسا . بيد أنهـا كانت لطيفة مع حاكم البلد الذي دعاه نابليون الأول ، نظراً الى موقعة الاستراتيجي ، أهم بلد في العالم . ثم انها جاءت لتسدد ديناً . فقد ارسل سعيد باشا ، عم اسماعيل ، قبل موته بنحو اسبوعين ٤٥٠ جندياً من الزنوج لمساعدة زوجها نابليون الثالث في أكثر مشاريع حكمه تهوراً ألا وهو محاولة خلق امبراطورية اوروبية في الاميركتين يرئسهـا مكسميليان والد فرانز جوزيـف . لكن المشروع اصطدم بمعارضة اميركية ، وبالقومية المكسيكية وضعف شخصية الامبراطور الجديد . ومهما يكن فقد كانت مصر تستحق شكر فرنسا . أما ان نابليون الثالث ظل يذكر جنود مصر السود واشياء اخرى قليلة فقد ظهر في تشرين الأول (اكتوبر) ١٨٦٨ حين قابله ولدا اسماعيل في باريس مقابلة دامت عشرين دقيقة . سألهما الامبراطور المريض : « كم جندياً أسود عندكم ؟ » ، فأجاب احد الأميرين : « كتيبتان » . قال الامبراطور : « لم ليس أكثر ؟ تستطيعون ألاّ تعتمدوا على الفلاحين » ، فرد الامير بقوله ان الجنود السود لا يلائمهم مناخ مصر . وبذلك انتهت المقابلة .

رجعت يوجين من السويس الى شتاء باريس البارد حيث بدأت تنهار أشياء أخرى أكثر من الحلم المكسيكي . ذلك بأن نابليون الثالث ، إزاء الاستياء العام وصحتـه

المعتلة والضغط البروسي الواضح ، أراد أن يحول فرنسا الى دولة ديمقراطية امبراطورية .

أظهرت يوجين عطفاً قليلاً على الجهود التي تبذل في تقوية الجبهة الداخلية . أمـا آمالها في فصل النمسويين عن ألمان الشمال ، التي ثبت عبثها ، فقد كانت جزءاً من اهتمام شديد بالسياسة جاء تعويضاً ضعيفاً من زواج أفسده نابليون في أوله بخيانته الزوجية المكشوفة . واذا كان قد بقي يحترم عقلها ويعتمد كثيراً على نصيحتها ، فانها بدورها كانت محبة للامبراطور يائسة من الرجل ، وقد عبّرت عن ذلك الحب باستبدادها وتدخلها في الشؤون العامة الذي كانت نهايته مفجعة . خلال سنة واحدة مرت على فتح قناة السويس قامت بدورها في دفع فرنسا الى أكبر كارثة حلّت بها منذ معركة ووترلو . ذلك بأنها بتأييدها الحزب الذي يريد الحرب إنما كانت تؤيد غير دارية بسمارك الذي كان مستعداً لحرب تعلنها فرنسا ولا بدّ من أن تخسرها .

كان السبب المباشر للحرب ادعاء وراثة آل هوهنزلرن لعرش اسبانيا الذي اتخذ منه بسمارك وسيلة لازعاج فرنسا . لم يهلك نابليون الثالث في الحرب وهو يقود جيوشه كما تمنت يوجين ، فقد انضم اليها بعد فترة من الحجز فعاشا بضع سنوات في المنفى في احدى المقاطعات الانجليزية عيشة الطبقة الوسطى ، ثم مات بمرض المثانة الذي سبّب له آلاماً مبرحة في آخر سني حياته . وحلّت محل الامبراطورية الثانية جمهورية ثالثة لا الامبراطورية التي كانت يوجين تحلم باستعادتها . لا ريب أن امبراطورية جديدة اعلنت في فرنسا ولكنها كانت امبراطورية ألمانية تنازلت لها فرنسا عن مقاطعتي الألزاس واللورين . وهكذا اذلّت فرنسا فاستعاضت من ذلك بانتصارات استعمارية في شمال افريقيا ومقاطعات عربية ، ولكن الجمهورية الثالثة الماسونية المقاومـة للإكليروس كانت تفتقر الى القوة لفرض السيطرة الفرنسية على مصر أو للدفاع عن الاستقلال المصري اذا ما حاولت أقدم دولة منافسة لفرنسا أن تقضي عليه .

ان حضور يوجين حفلة افتتاح القناة لم يكن ، من حيث النفوذ ، أكثر من سلطة رئيس أميركي راحل في الأسابيع الأخيرة من ولايته .

يأتي الامبراطور فرانز جوزيف في المرتبة الثانية بين ضيوف اسماعيل من حيث الأهمية . اذا كانت يوجين تقترب من نهايتها فإن الامبراطور في بداية حكمه ، ولكنه كحليف محتمل لاسماعيل ليس اكثر منها اثراً . وبينما لفرنسا مصالح في الشرق الأوسط وفي الامكان أن تكون حليفاً قوياً لمصر ، كانت مملكة النمسا والمجر التي تضم التشيكيين والسلوفاك والكرواتيين والبشناق في امبراطورية مضطربة مشغولة بالبلقانيين وبأواسط اوروبا . انها امبراطورية واسعة ولكن عليلة ، واذ كانت تضم مقاطعات عسرة الهضم منفصلة عن الامبراطورية العثمانية فقد أصيبت بمرض ذهبت ضحيته . وقد تجلى ضعفها العسكري بانهيارها السريع امام قوة بروسيا، واصبح ضعفها السياسي

احد اسباب الحرب العالمية الثانية التي مات فرانز جوزيف خلالها وقضي على امبراطوريته .

اما الضيف الثالث المهم فقد كان ولي عهد بروسيا الذي اعلن بسمارك والده وليام الأول في قصر فرساي في كانون الثاني (يناير) ١٨٧١ اول امبراطور الماني . بيد انه ما كان ليستطيع ان يساعد اسماعيل حتى لو اراد ، فقد كان مريضاً بالسرطان ، والتاريخ يذكره لا لشخصه بل لأنه زوج كبرى بنات الملكة فكتوريا ووالد القيصر وليام الثاني الذي ارتقى العرش في سنة ١٨٨٨ ، وكان اكثر اهتماماً بربط برلين وبغداد بخط حديدي يصل الى الخليج العربي منه بمصر والخديوي . ومع ذلك قامت المانيا بدور صغير غير مجد في المراحل النهائية من حكم اسماعيل .

وهناك ضيفان آخران لم يستطيعا الحضور هما فكتور عمانوئيل الثاني ملك ايطاليا والجنرال جرانت رئيس الولايات المتحدة الأميركية . تقابل الملك واسماعيل في فلورنس عاصمة ايطاليا في ذلك الحين ووعده بارسال دوق اوستا ممثلاً له ، ولكن مرض الملك عمانوئيل اضطر الاسطول الايطالي وقائده الدوق الى ترك مصر قبل الافتتاح . اما الجنرال جرانت فلم يستطع ترك اميركا التي كانت لا تزال في دور النقه بعد الحرب الأهلية . ثم ان البحر المتوسط بدا بعيداً جداً عن المصالح الأميركية . ان تخلف الرئيس لم يكن استخفافاً مقصوداً أكثر من كون احياء تجارة القطن الاميركي محاولة متعمدة لإضعاف الانتعاش المصري . كان في بور سعيد قنصل اميركي لكن السفن الاميركية لم تشترك في الاحتفالات . وقد كان للاميركيين مشروع خاص يضاهي ما حدث في سنة ١٨٦٩ الا وهو السكة الحديد الأولى عبر القارة . الآن وقد واجهت اميركا محيطين لا بحرين اصبح اهتمامها الرئيسي بالقناة انها دليل على ان مثل هذا المشروع ممكن ، فشجع ذلك الأميركيين على إكمال قناة بنما الخاصة بهم بعد بضع سنين ، ودفع دي ليسبس الى فشل لا يقل عن نجاحه الحالي حين حاول عبثاً ، وهو عجوز وعنيد في ظروف جغرافية مختلفة جداً ، ان يجعل من قناة بنما خندقاً مفتوحاً مثل قناة السويس .

أما الضيف الذي لن يأتي فهو عضو العائلة المالكة البريطانية المأمول. ذلك بان قصر وندسور لم يعرض ان يقف أمير بجانب السفير البريطاني في القسطنطينية على ظهر الطراد « رابيد » .

قام نائب الملك المصري (كما يعرف عموماً خارج مصر) برحلة شخصية الى أوروبا ليجمع ضيوفه . في حزيران (يونيو) زار لندن ونزل ضيفاً على أمير ويلز . وضع له برنامج حافل اشتمل على عجائب التكنولوجيا (ركب القطار الجديد تحت الأرض)، والمجتمع الإنجليزي (زار الملكة الأرمل في وندسور) . كان امير وأميرة

ويلز قد تفقدا في الآونة الأخيرة العمل في قناة السويس وناما في كوخه ، فردا له الضيافة . أخذوه الى حفلة كاليدونيان الراقصة ، والى مهرجان حضره ثلاثون ألف شخص زين بعدد من تماثيل « ابو الهول » وذلك في قصر كريستال . كتبت صحيفة الاستريتد لندن نيوز ما يلي : «في صباح الأربعاء تفقد نائب الملك يصحبه أمير ويلز ودوق ساذرلاند فرقة الإطفائية في حدائق قصر باكنجهام فأعجب بآلات مكافحة الحريق ، وأثنى على رئيس الفرقة الكابتن شو وعلى نشاط رجاله . وزار سموه في اليوم نفسه رئيس أساقفة كنتربري ، والسفير التركي ، والسفير الفرنسي ، ورئيس مجلس العموم ودوق ارجايل ، وإيرل جرانفيل وتعشى مع بعض النبلاء في ستروبري هيل.

على الرغم من هذا الترحيب الحار لم يستطع اسماعيل ان يقنع العائلة المالكة البريطانية بحضور حفلة افتتاح القناة ، فقد قاوم البريطانيون القناة بقوة فكيف يؤيدون إكمالها علناً ؟

ترجع المعارضة البريطانية للقناة الى الشك في فرنسا المنافسة التقليدية لبريطانيا . اذا فتحت قناة يبنيها الفرنسيون ويمتلكونها البحر المتوسط على المحيط الهندي ، واذا سكنت منطقة القناة مستعمرة من المدراء الفرنسيين ، فان فرنسا لا تفصل مصر فعلاً عن الامبراطورية فحسب بل تكون قريبة من فرض حمايتها على البلد بأسره. ثم ان هذا الواقع الاستراتيجي الفرنسي في منتصف طريق الامبراطورية الهندية التي حلت محل المستعمرات الضائعة في اميركا الشمالية سيكون خطراً كبيراً على بريطانيا . لا ريب ان فرنسا كانت حليفة بريطانيا منذ حرب القرم حين رأى نابوليون الثالث من الملائم دعم السلطان العثماني ضد قيصر روسيا ، ولكن لم يكن من المؤكد ان تظل هذه سياسة نابليون او ان يبقى نابليون نفسه في الحكم ، وقد ترتد حكومات فرنسية جديدة الى السياسات القديمة المعاكسة للمصالح البريطانية حيث وجدت .

حين اعطى سعيد باشا دي ليسبس امتيازه لا بد من ان يكون قد بدا لبالمرستون تجديداً « للخطط الشريرة » التي تنبأ بها يوم راودته فكرة مستعمرة يهودية في فلسطين . كان اول ردود فعله ان يصف مشروع القناة بأنه باهظ جداً وغير مربح ، لكنه اضاف بعد ذلك التحذير من انها اذا بنيت كانت ضارة بانجلترا لان فرنسا ، في اي نزاع بينها وبين انجلترا ، تكون أقرب كثيراً من القناة ، وتسبق الى ارسال السفن والجنود الى البحار الهندية .

لذلك بذلت بريطانيا نفوذها القوي في القسطنطينية لإجهاض المشروع ، فضغط السفير البريطاني ، اللورد ستراتفورد ردكليف ، على الحكومة العثمانية وضغطت الحكومة البريطانية على فرنسا . مضت اربع سنوات دون ان يستفاد منها بين حصول دي ليسبس على الامتياز وبين طرحه أسهم شركة قناة السويس العالمية . لم تشتر الحكومة

البريطانية ولا غيرها من الحكومات هذه الأسهم ، فجاء معظم الاشتراك فيها من صغار المستثمرين الفرنسيين . كان على دي ليسبس ، لتثبيت الشركة قانونياً ان يطلب الى صديقه سعيد باشا شراء بقية الأسهم . لم يؤيد الامتياز بفرمان عثماني بعد ، ولكن دي ليسبس بدأ حفر القناة سراً . بدا في فترة ما ان الضغط البريطاني اصاب نجاحاً ، فقد اصدر الصدر الأعظم العثماني بتحريض من سير هنري بولوير ، السفير البريطاني الجديد ، امراً الى سعيد باشا بوقف العمل الذي وصفته بريطانيا بأنه « احتيال سياسي وخاص » . كاد سعيد المتردد يخضع لولا ان دي ليسبس استغل آخر ورقة في يده : قرابته من يوجين. اقنعت الامبراطورة زوجها بأن مصلحة عشرين الف مستثمر فرنسي تستحق الاصطدام ببريطانيا . واذ خسرت بريطانيا معركة التآمر أخذت تهاجم القناة على اسس مجردة غير استعمارية . اغضب الانسانيين تشغيل العمال المصريين بالسخرة (على الرغم من ادعاء دي ليسبس انه احسن تغذيتهم واعتنى بصحتهم) ، واثار تنازل سعيد للشركة عن الأرض التي سترويها قناة الماء العذب شك العثمانيين والمصريين والبريطانيين وان اختلفت اسبابه . رأى اسماعيل امكان انتزاع القناة من دي ليسبس ، فحاول معتمداً على رفض السلطان للعمل بالسخرة ومنحة الأرض ان يشتري في باريس اسهم قناة السويس سراً حتى يصبح هو المسيطر عليها لا دي ليسبس . ولكن دي ليسبس تغلب على اسماعيل كما تغلب على معارضيه السابقين . واذ كان اسماعيل ينتظر عطف الامبراطور فقد وافق على تحكيمه في قضية عمل السخرة والأرض ، فجاء قراره مخيباً لآمال اسماعيل ولمصالح بريطانيا . سمح القرار لاسماعيل بسحب عمل السخرة والأرض مقابل تعويض مالي يعادل تماماً ما يملكه من اسهم القناة ، وقد جاء ذلك ملائماً لدى ليسبس لأنه كان في تلك المرحلة أحوج الى المال منه الى العمال ، فقد انتهت المرحلة الأولى الصعبة التي كان عليه فيها ان يحفر خندقاً يشق المستنقعات الشمالية وهو عمل لا تفيد فيه الآلات بل لا بدّ من ازاحة الطين وتكويمه على الجانبين بالأيدي وتركه للشمس تجففه . لقد وفّر قرار الامبراطور المال لدي ليسبس وحفظ القناة لفرنسا . كان انهاء القناة اكبر هزيمة سياسية لبريطانيا في القرن التاسع عشر ، ولكنه كان ايضاً كما أدرك اصحاب النظر الانجليز انه سيخدم مصلحتها . رحبت لندن بدي ليسبس في السنة التالية كبطل ، وما لبثت حصة السفن البريطانية في عبور قناة السويس ان اصبحت هائلة ، ومع ذلك فان افتتاح القناة لم يكن بالنسبة الى بريطانيا المشهورة بهدوئها مناسبة تكرمها بارسال امير إليها .

وصفت يوجين حفلة استقبالها في بور سعيد بأنها « سحرية » . في مثل هذه الحفلات يتذكر المضيف الضيوف الذين أهملهم .

كان اسماعيل قد حذف من قائمة المدعوين عمداً ثلاثة من الحكام المسلمين المستقلين هم شريف مكة ، وباي تونس ، وشاه ايران . ذلك بانهم كانوا بعيدين جداً ، غير مستقرين وغير فعالين ، فلا يستحقون الدعوة . ثم لقد اشتكى الخديوي من انه ليس لديه سوى سبعة قصور تصلح لنزول الضيوف الملكيين .

يشك في ان يكون ذلك قد أزعج شريف مكة كثيراً او الباي او الشاه . فالشريف ربما عبّر عن ازدرائه للمكدوني الحديث النعمة ، وربما غمغم الشاه بشيء عن ذوق تاجر التبغ ، اما الباي فقد كان مشغولاً بديونه الفادحة . لكن حتى لو لم يعترضوا أصبحت علاقات مصر بهذه الدول الثلاث خاصة فاترة في القرن التالي.

اما الحاكم المسلم الذي لم يحضر حفلة الافتتاح ، وقد كان يهم اسماعيل حضوره ، فهو سيده الاقطاعي السلطان — الخليفة العثماني . منذ ان توفي عبد المجيد في سنة ١٨٦١ اصبح اخوه الأصغر عبد العزيز سلطاناً . كان عبد العزيز حاد الطبع ، سريع الغضب ، مسرفاً ، متقلباً ، ومضطرب الفكر . ومع ذلك حافظ اسماعيل على علاقات ودية بسيده خلال السنوات الأولى من حكمه . في سنة ١٨٦٣ سافر الى القسطنطينية من اجل تنصيبه التقليدي فكانت لذلك نتيجة لا سابقة لها وهي قبول السلطان دعوته لزيارة مصر ، فان احداً من سلاطين آل عثمان لم يزر مصر منذ ان احتلها السلطان سليم في سنة ١٥١٧ . كانت الزيارة مجاملة عظيمة لاسماعيل . وصل السلطان الى الاسكندرية في شهر نيسان (ابريل) ، وقطع الدلتا الخضراء الى القاهرة بالقطار فاعجب به كثيراً كما اعجب بالمدن المصرية الغربية النسق السريعة التقدم . خلع السلطان عبد العزيز على اسماعيل سيف الشرف ، وعلى امه اكبر وسام عثماني ، وعلى نوبار رتبة الباشوية ، فكان في هاتين الايماءتين منه الى امرأة وأرمني مسيحي تلميحاً الى انه سيقلد اسماعيل كما قلد ابوه محمود الثاني من قبل محمد علي باشا .

فهم عبد العزيز رغبة اسماعيل في إضافة الهيبة الى الثروة . واذ كان للسلطان الكثير من الهيبة ، فقد راى انه يستطيع ان يفيد من اموال اسماعيل التي لا حدّ لها . كانت امنية اسماعيل الخاصة تغيير نظام وراثة الحكم بحيث يخلفه بعد موته توفيق ، اكبر اولاده ، وكان عبد العزيز يود ان يفعل الشيء نفسه لولده لكنه يعرف استحالة ذلك نظراً الى قوة التقليد العثماني . بيد انه اصدر في سنة ١٨٦٦ فرماناً ينص على ان بالامكان اتباع النظام الأوروبي في مصر ، وهكذا اعلن توفيق وريثاً لأبيه اسماعيل . ومقابل هذا الفرمان ، والتنازل لمصر عن ميناءي سواكن ومصوع على البحر الأحمر ، رفع اسماعيل الأتاوة السنوية من ثمانين الف كيس الى مائة وخمسين الفاً . وفي السنة التالية رفع السلطان رتبة إسماعيل نفسه ، فمنحه لقباً جديداً أفخم من الباشوية واقل إيحاءً بالتبعية . كان البحث عن لقب ، دون الاستقلال قليلاً

لكن يشير الى الحكم الذاتي ، شيئاً متعباً . لا يمكن اطلاق لقب سلطان أو باديشاه عليه لأنهما لقبا السلطان العثماني ، او لقب ملك لأن كلمة ملك تبدو نافرة في الآذان الشرقية ، او لقب شريف لأنه يجب ان يكون من سلالة الرسول ، ولذلك اصطلح اخيراً على لقب « خديوي » المستمد من كلمة ايرانية . كان سحر هذا اللقب الجديد في استعصائه على التعريف ، وفي كونه أروع من لقب باشا وأقل دقة من نائب الملك .

لم تسمم المعارضة العثمانية للقناة العلاقات بين السلطان والخديوي . كانت لاسماعيل ، كمصري بالتبني ، احتياطاته الخاصة فيما يتعلق بالممر المائي المقترح . قال « لا احد اكثر تحمساً للقناة مني ، ولكن اريد ان تكون القناة لمصر لا ان تكون مصر لها » . واذ ادرك خطر مستعمرة فرنسية في برزخ السويس ، فقد اشترى الأرض التي اخذها دي ليبسبس من عمه . كذلك كان واعياً ، كما كان السلطان ، ان أياً منهما ليس حراً تماماً . انهما يعيشان في عالم بعض الدول فيه قوي والبعض غير قوي . ثم ان معارضة السلطان للقناة قد توقفت ، وصدر في آذار (مارس) ١٨٦٩ فرمان يفوض الى حاكم مصر انشاء قناة عبر برزخ السويس . وبما ان دي ليبسبس كان قد أكمل شق القناة فقد جاء الفرمان اجراء لحفظ الوجه لم يسيء اي من الفرقاء فهمه .

كان النزاع بين اسماعيل وعبد العزيز حول الهيبة ، تلك التي حصل عليها اسماعيل وقد يفقدها، والتي شعر السلطان ان اسماعيل عرضها للخطر بأعماله. ان دوافع الحسد والخوف تؤثر في رجال الدولة الشرقيين بصورة أكثر علناً من تأثيرها في نظرائهم الغربيين. كلا السلطان والخديوي كان غير واثق من نفسه تماماً، وكلاهما كان يخشى المؤامرات ضمن دوائر أسرته ، واخيراً عوضت الهيبة كليهما من السلطة التي افتقر اليها . أظهر اسماعيل الأهمية التي يعلقها على الهيبة بالرشوة التي قدمها لرفع رتبته ، واعتاض عبد العزيز من المناطق التي فقدها بادعائه أن السلطان الذي احتل مصر في سنة ١٥١٧ قد تقلد نيابة عن جميع الحكام العثمانيين الذين خلفوه هالة الخلافة . ولهذه الخطوة مثيل غريب في البابوية المعاصرة ، فإن البابا حين تقلصت ممتلكاته ، واصبح بيوس التاسع حبيس الفاتيكان ، إدعى العصمة.

كان الحافز على هذا النزاع في الهيبة مصطفى كامل أخا اسماعيل من أبيه ، وهو الذي كان وريث اسماعيل الى ان صدر فرمان ١٨٦٦ . خاف مصطفى كامل من اخيه على نفسه ، فترك القاهرة يوم ارتقى اسماعيل العرش واستقر في القسطنطينية . واذ كان مجدداً كأخيه وخالياً من مسؤولياته فقد اخذ يرعى مشاريع الاصلاح الدستوري لا مدّ الخطوط الحديدية وشقّ القنوات . اخذ من اسماعيل قرضاً بمليوني جنيه مقابل املاكه في مصر ، واستعمل هذه الثروة التي تعدّ هائلة بالنسبة الى

ثروة الطبقة العليا في القسطنطينية في ذلك الزمن في جعل نفسه قائد الرأي التقدمي في العاصمة . ربما تصور ان يصبح خديوياً (اذا مات اسماعيل او خلع) او صدراً اعظم في الامبراطورية العثمانية . بيد ان هذه المطامح ازعجت السلطان عبد العزيز الشكاك بطبعه ، واذ اصبح مصطفى كامل يخشى السلطان ايضاً ، فقد رحل الى باريس ، واصبح بيته فيها ملتقى المصلحين العثمانيين المنفيين .

في سنة ١٨٦٣ ارسل الأمير الثوري الى السلطان كتاب تحذير مطولاً بالفرنسية حضّه فيه على اصلاح الامبراطورية على اسس دستورية ، وقد ترجم الكتاب الى اللغة التركية ووزع داخل الامبراطورية .

ما دام السلطان لا يثق بمصطفى كامل بسبب آرائه المتطرفة بقيت علاقات اسماعيل به ممتازة . وقد كانت ريبة السلطان في مصطفى احد الدوافع الى اصدار الفرمان الذي حرمه وراثة عرش مصر. بيدأن الوضع تبدل فجأة في سنة ١٨٦٧. ذلك بأن عبد العزيز زار فرنسا في تلك السنة ، فجاءه مصطفى كامل محيياً ، واعتزل امامه القيادة الثورية ، وانضم الى بلاطه .

اصبحت ترضية مصطفى كامل للسلطان خطراً على اخيه اسماعيل ، فقد اوجد ذلك مرة اخرى سبباً لتخوف اسماعيل من اقربائه الذكور . كان مصطفى كامل اشدهم خطراً عليه ، ولكن الخديوي لم يستطع ان يتجاهل الأمير حليم ، احد ابناء محمد علي ، الذي لمع اسمه في وادي النيل . ولحسن حظ اسماعيل كان الاميران المنافسان له مبذرين ، فاعطاه ذلك سلاحاً نافعاً ضدهما : اخذ يقرضهما المال لقاء املاكهما في مصر (التي يخشيان زيارتها شخصياً) ، وبذلك اسكتهما وساعدهما على الانغماس في الخراب الماليّ .

بيد ان هذا السلاح نافع ما دام اسماعيل جالساً على عرش مصر ، اما إذا أقاله السلطان انعكس الدوران واصبح اسماعيل فقيراً .

ان الخطة التي رسمها اسماعيل لجولته في اوروبا في سنة ١٨٦٩ كانت مجردة من اللباقة جداً ، اعطت مصطفى كامل الفرصة لمكافآت جزيلة : لا استرداد املاكه في مصر فحسب بل مصر نفسها أيضاً .

لو ان اسماعيل بدأ جولته من القسطنطينية لأصدر الدعوات الى حفلة افتتاح القناة باسم السلطان وباسمه . بيد انه اخطأ في وضع العاصمة العثمانية في اسفل القائمة عازماً على زيارتها بعد ان يكمل زياراته للعواصم الأوروبية الرئيسة ، ومن ضمنها سان بطرسبرج ، وبعد ان يكمل « استشفاءه » . وقد ضاعف ذلك الخطأ بجعله جزيرة كورفو الجميلة اول مكان يزوره حيث قابل ملك اليونان عدوّ السلطان اللدود . واذ تابع اسماعيل جولته شمالاً في اوروبا اثار الترحيب شبه الملكي الذي قوبل به حنق

السفراء العثمانيين ، فارسلوا تقارير في ذلك الى السلطان . ازعجت المضيفين الشكاوى العثمانية فلمحوا لاسماعيل بأنه يتصرف بطريقة غير حكيمة ، وانه اختار فترة غير ملائمة لعمل غير حكيم . وحدث ان مات الصدر الأعظم الذي كان راضياً عن اسماعيل وحلّ محله علي باشا الذي استاء من تباهي اسماعيل بالذهب الذي كان يحصل عليه عن طريق عقد القروض . رددت مجلة تصدر في القسطنطينية باللغة الفرنسية آراء الصدر الأعظم ، وكان اسماعيل في لندن ، فقالت ان اسماعيل مجرم يجب ان يحاكم بتهمة الخيانة العظمى . كانت الحكومة البريطانية قد انزلت اسماعيل في قصر باكنجهام لا في الفندق الذي اقام فيه خلال زيارته السابقة ، فاضطرت وزارة الخارجية الى الدفاع عن نفسها بقولها ان الحفاوة باسماعيل كانت مجرد إكرام ، وانها لا تنطوي بأية طريقة على الاعتراف به ملكاً مستقلاً . في تلك الأثناء استقال اثنان من الباشوات الاتراك من خدمة اسماعيل ، ووصل مصطفى كامل الى القسطنطينية في ١٢ تموز (يوليو) حيث عين وزيراً بلا وزارة ، واشيع ان السلطان يوشك ان يخلع اسماعيل ويضع اخاه في منصبه .

استبد الذعر باسماعيل الى حدّ ان الغى زيارته لسان بطرسبرج ، وعدل عن الاستشفاء ، ورجع الى القاهرة مسرعاً ، وارسل منها الى السلطان كتاباً يبرر فيه تصرفه ويقول : « خلال رحلتي في اوروبا قبلت شاكراً دعوات شرفني بها بعض الملوك ، واذا كنت قد دعوت هؤلاء الملوك او بعض افراد اسرهم للمساعدة في افتتاح القناة فانما فعلت ذلك بحكم المنصب السامي الذي احتله في رعاية صاحب الجلالة. واذا كان هؤلاء الملوك قد اظهروا في حفلاتهم اية ادلة على التقدير والاعتبار فانما مرد ذلك الى مركزي المحترم كتابع لصاحب الجلالة ، وما هو إلاّ احدى النتائج السعيدة للانعامات الكريمة التي انعم بها عليّ . واود ن اضيف ان من المعروف عموماً انه لم يرتكب في تلك الظروف اي عمل يفسر بأنه مخالف لحقوق السلطان المقدسة ، تلك الحقوق التي اضعها فوق كل حقوق اخرى ، والتي اعرف كيف اقدر قيمتها واهميتها » .

اشتكى السلطان من تجنب الخديوي في رحلته السفراء العثمانيين ، فاحتج اسماعيل على ذلك بقوله إنه غير صحيح ، فقد دعا جميل باشا وداوود باشا الى عشاء عائلي في بيته .

على ان ذلك لم يرض السلطان . فلا هو ، ولا الصدر الأعظم ، ولا موظفو الحكومة العثمانية سرّهم افتتاح القناة ، ولم يشترك في افتتاحها الاسطول التركي والأميركي .

انتهت حفلة الافتتاح ، ولم ينتظر اسماعيل طويلاً النتيجة المشؤومة . في ٩ كانون الأول (دسمبر) رجعت يوجين الى فرنسا ، وجلس الخديوي في مكتبه في قصر

عابدين يزن فتنة حضورها بنفقاتها ، واذا بالباب يقرع ، فقد وصلت اخبار مستعجلة. في ٢٩ تشرين الثاني (نوفمبر) وقع عبد العزيز في القسطنطينية فرماناً ووردت فيه بعد عبارات التحية العادية المختصة الجملة التالية : « اريد ألاّ تعقد في المستقبل قروض إلاّ اذا ثبتت ضرورتها المطلقة ، وسبق الحصول على موافقتي عليها » .

ان عبد العزيز ، الذي كان كتابعه مسرفاً ومديناً ، عرف متى واين يوجه ضربته ، فقد كانت الفواتير مكدسة فوق مكتب الخديوي في قصر عابدين .

الفصل الرابع

كان النزاع بين اسماعيل وعبد العزيز ، على أحد المستويات ، نزاعاً بين شخصين حاسدين وغير مستقرين . أما نزاعهما في الهيبة فانه ينطبق على الشرق حيث ينظر الى السلطة دوماً على اساس شخصي ، واذ يعمل الأقارب في تفاقمه ، ويتداوله موظفو القصر فان من السهل توسيعه . ذلك بأن الإخوة والأعمام يمكن استرضاؤهم ، وموظفي القصر رشوتهم . إن سحر اسماعيل ورهبة عبد العزيز الدينية ظاهراً قد يمتزجان ويؤديان الى السلام .

بيد ان هذا الخلاف كان ، على مستوى أعمق ، بين الحاكمين المسلمين الوحيدين اللذين لهما شأن في العالم ، وما يرمز اليه من انعدام الثقة قد دام بعدهما . وأضعف المقاومة الاسلامية لقوتين من اوروبا الصناعية — الراس مالية والاستعمار — لم يكن السلطان ولا الخديوي مجهزين لفهمها فكيف بصدّهما .

سار النزاع على المستويين مقابل تحول في توازن القوى الأوروبية . ربما لم يلاحظ اسماعيل غيوم الحرب المتلبدة في سماء اوروبا وهو يدقق الفواتير ، لا ما يخص منها الحفلات والقصور التي بناها او أصلحها منذ ١٨٦١ فحسب بل ايضاً المدارس والمستشفيات والمنارات والطرق والسكك الحديد التي كان مشغولاً بانشائها . في ايار (مايو) ١٨٧٠ تحدى اوامر السلطان وعقد قرضاً مع مصرف في بروكسل جعل املاكه الشخصية ضمانة له ، وكان خامس قرض كبير عقده خلال حكمه ، تسلم خمسة ملايين جنيه استرليني من قيمته الاسمية التي بلغت سبعة ملايين . غضب السلطان . ترى هل يلغي فرمان ١٨٦٩ الامبراطوري ام ان الوقت قد حان لعزل اسماعيل ؟ كانت حجة اسماعيل بأن القرض انما عقد لقاء املاكه الخاصة في محلها ، ولكن كان على اسماعيل كي يقنع من هم بحاجة الى الاقناع ان يذهب بنفسه الى العاصمة العثمانية . ولم تكن في ذلك مشقة بالنسبة الى الخديوي، فقد كان يملك قصراً رائعاً على البسفور على بعد اميال قليلة من القرن الذهبي . كان اسماعيل ، كالطبقة المصرية العليا عامة ، يكره قضاء الصيف في القاهرة لا سيما وان فيضان النيل يضيف الرطوبة الى حرّه . ثم ان لديه الوسيلة للوصول الى البسفور براحة ، وفي مقدوره ان يأخذ معه الحريم والأطفال في يخته المحروسة ، او خير من ذلك ان يرسلهم قبله . ذكرت مربية ابنته الانجليزية ان

« اليخت سار بيسر . قطعنا اربع عشرة عقدة في ساعة وان كنت اعتقد ان هذه ليست سرعته القصوى . طوله اربع واربعون قدماً ، وله اربعة محركات قوة كل محرك ثمانمائة حصان ، وحمولته ٣٥٥٠ طناً . بيد ان ما ازعجنا فيه ان مدخنتيه الكبيرتين كانتا قرب وسطه ، ولذلك فان ظهر اليخت الذي نقضي فيه وقتنا يقع بينهما، فتشتد الحرارة فيه ولا نجد لنا مهرباً منه الى مكان ما سوى البقاء في احد الأكشاك الأمر الذي لم يلائم السيدات الشابات ابداً » . واذ مرّ اليخت بالقسطنطينية كان على النساء ان يدخلن الى غرفهن لأن الآراء التقدمية لدى الرجال في سفن الصيد وعلى ارصفة الميناء اقل منها لدى الخديوي . ثم ان هذه الأوامر كانت تسري حتى على المربية التي لجأت الى صالون اليخت . « كانت النوافذ كبيرة ، فتمتعت بالمنظر الجميل على الجانبين ، ولكن حين مررنا من امام جامع آيا صوفيا اسدلت الستائر ببطء وتركنا في الظلام . كانت كغطاء كثيف ألقي عليّ ، ولكن لا مفرّ منه ، فلا بدّ من ان امضي الساعة التالية وانا امرّ بأجمل منظر في العالم كمن فقد نعمة النظر . بيد ان هذه النعمة رجعت اليها حين ألقى اليخت مرساته في اميرجيان . هنا حيث ترتفع شواطىء البسفور عن الماء بصورة منحدرة — وتكون باردة حتى في الصيف — انشأ الخديوي متنزهاً وحديقة على الطراز الانجليزي . « كانت على منحدر التل أجمات ، ومروج معشوشبة ، وازهار ، وممرات عريضة مفروشة بالحصباء متعرجة كي تجعل الصعود سهلاً . كان كل ممرّ مشرفاً على منظر جميل يتسع كلما ارتفع مدرج على الذي قبله ، وكان عند قاعدة التل البسفور الذي يمتد كنهر عريض نحو عشرين ميلاً ويصل البحر الأسود ببحر مرمرة » . اما اجمل منظر فهو جبل اولو داج الذي يقع في الجنوب الغربي ويكسو الجليد قمته حتى في الصيف .

وصل الخديوي اميرجيان في ٦ تموز (يوليو) وكانت نفسيته جيدة بعد ان قدم الاحترام الى عبد العزيز في قصر دولمابغشه. أصبح قصر توبكابى في استنبول القديمة « قصر الدموع » حيث خصيان السلاطين السابقين يحيون حياة كئيبة مضجرة ، اما دلمابغشا فقد جاء ملائماً لأذواق ابناء محمود الثاني العصرية اذ شيد على طراز كورنتي . كانت هدية الملكة فكتوريا ، وهي اكبر ثريا في العالم ، معلقة فوق سجادة تعادلها ضخامة ، بينما قوبلت هدايا الخديوي ولا سيما المال باستحسان . ومقابل ذلك اخبر السفراء ان الخديوي لم يتجاوز حقوقه . ومما زاد في تحسن الوضع تسوية الخلاف بين اسماعيل وبين اخيه مصطفى كامل ، وكذلك بينه وبين الأمير حليم .

على ان الشمس التي كانت تشرق من خلال السرو الذي اشتهرت به اميرجيان

— والذي يختلف كثيراً عن النخيل المغبّر والتين البنغالي الكئيب في القاهرة — قد اظلمت فجأة . جاء في برقية من باريس ان فرنسا منذ ١٩ آب (اغسطس) في حرب مع الألمان الشماليين ، وانها خسرت في نهاية الشهر معركة سيدان ، ووقع نابليون الثالث اسيراً في الأسبوع الأول من أيلول (سبتمبر) ، وفي آخر الشهر انتقلت الامبراطورة التي كانت نجماً ثابتاً في سماء اسماعيل الى فيلاّ في شيسلهيرست . وهكذا فان باريس التي يطوقها الجيش البروسي ، ويحكمها المتمردون من اعضاء الكوميون ، لن تكون في هذه السنة والسنة القادمة نجماً ثابتاً .

كان صدى هزيمة فرنسا سريعاً في الشرق الأوسط . ذلك بأن قيصر روسيا الذي ساعد بسمارك بالوقوف على الحياد شعر بأنه اصبح حراً في التخطيط لنقض هزيمة حرب القرم . لكن امكان تقدم روسي ينطوي على انهيار عثماني أذعرَ بريطانيا . واذا كانت الامبراطورية ستنهار ، وتقطعها روسيا او النمسا ، فان انجلترا المذعورة قد تلتهم اطيب قطعة فيها : مصر القناة المفتوحة .

أمكن ان تبدو مصالح السلطان والخديوي في هذه الأزمة منسجمة ، لأن كلا منهما يضعفه وهن الآخر ، وتساعده قوته ، لكن في جوّ الريبة القديمة لم يكن احد منهما مستعداً للتعاون . رأى اسماعيل لنفسه خيارين : إما ان يرحب بالسيطرة الانجليزية ، او يندفع وراء استقلال أكثر ، وكلا الخيارين ينطوي على تحدي القسطنطينية .

في هذا المأزق بذل اسماعيل جهده سراً لعقد معاهدة تعمد بها اغضاب العثمانيين. كان على اتصال دائم بالسفير الروسي في القسطنطينية ، الجنرال اجناتييف ، الذي مثل القيصر في افتتاح قناة السويس ، والذي حاول ان يقنع اسماعيل بأن مصالح مصر ومصالح روسيا واحدة .

في ذلك الوضع لم يأتِ التحدي التالي للسلطان من البلقان ، حيث كانت روسيا ترعى الحركات الثورية ، بل من عسير المقاطعة الشمالية في اليمن في الطرف الجنوبي من الممتلكات العثمانية . (لم يسيطر العثمانيون ابداً على المرتفعات اليمنية) . ارسل السلطان اسُطولاً وقوة مسلحة عبر قناة السويس الى البحر الأحمر ، فاعتبر اسماعيل ذلك تهديداً ضمنياً له واخذ يفكر في تحصين السويس . نصحه اجناتييف بقوله : « سلّح نفسك . اتخذ كل خطوة للاستعداد لحرب طويلة . وقع معاهدات مع اليونان وصربيا وبلغاريا (ومن المؤكد ان نساعدك في ذلك) وفي الوقت نفسه قاوم ادعاءات السلطان تدريجاً » . طالما حلم الروس بالسيطرة على الممرات بين اوروبا وآسيا ، ولا ريب أن السيطرة على المضيق الذي يفصل آسيا عن افريقيا ايضاً ستقوي ذلك الحلم كثيراً .

اذا ظن السفير الروسي ان وراء النزاع بين اسماعيل وبين مليكه خطة عظيمة فقد خدع نفسه . لم يكن ما يقلق اسماعيل سوى حقه في جمع المال متى شاء ومن حيث يشاء. بيد ان الصدر الأعظم المصلح ، علي باشا ، منعه من ذلك ، وزاد عداءه لاسماعيل انه كان يرفض الرشوة . أما وقد أصبح علي باشا هرما ومريضاً فان انفتاح اسماعيل على الأجانب ، وتحديه للسلطان وفساده في استعمال المال ، كل ذلك مثّل في نظره مرض الامبراطورية .

مات علي باشا في ايلول (سبتمبر) ١٨٧١ وذهبت معه دوافع اسماعيل الى تحالف روسي . اما محمود باشا الذي حلّ محله فقد كانت الرشوة تسترضيه . وهكذا فتحت القسطنطينية ابوابها مرة خرى امام أموال اسماعيل، بيدأن بضعة اشهر مرت قبل ان حدد الثمن ، وقد كان مجموعة ادوات مائدة ذهبية مطعمة بالجواهر لعبد العزيز ، وخمسين الف بندقية لجيشه ، ونحو مليون جنيه استرليني نقداً ، ما عدا اولئك الذي رشاهم سراً ولم تسجل اسماؤهم ، ولكن تشير الى مستواهم حفلة الاستقبال التي اقامها اسماعيل في الذكرى السنوية لارتقاء السلطان عرشه ، وخصوصاً لتكريم امه السلطانة الوالدة ، فقد أضيء في ممرات الحذيقة مائة الف مصباح . « كانت مصابيح زجاجية كروية صغيرة مملوء نصفها ماء وفوق الماء زيت ، والفتائل عائمة فيه . عهد الى خمسمائة رجل بالعناية بهذه المصابيح ، بدأوا وضع الزيت يومين قبل الحفلة ، وقد تساقطت على الممرات قطرات كثيرة منه كأنما لتطغى على شذى الورود وتذكر المرء بمستودع إيطالي . كذلك أضيئت اليخوت البخارية الثلاثة الجميلة الراسية خارج القصر » . بدا لاسماعيل ان لهذا الانفاق ما يبرره ، فقد منحه السلطان بفرمانين صدرا في ١٠ و ٢٥ ايلول (سبتمبر) ١٨٧٢ حرية التصرف المالي التي كان بحاجة إليها ، اذ أمر عبد العزيز بما يلي : « منذ الآن ، وكلما دعت الحاجة الى عقد القروض في سبيل خير البلد ، أجدد وأثبت تفويضك باقتراض مبالغ من المال باسم الحكومة المصرية ، ولا داعي الى استشارتي في ذلك » .

كان عبد العزيز باعطائه اسماعيل هذا التفويض كمدمن خمر قدم صندوق ويسكي لمدمن آخر . كتب احد كبار مؤرخي تركيا الحديثة يقول : « كان المال من البداية الى النهاية الهوة الموحلة التي تلوثت فيها اكثر آمال المصلحين الأتراك اشراقاً ، وغاصت أبرع خططهم » . كان عبد العزيز واسماعيل مصلحين ، ولكن تبذيرهما أوقعهما في أشراك مالية قضت على حكمهما .

بدت رأس مالية القروض للشرق الأوسط ، تلك القوة الخفية بقواعدها في بروكسل وباريس وفرانكفورت ولندن ، واثقة بنفسها وسخية . كانت لا تزال

حديثة العهد تتحسس طريقها بحذر في القرن الأول من قوتها . كان المال عمل أسر مترابطة بأحكام ، أتى معظمها من ثلاث أقليات ، أولها قوة وأهمية اليهود الذين تمنعهم الشريعة الموسوية من تعاطي الربا إلاّ مع غير اليهود ويضطرهم ضغط هؤلاء الى ممارسة القليل من الأعمال الأخرى . بيد ان اسماء مثل روتشيلد واوبنهايم وبيشوفشيم كانت توازنها اسماء من الفئة الثانية وهي فئة الهيجونوت أو الكلفنيين في فرنسا . اما أندرى وماركوارد فقد وازنهما زافير روبولو وفلاستو نواة شتات يوناني .

منذ عصر النهضة والصيارفة الأوروبيون يخزنون المال ويقرضونه بفائدة ، أو يساعدون المسافرين بكتب اعتماد مسحوبة على فروعهم في الخارج . اما الشيء الجديد في رأس مالية القروض في القرن التاسع عشر فقد كان تقديمها قروضاً للتنمية الطويلة الأجل . من الخطأ تصوير روادها بأنهم قراصنة الثروات لأنهم انما كانوا خدمها الحذرين الثابتين . ان مبدأهم الذي يعتبر التخلف عن دفع الدين إثماً ضد العجل الذهبي قد شاركتهم فيه أكثرية معاصريهم من الأوروبيين الذين راوا في الثراء فضيلة وفي التبذير خطيئة . قدم اصحاب راس مال القروض ، بتردد وتخوف ، الدعم المالي لأهم الأعمال في الأربعينات ، اي بناء السكك الحديد ، وقد زاد نجاح هذا المشروع ثقتهم بأنفسهم . وفي الوقت نفسه حولت احوال التجارة الدولية اهتمامهم عن اميركا واوروبا الى الشرقين الأدنى والأقصى ، وكانت بريطانيا طليعة هذا التحول في المصالح . في اواخر الخمسينات تقلصت الصادرات البريطانية الى الولايات المتحدة الى الثلثين بينما زادت صادراتها الى الهند من اثني عشر الف جنيه استرليني في سنة ١٨٥٧ الى واحد وعشرين الفاً بعد سنتين . وقوّت الحرب الأهلية هذا الاتجاه ، فهبطت المستوردات البريطانية من الولايات المتحدة من تسعة واربعين مليون جنيه استرليني في ١٨٦١ الى ثمانية عشر مليوناً في ١٨٦٤ . اصبحت للشرق الأهمية العظمى ، فارتفعت الصادرات الهندية الى بريطانيا من اثنين وعشرين مليون جنيه استرليني الى اثنين وأربعين مليوناً في الفترة القصيرة نفسها . ومع ان مصر بلد صغير وقليل السكان بالنسبة الى الهند فقد أصبحت في ١٨٦٥ في المرتبة الثالثة بعد فرنسا والهند كمصدر للمستوردات البريطانية .

أصبحت منطقة التجارة المهمة الجديدة هذه ، التي يفكر حكامها بالترف وينتج فلاحوها سلعاً تغلق المصانع الانجليزية ابوابها اذا لم تتوفر لها ، عرضة للتغلغل الغربي . فيها ثروات يتطلب قطفها المغامرة . ذلك بأن المنطقة كانت تفتقر الى نظام مصرفي حديث . وبدلاً من ذلك كان الدائنون يتقاضون فائدة تتراوح بين ١٢ بالمئة و ٢٠ بالمئة في اكثر المشاريع سلامة ، كما كان امراً عادياً تماماً ان يطلبوا فائدة شهرية

تتراوح بين ٣ بالمئة و ٤ بالمئة ، بينما الفلاحون الذين يضطرون الى الاستدانة سنوياً على حساب محصولهم كانوا يدفعون ٦ بالمئة شهرياً .

في مثل هذا الوضع يستطيع خدم الثروات الأكثر تنظيماً ان يخدموا مصالحهم الخاصة ومصالح شعوب الشرق بصورة افضل ، او يضمنوا ذلك لأنفسهم .

ترأس عبد العزيز ،اول حاكم وقع في الشرك ، بنياناً مالياً متداعياً . كانت العملة العثمانية ، طوال القرن التاسع ، تفقد قيمتها باستمرار بالنسبة الى الجنيه الاسترليني ، وفي عهد والد عبد العزيز ، من ١٨١٦ الى ١٨٣٩ ، هبط سعر التبادل بينها وبين الجنيه الاسترليني من ٢٣ قرشاً عثمانياً الى ١٠٤ قروش . اما في عهد عبد العزيز ، وخصوصاً بعد موت علي باشا ، فقد سار اقتراض المال بسرعة كبيرة ، فبلغت الديون العثمانية في خريف ١٨٧٥ للدائنين الأجانب مائتي مليون ليرة ذهبية ، وهذا رقم خيالي في ذلك الزمن ، فائدته السنوية اربعة عشر مليون ليرة . يضاف الى هذا دين عائم يتراوح بين اثني عشر وعشرين مليوناً . بيد ان هذا المال المقترض لم يصرف كله عبثاً ، فقد تطلبت المجاعات في الأناضول إغاثة ، واحتاج الجنود المشغولون بالحرب مؤناً .

وصلت الأمور ذروتها في ١٨٧٥. ففي ٥ تشرين الأول (اكتوبر) اعترف محمود باشا بإفلاس الدولة العثمانية ، فاضطر الدائنون ان يمنحوها قرضاً جديداً طويل الأجل باعتماد مشكوك في امره . ذلك بأن الدائنين سيتسلمون بموجب شروط محمود باشا نصف الفائدة بالعملة الذهبية خلال السنوات الخمس التالية ، والنصف الآخر عملة ورقية بفائدة قدرها خمسة بالمائة . وكضمان لهذه الدفعات الموعودة تقرر ان يحتفظ البنك العثماني وديعة واردات الضرائب غير المباشرة ، وان يحتفظ بواسطة بنك لندن الأتاوة المصرية السنوية وقدرها ٦٥٠٠٠٠ ليرة، والباقي يدفع من ضريبة الأغنام .

أغضب هذا التعهد اصحاب الديون السابقة لأن الأتاوة المصرية كانت مخصصة لهم ، وحطم الوضع عموماً السمعة المالية العثمانية ، فلما ارادت الحكومة في الربيع التالي عقد قرض مستعجل بثلاثة ملايين ليرة لم تجد من يقرضها بفائدة تقل عن ٢٤ بالمائة .

لم يكن الانهيار العثماني صدمة للدوائر المالية فقط ، بل ارسلوا ايضاً اطباء ماليين لتشخيص المرض والإفادة منه .عرض الهر شنك ، نيابة عن السادة هيرش في فرانكفورت شراء السكة الحديد التي تمّ انشاؤها في البلقان ووضع راس المال اللازم لاكمال وصل فيينا بالقسطنطينية . واقترح شنك تعويضاً كبيراً وذلك ان يتنازل السلطان عن حزام من الأرض عرضه عدة ميال على جانبي السكة الحديد

يخصص « للاستعمار » .

ان خطة شنك (التي لم توضح من سيقوم بالاستعمار) لم تحظ بقبول السلطان الذي مهما افلس يظل سلطاناً ، ولم تلائم مصالح روسيا ، فرفضت .

اقترحت بيوت المال الانجليزية ما املت ان يكون اكثر قبولاً ، وذلك صندوق رهونات براسمال قدره اربعة ملايين جنيه يتولى مسؤولية جمع الديون . ولكن هذه الخطة ايضاً جاءت مخالفة للمصالح العثمانية لأنها تدخل « ادارة منفصلة واجنبية » الى البلد ولا تقل اعتداءً على السيادة العثمانية من اقتراح شنك ، كما أنها تهدد باحياء طريقة الالتزام السيئة في تحصيل الضرائب .

صحبت المأساة المالية حوادث كئيبة في البلقان . كانت نسبة كبيرة من اهل البلقان ، خلال الحكم العثماني الذي دام قروناً ، قد اعتنقت الإسلام لأسباب مختلفة . ومع ان هؤلاء البلقانيين المسلمين كانوا يعتبرون اتراكاً إلاّ ان معظمهم كان من البلغار أو المكدونيين او السلاف الذين انتسبوا الى الدولة العثمانية . أما أبناء وطنهم المسيحيون فقد اصبحوا اكثر قلقاً في ظل الحكم العثماني، وادّى ذلك بدوره الى جعل ذلك الحكم اكثر استبداداً ، وأخيراً الى الثورة ، فحدثت سلسلة من الانتفاضات القومية بعد ثورة اليونان في العشرينات ، واكتسبت العطف في الخارج .

في ٥ أيار (مايو) ١٨٧٦ وصلت الى سلانيك فتاة بلغارية لشأن لو حدث في الماضي لاعتبر عادياً ، ولو سبب استياءً لكان استياءً صامتاً . قررت تلك الفتاة أن تعتنق الدين الإسلامي بصورة رسمية . بلغ مسيحيي سلانيك عزم الفتاة على الردة فقبضوا عليها ، وحاول بعض المسلمين استرجاعها ، وفي أثناء تلك الفوضى الطائفية اغتيل قنصلا فرنسا وألمانيا للشك في اشتراكهما في مؤامرة ضد المسلمين .

هزّ الغضب اوروبا التي كانت قد فقدت الثقة بالعثمانيين في الشؤون المالية ، فرست السفن الحربية امام سلانيك ، بينما قام الجنود الفرنسيون والألمان بحراسة شوارع المدينة ، ودفن القنصلان بموكب مسيحي ، كما اعدم عدد من المسلمين بعد محاكمتهم .

لم يكن العثمانيون اولئك القساة المعتدين بأنفسهم كما تصورتهم اوروبا الغربية . واذا سلمنا بعجزهم كمصلحين ، إلاّ ان مقتل القنصلين روّعهم فعلاً ، واحتاروا فيما يفعلون في المقاطعات الثائرة . كذلك كانوا يعانون ، لا اقلّ من الأوروبيين ، استمرار قيمة النقد العثماني في التدني . في ٣٠ أيار (مايو) دخل على عبد العزيز ، وكان مختبئاً بين الحريم في قصر دولما بغشة ، جماعة من كبار الوطنيين واجبروه على التنازل عن العرش ، ونقلوه فوراً مع عدد من النساء الى « قصر الدموع » .

خلفه مراد الخامس ، وكان شاباً معتوهاً ارعبه دوره الجديد كسلطان . وافق في الحال على طلب عمه عبد العزيز نقله الى مكان اكثر بهجة ، فنقل في الليلة نفسها الى قصر شيراجان في اعلى البسفور بين دولمابغشه واميرجيان ، ولكن هذا القصر لم يرضِ السلطان المخلوع فطلب نقله الى قصر في الجانب الآسيوي من العاصمة حيث نزلت الامبراطورة يوجين خلال الصيف الذي زارت فيه مصر ، بيد ان ذلك الطلب جاء متأخراً اذ وجد عبد العزيز صباح الأحد ، بعد خمسة ايام من خلعه فقط ، ميتاً في احدى حجرات قصر شيراجان .

أفزع الحادث الحكومة الجديدة التي ترأسها مدحت باشا اعظم المصلحين العثمانيين في القرن التاسع عشر . ذلك بأن المصلحين عرفوا ، سواء أكانوا بريئين من موت السلطان او مذنبين ، انهم قد يلامون يوماً ما في موته . احضروا بسرعة الى الغرفة التي كان السلطان الميت مطروحاً فيها تسعة عشر طبيباً من بينهم بعض الملحقين بالسفارات ، فوقعوا تقريراً طبياً اكدوا فيه ان الميت هو عبد العزيز فعلاً ، وسجلوا ما رأوه بقولهم : « وجدنا جثة ملقاة على فراش فوق ارضية الغرفة ، مغطاة بشرشف جديد . كانت على ذراعيه ورجليه خطوط دم واضحة . لفت نظرنا الى مقص طوله عشرة سنتيمترات حاد جداً ملطخ بالدم بالقرب من رأس احدى شفرتيه نتوء خارجي صغير ، قيل لنا إنه الأداة التي أوقع بها المرحوم السلطان عبد العزيز في جسمه الجروح التي تقدم وصفها . أجمع رأينا اولاً على ان موت السلطان السابق نتج عن نزف من الأوعية الدموية في ثنايا الذراعين ، ثانياً أن الأداة التي لفت نظرنا إليها قد تسبب تماماً تلك الجروح ، وثالثاً ان اتجاه الجروح وطبيعتها والأداة التي قيل إنها قد احدثتها جعلتنا نستنتج ان الحادث كان انتحاراً » .

مع ان الفحص كان سريعاً — لأن رجال الدين الذين كانوا يقرأون فوق جثة السلطان حالوا دون فحص دقيق — فإن احضار شهود من ارباب الاختصاص كان شيئاً جديداً في بلد من تقاليده ان يوضع الشخص غير المرغوب فيه في كيس ويرمى في البسفور . لكن لا تقرير الأطباء ولا نزاهة مدحت باشا بدّدا كل الشكوك . ذلك بأن الانتحار نادر جداً بين المسلمين الذين نشأوا منذ القدم على تقبل قضاء الله وقدره ، ولم يسبق ان انتحر احد من الخلفاء . كان الفحص اقل من مثاليّ . رفعت جثة السلطان من بين ذراعي امه اللذين مات عليهما ، ووضعت على الفراش الذي تقدم وصفه. أما الجروح وان كانت تنسجم مع الانتحار إلاّ ان بالإمكان ان يكون قد احدثها مغتالون .

كان للانهيار المالي وحادث العنف الذي جرى في القصر صداهما في تضاؤل السلطة العثمانية في البلقان . احرق موظفو الامبراطورية الغارقة القرى ، واخذوا

الرهائن ، واطلقوا الرصاص على الجواسيس ، وعذبوا المشبوهين ، وبكلمة وجيزة اتبعوا طرق الامبراطوريات الناشئة في القرن التالي . بيد ان اوروبا استطاعت ، في تلك الفترة التي لحق فيها الخزي بالعثمانيين ، ان تقرع اجراس السخط ، فقد هبّ من انجلترا التي كان جلادستون يرئس حكومتها إعصار اكتسح المصريين والأتراك على السواء . أعرب جلادستون ، في نشرة مكرسة للسفير البريطاني الذي قاوم فتح قناة السويس ، عما بدا بعد تسعين عاماً خدعة مبالغاً فيها ولكن كان لها أثرها في حينها :

« ليحمل الأتراك الآن مفاسدهم بالطريقة الوحيدة الممكنة ، اي بالرحيل . أرجو ان يغادر كل ضابط منهم ومدير وبمباشي ويوزباشي وقائمقام وباشا الولاية التي خربوها ودنسوها . ليس في السجون الأوروبية مجرم ، ولا في جزر بحار الجنوب أحد من آكلي لحوم البشر ، لم يغضب ويثر لدى سماعه ما قد جرى . قد تحقق في حوادث العالم ولكنني لا اعرف اي تحقيق يمكن ان يزودنا بمثل اروع من سوء الاستعمال الشرير للقوى التي اقرها الله لقلب فاعلي الشرّ وتشجيعهم على عمل الخير . ليست هناك حكومة خاطئة كهذه ، وليس هناك من اثبت مثل هذا العناد في الخطيئة أو العجز عن الإصلاح » .

كان مراد الخامس ذا ضمير حساس ، مثل جلادستون ، لكن أقلّ منه بياناً ، وقد أزعجته طريقة موت عمه ، بيد انه خلع بعد حكم دام ثلاثة اشهر على اساس الضعف العقلي وحلّ محله عبد الحميد الثاني ، اخوه الأصغر والأقدر .

لا سلطان هناك ، مهما كان قديراً ، يستطيع ان يحول دون تأكل الأرض العثمانية ، ولكن عبد الحميد دافع بمهارة عن السيادة العثمانية ، واستطاع ان يمنع فرض سيطرة مباشرة على شؤون الدولة المالية والسياسية . اما افتقار مصر الى مثل هذه السيادة ، والإذلال الذي قهر اسماعيل كما قهر من قبل جده محمد علي باشا ، فقد أعطيا أوروبا فرصة للتدخل في شؤونها المالية ثم في مصيرها كدولة مستقلة .

ان ضعف الثقة بالسلطان لم يلبث ان أصاب تابعه . ومع ان السندات المالية المصرية لم تكن معرضة للخطر فعلاً إلاّ أنها تقلبت بصورة واسعة ، فواجه اسماعيل بعد اسابيع من الازمة العثمانية ازمة خاصة به ، ذلك بأن البنوك التي كانت فيما مضى سخية في إقراضه المال رفضت ان تقرضه شيئاً .

تطلع اسماعيل حوله يائساً ، فلم يجد سوى الشيء الذي كان عليه ان يحتفظ به احتفاظه بحياته . عرف رفائيل بورج ، وهو مالطي يعمل في القاهرة مساعداً قانونياً للقنصل البريطاني ، ان اسماعيل يفكر في الحصول على المال لقاء اسهمه في قناة السويس . لاحق بورج القنصل البريطاني فأبرق اخيراً الى حكومته ينبئها بذلك

فراقت الفكرة لدزرائيلي ، رئيس الوزارة ، واتصل بآل روتشلد الذين عرضوا شراء الأسهم حالاً لمصلحة الحكومة البريطانية . نجحت الصفقة على الرغم من معارضة جلادستون ، وقبض اسماعيل اربعة ملايين جنيه ، وهكذا من اجل ربح قدره نصف مليون جنيه (زيادة على السعر الأصلي) خسر اسماعيل بلده .

اذا لم يشعر بذلك فقد شعر به الآخرون . قالت مجلة موسكو ، مثلاً ، في عدد كانون الأول (ديسمبر) ما يلي : « ان اللغز العجيب الذي اكتنف طويلاً اعمال الوزارة البريطانية فيما يتعلق بالمسألة الشرقية قد كشف اخيراً بصراحة تامة. ان انجلترا التي حرصت على الدفاع عن الرجل المريض فترة طويلة تعكس فجأة طريقتها وتدفنه حيا... انجلترا التي راقبت طويلاً املاك السلطان وحرستها تسلك فجأة سبيلاً مختلفاً وتسلب حصتها من الغنيمة » . ولقد اظهر المقال الانتقامي الروسي دهشة خاصة من البدعة القانونية التي انطوى عليها الاجراء البريطاني : « لم يسبق لحكومة ان حازت حصة في مشروع راس مال مشترك في ارض اجنبية ، موسعة بذلك في النهاية ارضها » . ثم هل كان للخديوي الحق في بيع جزء من املاك الدولة ؟

ان اسماعيل بتورطه في معاملات مالية مع حكومة اوروبية ، لا مع افراد من اليهود او الكلفينيين او اليونان ، اتخذ خطوة لا رجوع عنها .

لا يستطيع نقل المال ان يحل مشكلاته ، فقد نفدت الملايين الأربعة بسرعة ، وبدأت التخمينات المختلفة لديونه: أبلغت ثمانين مليوناً ام مائة مليون . وفي ٨ نيسان (ابريل) ١٨٧٦ أعلن الخديوي وقف دفع الفواتير المسحوبة على الخزينة ، وألف مرسوم خديوي في ٢ ايار (مايو) لجنة للدين العام ، ثم وحّد مرسوم آخر الديون فبلغت ٩١ مليون جنيه .

يبدو ان اسماعيل كان لا يعي الخطر . واذا كانت السلطنة ، ان لم يكن السلطان ، قد وقعت في مأزق فلم لا يقع هو ايضاً ؟

لقد طال عماه عن فقر مصر ، اما الآن فقد اصبح في اذنيه صمم عن الأصوات الصاخبة في اوروبا الآخذة في التغير . اقتنعت اوروبا منذ اجيال بأنها قدمت الى العالم افضل كل شيء ، ومن ضمن ذلك الدساتير . واذ ازداد تصنيعها ، واصبح عندها فائض من الثروة والأيدي العاملة ، اقتنعت بصورة جماعية بأن عليها ان تستعمل ذلك الفائض في تحمل عبء المجتمعات المتخلفة ، ورأت الدول الحديثة كألمانيا وإيطاليا ، كما رأت بريطانيا وفرنسا ، ان محك الدولة حيازة المستعمرات في الخارج . كذلك اخذت روسيا حصتها على حساب الشعوب المجاورة لها في شبه جزيرة القرم والقفقاس وفي وسط آسيا وشرقيها .

كي نتذوق ذلك المزاج قد نقضم لا الكثير بل القليل ، متبعين نصيحة مكسيم

غوركي بأن خير وصف للقمر يتم اذا ظهر معكوساً عن زجاجة مكسورة على ضفة نهر موحل .

في سنة ١٨٧٦ اصبحت روما عاصمة إيطاليا الموحدة ، وشعر الايطاليون الحديثون ، لا كنابوليين او بيدومنيين او صقليين ، بأنهم ورثة ماضٍ مجيد يمكن إثباته بالتوسع العصري . اما المراقبون الأكثر سخرية ، مثل بسمارك ، فقد رأوا فيهم نسوراً من اكلة الجيف تلزم ميادين القتال لأكل الفضلات !

كان احد اولئك النسور المثاليين نحاتاً من نابولي يدعى فرانسيسكو دي لورنزو ، نشر على حسابه الخاص في تشرين الأول (اكتوبر) ١٨٧٦ بعد مرور سنتين على شراء دزرائيلي اسهم القناة ، كتيباً عنوانه « ذكرى وضع المستعمرة الحالي في مصر » . رأى دي لورنزو ان الايطاليين قد اقصاهم عن مصر البريطانيون والفرنسيون ، حتى الأميركيون ، وان الحاجة تدعو الى دبلوماسي بارع يدافع عن مصالحهم فيها . تكهن بوجود البترول على شواطىء البحر الأحمر وداخل حدود الخديوي ايضاً ، وقال انه كان على قومه ان يحصلوا على امتياز استخراجه قبل زمن طويل . ان المستوطنين الايطاليين يستطيعون ان يتوغلوا من البحر الأحمر في الحبشة تدريجاً ويستولوا عليها ، فقد سبق ان اسسوا مستعمرة زراعية إيطالية داخل الحبشة في منطقة شيوتل بإذن من النجاشي ، ولكنها لم تنجح لافتقارها الى الدعم ، ورجع المستعمرون الفاشلون الى ايطاليا عن طريق القاهرة . فلو كان هناك سفير قدير معتمد لدى الخديوي لاستقر اولئك المستعمرون في مصر . لا ريب ان اسماعيل سيرحب بالايطاليين ليوازن بهم الدولة التي تهدد مصالحه بصورة مؤكدة ، وقد عنى دي لورنزو ، بهذه الدولة بريطانيا المخيفة .

كان دي لورنزو يعقد الأمل على بعثة ايطالية جغرافية كانت في ذلك الحين في افريقيا . فاذا تضافرت هذه البعثة مع الأسقف الإيطالي (الذي كان يحظى باحترام الحاكم المحلي) امكن الحصول على امتياز إيطالي جديد . ولكن الجغرافي والأسقف كانا غير كافيين ، وكان لا بد من ارسال سفن حربية الى البحر الأحمر وتعيين سفير نشيط في القاهرة . سيعترض البريطانيون والآخرون ولكن دون جدوى ، وستثبت ايطاليا انها لا تزال موطن ميكافيلي . ثم ان شركة رأس مالية تتخذ من نابولي قاعدة لها ، وتلقى دعماً معنوياً من الدولة ، تستطيع ان « توسع شباكها من مصر الى ابعد حدود الحبشة ، وبذلك تحتكر التجارة في الخرطوم وكردفان ودارفور » . كانت خطط دي لورنزو مصممة بدقة لمصلحة ايطاليا خاصة . على ايطاليا ان تفكر في شيء كبير ، « لان النسر لا يصطاد الذباب » . لقد اظهر دور الإيطاليين في المناطق الجديدة بقوله : « ان في الشرق عمالاً ،

وما يفتقر إليه هو الذكاء ، اي الصناع المدربون ، وارباب المهن والرأس ماليون . ان لدينا الكثير من الموظفين المتخصصين ، وفي مقدورنا بمساعدتهم ان نكسب لايطاليا التفوق والمال » . لم يكن دي لورنزو يهتم بالوساوس الانسانية . عقد في بروكسل مؤتمر جغرافي ، فشغل الخطباء أنفسهم بالسكان الأصليين وطرق تفكيرهم الشعبية الرائعة ، اما الحبشة فقد انتجت علاوة على حاجات سكانها اليومية المواد الخام اللازمة جداً في الخارج . ظلت تربتها الخصبة مهملة منذ قرون ، ولكنها الآن ، والفضل للقناة ، فتحت للإيطاليين .

ينتهي كتيب لورنزو بإلقاء قليل من البخور على مثاليات القرن التاسع عشر : « اذا اسس أبناء وطننا مستعمرة في وادي النيل ، وخصوصاً في الحبشة حيث الامتيازات القديمة تمهد طريقها ، فأي مجد جديد لا يعود على وطننا ؟ وأي دافع لا يتوفر لمد الحضارة الى هذه البلاد النائية البربرية ؟ » .

كان اسماعيل مشغولاً جداً مع الخبراء الماليين من انجلترا وفرنسا بقراءة هذا الكتيب . واذا كان قد قرأه فقد فاته تبين الافتراضات التي ينطوي عليها ، لأن افتراضاته الظاهرة تلائم ذوقه . ذلك بأن اسماعيل كان يعمل في الاستعمار على نطاق ضيق لحسابه الخاص ، ويعده جزءاً أساسياً من التجديد الذي أحب . فقد عهد في سنة ١٨٦٩ الى سير فالنتين بيكر ، وهو جنرال بريطاني كان في خدمته ، بغزوة في أعماق افريقيا الوسطى . وفي سنة ١٨٧٥ ، في الشتاء الذي حدث فيه القلق المالي ، نظم غزوتين للحبشة قاعدتهما مصوع ، وعهد بالثانية منهما الى الأمير حسن ثالث اولاده ، ولكنهما منيتا بفشل ذريع . لقد أظهر اسماعيل ، بهذه الغزوات ، كما اظهر بأحلامه بالسيطرة على اوغندا وزنجبار ، فكرة الثراء القديمة . لم يدرك الربح القليل المباشر الذي يمكن ان يجنيه من بلاد دي لورنزو « النائية البربرية » . ان سلعاً كأنياب الفيلة او الزنوج العبيد كانت إما نادرة او غير كافية لتسوية ديون مصر .

أما ما سد الديون (وقرر مصير اسماعيل) فهو الاستعداد الأوروبي للتدخل نيابة عن الدائنين . وقد كان اسماعيل مقيداً في وجه هذا التحدي بنشأته . لو انه تصرف في الوقت الملائم لربما استطاع ان يوحد البلد حوله ويقاوم الأجانب ، فهو الوحيد القادر على ذلك لأنه كان محبوباً فعلاً ، حتى استبداده وابتزازه المال صفح عنهما لأنهما كانا جزءاً من أبهة السلطة التي احبها الشرق دوماً . بيد ان تحقيق هذا التحويل في الحكم يتطلب منه ان يعتبر المصريين شعباً لا عبيد إقطاع . اراد ان يحاول لعب هذه الورقة الأخيرة ولكن الوقت كان متأخراً جداً فلم يحسن اللعب .

أمضى سنتين ، بدلاً من ذلك ، يلعب مع الأجانب ، يحني رأسه بوقـار لاقتراحاتهم . تخلص من صديق باشا ، وزير المالية ، أسوأ عائق في طريقه. كان هذا الفلاح في احد الأيام مديراً لقصر ابراهيم باشا قبل ان يصبح رئيس محصلي الضريبة في عهد اسماعيل ، وكان بارعاً في اعتصار المال من ابناء بلده بالسوط والتهديد ، فجمع ثروة هائلة ، واصبح ينافس سيده بقصره وحريمه . أشهر طرق صديق باشا في جمع المال ضريبة تدعى « المقابلة » فرضها في سنة ١٨٧١ ، ووعد بموجبهـا أصحاب الأراضي اعفاءهم من نصف الضريبة اذا دفعوها سلفاً عن اثنتي عشرة سنة قادمة . كانت خطة غير شريفة لأن احداً لا يستطيع ان يلزم حكومات المستقبل باحترام حيلة صديق ، وكانت ايضـاً غير عملية لأن قليلين من الفلاحين كان لديهم احتياطي من النقد يمكنهم من الافادة من هذا الوعد إن صدقوه . لذلك لم يجمع صديق باشا من الثلاثين مليون جنيه التي كان يأمل في جمعها سوى ثمانية ملايين ، والآن في سنة ١٨٧٦ ضحّى اسماعيل بصديق . دعا وزيره القوي الى نزهة بعد الظهر ، وسارت بهما العربة الى القصر الذي نزلته يوجين في سنة ١٨٦٩ ، حيث اعتقله . واذا كان قد قتل هناك ، وهذا ممكن ، فإن اعوان الخديوي أعلنوا مقتله بطريقة ساذجة . ارسلوا اولاً تقارير من سجن بعيد الى القاهرة عن تدهور صحة الوزير ، ثم عن اصابته بمرض خطير ، واخيراً عن موته .

بيد ان اختفاء الوزير لم ينقذ اسماعيل . سار كل شيء سيراً سيئاً . في سنتي ١٨٧٧ و ١٨٧٨ انخفض النيل وحدثت مجاعة في مصر العليا . كتب مراقب بريطاني يقول : « ليس في الإمكان ان اذكركم مات من الجوع فعلا ، لأن السجلات لا تظهر في اي حادث ان الموت نتج عن الجوع ولكنني مقتنع بأن معظم حوادث الموت خلال فترة القلة كان سببها الزحار وامراض اخرى نشأت عن الغذاء الفاسد وغير الكافي ، فإن الفقراء في بعض حالات الجوع الشديد كانوا يضطرون الى تناول الفضلات والنفايات في الشوارع » .

أجبر اسماعيل في نهاية ١٨٧٨ على قبول قرارات المندوبين الأجانب والخضوع للحكم بواسطة الأوصياء . رهنت عزبه الخاصة الواسعة ، ودفع افراد عائلته ضريبة الدخل عن املاكهم ، وعينت حكومة على رأسها نوبار باشا ، ولكن يسيطر عليها وزيران اوروبيان احدهما بريطاني والآخر فرنسي ، وصدرت عن اسماعيل آخر إيماءة محزنة الى التعاون بقوله للوزير الفرنسي : « لم تعد مصر في افريقيا . انها جزء من اوروبا . لذلك فإن من الملائم إهمال الطرق القديمة واتباع نظام جديد اكثر انسجاماً مع تقدمنا الاجتماعي » . على انه كان وراء النوايا الحسنة التي تكون واجهة النظام الجديد غرض ساحق : عصر مصر لمصلحة حملة سندات الدين

الأجانب . ان العرائض والاحتجاجات التي قدمها رجال الدين المسلمون واعضاء البرلمان البدائي (الذي كانت وظيفته استشارية فقط) ذكرت اسماعيل بورقته المنسية ، بالتأييد الشعبي . وقد زوده بأساس هذا التأييد ضباط الجيش من ابناء البلد الذين ساءهم حكم الأجانب واعتمادهم على وزراء مثل نوبار باشا الأرمني ، ورياض التركي الذي كان يظن انه من اصل يهودي . عبّر اولئك الضباط المصريون عن استيائهم بشيء من العنف في ١٨ شباط (فبراير) حين سحبوا نوبار باشا والوزير البريطاني من عربتهما ، واساءوا معاملتهما ، ولكن تدخل الخديوي شخصياً انقذهما مما هو اسوأ . تأثر اسماعيل بهذا الشعور الجديد ، فعزل الحكومة التي فرضها عليه الضغط الأجنبي ، واعلن حكومة جديدة تحت سيطرته مباشرة ، ووضع خطة خاصة به لدفع الديون .

لكن اسماعيل لم يقدر هذا الشعور حق قدره ، لا في مصر فحسب بل في اوروبا ايضاً . وجه بسمارك اول ضربة انتقامية اوروبية ، فقد اعلن المستشار ان المانيا لا تتحمل من الخديوي رفضه الإجراءات المالية التي اتفق عليهـا والوزارة التي عهد إليهـا بتنفيذها . ثم كتبت الدول الأخرى احتجاجات مماثلة ، ما عدا ايطاليا التي اكتفت باحتجاج شفوي إما اعجاباً باقتراحات دي لورنزو او تقديراً لاعجاب اسماعيل بكل ما هو ايطالي .

عبثاً تكلم اسماعيل عن ادخال حكم دستوري . عبثاً ناشد بيت روتشيلد تحويل القروض القائمة لدفع ديونه العائمة . عبثاً اهدى الحكومة الأميركية مسلة كليوباترة الثانية القائمة في الاسكندرية لتنصب في نيويورك .

كان السلطان الجديد ، عبد الحميد ، آخر أمل له . ولكن هذا السلطان فقد قبل سنة فقط البوسنا والهرسك وجزيرة قبرص ، وأخذ من ذلك درساً ... إما ان يؤيد اسماعيل ويتحدى اوروبا ، او يتركه يغرق .

انتظر اسماعيل .

وفي اواخر حزيران (يونيو) كتب مراسل التايمز اللندنية من مركزه في الاسكندرية يصف الجوّ الذي وجده في القاهرة . «هنا تنتشر الشائعات بكل انواعها . ان كلمات التنازل والخلع والتدخل على كل لسان ، وسعر السندات في ارتفاع نقطة فنقطة على امل ان يحدث تغيير ما . ادهشني في القاهرة ان اجد كل واحد لا يزال اكثر نشاطاً على الرغم من الحرّ . كان داخل البيوت كالفرن وخارجها كالموقد ، والمجتمع الأوروبي بأسره يتذمر من الشمس ما عدا زمرة قليلة من الانجليز الذين كانت مهمتهم المحافظة على العالم المصري مستقيماً، والذين ظنوا انهم لن يستطيعوا اداء هذه المهمة إلاّ بمباراة تنس عنيفة يومياً» .

قدرت التايمز الوضع بحذر قائم على الفهم . ان اسماعيل يستحق الاحترام من اجل منجزاته ، والشفقة « كضحية للظروف والمحيط الفاسد» . ولكنه كان مسؤولاً في نظر العالم عن الفشل ، « والدبلوماسية التي لا قلب لها لا تصغي للظروف المخففة » . مـا الذي سيحدث بعد ذلك ؟ « ان توفيق باشـا الذي يتحدثون عنه الآن كخلف لأبيه يوصف بأنه شاب لطيف ، وملاّك ناجح يميل الى الاقتصاد ويحب المدارس . ولكن اسماعيل باشا ، الحاكم الحالي ، كان كذلك تماماً قبل ان يرتقي العرش » . واجهت الدول تحدياً اكبر من مجرد تغيير الحكم . « ستكون مصر كما هي الآن هبة مشؤومة لأي إنسان . على الدولتين إما ألاّ تتقدما ابداً او يكون تقدمهما بسرعة شديدة » . واذا كانت انجلترا غير راغبة في تحمل العبء كله « فخير لها ان تكتفي بالطريق المائي المفتوح بين بور سعيد والسويس وتترك لأصحاب البنوك الفرنسيين وبقية حملة السندات حلّ مشكلتهم المالية بالطريقة التي يتبعها الناس حين يقومون بمغامرة فاشلة » .

بيد ان الدولتين توصلتا الى قرار . في ١٩ حزيران (يونيو) زار القنصل العام البريطاني والقنصل العام الفرنسي في القاهرة الخديوي اسماعيل ونصحاه بالتنازل عن العرش ، وقالا له انهما لا يستطيعان اذا رفض ان يضمنا له معاش التقاعد ولأبنائه العرش . راجت الشائعات حول هذا التهديد . كان للأمير عبد الحليم مؤيدون اقوياء، فإذا الغى السلطان فرمان ١٨٦٦ حلّ محلّ توفيق في وراثة العرش بصفته ابن محمد علي باشا .

طلب اسماعيل مهلة ثمان واربعين ساعة للتفكير في الجواب ، لكن ضـاع أمله في معجزة من القسطنطينية تنقذه في آخر لحظة ، فقد سرّ السلطان عبد الحميد ان يتخلص منه آملاً إعادة مصر الى وضع تكون فيه اكثر اعتماداً عليه ، والشيء الوحيد الذي كان يخشاه ان يبدو تصرفه نتيجة ضغط أجنبي .

حالما وصلت الى قصر عابدين برقية السلطان بخلع اسماعيل وتنصيب توفيق حزم اسماعيل حقائبه ، وأعدّ حريمه أو مَن اراد منهن ، ورحل عن مصر في ٣٠ حزيران (يونيو) ١٨٧٩ .

من عادة الشرق ان يستقبل الحاكم القادم بالهتاف ، وان يشيع الراحل بالنسيان . بيد ان هذه القاعدة عكست في حالة اسماعيل : لم تكن هناك حماسة لتوفيق ، على الرغم من تحية ارتقائه العرش بمائة طلقة مدفع وطلقة ، بل كانت الهتافات لأبيه . ازدحم الطريق الى المحطة بأولئك الذين يودعون باكين الاسطورة والرجل ، وامتلأت المحطة بالعربات التي احضرت السيدات المحجبات ، وكان الخديوي الشخص الوحيد الذي حافظ على هدوئه . وكي يتجنب الجماهير المحتشدة في

شوارع الاسكندرية تهرب الى الميناء عن طريق الشوارع الخلفية الخاوية حيث السفن الحربية الأجنبية واليخت المحروسة حين اقلع مبتعداً . خيرّ اسماعيل في اتخاذ بورصة او ازمير منفى له ، ولكن الخطة غيرت في آخر لحظة واخبر ان عاصمة السلطان ترحب به ، ولكنه اختار الذهاب الى ايطاليا.

ماذا ترك اسماعيل وراءه حين اختفت الاسكندرية في الغسق الأفريقي ؟ ترك هرماً من الديون ، هذا جواب جيل لم يدرك عدم تحيز صحيفة التايمز . ختم « هو شيشولم » مقالاً في الموسوعة البريطانية بعد ثلاثين عاماً بقوله : « إن اعظم لقب يذكر به في التاريخ لا بدّ من ان يكون جعله التدخل الأوروبي في مصر امراً لا مفرّ منه » . لقد شدّد على إسراف اسماعيل وقلّل من شأن منجزاته . اقرّ انفاقه ستة عشر مليوناً على قناة السويس لا اكثر من ذلك . لم يقرّ احد الإثني عشر مليوناً التي انفقها على قنوات الري ، او الستة الملايين التي انفقها على معامل السكر الاربعة والستين المجهزة بأحدث الآلات . وتجاهل البريطانيون شبكة السكة الحديد التي وسعها اسماعيل من ٢٥٠ ميلاً الى ١٢٠٠ ميل ، وشبكة التلغراف التي غطت ثلاثة آلاف ميل في مصر والسودان ، والموانىء التي جددهـا ، بينما كانوا يستعملونها . كذلك هزئوا بمدارسه (ومن ضمنها اول مدرسة للبنات في الشرق الإسلامي) منتقدين مناهجها ، قائلين إنها لا تخرج سوى قراء صحف .

وماذا اخذ اسماعيل معه ؟ ثمانية ملايين جنيه ! طبعاً لم يشعر في منفاه بالضيق . بعد بعض الوقت سمح له السلطان بالإقامة في قصر اميرجيان وان كان تحت المراقبة . ان فتنته واموالـه الساحرة ومؤامرته ما انفكت تفزع خلفاءه الى ان مات في سنة ١٨٩٥ . اقيمت له في مصر جنازة ، ودفن في مسجد الرفاعي بجوار امه على مسيرة دقيقتين من البيت الذي ولد فيه . من ضريحه المرمري يصل ظله الى نصف الطريق عبر القرن العشرين . في سنة ١٩٥٢ خلع حفيده فاروق آخر من حكم من اسرته ، اما تمثاله الضخم القائم على قاعدة من الرخام السماقي اللون ، والذي يتوسط اكبر ساحات القاهرة فلا يزال في مكانه .

اخذ اسماعيل معه ايضاً شيئاً غير الثمانية ملايين جنيه ، اخذ عبئاً محزناً ، او البرهان على انه كان لا بدّ لأوروبا من التدخل في الشؤون المصرية . كان اسماعيل يحلم لا بمجرد وصل بحرين مختلفين بل بالتسوية بينهما. رأى في حلمه ان المسيحيين الأوروبيين سيلتقون مع مسلمي الشرق الأوسط كأسواء ، لكن القدر قضى على هذا الحلم في القرن التالي ، اذ عملت الدول الأوروبية وكيلة لأصحاب البنوك الذين اصروا على استيفاء ديونهم ، فانتزعت من الامبراطورية العثمانية ولاية بعد اخرى ،ولم يبق فيها بعد الحرب العالمية الأولى سوى الأناضول وقسم من تراقيا،

فكونا دولة قومية لها قوانين اوروبية ، وتستعمل الحروف والقبعات الأوروبية ، لكن دون سلطان او خليفة . اما ولايات الامبراطورية التي يتكلم اهلها العربية فلم يبق منها مستقلاً سوى اليمن المتخلف والصحراء العربية ، بينما اصبحت مصر وسوريا وليبيا وتونس والعراق ، كالجزائر ، دولاً تابعة ، واعطيت فلسطين وطناً قومياً لليهود الذين طال تشتتهم . سيظل المسلمون ، كما كان اسماعيل ، متأثرين بعادات الغرب واخلاقه ، وان كان الغرب سيمتد فيشمل اميركا لا انجلترا وفرنسا فقط . بيد ان سكان الشرق الأوسط سيواجهون على المستوى السياسي تحدياً قاسياً : إمّا ان يستسلموا او ان يقاوموا .

الكتاب الثاني

احتلال مصر

منذ بدايتها قامت امبراطوريتنا على الخداع .

اوستن هنري ليارد (مكتشف نينوى) .

لا تحاولوا ان تواصلوا احسانكم الينا ، فقد أضر احسانكم بنا كثيراً .

محمد عبده

ليس الشرق ولا الغرب ، ولا اي ناحية من نواحي العالم ، بل الرغبة في المخاطر وحب المغامرة ، ما يدعو ابناء عرقنا . يدعوهم كل بلد غير نام ، وكل بلد لم يكتشف بعد . سمعت اثينا وروما هذه الدعوة ، قبل قرون طويلة ، واتبعتاها . إننا نسير ، ولنأمل ان يكون ذلك شيئاً غير تافه ، حيث سار من قبلنا الرجال القدامى الاحرار والشجعان . حيث توجد مناطق شاسعة تسكنها قبائل غريبة ، وانهار كبيرة تنحدر من منابع قلما يزورها الانسان ، وغابات واسعة تقطع طرق الاتصال ، وحيث يشعر الانسان بلغز المجهول او غير المألوف وفتنته . . . بلاد تدعو اليها ذوي الروح المغامرة بيننا الذين يضيق بهم المجال في الوطن المزدحم ، او الذين يفضلون مخاطر العالم الجديد وحريته على طرق العالم القديم البالية . كانت الهند ونيجيريا وافريقيا الشرقية وروديسيا والسودان المصري قبل قرن – ولا تزال – تدعونا إليها .

سير اوكلاند كولفين

المستشار المالي للخديوي (١٩٠٦) .

الفصل الاول

كان الخديوي الجديد ، توفيق بن اسماعيل ، اول هدف للمقاومة ، فقد تحداه وتحدى الحكم الاستبدادي الذي يمثله فلاح مصري في تأكيد لاستقلال مصر لا مثيل له . ادّى التصادم بين توفيق سادس رجل من اسرته حكم في القاهرة وبين احمد عرابي ، اول امير الاي فلاح ، الى نتائج وان جاءت متأخرة إلاّ انها كانت كوصل البحرين الأحمر والأبيض المتوسط .

في ايلول (سبتمبر) ١٨٨١ بدا عرابي ، في الواحدة والأربعين من عمره ، نموذجاً لفلاح الدلتا البطيء الحركة ، اشبه في سلوكه وعاداته برجل دين قروي منه بعسكري ، ذا بشرة سمراء من النوع الذي يدعوه المصريون حنطياً . خلال القرون الرتيبة التي عكف فيها اجداده على العمل في تربة الدلتا الغنية لم يختلط دم اسرته إلاّ بدم العرب الذين هاجروا الى مصر في القرن السابع بعد تحولها الى الإسلام ، وقد ساعده هذا الدم العربي سياسياً بادعاء لقب السيد ، اي الرجل المتحدر من آل البيت. كانت خبرة عرابي الأولى مصرية بحتة : قضى طفولته في بلدة هرية حيث كان ابوه ملاكاً صغيراً من اعيان البلدة ، ودرس في الأزهر . ومع ان عرابي لم يعمل في فلاحة الأرض إلاّ انه بقي في نظر حكام البلد فلاحاً مهما اختلفت طريقة حياته ومهما كان تقدمه . كان لقب « الفلاح » يحمل قيود المجتمع الطبقي التي استثنت الفلاحين من الخدمة العسكرية منذ ايام الرومان . وبعد الفتح العربي ظلت الخدمة العسكرية امتيازاً للقبائل العربية التي جلبت معها الدين الجديد ، ثم للعبيد الذين استوردوا من القفقاس او السودان، اما الفلاحون المسلحون بالهراوات فقط فقد كانوا مشاهدين في مسرح التاريخ المصري ، لم يقوموا بدور فعال في مقاومة الاحتلال العثماني في اوائل القرن السادس عشر او الغزو النابليوني في نهاية القرن الثامن عشر ، بل اكتفوا بالدعاء على الأتراك اولاً ثم على الفرنسيين .

بيد ان هذا الوضع قد تغير ، كما رأينا ، حين سمح محمد علي باشا للفلاحين بأن يصبحوا اكباش الفداء لجيوشه المعتدية . ثم جاء سعيد باشا ففتح للجنود الفلاحين سبيل الارتقاء الى صفوف الضباط ، ذلك بأنه ، كي يسيطر على الجيل الثاني من الجيش الجديد ، عين بعض الضباط من الفلاحين كأحمد عرابي . لم يحل هؤلاء محل الضباط الاتراك والالبانيين (وبعض الأوروبيين الذين اعتنقوا الاسلام) ،

الذين كان محمد علي باشا يركن إليهم ، بل عملوا معهم في شراكة عسرة .

كان عرابي فتى طويلاً قوي البنية في الرابعة عشرة من عمره حين دعي من الأزهر لخدمة العلم ، (ساعدته دراسته في الازهر على اتقان العربية الفصحى التي استعملها في مخاطبة شعب يحس بأثر الكلمة بصورة فريدة) . وقد هيأ له اهتمام سعيد باشا الشخصي به فرصة الارتقاء السريع من يوز باشي في السابعة عشرة ، إلى صاغ في الثامنة عشرة ، ثم إلى بكباشي في العشرين . كذلك تميز احمد عرابي بصحبة سيده المهيب في زيارته قبر النبي (صلعم) في المدينة المنورة .

افسد موت سعيد فجأة مستقبل عرابي . ذلك بأن ابن اخيه اسماعيل الذي خلفه كان اكثر دهاء منه ، فلم ير من الحكمة ان يعتمد في حماية دولته على الفلاحين الذين تستغلهم ، فرجع الى سياسة تعيين الضباط من الغرباء امثاله ، ولم يقرب إليه البكباشي الفلاح إلاّ في مناسبة واحدة في اواخر حكمه وذلك لترتيب التظاهرة ضد نوبار باشا والوزير الانجليزي في سنة ١٨٧٨ ، وكافأه بعروس من حريم القصر .

ليس هناك سبب يجعلنا نعزو الى عرابي ولو لمسة من العبقرية العسكرية . قال انجليزي عرفه تماماً وكان معجباً بتحديه لتوفيق انه « كان دون اي تعليم عسكري من النوع العصري ، او خبرة تزيد على العمل الرتيب في غرف الثكنات العامة ، واتصور انه كان عاجزاً عن ادارة مناورة لفرقة عسكرية لو طلب منه ذلك حتى لمجرد العرض » . اما خبرته في الحرب فكانت مقصورة على دور مساعد في الحملة الحبشية التي تولى قيادتها الأمير حسن احد ابناء اسماعيل .

على ان تمكن عرابي من اللغة وعناده وجرأته وضعته في طليعة حملة لا على الاعداء على الحدود بل ضد الضباط الأجانب في الجيش المصري الذين كانوا يحظون بالامتيازات والرتب ، (سيكون من الملائم ان ندعو هؤلاء الضباط شراكسة وان كانت الكلمة تخص المسلمين الذين جاء وا من القفقاس ، مع ان كثيرين من طبقة الضباط هذه كانوا اتراكاً او البانيين او اكراداً) ، كما كانوا ينفرون من اخوانهم الضباط المصريين ويعتبرونهم حديثي نعمة أقحموا في شيء ليس لهم فيه حق وراثي . كذلك المصريون — او الفلاحون كما كانوا يدعون سخرية منهم — استاءوا بدورهم من الامتيازات التي كان يمنحها الغرباء المتغطرسون .

قام التوتر بين الفريقين منذ البداية : لا يفكر الشركسي في زواج ابنته من فلاح ولو كان معادلاً له في الرتبة العسكرية . ثم اشتد هذا التوتر حين عصف خفض النفقات الذي امرت به اوروبا بخطط اسماعيل لتأسيس امبراطورية افريقية بتوسيع القوة العسكرية ، فبرز عرابي مدافعاً عن عدد كبير من الضباط المصريين الذين

قطع نصف رواتبهم .

كان الخديوي توفيق يختلف عن خصمه عرابي في كل شيء ما عدا الدين. كان له شحوب من يولد في القصر ، والبدانة التي انصبت لعنتها على اسرته ودلت على انها ستطمس ملامحه بقناع لا تميزه سوى لحية قصيرة ، وتحوله الى كيس لا شكل له . وبينما كان عرابي يتكلم العامية المرحة لغة المقاهي والبيوت ، والعربية الفصحى لغة الجوامع ، كان توفيق يتكلم التركية العثمانية لغة الحريم الصالحة للتآمر والأفكار الشيطانية التي تختفي وراء العبارات الشرقية المنمقة .

واذا كان عرابي قد عرف الازدراء من زملائه الضباط ، فقد عرف توفيق مثل ذلك من الحريم ، لأنه كانت لديه ، كما لدى الفلاح ، اسباب للشك الذاتي ، او ما دعي في القرن التالي مركب النقص . ذلك بأن امه كانت محظية تركية لم يرفعها اسماعيل الى مرتبة الزوجة إلاّ بعد ان وضعت له ولده الأول ، فلم تعتبرها زوجات الخديوي الثلاث الأخريات من النبيلات ، بل حططن من مكانتها ومن قدر ذريتها . ثم ان توفيق ، خلافاً لحسين كامل وحسن وفؤاد اخوته لأبيه ، لم يرسل الى الخارج لتلقي العلم ، ولم يشعر بالراحة ابداً في المدن الأجنبية ، ولا بطرقها في الحياة كما شعر إخوته . والأرجح انه ، كرد فعل للحريم اللواتي لم يشعر بالسعادة بينهن ، لم يتزوج سوى واحدة هي حفيدة عباس ، وانه حين خلف اسماعيل اسرع الى توزيع من تبقى من نساء ابيه بتزويجهن ممن اراد ان يشرفهم ، وانفق الكثير في اعراسهن ، مفترضاً خطأ انه سيضمن بذلك ولاء ازواجهن له .

اختار البكباشي عرابي وقت التصادم بينه وبين الخديوي ومكانه . كان توفيق يقضي الصيف في الاسكندرية في قصر رأس التين المشرف على الميناء والذي تبرده ريح الشمال . ساءه ان يدعى للعودة الى العاصمة حيث ملأت مياه فيضان النيل القناة القديمة التي لا تزال تقطع المدينة ، وكانت للأبخرة المتصاعدة منها رائحة مزعجة . ولكن الاضطراب في الجيش كان اخطر من ان يهمل ، فقد ارسل البكباشي الى سيده ينبئه انه سيقدم اليه عريضة في ساحة قصر عابدين ، وهذا امر زاد في قلق توفيق لأن عابدين ، احد القصور الكثيرة التي خلفها ابوه له ، صرح كبير على طرف القاهرة القديمة ، فضل عليه توفيق سكنى قصر النيل الذي يكون جناحاً بارداً من ثكنة واسعة على شاطئ النيل ، آمناً في قلب المدينة الجديدة ، وترك عابدين للاعمال الرسمية فقط . اختار عرابي الموقع بعد التروي. إذا كان اول فلاح يتحدى الخديوي فليس اول فلاح خدمه ، وقد املى عليه مصير صديق مفتش المالية الذي تخلص منه اسماعيل ان يكون حذراً. سيحضر الى المقابلة مستعداً تماماً، والساحة خارج قصر عابدين تتسع لقوة عسكرية كبيرة . ثم انها تقع على طرق المدينة القديمة التي يرتاح

عرابي إليها، القاهرة بجوامعها وشوارعها الضيقة المزدحمة التي تمتد في شبكة مألوفة حتى قلعة محمد علي . ان ساحة عابدين تخم بين عالمين تماماً كبرزخ السويس بين بحرين . وبما ان عرابي جاء ليتكلم بلسان المصريين فقد فضل ان يقابل الخديوي في هذه الساحة على مقابلته في قصر النيل . وهناك سبب آخر قدمه عرابي ، او ذريعة تذرع بها ، وهي عدم ازعاج السيدات في قصر النيل .

وصل عرابي الساحة اولاً ، مستعداً يحمل العريضة التي كان احد بنودها اقالة الوزارة التي يسيطر عليها رجال من طبقة الشركس والاتراك الحاكمة ، وكان من بنودها ايضاً زيادة عدد الجيش المصري وزيادة مرتباته .

كان الحرّ في الساحة شديداً ، والرطوبة و الغبار يملآن جوّها . ولكن عرابي اعتاد الانتظار في الشمس كأسلافه الذين كانوا يعملون في الحقول المروية او في سحب الماء من النهر بالشواديف الثقيلة ، والذين اعتادوا انتظار اسيادهم الغرباء .

اما توفيق فلم يكن مستعجلاً للقاء البكباشي . كان رجلاً مذعوراً بدأ حكمه القصير بالمتاعب من عرابي الذي قاد مؤامرة الضباط المصريين ضد الضباط الشراكسة ، فقدم للمحاكمة العسكرية في الجناح العسكري من قصر النيل، وحين همّ ستون باشا باصدار الحكم ، وهو اميركي جنوبي كان في خدمة الخديوي ، اقتحم القاعة عدد من فرقة عرابي وحلّوا المحكمة . اصبح عرابي ، بعد فراره من العدالة ، وقحاً بصورة لا تطاق . ولكن توفيق لم يكن بحاجة الى الضباط الفلاحين . ثم انهم يتحدون عادة قديمة وهي ان المصريين يجب ان يحكمهم الأجانب ، ويمثلون خطراً شديداً كالمماليك الذين قضى عليهم محمد علي . ان ما كانت الحاجة تدعو اليه هو عمل حاسم كذلك ، وربما مذبحة . ولكن توفيق كان عاجزاً عن اعمال القوة ، ينقصه حزم آبائه وقسوتهم . لذلك بقي متردداً ولجأ الى طلب النصيحة من مستشاريه ، وكان اولهم رياض باشا العثماني المراوغ ، ثم ستون باشا الاميركي، واخيراً سير اوكلاند كولفين المستشار المالي الانجليزي اكثرهم حزماً وتأثيراً .

كانت غرائز توفيق في معاملة اعدائه عثمانية ولذلك كانت مراوغة ، ولكنه تلقى من مستشاريه ، وخصوصاً من كولفين ، نصيحة مباشرة ملحة وهي الا يسمح لعرابي بالتمادي في سلوكه التمردي .

لخّص كولفين نصيحته للخديوي المرتجف بقوله : « نصحته ان يأخذ زمام المبادرة : قال رياض باشا ان في القاهرة كتيبتين مواليتين . نصحته بدعوتهما الى ساحة عابدين مع كل البوليس العسكري ، وان يقف على رأسهم ، وحين يصل عرابي يقوم باعتقاله . اجاب ان المدفعية والفرسان مع عرابي وقد يطلقون النار . قلت انهم لن يجرؤوا ، واذا كانت لديه الجرأة لأخذ المبادرة وتعريض نفسه للخطر ،

فقد ينجح في التغلب على المتمردين ، وإلاّ قضي عليه ».

انضم ستون باشا الى سير شارلز كوكسون ، القنصل البريطاني العام بالوكالة ، في تأييد هذه النصيحة . والى ان تمّ قبولها ووصلت العربات بقي عرابي وألفا جندي في ساحة عابدين يجهدهم العرق .

توجه توفيق الى عابدين ساعات قبل الموعد . كان علي فهمي رئيس الحرس الخديوي ، وهو احد الضباط الذين اكرمهم بالزواج من احدى حريم اسماعيل . كان توفيق يثق به تماماً ، وقد امره ان يضع جنوده وراء الستائر في غرف الطوابق العليا من القصر ، فإن الرماة اذا كانوا مختبئين بهذه الصورة امكنهم ان يسيطروا على الساحة . فاذا اسعف القدر قبض على عرابي والخمسين ضابطاً المؤيدين له وتفرق الجنود مذعورين ، واذا سارت الأمور على غير ما يشتهي ، واقدم عرابي عـــلى تهديد الخديوي تدخل الجنود المختبئون وانقذوه .

بعد اعداد هذه الخدعة الشرقية ، تحسن شعور توفيق . وسارت عربته على رأس موكب نحو القلعة عن طريق شارع محمد علي ، وركب العربات الأخرى كولفين وستون باشا والوزراء الشراكسة ونحو ستة من الضباط الذين يعتمد عليهم .

كان الوضع في القلعة جيداً ، فقد اكدت الكتيبة التي تحرسها ولاءها للخديوي . وهكذا تشجع توفيق وصحبه ونزلوا من القلعة الى معسكر العباسية في ضواحي المدينة حيث يقيم الفرسان وتوضع المدافع تحت الحراسة ، فقد كان من الضروري التأكد من حياد عناصر هذا المعسكر . وصل موكب الخديوي الى العباسية في الساعة الثالثة بعد الظهر ، ووجد المعسكر خاوياً ، فعرف ان الفرسان ورجال المدفعية انضموا الى عرابي في ساحة قصر عابدين .

لم يحرض توفيق على مواصلة السير الى المدينة الملآنة بالمخاطر سوى المستشارين الأجانب. اتبع الركب طريقاً متعباً للوصول الى باب حديقة عابدين الخلفية قرب القناة وذلك تجنباً للمناطق المزدحمة بالسكان . بدا القصر ساكناً كئيباً ، ولكنه سكون يرحب به لأن الجنود في الطوابق العليا لا بدّ من ان يكونوا قابعين وراء النوافذ حابسين انفاسهم ، وكذلك الكآبة لأنها اقرب شيء الى جو القاهرة في القرن التاسع عشر . ولكن الوضع في القصر كانسيئاً ايضاً. ذلك بأن علي فهمي الذي وثق به الخديوي انضم الى عرابي وتفرق جنوده، ولم يبق مع الخديوي سوى الشراكسة الأشداء والمستشارين الغربيين الغاضبين . كان توفيق وحيداً . من نوافذ القصر التي فكر في استعمالها للمذبحة القى لمحة الى الساحة فرآهـــا تحت سيطرة البكباشي . كانت المدافع مصوبة والفرسان مستعدين ومن ورائهم صفوف المشاة فابناء الشعب المتحمسون ، يهتفون للمصري العملاق على ظهر جواده لا للخديوي المتواري في

قصره الإيطالي .

قوّى كولفين مرة اخرى عزيمة توفيق . قال ان عليه ان يخرج من ملجئه في القصر ويواجه المتمردين .

تقدم الخديوي بخطى شديدة الحذر ، وسار كولفين وراءه وتبعهما على بعد قليل ستون باشا وجماعة من الضباط الشراكسة والأوروبيين . وصل الخديوي الى حيث يقف عرابي على ظهر الجواد ووراءه جماعة من ضباطه .

همس كولفين في اذن الخديوي : « حين يقدم عرابي نفسه مره بتسليم سيفه ، ثم اطلب منه ان يأمر رجاله بالتفرق . سر حول الساحة ومُر كل كتيبة بأن تتفرق » .

اطاع البكباشي عرابي اول امر للخديوي بالترجل ، وتقدم حاملاً السيف باحدى يديه والعريضة بالأخرى ، وتبعه نحو خمسين من ضباطه .

« هذه فرصتك ! » .

« و لكننا بين اربع نيران ! » .

« تشجع .. ! » .

لكن الخديوي لم يشارك الانجليزي ثقته . إن الضباط المصريين يحيطون بالساحة مستعدين ! كان توفيق أجنبياً ولكن ليس كالإنجليزي . التفت الى ضابط شركسي ثم الى كولفين وقال : ماذا استطيع أن افعل؟ اننا بين اربع نيران . سوف نقتل!» .

أطاع عرابي أمر الخديوي الثاني ووضع سيفه في غمده ، ثم قدم إليه العريضة وشرح نقاطهـــا الثلاث الرئيسة : إقالة الوزارة الحالية المؤلفة من الاجانـــب والشركس ، ودعوة البرلمان الى الاجتماع ، ورفع عدد الجيش الى ١٨٠٠ بحسب فرمان السلطان .

همس كولفين قائلاً إنه لا يليق بنائب السلطان ان يبحث قضايا من هذا القبيل مع الضباط .

تشجع توفيق وقال : « أنا خديوي هذا البلد ، وسأفعل ما أريد » .

أجابه عرابي : « لم نعد عبيداً ، ومن اليوم فصاعداً لن يرثنا أحد ! » .

هاتان أهم عبارتين جرى تبادلهما بعد ظهر ذلك اليوم القائظ . عبّر الخديوي عن نفسه بلغة الشرق المألوفة منذ خمسين قرناً ، وتكلم عرابي بلغة مألوفة في عالم طورته هلاّس والماجناكارتا ، وجاءت تحدياً هزّ الشواديف وجعل كروم النخيل ترتجف !

يبد أن هاتين العبارتين الخالدتين لم تكونا ذروة. ذلك بأن الشرق الاسلامي كان حضارة تنفر من الذرى . موسيقاه تعقيدات مترددة ، وقصائده عقود مؤلفة من أبيات كل بيت رائع بمفرده ، اسلوبها المميز المزخرف على النسق العربي

دوامة من الصور تلتف على نفسها الى الخلف . لم يعرف الشرق القصة المسرحية ، اما مبدأ الجدل فقد كان مجهولا تماماً كالمعارضة الموالية .

بعد أن سمع توفيق تحدي تابعه التفت الى كولفين وقال : « أسمعت قوله ؟ » وكان كولفين قد اصفر وجهه غضباً لا على وقاحة عرابي فحسب بل على افتقار الخديوي الى القوة . قال له : « أتركني أكلم الضباط . لا يليق بك كخديوي أن تدخل في جدل كهذا ارجع الى قصرك » .

أطاع توفيق ورجع الى القصر ، وجلس بين لوحات زوجات أبيه وبين الثريات والساعات ، والموائد والكراسي الأوروبية .

انتظر كولفين ساعة كاملة حضور سير شارلز كوكسون ، وكان قد استدعاه لأخذ رأيه في الأمر . وحين مالت الشمس الى الغروب وراء هرم الجيزة وصل كوكسون ومعه مترجم ، وأخذ يكلم عرابي دون ان يهتم بأدب الحديث :

– « انت جندي وتطالب ببرلمان ، لماذا ؟».

– « لأنه يضع حداً للحكم الاستبدادي » .

– « لكنك عسكري » .

أشار عرابي الى المشايخ الواقفين وراء الجنود والى أبناء القاهرة وقال له : « أولئك معنا » .

– « إذا استمر تمردكم احضرنا جيشاً بريطانياً » .

– « لا تستطيعون ذلك . نحن رعايا السلطان الخليفة » .

طال الجدل على هذا المنوال ، واستمرت المفاوضات بين الساحة وبين القصر ، ولكن عرابي أصرّ على استقالة رياض باشا الذي يمثل الغرباء ، وقال انه يرضى بشريف باشا وان كان من رجال القصر لأنه يعرفه شخصياً ويوده .

دعي عرابي الى قصر النيل ، فلبى الدعوة . وكان الخديوي قد وافق مبدئياً على مطالب المصريين كلها .

كان عرابي ميالاً لا الى الصفح فحسب ، بل ايضاً الى تقبل قدرة الآخرين على تجربة التحول المشرق في النفس والفكر ، هذا الميل الذي كان صفة من صفات العرب تعكس شيئاً من التقلب في داخلهم . أما وقد انتصر عرابي فقد اصبح مستعداً للصفح ، وفرض رأيه على توفيق فقد اصبح مستعداً لاعتقاد ان قلب توفيق قد تغيّر ، وأنه تحول الى حاكم يسرّ المصري أن يخدمه . وبعد ان وافق الخديوي على كل نقطة : وزارة جديدة ، وبرلمان جديد ، وعودة الضباط المفصولين ، حاول عرابي ان يشكره .

هنا ظهر التركي وراء لحية الخديوي وطربوشه . قال ببرود : « هذا يكفي . اذهب

الآن واحتل عابدين ، لكن دون موسيقى في الشوارع » .

أجابه عرابى الى طلبه . فما كان للنصر المصري أن يبدو هزيمة للخديوي .

الفصل الثاني

لو أن عرابي عبّر عن مظالم الجيش فقط لكان أثره في التاريخ تافهاً كأثر توفيق . لكن عرابي وتوفيق كانا أكثر من فردين . كان عرابي اول فلاح مصري يقف في وجه الحاكم منذ ألفي سنة وربما خمسة آلاف ، وكان توفيق ضعيف الشخصية يقيم في قصر محترم ويمثل أداة لأوروبا الصناعية التي ثبت أنهـــا أشدّ خطراً على الشرق الأوسط من اوروبا الزراعية التي رعت الحروب الصليبية . لذلك فإن انصار الرجلين يستحقون التحليل ، لأنهم هم الذين يكسبونهمـــا أهمية حقيقية .

ان مصر التي التفت حول عرابي ، بعد ارتياب أولي ، قد غيرتها تجاربها في القرن التاسع عشر . كان شعبها واضحـاً حتى للزائر العادي ، يرتدي افراده الجلابية وقبعة من الصوف ، وخفاً عريضاً ، ويسكنون قرى بيوتها من قوالب الطـين ، منتشرة في مرتفعات وادي النيـل أو في الدلتا حيث ترتفـع كالروابي فوق الحقول الخضراء حتى اذا جاء الفيضان أصبحت كالجزر الإيجية المبعثرة . (لم تتغير مصر خارجياً منذ أن كتب هيرودوتس هذه المقابلة في القرن الرابع قبل الميلاد) . واذ زاد عدد السكان في المنطقة المحدودة الصالحة للزراعة هاجرت موجات منهم الى البلدان والمدن المزدحمة . ومع أن المصريون افتقروا الى أجهزة دستورية يعبرون بها عن ارادتهم إلاّ انه توفرت لهم مؤسسة هائلة هي جامعة الأزهر التي درس فيها عرابي ، والتي ارتبط تاريخها منذ تأسيسها بتاريخ مصر .

أسس الأزهر في القرن العاشر الميلادي ليكون مركز دعاية للخلفاء الفاطميين ولمذهبهم الشيعي ، واستمر كذلك مائتي عام الى ان جاء صلاح الدين ، فوحد مصر وسوريا ، وكوّن منهما دولة سنية ، وحوّل الأزهر الى ما بقي عليه حتى الآن ، الى منبع لتعاليم السنة الاسلامية . وفي الامكان دعوة الأزهر اكسفورد الإسلام ما عدا انه لم يتخلّ عن عادات القرون الوسطى وازيائه ، وان الدراسة فيه كانت مقصورة على القرآن والحديث والفقة واللغة العربية ، بعيدة عن الفكر الدنيوي أو العلم الأجنبي . ومع ذلك احتفظ الأزهر ببعض القوى المهمة منها ان المحاضرين فيه والطلاب كانوا مندمجين تماماً في الحياة الاسلامية . لم يدرب الأزهري عـلى الانفصال عن المجتمع ، بل كان على العكس من ذلك يتكلم بما يشعر به المسلم

العادي . واذ كان الإسلام لا يقر نظام الطبقات فقد اجتمع فيه الطلاب من كل العروق والألوان على قدم المساواة ، وجاءوه من جميع انحاء العالم الاسلامي الممتد من جاوه الى مراكش .

هزت اوروبا القرن التاسع عشر الأزهر بالطريقة نفسها التي هزت بها اليونان وايطاليا جامعة اكسفورد في عصر النهضة . ومع ان الفرنسين الذين غزوا مصر بقيادة نابليون كانوا مكروهين ، إلاّ ان العلماء الذين احضرهم نابليون معه الى مصر فتحوا فيها معهداً ترك اثراً عميقاً في المفكرين المصريين ، واستمر طوال القرن ، وكان ظاهراً في صورة سلسلة شبيهة بمراحل ديالكتيكية هيجل الثلاث : الطريحة ، والنقيضة ، والجميعة .

كانت الطريحة قبولاً حماسياً للتغيير ، تمثل في حياة رجل من مصر العليا يدعى رفاعة الطهطاوي . ساعد الطهطاوي شيخ أزهري كان قد قابل العلماء الفرنسيين على تعيينه إماماً لاحدى الكتائب العسكرية الجديدة التي ألفها محمدعلي باشا ، ورافق الطلاب المصريين الى باريس للاهتمام بحياتهم الروحية فأمضى فيها خمس سنوات ، من ١٨٢٦ إلى ١٨٣١ ، كانت كافية لجعله يدرك القيم الغربية . وحين عاد الى مصر كرس حياته لنشر الأفكار الأوروبية فيها ، فعمل في تنظيم المدارس والترجمة الى اللغة العربية ، فكانت نتيجة ذلك الإقبال على الأفكار الجديدة . وبينما تبنى الخديوي الأزياء الأوروبية في اللباس والأثاث ، تبنى كثيرون من المصريين في الستينات وما بعدها ، على الأقل نظرياً ، مبادىء تحرير المرأة ، والديمقراطية الدستورية ، وتفضيل الزواج من واحدة ، وفوق كل ذلك مفهوم الوطنية الإقليمية. كانت الوطنية بالنسبة الى الجيل الذي سبق جيل الطهطاوي هي الولاء للدين . واذ بدأ الطهطاوي وهو في فرنسا يهتم بعلم الآثار المصرية (وكان شامبليون في ذلك الوقت يحاول حلّ رموز حجر رشيد) فقد بدأ يعي عظمة الماضي المصري ، وأخذ يبشر بالوطنية على أنهـــا ، كما عنت للفرنسيين ، محبة الوطن ، وأن مصر التي يمجدها هي مصر بجميع سكانهـــا على اختلاف أديانهـــم .

هذه الحماسة للغرب — وان كانت ارتجالية وساذجة قليلاً — تزامنت مع احلام اسماعيل . وكما أن احلام اسماعيل لم تستطع ان تدوم ؛ كذلك حماسة الطهطاوي حتى في صورتها الخالصة . ذلك بأن افتراض إمكان حفر الأفكـــار الأوروبية العصرية على شجرة النخيل الاسلامية قد عرضه للشك إمعان اوروبا السياسية في عدوانهـــا .

أما نقيضة الطهطاوي — عقيدة ضرورة مقاومة الغرب — فقد تمثلت في جمال الدين الأفغاني أروع المفكرين المسلمين في عصره الذي وضع عالم العصور الوسطى

التقليدي المتجول في بيئة القرن التاسع عشر . اصطدم في الهند بالبريطانيين ، ورأى ان المشكلة الأساسية التي تواجه المسلمين جميعاً هي مقاومة الغرب روحياً ومادياً ، وان الغرب يضم روسيا القيصرية التي كانت منهمكة في توسيع امبراطوريتها في أواسط آسيا على حساب المسلمين ، لكن مركز القوة الرئيس في الغرب هو بريطانيا حاكمة الهند الفعلية ، والتي يخشى الأفغاني ان تكون طامحة الى حكم مصر .

انطوت رحلات الأفغاني على البحث والعطاء : البحث عن كيان اسلامي يستطيع ان يقاوم الغرب ، والعطاء للشباب الذين أصبحوا تلاميذه حيث ذهب . لقد مات قبل أن يجد الحاكم القادر على تكوين نواة بعث الاسلام ، ولكنه اعطى تلاميذه ثقة جديدة بامكانات تراثهم الديني .

إن ريبة الأفغاني بالغرب لم تكن مرتبطة بجهل مقصود بالطرق الغربية. فقد درس في الهند الرياضيات الحديثة ، وتعلم الفرنسية ، وحين حجّ الى مكة استغرقت رحلته عاماً كاملاً درس خلاله على الطريق عادات الشعوب التي مرّ بها ومشكلاتها . أصبح في القسطنطينية صديقاً للصدر الأعظم علي باشا ، ثم قدم الى مصر وسكن القاهرة من ١٨٧١ الى ١٨٧٩ . لم يكن مدرساً رسمياً في الأزهر ، وان كان يحضر صلاة الجمعة فيه ، لكن كانت له حلقة أعظم تأثيراً ، في مقهى خلف دار الاوبرا وقرب مركز البريد . هناك كان يجلس ساعات طويلة يشرب الشاي ويدخن ، ويجمع حول مائدته الشباب الذين كانوا يهتمون بالأمور التي تهمه ، يستمعون مأخوذين الى حديثه حتى مطلع الفجر ، فإن أحداً منهم لم يعرف العالم الخارجي كما عرفه ، ولم يره بتعمق كما رآه ، ثم يعودون الى قراهم وقد انقلبت أفكارهم رأساً على عقب .

كانت رسالته لتلاميذه تهزهم كماء مثلج يلقى على قوم اعتادوا أن يجدوا أعذاراً يبررون بها قعودهم عن العمل. مثل ذلك أنه كان يخاطب المصريين بقوله : إنكم اعتدتم الطغاة ونشأتم في احضانهم . عانيتم العبودية قروناً طويلة منذ أيام الملوك الرعاة . تحملتم صابرين سياط الجور والهوان . اعتصروا منكم بالجلد مادة حياتكم ، ومنتوج عرقكم وصبرتم على ذلك . لو كانت في عروقكم دماء ، أو في رؤوسكم أعصاب تحس بالشرف لما أيدتم هذه العبودية المذلة . بعد الملوك الرعاة جاءكم الإغريق ، والفرس ، والعرب ، والأكراد ، والمماليك ، والفرنسيون ، وأسرة محمد علي ، فطحنكم هؤلاء الفاتحون جميعاً بأطماعهم وبقيتم جامدين كقطع من الصخر مطروحة في الصحراء . انظروا حولكم . لقد بنى اسلافكم الأهرام والهياكل العظيمة في الأقصر ، واثبتوا ان لديهم الذكاء والقوة . فانهضوا ، وانبذوا

الضعف والكسل ، فانكم تستطيعون ان تعيشوا سعداء أحراراً كالشعوب الأخرى أو تموتوا شهداء فتستحقوا ثواب الآخرة .

نظر هذا العقل المدقق الحائر في الإسلام الذي أراد احياءه كحضارة كاملة لا كمجرد مجموعة من المعتقدات. ان الدين مصدر سعادة البشرية الوحيد ولكنه شيء أكثر من أداء الصلوات في اوقاتها وبحسب أصولها ، لأن له فوق ذلك مضامين سياسية . لقد جاء الأفغاني الى مصر في فترة حاسمة بالنسبة الى الشباب المصريين الذين تشربوا محبة الغرب (وكانوا لذلك ميالين الى التصغير من قدر تراثهم) ، وكانت إقامته في القاهرة في تلك السنوات التي تحطم خلالها حلم اسماعيل باشا ببناء حضارة أوروبية في تربة افريقية ، ففي تلك الفترة (١٨٧١ – ١٨٧٩) أصبح سوء الأدارة الحالية في مصر أزمة دولية أدت الى التدخل الأوروبي الذي أغضب حتى أكثر الناس انقياداً . ربطت الصداقة بين الافغاني وتوفيق حين كان هذا الأمير وريثاً للعرش، لكنه ما لبث بعد أن اصبح خديوياً أن طرد الأفغاني من مصر، وربما فعل ذلك بتحريض البريطانيين الذين رأوا ان أنتشار الاحياء الديني الى الهند خطر عليهم . وحين غادر الافغاني أرض مصر في رحلة طويلة انتهت في القسطنطينية حيث مات سنة ١٨٩٧ قال للمصريين : علي أن اغادر مصر ، ولكنني اترك ورائي الشيخ محمد عبده ، وهو كل ما تحتاجون إليه .

قام الشيخ محمد عبده ، الذي يصغر معلمه الأفغاني عشر سنين بالتوفيق بين قبول الغرب ورفضه .

هناك فرق كبير بين محمد عبده كرجل وبين معلمه الأفغاني . ذلك بأن الأفغاني كان جريئاً حاداً ومتطرفاً ، لم يشك احد ممن قابله في أنه ارستقرطي مهما كان أصله غامضاً . اما محمد عبده فقد كان كعرابي ابن الدلتا المصرية . كان المصريون المسلمون طوال القرون يتزاوجون مع الأجانب الذين قدموا مصر لسبب أو لآخر على عكس الاقباط المسيحيين الذين انحصر تزاوجهم فيما بينهم فقط . وفي حالة محمد عبده كان دمه مختلطاً بدم التركمان الذين هاجروا الى الدلتا ، وكان بيته في القرية يعرف ببيت التركماني ، لكن على الرغم من هذه الصلة بالأجانب كان والده فلاحاً مثل عرابي تماماً ، وكان الثورة من تقاليد بيت الفلاحين هذا خاصة ، فقد قاوم جدّ محمد عبده واخوة جده استيلاء محمدعلي باشا على أرضهم بالقوة (وكان الباشا قد ادعى ملكية كل الأراضي المصرية الصالحة للزراعة) ، فاضطر أبوه مذ كان في الرابعة عشرة من عمره الى التجول من مديرية الى أخرى كأحد المنبوذين فعلاً ، ولم يرجع الى قريته إلا بعد ان ارتقى سعيد باشا عرش مصر وسمح للفلاحين باستعادة اراضيهم ، فوجد أرضه خربة وبيته متداعياً .

بدأت تربية محمد عبده على الطريقة التقليدية : تعلم القراءة والكتابـــة في البيت ، ودرس القرآن على معلم القرية حتّى حفظه . وكان ازدهار زراعة القطن قد حسّن حالة أبيه فأخذه الى جامع طنطا حيث تعلم تجويد القرآن والنحو .

وصف محمد عبده وهو لا يزال فتيّ خيبة أمله بطريقة التربية المصرية التقليدية . قال انه صرف في طنطا سنة ونصف السنة يحاول التعلم فلم يتعلم شيئاً . كان المعلمون يستعملون عبارات غامضة تماماً ولا يهتمون بتفسيرها. كانت طريقة التعليم في طنطا كالطريقة نفسها المتبعة في الأزهر . يستمر الطلاب الذين لم يفهموا شيئاً في الدراسة الى ان يصبحوا رجالاً بأحلام أطفال ، لكنهم يكونون مستعدين لتسلم مناصب عملهم فيهـــا زيادة الجاهلين جهلاً . لذلك شعر أنه ضائع ، وقرر ان يترك التعليم، ويتزوج . كان محمد عبده حين اتخذ هذا القرار قد بلغ الثامنة عشرة من عمره ، وعزم على العمل في فلاحة الأرض كآبائه .

بيد ان أباه كان رجلاً عنيداً ، أصرّ على أن عقلاً سليماً كعقل ولده لا ينبغي ان يذهب ضياعـــاً ، فرجع محمد عبده الى طنطا مكرهاً . وفي طريقه اليها تعرض مصادفة لتجربة غيرت حياته. نزل في احدى القرى على الطريق الى طنطا حيث بيت عمه العجوز الشيخ درويش الذي كان من اتباع الطريقة السنوسية الليبية التي تدعو، كالمذهب الوهابي ، الى تطهير الدين ، ولكن السنوسيين يختلفون عن الوهابيين في طريقتهم الصوفية في الدين . فسرّ له الشيخ درويش كتاباً في الطريقة الصوفية فلمح الشاب معنى الدين الباطني ، وانبثق الماء من الصخر الأصمّ . وهكذا تابع محمد عبده دراسته في طنطا أولاً ، ثم في الازهر ، مقتنعاً بأن وراء الصيغ التي علاها الصدأ على مرّ الزمن حقائق يستطيع المرء ان يعيشها بمفرده ومع الجماعة .

واذا كان العم أول من ترك اثراً في حياة محمد عبده ، فقد كان جمال الدين الافغاني صاحب الأثر الثاني والأقوى. كان محمد عبده قد امضى السنة الثالثة في الازهر، وبلغ السنة الحادية والعشرين من عمره ، حين بدأ الأفغاني ينشر آراءه الثورية ، فتأثر بهـــا ، ودرس وحده الرياضيات والمنطق والفلسفة ، وانتسب الى جماعة ناصب الأزهريون المحافظون أفرادها العداء ودعوهم « هراطقة » .

وجد محمد عبده نفسه ، طوال حياته ، ضد الأزهريين المحافظين الذين اتهموه بالإلحاد ، ولكن موجة الأفكار الحديثة كانت قوية فلم يكن لاتهامهم أثر يذكر . بعد ان تخرج من الأزهر في ١٨٧٨ ، اي سنة واحدة قبل رحيل اسماعيل والافغاني عن مصر ، قرر ألاّ يكون كأولئك الأساتذة الذين شبههم بناعورة جوهر الخرافية التي كانت تخرج الماء من البحر وترجعه إليه، فكانوا يتعلمون ما يقدمه لهم الجامع وينقلونه على حاله الى الجيل الجديد من الطلاب . ومع أنه ظل مرتبطاً بالأزهر طوال

حياته ، إلاّ أنه علّم في المدارس الجديدة التي فتحها محمد علي وخلفاؤه ، ورفض أن يعلم فيها النحو والبيان بل علم بدلاً منهما الفكر الأوروبي الحديث محتجاً بأن على الطلاب في دراستهم للاسلام ان يفرقوا بين الأمور الجوهرية في الدين وبين الأمور غير الجوهرية التي كثيراً ما تطمس ما هو جوهري. وفي سنة ١٨٨٠ عين رئيساً لتحرير الجريدة الرسمية المصرية فاضاف إليها صفحة أدبية لقيت ترحيباً حاراً ، وكان الهدف منها اصلاحاً هادئاً للحياة الوطنية بنشر مقالات في مواضيـــع واسعـــة متنوعة كما كان يفعل المحررون الانجليز في مطلع القرن الثامن عشـــر . ولم يجبن عن معالجة القضايا السياسية مباشرة ، وهاجم على الخصوص نظام الضرائب الذي ألقى الفلاح في قبضة المرابين ، وكان من نتائج مقالاته بدء تأليف الجمعيات الخيرية ، الإسلامية والقبطية ، لإغاثة الفقراء .

حين برز عرابي أول مرة قوة في مصر خشي محمد عبده أن يكون مجرد مغامر ، لأنه كمعظم الفلاحين يكره المؤسسة العسكرية . كان الفلاحون حتّى نهاية الستينات لا يفرقون بين العسكري والبوليس ، ويستعملون مصطلح العسكري للاثنين ، وكانوا يعتبرونهمـــا عدوين للفلاحين، يقودون أبناءهم الى الحرب في الخارج ، ويبتزون أموالهم بالسياط .

على أن محمد عبده كان أكثر عداءً للأسرة التي صادرت أراضي الفلاحين ثم أجبرتهم على دفع الضرائب لهـــا . وحين حدث التصادم في ساحة قصر عابدين انضم محمد عبده وطلابه ، الذين كان أثرهم في الوطنيين المدنيين هائلاً ، الى الرجل الذي رأوا فيه زعيماً وطنياً لا مجرد قائد عسكري . وحين أشار عرابي الى المشايخ وراء الجنود إنما كان في الواقع يشير الى التماسك بينه وبين شعب مستيقظ .

الفصل الثالث

اطلق توفيق اسمه على الميناء الواقع على طرف قناة السويس الجنوبي فدعاه « بور توفيق » وكان لا يستحق ذلك . عينان غامضتان مخادعتان ، ولحية قصيرة ، وطربوش عادي ، وصدر مزين بأوسمة تافهة ، كل هذه كان ما يكوّن الإبن الذي من أجله ظلّ اسماعيل سبعة عشر عاماً يتمسح بأعتاب السلطان ، ويخضع له ، ويقدّم الرشى بيده أو بواسطة وكيله في القسطنطينية ، كي يحصل على فرمان يضمن له وراثة العرش رأساً من بعده ، ذلك الإبن الذي أظهر في الأزمة ، كما قال اسماعيل نفسه ، أنه بلا عقل ولا إحساس ولا جرأة .

على أنه توفر لتوفيق مؤيدون أقوياء كان اسماعيل يفتقر إليهم . أيدته داخل مصر الطبقة الشركسية العليا المؤلفة من خدم الأسرة العلوية او المقربين إلى البلاط ، أو الأغنياء المغامرين الذين كانوا يحتقرون الفلاحين أو المصريين الاصليين . لكن تأييدهم لتوفيق لم يكن تاماً ، فإن بعض أفراد الأسرة الخديوية وكثيرين من الشراكسة كانوا من أنصار الأمير حليم آخر من بقي في قيد الحياة من أبناء محمد علي .

خلال حادث عابدين لم يظهر الشراكسة جرأة أكثر من توفيق ، ولكن هذا لا يعني أنهم كانوا يفتقرون الى رباطة الجأش ، فقد كان عدم اظهارهم الجرأة قائماً على المنطق . إنهم من رعايا الامبراطورية العثمانية ، ومصر بلد حار وبعيد ، خيراته طيبة ما دام حصادها سهلاً ، أما اذا أصبح شاقاً ففي امكانهم الرجوع الى البسفور حيث تفتح لهم أبواب العمل في العاصمة بين أبناء عرقهم ، وحيث أصبح عميدهم مصطفى فاضل وزيراً للمالية قبل موته في سنة ١٨٧٥ .

أما أنصار توفيق الثابتون فهم الأوروبيون ، ولا يدخل ضمن هؤلاء رجال مثل ستون باشا والضباط المقربين الذين وجدوا لهم ملجأ في بلاط اسماعيل . بيد أن في مصر أشياء كثيرة تذكرهم بلويزيانا ، موطنهم الأصلي ، واذا كانوا كالشراكسة يحتقرون المصريين فإنهم مثلهم أيضاً قوة مقضي عليها في النهاية بالتلاشي .

وأما سير اوكلاند وسير شارلز كوكسون فانهما يمثلان ، من ناحية اخرى ، قوة أبعد ما تكون عن التراجع ، قوة مصممة على التقدم . كانا يعتقدان ان الله منح الامبراطورية البريطانية حدوداً مترامية ستزداد امتداداً ، وهما في هذا الاعتقاد لم يختلفا عن الدول الأوروبية الكبيرة الأخرى . حتى الإيطاليون الذين كانوا محتقرين

في نظر الألمان والأنجليز أحبوا واعتنقوا المبدأ القومي نفسه : « استعمر لذلك أنا موجود » .

دعيت القوة وراء هذا المبدأ ، دون دقة ، « الاستعمار » أو « الامبريالية » ، وجاء استعمال الكلمتين ملمحاً الى عدم ملاءمة كل منهما ، لذلك كان هذا المفهوم بحاجة الى معالجة حذرة لأنه نشأ في أرض محاطة بأسلاك صدئة ومزروعة بالألغام .

ان مصطلحي « مستعمرة » و « امبراطورية » مستمدان من الفترة التي نشر خلالها اليونان وورثتهم الرومان في البحر المتوسط حضارة عامة .

لم يكن الاستعمار في زمن اليونان نظاماً مجرداً ، لأن تأسيس المستعمرة جاء استجابة لحاجة اجتماعية وجرى في عالم سكانه قليلون . كل دولة مدينة زاد عدد سكانها على قدرتها على اطعامهم انشأت لها خلية في مكان ما قصيّ في حوض البحر الأبيض المتوسط . وهكذا نشأت مدينة جديدة « نيوبوليس » في موقع نابولي أو مرسيليا أو سيراكوزه ، واحتفظت ببعض الروابط بالمدينة اليونانية الأم ، ولكنها تعايشت أيضاً مع المواطنين المحيطين بها . هناك اسطورة حول تأسيس سيرين تشرح هذه العملية . حين جاء المستعمرون من جزيرة « ثيرا » البركانية ونزلوا شاطىء ليبيا ، دلهم الأهالي على مكان افضل لاقامتهم في الزاوية الغربية من سيرينيكا (برقة) حيث فتحة في السماء (اصطلاح شعري لهطول المطر سنوياً بصورة استثنائية) تجعل الأرض خضراء ، فكانت النتيجة مدينة هيلينية ازدهرت أكثر من ألف سنة ، والأرجح أن الليبيين لم يأسفوا على تلك النصيحة النبيلة .

حين انحطت الحضارة اليونانية فقط أسست الأسرة المكدونية امبراطورية حقيقية . كانت ميزتا امبراطورية الاسكندر اتساعها العظيم وقصر أجلها ، لم يلبث الملك العظيم أن مات حتى تمزقت امبراطوريته الممتدة من مكدونيا الى الهند الى ممالك يحكمها قواد جيشه . وقد رافق انتشار الثقافة الهيلينية اقتباس عادات وأفكار غير يونانية ، فلم يكن هناك حكم امبراطوري ، ولا كان اليونان طبقة ممتازة .

كانت الامبراطورية بدعة رومانية . ومع ان الرومان اسسوا مستعمرات كتلك المستوطنات التي زرعها اغسطس في الأناضول لسكن المحاربين القدماء ، إلاّ ان الامبراطورية الرومانية كانت بصورة اساسية امتداد العملية التي أدّت خلال عدد من القرون الى توحيد شبه جزيرة ايطاليا تحت الحكم الإيطاليّ . ان الحكم الأوليغاركي الإيطالي انبرى لحكم امبراطورية تشمل حوض البحر المتوسط بأسره ، وأدار شؤون ولايات هذه الامبراطورية بطرق مختلفة ، فالتي كثر فيها المستوطنون الرومان حكمها مجلس الشيوخ والولاة الذين يعينهم ، أما الولايات الأخرى فقد حكمها مندوبون عن قيصر ، وتمتعت الولايات التابعة كمملكة هيرودوس بدرجة من الاستقلال

الذاتي ، وأما مصر فكان لها وضع فريد كملك خاص للامبراطور . واذ نمت الامبراطورية فقد اتجهت الى توحيد اداراتها وإلغاء الفروق بين السكان الأحرار ، فان الامبراطور الشرقي « كركلا » منح الجنسية الرومانية لكل من كان غير عبد .

نجد في الطريقة التي سكن بها الأوروبيون ممتلكاتهم فيما وراء البحار وأداروها بعض نواحي النظامين اليوناني والروماني . ان ازدياد عدد السكان في الداخل وإغراء الفرص أديا الى قيام مستعمرات على الطريقة اليونانية ، فكانت المستوطنات الانجلو – سكسونية على الساحل الشرقي في أميركا الشمالية خلايا للوطن الأصلي ، ولكن الدافع الرئيس لذلك الاستيطان كان التعصب الديني الأعمى في الوطن ، وهو عامل قام بدور تافه في التاريخ اليوناني . ومن ناحية اخرى كثيراً ما انطوت المستعمرات اللاتينية على محاولة غرس الدين المحلي في الخارج . كذلك كان الحصر الديني غريباً عن اليونان ، فإنهم حين استعمروا مصر أوجدوا إلهاً اسمه سيرابيس يمثّل دمجاً بين إلههم الخاص زفس وبين أوسيرس الإله المصري . لكن الاستعماريين الإسباني والبرتغالي تشكلا ثقافياً بالمثل الروماني السخي الذي تخيل مواطنة عامة لأولئك الذين قبلوا مستويات عامة . فالهنود المستوعبون في جوا ، أو الصينيون في مكاو ، أو الأفريقيون في موزمبيق ، أو الاميرنديون في البرازيل ، يستطيعون أن يأملوا بالمشاركة في حقوق البرتغالي .

ساعدت العوامل التكنولوجية الأوروبيين الحديثين على التوسّع أكثر حتى من العوامل العسكرية . كان البرتغاليون مدينين بممتلكاتهم في الخارج لتقدمهم في الملاحة واستنادهم الى تقنية السلاح وانتاج المصانع . واذ وجد الأوروبيون أن سيطرتهم على مساحات واسعة من الأرض آخذة في التزايد نظروا الى أنفسهم في المرآة التي عرفوها ، اي التقاليد اليونانية الرومانية ، وطبقوا مصطلحاً لاتينياً براقاً على شيء يختلف جداً : على نظام مصمم للحصول على المواد الخام التي تحتاج اليها المصانع في اوروبا ، وعلى أسواق لمنتوجات هذه المصانع .

هناك مصطلح أفضل ، وان كان أقبح ، لنوع التوسع قبل عصر النهضة الأوروبية في بقاع من العالم غير متجاورة وهو « حكم المهجر » .

كانت لنظام حكم المهجر قوة الاندفاع الغريزي ، والذين شجعوه أنكروا بمنتهى الشدّة ما كانوا يفعلون . وقد أنتج هذا النظام ، ككل نظام آخر ، الرجال المكيفين لحاجاته ، الذين عكسوا مجتمعاً بطرق كثيرة جديدة ، فإنهم بينما حفظوا سجلاته ، وقدروا سلامته اليومية ، حللوه بحماسة لا نظير لها . امناء المحفوظات حفظوا ذكره ، والصحافيون قاسوا نبضه ، والكتّاب صوروا انواعه الأساسية بثقة خيالية .

كتب شكسبير « العاصفة » ، آخر مسرحياته ، في منتصف عهد جيمز الأول ملك انجلترا أيام كانت الامبراطوريات الأوروبية صغيرة . وقعت حوادث المسرحية في جزيرة صحراوية تختلف كثيراً عن العالم الكلاسيكي الذي طالما تجوّل فيه خياله سابقاً . كان شكسبير قد قرأ ما كتبه وليام ستراشي ، سكرتير شركة فيرجينيا ، عن غرق السفينة التي كان مسافراً عليها حيال برمودا ، فبنى على هذا الأساس الواهي أسطورة الوضع الاستعماري . يمثّل بروسبيرو ، الشخصية الرئيسة في المسرحية ، الفنان الذي ودّع حرفته ، ولكن عالماً فرنسياً خبيراً بالحكم الاستعماري في مدغشقر تفرّس فيه نموذجاً للمستعمر الأوليمبي . أخذ الأمير بروسبيرو الجزيرة من مالكها السابق الذي يدعى « كاليبان » وهو جناس تصحيفي لكلمة « كانيبال » الانجليزية التي تعني آكل لحم البشر . كان كاليبان ذا طبيعة منحطة شهوانية جداً فتنه سحر الرجل الأبيض . وقد سرّه في بادىء الأمر ان يتعاون مع القادمين الى الجزيرة ، كما يتعاون المواطنون مع الرواد الغربيين وكما تعاون الليبيون مع اليونان ، ولكن النتائج كانت أليمة . ذلك بأن كاليبان استاء كثيراً حين اكتشف أنه أصبح مستعبداً :

> وحقّ سيكوراكس أمي ، هذه الجزيرة التي أخذت مني ملكي ، يوم قدمت اليها أدهشتني ، وكثيراً ما أفدتني ، سقيتني شراب التوت ، وعلمتني اسم النور الأكبر الذي يضيء النهار والنور الأصغر الذي يضيء الليل ، فأحببتك ، وأطلعتك على خصائص الجزيرة ، على الينابيع العذبة والآبار المالحة ، على البقاع الخصبة والأخرى الماحلة ، اني على ما فعلت لأستحق اللعنة !

كانت ميراندا ، ابنة بروسبيرو ، رمزاً للأنوثة البيضاء ، ومقياساً يصبو إليه الرجال المستعمرون . جرى المتوحش الأسمر وراءها فنزل به العقاب . أما وقد رأى شكسبير وضع الاستعمار بوضوح ، فقد رأى ايضاً اضمحلاله في النهاية . كسر بروسبيرو العصا السحرية ، أداته للسيطرة ، القوة التي قيدت حتى عبقرية آريال ، فأصبح كاليبان مخلوقاً مستقلاً صاحب إرادة خاصة ، وظهر تماماً كشايلوك ان له ، على الرغم من كل ما فيه من منفرات ، أحاسيس إنسانية ولذلك له حقوق .

بعد قرن من الزمن ابتدع دانيال ديفو ورقة مصورة أخرى في لعبة حكم المهجر هي روبنسون كروزو الأوروبي الذي خاب أمله في وطنه فوجد في جزيرة صحراوية منفذاً لطاقاته الريادية ، وفي « فان فرايدي » تسلية في عزلته . كل بروسبيرو في امبراطورية المهجر يضع وهو يرتدي الملابس الفخمة خطوط السياسة ، فيرفع الى مرتبة والٍ أو نائب ملك ، أو يخفض الى مرتبة قنصل عام أو وكيل .

ومن اجل تنفيذ سياسته يعتمد على فرقة من أمثال كروزو : حكام مقاطعات أو قواد قلاع ، وخريجي جامعات يكرسون عشرات السنين للعمل في قرى الغاب ، حتى شعراء مثل رمباو يبيعون الكحول والبنادق في هرر النائية .

ان بروسبيرو هو الملك ، وميراندا الملكة ، وكروزو الولد . انهم الصور في لعبة الورق ، من أصل كريم ، ويتمتعون بالعلم أو الموهبة . وكي تتجسد هذه النماذج في الحقيقة ، ويستعمل القنصل العام ذو القبعة المزينة بالريش سلطته ، لا بدّ من أوراق ثانوية مؤيدة مثل الاثنين الاسباتي ، أو السبعة البستوني ، أو الخمسة الكبا ، أو العشرة الديناري . هؤلاء كانوا الجنود والرقباء والرجال الذي يقومون بأعمال الامبراطورية الشاقة ، بأعمال الموت والقتل والحراسة التي دونها يقضى على سياسة بروسبيرو أو متعة كروزو .

عرف نظام حكومة المهجر من أين يجند أوراقه العادية : من الأحياء السريعة التناسل القذرة في مدنه الغنية . ألقى فردريك انجيلز الألماني الأولمبي نظرة فاترة إلى سواد انجلترا كتلك التي يلقيها الرحالة الانجليزي الى بلاد السود ، « فرأى العمال يعيشون كالفئران في مساكن حقيرة . عائلة برمتها ، واحياناً أكثر من عائلة ، تقيم في غرفة واحدة ، السليم من أفرادها والسقيم ، والراشد والطفل ، وذوو القربى القريبة ، وينامون معاً ، حيناً على الارض ، وأحياناً في سراديب رطبة يضطرون في الفصل الماطر الى نزح مائها ، وأحياناً أيضاً ينامون في الغرفة نفسها مع الحيوانات ، يقتاتون الدقيق مخلوطاً بالجبص ، والكاكاو ممزوجاً بالتراب ، ويتسممون بالتومين المنبعث من اللحم العفن ، ويهدئون انفسهم وأطفالهم الباكين بمستحضر الأفيون ، يمضون حياتهم دون شبكة تصريف بين أكوام من الغائط والنفايات ، وينشرون الأمراض المعدية كالتيفوس والكوليرا والتيفوئيد التي وجدت سبيلاً الى أحياء الأغنياء ، فقد قضى التيفوئيد على زوج الملكة فكتوريا».

أولئك الملايين الشاحبون من الناس كانوا مستعدين للتحول الى اي اتجاه في سبيل النجاة . نقل بعضهم الى استراليا ، والبعض الى بلد تمثال الحرية حيث غطسوا أو سبحوا في أحياء نيويورك القذرة ، ومنهم من راقته أنغام الاستعمار فحمل على كتفيه الواهنين عبء الرجل الأبيض.

ألف أوضح تلك الأنغام انجليزي من الطبقة الوسطى ولد في بومباي أربع سنوات قبل افتتاح قناة السويس . كان رديارد كبلنج ، الذي اضطهد في المدرسة ، وعدّ نصف غريب في انجلترا ، أول من نظم الكثير من الشعر بلغة الطبقة العاملة الانجليزية ، وكانت العواطف التي عبّر عنها شعره البروليتاري عواطف رقيب تجنيد لا ثوري . وجد حكم المهجر المدافع عنه والناقد البناء في رجل تألم في طفولته ، وأمضى بقية

حياته في تمجيد ماسوخي للآلات التي غذت ذلك الألم . خلق التوسع الانجلو-سكسوني ، الذي كان فجره في أيام شكسبير وديفو ، نماذج شخصية ، أما في المرحلة الامبريالية فقد خلق أفكاراً تجريدية . في قصيدة عن المغامرة الامبريالية الأميركية في الفيليبين عرف كبلنج أتباع الاستعمار — أو ضحاياه — بمزيج من كاليبان ومان فرايدي ، من الشيطان والطفل . ان الشيطان والطفل في الشعوب غير الناضجة يجعلانها تستاء من عملية التمدين التي تقربها ببطء من النور ، وتقرع أمثال بروسبيرو وكروزو صارخة :

لمَ أخرجتنا من العبودية
أيها الليل المصري المحبوب !

كان كبلنج كاتباً أحذر من ان يستعمل « مصر » دون روية ، والواقع أنه ضمّ في قصيدته معظم حضارات العالم القديم . وبما أن الحضارات القديمة سببت لرقيب التجنيد الشاعر شكاً في الذات مكبوتاً ، فإننا عبثاً نبحث في آثار كبلنج عن أي اعتراف بالفلسفة الهندية أو الفن الاسلامي ، ولكنه يعترف بصفات لا تسبب للجندي أو البحار ارتباكاً ، وأهمها الجرأة الجسدية التي ميزها ارنست همنغواي فيما بعد . في قصائده التي يطري فيها « فظي وظي » السوداني ، أو « جونجادن » خادم الجنود البريطانيين ، أوجد نموذجاً أدبياً وضعه قرب بروسبيرو الارستقراطي وكروزو رجل الطبقة الوسطى ، هو عبارة عن جندي بريطاني مجهول الاسم يحترم الأهالي شرط ان يجهلوا القراءة والكتابة . وهكذا فإنه يخاطب السوداني بقوله :

أنت رجل جاهل
ولكنك محارب ممتاز !

أو يحيي الخادم :

مع أني جلدتك وسلبتك ،
وحقّ الاله الحي الذي كوّنك
انت خير مني يا « جونجادن » !

تبدو هذه الأسطر ، أو قصد بها أن تبدو ، نبيلة ، لأنها اعتراف من رئيس بالصفات الحميدة الخفية في مرؤوس ، ولكنها في الواقع إطراء لجندي صاحبة الجلالة لأنها تأكيد لوجود من هو دونه . وأي ازدراء يمكن إخفاؤه بدهاء أكثر من هذا الاحترام الذي أظهره كبلنج ؟ !

تحدث كبلنج للشعوب الأوروبية الأخرى ، أو لتلك الفئة منها المنهمكة في الاستعمار . اما ولفريد سكاون بلانت ، وهو شاعر أقلّ من كبلنج ولكنه مراقب

أكثر إدراكاً للاستعمار في عمله ، فقد لاحظ في السبعينات أثر أوروبا في الساحل الجزائري : « فساد المستوطنين الفرنسيين المزري مع حاناتهم وخنازيرهم » . أما معاملة العسكريين الفرنسيين للأميين فكانت تختلف عن ذلك ولا سيما في الصحراء : « في الصحراء ، وراء جبال أطلس ، حيث ساد الحكم العسكري فإن الأمور كانت أفضل . ذلك بأن الضباط الفرنسيين ، في الغالب ، كانوا يقدرون صفات العرب النبيلة ويحتقرون الخليط الوضيع الأوروبي — من اسبان وايطاليين ومالطيين وفرنسيين أيضاً — الذي تتكوّن منه المستعمرات » . كذلك احترم الفرنسيون المحارب النبيل بينما احتقروا الحثالة الآتية من الأحياء القذرة التي كونوها بأنفسهم .

كان هذا الدافع الى الاستعمار القوة التي وقفت وراء كولفين وكوكسون في تأييدهما لتوفيق بعد ظهر ذلك اليوم الحار من أيلول في ساحة قصر عابدين . كان ذانك الرجلان يمثلان عصرهما تماماً ، ولا نعني بهذا القول ان الدافع الاستعماري مقصور على الثمانينات ، فان الدول الأوروبية قد استولت منذ عصر فاسكو دا غاما على مناطق نائية من الأرض . بارك البابا نفسه البرتغاليين والاسبان حين قسموا فيما بينهم اميركا الجنوبية ، واحتل الهولنديون ارخبيل اندونيسيا بموافقة كلفنية ، ورأت كنيسة انجلترا في اخضاع راجات الهند واحداً بعد الآخر إرادة إلهية . حتى الدانيمرك امتلكت ، علاوة على جرنيلاند ، احدى جزر الهند الغربية . وقبل هؤلاء مارست مدنيات اخرى ، ومن ضمنها الإسلام ، مثل هذا التوسع وباركته . بيد ان هذه الحركة الأوروبية في الثمانينات ، التي وجدت في كولفين وكوكسون نصيرين قديرين كانت مرتبطة بالمال وانتاج المصانع اللذين كانا جديدين ومميزين . وعلى الرغم من احتلال فرنسا للجزائر في سنة ١٨٣٠ كان نذير هذه الحركة ، واحتلال ايطاليا للحبشة في سنة ١٩٣٦ أفولها، إلاّ أن الفترة من ١٨٨٠ الى ١٨٩٠ رأت هذه الحركة تحطم قيود التردد وتندفع بقوة جعلت الأحرار والمحافظين أدوات لها .

أعدّ لذلك العقد أكثر المحافظين رومانسية . حصل دزرائيلي ، رئيس وزراء بريطانيا ، بالعمل المنسجم مع بسمارك أكثر الواقعيين عناداً ، على قبرص في ١٨٧٨ لأنه تصور تلك الجزيرة المهملة العثمانية منذ القرن السادس عشر محور امبراطورية آسيوية عظيمة يرتفع فوقها العلم البريطاني ، وقد بحث روايته تانكرد في مثل هذا الموضوع . وافق السلطان على التنازل عن قبرص لبريطانيا مقابل تأييدها له في الولايات العربية من امبراطوريته المهددة . وحصل دزرائيلي على امتياز آخر ، وهو حق تعيين قناصل بريطانيين متجولين في الأناضول ، ولهذا الامتياز الثاني أهمية كبيرة بالنسبة الى دزرائيلي الذي بنى الامبراطورية التي تخيلها على الاناضول

لا على مصر .

سخر ولفريد بلانت من اهتمام دزرائيلي بقبرص بقوله : « كان الأمر كله حماقة رومانسية ، ولكن دزرائيلي أحب أن يحول دعاباته السياسية الى حقائق ، وأن يقنع أتباعه الانجليز ، الذين احتقرهم كيهودي ، بطرائق حماقته » . قد يكون من الأصح ان نقول ان دزرائيلي أحس بارتباط عاطفي بالشرق الذي جاء منه أجداده اليهود شبيه بشعور الملكة فكتوريا نحو مرتفعات اسكتلندا ، ولكن كلاً منهما كعضو في كنيسة انجلترا كان يضع المصالح البريطانية أولاً . كذلك شعر ولفريد بلانت بارتباط مماثل بالشرق الأوسط ، ولكنه ارتباط مستوحىً من تأييد بايروني للقضية الإسلامية (فقد كانت زوجته من نسل بايرون) ، ثم انه كان يرى في حياة بدو الصحراء العربية حرية أضاعها الانسان المتمدن .

اذا تركنا العواطف جانباً وجدنا لحيازة قبرص نتائج عملية اشتملت على خسارة اخرى للسلطان وإحراج لدزرائيلي . بعد عقد صفقة قبرص اجتمع دزرائيلي ووزير خارجيته اللورد سالزبري لبحث « المسألة الشرقية » مع الدول الأخرى في برلين ، بعد هزيمة الروس الساحقة . أكد الرجلان لزملائهما أنهما حضرا الى المؤتمر غير مرتبطين بتعهدات سرية ، فقد كانت صفقة قبرص لا تزال سراً . كان الفرنسيون لا يزالون متأثرين من هزيمتهم على يد البروسيين قبل عشر سنوات ولذلك ساءهم التجاهل المتوهم ، فكيف بالحقيقي ! ولكن بسمارك هدأهم بأن حصل لهم على ثلاثة امتيازات على حساب السلطان وهي : وضع معادل لوضع بريطانيا في الاشراف على مالية مصر ، واعتراف بهم حماة للمسيحيين اللاتين في الشرق ، وأهم من ذلك حق توسيع ممتلكاتهم في شمال افريقيا على حساب تونس ، وقد كان وضع باي تونس أشبه بوضع الخديوي المصري .

لم يبق للرأي الإسلامي عامة وللسلطان خاصة ، بعد ذلك ، سوى ثقة قليلة بوعود انجلترا . ان الأثر الذي أدّى الى تلطيخ منحدرات غاليبولي بالدماء قد بدأ في قبرص .

ان دزرائيلي الذي مهّد الطريق للتوسع البريطاني في الشرق الأوسط — أولاً بشراء حصة كبيرة في شركة قناة السويس ثم بالسيطرة على قبرص — لم يتولّ قيادة الخطوة التالية الى الأمام ، لأن الذي عالج المشكلة المصرية إنما كان وليام جلادستون رئيس الوزارة البريطانية وذلك لمصلحة حزب الأحرار .

يخطىء من يعتبر رجال السياسة « آسات » في لعبة الحكم في المهجر . ذلك بأن « الآس » المهيب الصامت عديم اللون ، القادر على التسلل عبر الأبواب الدوّارة دون ان يُرى ، انما كان طبعاً المسيطر على المال . أشار جورج أورويل الى أنه

يبدو أن كبلنج لم يدرك « شيئاً سوى الجندي العادي أو الاداري الاستعماري ، لا أن الامبراطورية في الدرجة الأولى مشروع لجمع المال » . ان الذين لم ينسوا أبداً هذه الحقيقة العليا هم « الآسات » . فالأوراق الصور كانت تلعب لمصلحتهم لا لمصلحة بلادهم . لم يدعم كولفين لأنه أتقن الأدب اللاتيني أو حافظ على وقاره ، بل لأنه كان مراقب مالية مصر . ولم يدعم مساعدة كوكسون لأنه كان قنصلا بريطانياً بالوكالة وقاضياً ، بل لأنه يستطيع الاستعانة بسلطة الدولة في تأييد كولفين . أما توفيق فقد دعم لأن طربوشه وأوسمته ولقبه جعلت الأمر كله قانونياً ، أو قانونياً تقريباً اذا اعتبرنا تعقيدات السيادة العثمانية . لم يكن تحت طربوش توفيق إلاّ القليل غير ذكريات الحريم وانطباعات عن أقربائه البورجوازيين . هذه الطبيعة السلبية نفرت الرعية منه ، لكن جعلته صالحاً للاستغلال في نظر « الآسات » ، فمنحوه التأييد التام في قيامه بدوره الخسيس !

الفصل الرابع

وضع حادث عابدين عرابي في مركز يسيطر منه على مصر . ومع انه لم يكن ابداً أكثر من وزير للحربية إلاّ أنه ظل سنة ويومين صاحب القوة الفعلية ، ومن ورائه ومعه اندفع جمهور المصريين العاديين مضطربين أول مرة منذ أيـــام الفراعنة ، نحو الحكم الذاتي ، وكان ترددهم نتيجة طبيعية للقيود التي رسفوا فيهـا طويلاً .

وجد السلطان الذي آلمته خسارة تونس أساساً للأمل في ظهور مسلم قوي في شمال افريقيـــا ، ولكنه أمل مشوب بالخطر . ذلك بأن عبد الحميد كان كحاكم مطلق يرتاب في الحركات الشعبية ولو كانت مؤيدة له . ثم انه رأى ، كمراقب لأوروبا خبير بهـــا ، أن تحول جيش متمرد (كما وصفه أنصار توفيق) الى ثورة مصرية حقيقية أمر لن ترحب به الدول الاستعمارية .

كانت شعبية عرابي داخل مصر صاخبة بقدر ما كانت فجائية . كلما مرت عربته في شوارع القاهرة المغبرة هتف له الناس قائلين : « الله ينصرك يا عرابي ! » خطب في حشد من الناس في محطة السكة الحديد بالقاهرة ووعدهم بأن جيشاً موحداً ومنظماً سيحقق لمصر مستقبلاً مجيداً . واجتمع في الدلتا ، قرب مسقط رأسه ، ألف شخص سمعوه يصرخ بان كل مستوى من مستويات الحياة المصرية بحاجة الى الاصلاح ، وهتفوا حين قال ان المصريين لا الأوروبيين يجب ان يعينوا حيث ذلك ممكن . في اول تشرين الثاني شرح بهدوء لسير أوكلاند كولفين آراءه العامة ، وكانت منتوج تقليد حكم الرجال البيض أو جاولوا الحكام بموجبه فقط .

قال كولفين : « وصف حكومة المماليك وحكم الأسرة الحالية بانهما يتساويان في اضطهاد السكان العرب . وكانت غايته ان يظهر ان المصريين لم يجدوا حتى الآن الأمن على الحياة أو الممتلكات . كانوا يسجنون ، وينفون ، ويشنقون ويرمون في النيل ، ويجوّعون ويسلبون تبعاً لإرادة أسيادهم . كان العبد المعتوق أكثر حرية من العربي الحرّ ، واجهل تركي يعظم ويفضل على خير المصريين» . وبعد ان ذكر ما جرى لصدّيق ، العربي الذي تقلد وزارة المالية في زمن اسماعيل ، وكيف ان الخديوي قتله ، حاول عرابي ان يشرح بصورة مفصلة أن الناس جاءوا من أصل واحد ، ولهم حقوق متساوية في الحرية الشخصية والأمن .

نفى عرابي ما نسب اليه من كره الأجانب ، وقال انه لم يقصد التخلص من الأوروبيين جميعاً ، سواء أكانوا مقيمين او موظفين ، بل وصفهم بأنهم معلمون ضروريون للشعب . ثم أشار الى ضابطين كانا مرافقين له ، وهما علي فهمي وطلبة بك ، وقال إنهما لم يدخلا المدرسة ابداً ، وان التعامل مع الأوروبيين كان مدرستهما .

تأثر كولفين عند هذا الحدّ بالتأييد الشعبي الذي لقيته الثورة ، ووصف الوضع السياسي لأسياده في لندن بأنه في أساسه هدنة ... « فترة للتنفس نستطيع خلالها أن نحصي القوى التي تعمل حولنا ، ونحاول توجيهها أو قمعها . لقد تاه الجيش بما أنجزه ، واقتنع قواده بأن مهمته إعطاء مصر حريتها » . دعا عرابي الى الإجتماع برلمان اسماعيل البدائي ، « مجلس الأعيان » ، وأراد ان يعطي هذا المجلس الوديع سلطات تامة . كان كولفين يعطف على التطور الدستوري شرط ألاّ يحدّ من سلطته على مالية مصر . قال : « أظن أنه ليس من واجبي معارضة الحركة الشعبية ، بل أن أوجهها وأعطيها صورة محدودة . وما دام وضع البلد المالي ، أو نفوذ الرقابة ، لا يحتمل أن يتأثر بالامتيازات التي اعطيت للأعيان ، فاني أعتقد أنني سأكون كثير الحماقة اذا عبرت عن عدائي لرغباتهم » .

لكن الاهتمام في انجلترا كان أقل من ذلك بما يريد المصريون أو لا يريدون . في ٤ تشرين الثاني ١٨٨١ كتب لورد جرانفيل ، وزير خارجية جلادستون ، الى سير إدوارد ماليت القنصل البريطاني العام في مصر ، الذي كان كوكسون تابعاً له ، يشرح قواعد السياسة البريطانية :

يجب قبل كل شيء المحافظة على السيادة العثمانية الاسمية لأنها اذ كانت اسمية لن تؤثر في مجرى الأمور ، واذا كانت قائمة فانها تهيىء لبريطانيا ستارة تعمل من ورائها ، وتبعد ايضاً التدخل الأوروبي .

لكن يجب ألاّ تصبح السيادة العثمانية في اي حال فعالة . شدّد جرانفيل على « رغبة الحكومة البريطانية في المحافظة على تمتع مصر بدرجة الاستقلال الإداري التي اكسبتها إياها فرمانات السلطان» ، وهذا يعني بعبارات أقسى التمتع بالسيطرة الأجنبية على ماليتها ، وهو أمر استطاع السلاطين العثمانيون مقاومته في وطنهم الأصلي .

جاءت اللدغة في البيان البريطاني الذي قرأه ماليت لتوفيق في الجملة التي شدّد عليها في الفقرة الثالثة . بعد ان ردّد قوله ان ضمير بريطانيا الإمبراطوري يرتد عن كل رغبة في انقاص الحرية المصرية ، أو العبث في المؤسسات التي أوجدتها » ، أنهى جرانفيل البيان بقوله ان الظرف الوحيد الذي يضطر حكومة صاحبة الجلالة

الى الابتعاد عن المسلك الذي ذكره هو « حدوث حالة فوضى في مصر » .

حين شدّد ماليت على الكلمات الأخيرة ، أشعل معناها الأمل وراء وجه توفيق المتلبد القانط ، وتحمس الخديوي لمعاقبة المصريين .

ان المراقبين من وايتهول ، الذي ينتظرون التمسك بمثل تلك الفوضى ، أظهروا أسفهم على الأقوال الصريحة الجديدة في الصحف المصرية . كتبت احدى تلك الصحف تقول : « نحن فريسة أسدين ينتظران الفرصة لتحقيق أهدافهما » . كذلك اظهرت مصر استياءها من هزء الأجانب بها فطردت صحافياً فرنسياً أساء الأدب في كتاباته ، وأظهر الجنود المصريون في السويس دلائل العصيان حين أقدم إيطالي على قتل أحد زملائهم . كانت كلها حالات انفعال لا يصح أن توصف بالفوضى .

كان هناك ، ولا ريب ، أسدان . بعد منتصف كانون الأول اصبحت فرنسا تحت حكم جمبتّا . كتب هذا الفرنسي المشاكس الى لورد جرانفيل يقول : « ان اعداء النظام الحالي ، انصار اسماعيل باشا وحليم باشا والمصريين عموماً ، يجب ان يفهموا ان فرنسا وانجلترا ، اللتين وضع توفيق على العرش بنفوذهما ، لن تدَعنا لإنزاله عنه » . وقد اقترح جمبتّا ارسال مذكرة انجلو–فرنسية شديدة الى مجلس الأعيان .

جاءت النصيحة لبريطانيا من القاهرة ضد التدخل . حاول كولفين في مذكراته ان يبرهن ان أكبر خطر على بريطانيا التحام التحالف بين الرأي العام المدني الذي يمثله مجلس الاعيان وبين القوة العسكرية التي يمثلها عرابي والبكباشية الملتفون حوله .

لم يظهر في القرن التاسع عشر بروسبيرو كتب عن « جزيرة الصحراء » الخاصة به بعمق أشدّ مما فعل كولفين . ارسل الى حكومة لندن تقريراً يقول فيه : « أظن ان الحركة في اساسها كانت ولا شك حركة مصرية ضد الحكم التركي المستبد . انها في هذه المرحلة حذرة في موقفها من الأوروبيين لأنها بحاجة إليهم في نزاعها من اعدائها الأقربين ، لكنها لن تنظر إليهم بعطف أو تحركها أية رغبة سوى التخلص منهم في آخر الأمر » . شعر كولفين ، بصفته مراقباً للمالية المصرية ، بخطر مزدوج : اذا حصل مجلس الأعيان على حق الاشراف على ميزانية مصر فقد يتحدى الرقابة الانجلو فرنسية ، وقد يبعد الأوروبيين أيضاً عن مراكز النفوذ التي وضعتهم أوروبا فيها . لقد وازن تقدير كولفين بصورة دقيقة بين المبادىء التحررية وبين المصلحة الاستعمارية العامة : « أظن أنه ليس من الحكمة مقاومة الحركة التحررية الجارية الآن . ان اعداءها الكثيرين بين الأوروبيين لا يقلون عنهم بين الأتراك ، ولكنني أظن أنها في جوهرها نموّ الروح الشعبية ، وأنها موجهة لخير البلد ، لذلك ستكون معارضتها حماقة شديدة . وبما أنني أود لها النجاح فإنه ليبدو لي من الضروري

أن تفهم منذ البداية الحدود التي عليها ان تحصر تفسها ضمنها ، وإلاّ فقد تنشأ توقعات وآمال سيؤدي فشلها إلى هزيمة تامة . ويجب ألاّ يسمح للحكومة والمجلس ، في كل ما تفعلان أو ستفعلان ، بأن تنسيا ان الدول قد تقلدت رقابة مالية مباشرة وأنها تنوي الإبقاء عليها » . وصلت هذه المذكرة الى لندن في ٢ كانون الثاني ١٨٨٢ ، ولكن رئيس الوزارة الذي وجه كولفين إليه فيها هذه الحقائق تصرف بكياسة كثور جبلي أطلق في قصر خديوي ، فقد ارسلت في الحال مذكرة انجلو–فرنسية الى قنصلي بريطانيا وفرنسا العامين في القاهرة كانت الجملة الرئيسة فيها مملة ولكن حاسمة :

« ... لذلك علي أن أطلب منك مصارحة الخديوي بأن الحكومتين الانجليزية والفرنسية تعتبران بقاء سموه على العرش ، بحسب الشروط الواردة في فرمانات السلطان ، والمعترف بها رسمياً من قبل حكومتين ، هو وحده القادر حالياً وفي المستقبل على ضمان النظام والازدهار العام في مصر ، اللذين تتساوى فرنسا وبريطانيا في الاهتمام بهما » .

وصف جون مورلي ، كاتب سيرة جلادستون الرسمي ، أثر هذه المذكرة المشتركة بأنه مفاجأة مذهلة ، وأن توفيق وحده هو الذي سرّ به : « فهم ان المذكرة تعني زيادة في اقصاء السلطان ، وان الخديوي سيصبح بصورة أوضح دمية انجليزية فرنسية ، وان مصر ستشارك تونس ، عاجلاً أو آجلاً وبطريقة ما ، مصيرها المشؤوم » .

لم يكن السلطان العثماني بحاجة الى ما يقنعه بالخطر الذي تمثله أوروبا على املاكه وخلافته . أدرك تماماً الصفقة المحزنة التي عقدها بالتنازل عن قبرص لقاء وعد بريطاني بتأييده في ولاياته العربية ، فان دزرائيلي وافق على احتلال فرنسا لتونس كي ينقذ مؤتمر برلين . لم يكن السلطان الأشقر البشرة كثير العطف على رغبة المصريين السمر في حكم أنفسهم ، بل كانت الفكرة المسيطرة عليه المحافظة على الدولة الاسلامية الفعالة الوحيدة على الأرض ، وهي دولته . لكنه كان في تفانيه في سبيل الاسلام مخلصاً ، وكان هذا التفاني هو الذي جعله ، أكثر من مزاجه الاستبدادي ، يقاوم الأحرار داخل دولته ، ويجددها تقنياً (بانشاء السلك الحديد واسلاك البرق) ، ويقوي السلطة المركزية . شرح في سلسلة رسائل رائعة أرسلها سراً الى عرابي الموقف العثماني من الأزمة ، ولم يكن موقفاً غير شريف . شدّد في الرسالة الأولى التي خطها بيده على أن الواجب الرئيس على كل مسلم المحافظة على سلامة الخلافة. قال : « انه لواجب على كل مصري أن يسعى بجد لتعزيز سلطتي من أجل الحيلولة دون انتقال مصر الى قبضة الأجانب الجشعين كما انتقلت ولاية

تونس». أما فيما يتعلق بالخديوي الذي صرحت المذكرة الانجلو–فرنسية بأن عرشه مقدس فقد وصفه بعبارات قاسية : « بناء على البرقيات والأخبار التي أرسلها الخديوي توفيق نرى انه ضعيف ومتقلب ، ونلاحظ أيضاً أن برقياته غير موثوقة لأن بعضها يناقض بعضاً » . وفي رسالة ثانية كتبها في اليوم نفسه سكرتيره الخاص تكلم السلطان عن أسرة محمد علي بلهجة أشد : « لا يهم أبداً من يكون الخديوي على مصر . إن افكار حاكم مصر ونواياه ومسلكه يجب أن تقرر بمنتهى الحذر ، وأن توجه أعماله جميعاً الى ضمان مستقبل مصر ودعم سيادة الخليفة ، بينما عليه أن تظهر أشدّ الحماسة للتمسك بالدين وحقوق البلد . هذا هو المطلوب منه . ان الذين اعتلوا عرش الخديوية ، اسماعيل باشا واسلافه ، رشوا علي باشا وفؤاد باشا ومدحت باشا وآخرين من ممثلي الباب العالي . إنهم خونة ! وبعد أن أغلقوا أعين المسؤولين اجترأوا على زيادة الضرائب على المصريين واضطهادهم » . ان المذكرة الانجلو فرنسية التي اعتبرت توفيق أمل مصر الوحيد في الحاضر والمستقبل استعْدَت السلطان بقدر ما استعداه ضياع تونس تقريباً .

كما انقصت المذكرة سلطة السلطان في مصر ، كذلك اضعفت سلطة الزعماء المدنيين المصريين الذين يمكن أن يحلوا محلّ عرابي . كثيرون من الأعيان ارتابوا في حكم العسكريين الاستبدادي ، وشعر آخرون بأن الثورة المصرية تهدد مصالحهم . قبل عرابي ، بعد حادث عابدين ، أن يكون شريف باشا رئيساً للوزارة . ولكن هذا الباشا شركسي بعرقه وطبعه ، وقد أصبح وضعه صعباً . في ١٠ كانون الثاني دعا سير ادوارد ماليت واحتج بأقسى العبارات على التدخل الأنجلو–فرنسي . قال له إن المذكرة شجعت الخديوي على مقاومة الإصلاح بينما الاصلاح وحده هو الذي يستطيع تفادي الثورة ، وعملت في اضعاف الروابط بين مصر والدولة العثمانية مع أنها كانت الحاجز الدستوري في وجه التغيير العنيف ، وأظهرت عباراتها ازدراءً بالمجلس الذي أثبت في هذا الظرف اعتدالاً والذي بإمكانه أن يكون في المستقبل حاجزاً آخر في وجه الحكم الاستبدادي ، وأسوأ من كل ذلك أن المذكرة اشتملت على تهديد بالتدخل الذي يرفضه المصريون على اختلاف آرائهم .

اذا كان شريف باشا قد أخطأ في شيء فهو عدم تقديره لشعور مجلس الأعيان . قابل الخديوي وفد منهم وطلب وزارة أقوى ينضم عرابي إليها وزيراً للحربية . لم يستطع الخديوي ، على الرغم من المذكرة الانجلو–فرنسية ، سوى الخضوع ، وقد أكره على وضع محمود سامي البارودي الشاعر الثوري على رأس الوزارة الجديدة بدلاً من شريف باشا ، وكان عرابي العضو المسيطر عليها . أصاب شريف باشا في رأية أن السياسة البريطانية ستتجه الآن نحو التدخل المباشر لأن بريطانيا لا يمكن

ان ترضى عن وزارة يسيطر عليها عرابي . وحين أصبح الاصلاح الدستوري موضع نظر علّق عليه كولفين بجفاء قائلاً : « ان البلد ينهار من حولنا ، والوضع ليس ملائماً لمناقشة ما إذا كنا نودّ أن تضاف إليه قصة أخرى . ويبدو أن البحث في القانون الأساسي سيظل ، الى أن يعاد توطيد السلطة المدنية ويقضي على الاستبدادية العسكرية ، سابقاً أوانه ولا فائدة فيه » .

احتاجت بريطانيا ، كي تتمكن من تحطيم عرابي ، الى مبرر قوي أو أحلاف جريئين ، ولم يكن لديها اي منهما . كان حكم جمبتا يوشك أن يزول ، واقترحت فرنسا الشريكة الهيّابة ان يستبدل بتوفيق الذي شوهت سمعته الأمير حليم الأكثر جاذبية . أما الدول الأخرى – روسيا والنمسا وألمانيا وإيطاليا – فقد استعديت بإبعادها عن المناقشات التي دارت قبل ارسال المذكرة ، فعبرت عن استيائها من الإجراء الانجلو–فرنسي بتصريحها ان الوضع لا يمكن ان يغير إلاّ بتفاهم بين كل الدول وبين السلطان . وأما الولايات المتحدة فاذا كانت قد شعرت بشيء فإنما هو التعاطف مع المطامح الديموقراطية للحركة المصرية .

واذ افتقرت بريطانيا الى حلفاء أقوياء راحت تبحث في الأفق عن مبرر ، فلاح لها مبرر ضعيف حين اتّهم في أيار جماعة من الضباط الشركس بالتآمر على حياة عرابي . كان الشرق دوماً خصباً بالمؤامرات ، بعضها صحيح والبعض نتيجة الشائعات في المقاهي . بيد أنه من المعقول تماماً أن يعدّ بعض الشراكسة مؤامرة ضد القائد الذي هدد طبقتهم ، ولا بدّ ان معرفتهم بالشعور البريطاني الرسمي قد زادتهم قوة . اعتقل أربعون من المتآمرين المزعومين بينهم لواء يدعى عثمان باشا رفقي ، وقدموا الى محكمة عسكرية حكمت عليهم بالنفي إلى أقاصي السودان . بيد أن فرنسا نصحت الخديوي أن يثبت سلطته بالدفاع عن أصدقائه وطبقته ، فعدل حكم المحكمة الى مجرد النفي دون تحديد المنفى ، وبذلك أصبح الخلاف النفسي بين الخديوي وبين وزرائه الوطنيين كلياً . لقد أظهر أن ترديده الاهتمام بالسيادة المصرية لا يعني شيئاً . فبدأ عرابي والضباط الآخرون يفكرون على أساس إقالته ، ونفي جميع أفراد أسرة محمد علي ، وتعيين حاكم عام يختارونه .

واذ أظهرت حركة عرابي تحولاً متزايداً الى ثورة حقيقية ، أخذ أعداؤها يحاولون حلاً بعد آخر . اقترح توفيق ان يطلب ماليت الى السلطان تفويض الخديوي دعوة الانجليز والفرنسيين الى التدخل . كان الفرنسيون حتى الآن معارضين لأي تدخل عثماني ، ولكنهم بدأوا الآن يشعرون أن تدخلهم تحت الراية العثمانية قد يكون البديل الوحيد من هياج العصبية المصرية الدينية أو العنصرية .

لكن جلادستون لا يستطيع أن يثق بخدمة السلطان لمصالح الحضارة الأوروبية ،

فوافق بدلاً من ذلك على خطوة قانونية مثيرة . في ٢٠ أيار وصل الى ميناء الاسكندرية دون دعوة ، أسطول انجليزي فرنسي ، كان القسم الانجليزي منه مؤلفاً من سبع مدرعات ، وخمس سفن مدفعية ، ونحو ثلاثة آلاف وخمسمائة رجل ومائة مدفع . وقد كان ما يرجوه ماليت من مجيء هذا الأسطول تقوية عزيمة الخديوي ودفعه الى تكليف احد الشراكسة – وربما شريف باشا – أخذ المبادرة وتأليف وزارة مدنية .

كان القنصل العام الفرنسي اكثر واقعية من زميله البريطاني. في رأيه أنه لا يستطيع اي شركسي تحدي عرابي ما دام مسيطراً على الجيش ، وأن أسهل طريقة لحلّ الأزمة تنحية عرابي نفسه . ظن هذا القنصل ان اغراء المال ، لا السلاح ، قد يحل الأزمة ، فعرض على عرابي ، بدعم من أغنى بيوت المال في فرنسا ، ان يتقاعد لقاء راتب قدره أربعة آلاف جنيه في السنة مدى الحياة . على أن عرابي رفض هذا الإغراء .

اذا كانت الرشوة قد فشلت في اقصاء عرابي فإن وجود الأسطول في ميناء الاسكندرية فشل في حمل القصر على إقالة الوزارة . وعجزت السفن المدرعة ، كما قال البارون دي كوسل المراقب العام للجمارك المصرية ، عن تهدئة الجوّ ، بل فعلت العكس وبدأ الخوف يساور الأوروبيين قليلاً . وقد كان الاوروبيون على حق ، لأن خطر السفن المدرعة الواضح في مياه مصر الاقليمية أثار غضب المصريين ، وراجت في ١٥ أيار شائعة تقول ان الأجانب يوشكون ان ينفوا عرابي ، ويحلوا الجيش المصري ، ويحتلوا البلد ، فحاول ماليت ، القنصل البريطاني العام ، اجراءً دبلوماسياً مباشراً وذلك بأن قدم الى مجلس الوزراء مذكرة رسمية يطلب فيها احالة عرابي على التقاعد موقتاً مع المحافظة على رتبته وراتبه ، ونقل اثنين من الضباط المتعاونين معه الى الأرياف ، واستقالة الوزارة الحالية .

بدا في صباح اليوم التالي كأن ماليت قد انتصر . قدمت الوزارة استقالتها ، ووجهت الى توفيق رسالة اتّهمته فيها بالاذعان للتدخل الأجنبي خلافاً لشروط الفرمانات ، ولكن توفيق أجاب ببرود انه قبل الاستقالة لأنها « كانت إرادة الشعب » .

لكن رضى لندن وباريس عن الوضع كان قصير الأمد لأن محاولة ماليت زادته تأزماً . رفض شريف باشا ، من جهة ، تأليف الوزارة ما دام قادة الجيش في مصر ، ومن جهة أخرى أبرق ضباط الجيش والبوليس في الاسكندرية ، حيث الاوروبيون كثيرون وبدء المتاعب منتظر ، ، يقولون إنهم لن يسمحوا باستقالة عرابي ، واذا لم يغير الخديوي رأيه خلال اثنتي عشرة ساعة فإنهم لن

يكونوا مسؤولين عن الأمن العام . وفي ٢٨ أيار أبرق ماليت الى لورد جرانفيل يقول ان رؤساء رجال الدين من المسلمين وغير المسلمين والنواب والأعيان قابلوا الخديوي بعد الظهر وطلبوا ارجاع عرابي الى وزارة الحربية .

قرر جلادستون في هذا المأزق أن يقوم بمحاولة سلمية أخيرة ، وهي الطلب الى السلطان ارسال مفوض عسكري الى مصر ، من الطراز القديم النشيط القاسي ، يرعب المصريين وجوده ويحولهم عن موقف المقاومة لانجلترا . أما فيما يتعلق بعرابي ، اذا لم يقنعه بإرساله الى القسطنطينية ، فعليه أن يدعوه الى اجتماع ودي ويقتله بيده اذا اقتضت الضرورة ذلك . كان هذا القرار اغرب قرار اتخذه جلادستون في حياته السياسية ، ولذلك لم يتكلم عنه كاتب سيرة حياته إلاّ بصورة مقتضبة .

وافق السلطان على اقتراح جلادستون ، وأرسل درويش باشا للقيام بهذه المهمة . وقد كتب جون مورلي ، الصحافي الليبرالي ، في مجلة بول مول « مقالاً عبّر فيه عن سروره بقبول السلطان ، وعن ارتياحه الى وجود رجل قوي مثـــل درويش باشا في القاهرة قادر على السيطرة على الأمور فيها . ثم انتقل الى وصف درويش باشا ، فقال انه رجل هادىء وقور ، وقد كان ذات يوم أكثر قواد الجيش العثماني قوة وقسوة . ومع أنه أصبح في السبعين من عمره إلاّ أن التقدم في السن لم يضعف ارادته ، فما زالت كالحديد . وما زال قادراً ، كما افنى عائلة ألبانية في البلقان ، على القيام بمذبحة اخرى كمذبحة المماليك في زمن محمد علي باشا .

خابت آمال الاحرار في معجزة يحققها قائد تركي . ربما كان درويش باشا في شبابه ، والجيش وراءه ، متحجر القلب كما وصفه مورلي ، ولكنه أصبح هرماً سخيفاً . حتّى التفويض السلطاني كان له فيه شريك . ذلك بأن عبد الحميد لم يقصد تقوية مصالح أولئك الذين أخذوا تونس ويريدون الآن أخذ مصر ، ولهذا ارسل مع المحارب القديم رجلاً داهية مطلعاً خبيراً بالشؤون العربية يدعى الشيخ أحمد الأسد ، رئيس احدى الطرق الصوفية في المدينة المنورة ، وأمره ان يتصل بعرابي سراً ويخبره أن تأييد القسطنطينية له سيستمر . وقد كان عرابي ، من ناحيته ، مستعداً تماماً للتعاون مع السلطان ، فهو حليفه المحتمل الوحيد .

كان درويش يسترشد بدافع واحد وهو الإفادة من زيارته لمصر . جعله جوعه الى المال والجواهر يرضي كل من يقدمها له . وعد الشراكسة الأغنياء بالتخلص من عرابي وارساله الى القسطنطينية ، ووعد المصريين بالعمل لإبعاد السفن الأجنبية عن الاسكندرية ، وأعطاه الخديوي خمسة وعشرين ألف جنيه نقداً وما يعادل هذا المبلغ من الجواهر كي يضمه الى جانبه . وكي يكافىء توفيق على كرمه طاف جوامع القاهرة يوم الجمعة ، وقت الصلاة ، فلم يجد سوى أربعة

من رؤساء الدين مشايعين لتوفيق بينما هتف الباقون لعرابي . استاء الباشا فقلد الرؤساء الأربعة أوسمة ، ووبخ الآخرين بعبارات نابية .

انتشرت أخبار جلافة درويش باشا في انحاء القطر المصري بسرعة ، وقامت في اليوم التالي تظاهرات صاخبة تأييداً لعرابي . أما درويش باشا فقد استبد به الخوف ، وحين قابل رئيس الوزارة ووزير الحربية أول مرة خاطبهما بكلمات مرضية . قال لهما : « اننا كأبناء السلطان جميعاً إخوة . ان لحيتي البيضاء تعطيني الحق في أن أخاطبكما كأب لكما . لنا هدف مشترك هو مقاومة الكفار ورحيل أسطولهم لأن وجوده يهدد السلطان كما يهددكم . علينا جميعاً ان نتعاون بحماسة على خدمة سيدنا . وأنت يا عرابي عليك أن تتعاون بأن تتنازل لي عن سلطتك العسكرية وتذهب معي الى القسطنطينية » .

أجابه عرابي بقوة أنه سيستقيل حين تسحب تهم الثورة واختلاس الأموال ، وبعد أن ينجلي الوضع الذي تقلد فيه المسؤولية . حين تهدأ الأمور يسره كمسلم مدني أن يقدم الاحترام الى السلطان الخليفة .

وصلت مهمة درويش هذا الطريق المسدود ظهر السبت في ١٠ تموز . وفي اليوم التالي حدثت الفوضى التي كان البريطانيون ينتظرونها منذ الخريف الماضي . تشاجر صبي اسكندري سائق حمار وعميل مالطي ، وانقلب الشجار الى شغب امتد الى الحي المالطي وعمّ الميناء بسرعة . وبما أن المصريين والأجانب ينفر بعضهم من بعض منذ زمن طويل ، وبما ان الاولاد سائقي الحمير كانوا يقومون بدور سيارات الأجرة العصرية ويطلبون أجرة عالية ، وبما أن الحرّ جعل الاوروبيين سريعي الغضب ، فربما جاء الشغب عفواً . لكن احداً من المراقبين لم يظن ذلك . فالبارون دي كوسل كان مقتنعاً بأن الشغب دبّر بعناية ، فقد تدفق على المدينة منذ الصباح عدد كبير من القرويين والبدو الفقراء المسلحين بالنبابيب ، ومثل هؤلاء يشغبون لكل من يدفع لهم . وقد لمح البارون دي كوسل الى الذين ظن أنهم مسؤولون بقوله : « لوحظ أن البوليس والحرس البلدي لم يفعل شيئاً لتهدئة الشغب . وروي في احدى الحالات ان بعض الأوروبيين لجأوا الى مركز البوليس ، فأغلق الحرس الأبـــواب وقتلوهم » . استمر الشغب من الظهر الى ما بعد العصر ، وكان من الطبيعي ان يلقى اللوم على عرابي ، ولكن لم يؤيد أي شاهد عدل هذه التهمة . كان عرابي مسؤولا عن الجيش لا عن البوليس أو الحرس البلدي الذين كانوا تحت اشراف عمر باشا لطفي محافظ الاسكندرية الشركسي ، صديق توفيق وأحد أفراد حاشيته الذي اقترح بديلاً محتملاً لعرابي في حالة عزله .

لم يكن دي كوسل مؤيداً لعرابي ولا مؤمناً بالديموقراطية المصرية ، بل كان

يرى واجبه الرئيس نحو انجلترا لا نحو المصريين الذين استخدموه ، ومع ذلك كان رجلاً شريفاً وقد وصف ما رأى . شاهد بداية الشغب وهو يقوم بجولة في ضواحي المدينة فرجع فوراً الى مقره .

« حين عبرنا بوابة روزيتا وجدنا جنوداً في الساحة الخاوية مستريحين وقد كوموا أسلحتهم وجلس ضباطهم على طول الطريق يدخنون . سلمت عليهم فردوا السلام جميعاً » . كانت القنصلية البريطانية محط أنظار المشاغبين ، وقد أصيب كوكسون بجرح خطير ، كما أصيب زميلاه اليوناني والإيطالي بجراح خفيفة ، وقتل مائتا شخص ، ولكن الفوضى قرب القنصلية البريطانية انتهت في نحو الساعة الخامسة . حين ظهر الجنود في الساحة وفرقوا المشاغبين ، فشعرنا بشيء من الراحة ، ولكن خيم الظلام ، ولم يكن في صوت سير الجنود في الشوارع وقصف المدفعية البعيد ما يساعد على تخفيف الذعر ، ولا سيما أننا لم نعرف هل سينضم الجنود الى المشاغبين ويكملوا عملهم ام لن ينضموا . ومن حسن حظنا أن الضباط سيطروا على جنودهم تماماً » .

هناك سبب جعل عرابي وضباطه يسيطرون على الرجال ، فقد كان ضرورياً للمصريين أن يقمعوا الشغب لأن استمرار الفوضى يقضي على حركة التحرر المصري . ان السرعة التي تم بها قمع الشغب أفادت القضية المصرية موقتاً . ذلك بأن الأوروبيين المقيمين في مصر الذين كانوا في السابق معادين لعرابي رأوا فيه الآن مخلصهم . فلو انه أسرع في محاكمة رؤوس الشغب وعقابهم لأمكنه ، كما قال ولفريد بلانت فيما بعد ، أن يربح اللعبة الدبلوماسية ، وأن يناشد اوروبا والسلطان بلغة الرجل القوي ، وما كان لهما أن يهملاها ، ولا أن تقف الحكومة البريطانية التي كانت بلا أنصار ضد الباقين . ولكن عرابي ، لسوء حظ الحرية ، لم يكن ذلك الرجل القوي ، وكان ايضاً يجهل اوروبا وفنون دبلوماسيتها .

كان الشغب بالنسبة الى عرابي ، وربما بالنسبة الى توفيق أيضاً ، مجرد حادث في سلسلة رتيبة . انتقل الخديوي من القاهرة الى قصره في الاسكندرية الذي يشرف على الميناء ، وأخذ معه درويش باشا ، وربما شعر كلاهما بالأمن قرب الاسطول البريطاني . ولم يعتبر ذلك قطيعة نهائية لأن من عادة الخديوي أن يمضي الصيف في الاسكندرية . بل ان توفيق قد استقبل عرابي ، وقبل وعده بأن يدافع عنه دفاعه عن نفسه . وقد علق بلانت على ذلك بقوله إن الخديوي « الذي ليس في قلبه سوى الغدر ، قد قبل هذا الوعد واساء استعماله الى النهاية » . وفي اليوم السادس عشر من الشهر عيّن رجب باشا رئيساً للوزارة ، ولكن عرابي بقي وزيراً للحربية .

انتقل عرابي الى القاهرة . أخذ من العاصمة التي غادرها الأجانب ينظر الى

اوروبا البعيدة التي لا يفهم من طرقها إلاّ قليلاً . كانت لديه اسباب للأمل ، فقد نظم بلانت في انجلترا جماعة من السياسيين والصحافيين اصحاب النفوذ للدفاع عن القضية المصرية ، وعلى صعيد اجتماعي مختلف أصدر اتحاد السلام العمالي في اواخر حزيران نداءً الى العمال في المملكة المتحدة يشرح فيه القضية المصرية ، وكيف أن الخديوي السابق ورط البلد في ديون انفقها في رشوة الباب العالي وبناء القصور ، ويبرر الشغب الذي وقع في الاسكندرية نتيجة قدوم الاسطولين البريطاني والفرنسي اليها ، ويدعوهم في النهاية الى استعمال نفوذهم المشروع لمنع الحكومة البريطانية من اعلان الحرب على مصر سواء أكان ذلك تأييداً للخديوي أو خدمة لمصلحة المضاربين الماليين المجردين من الأخلاق .

اذا كان لدى عرابي سبب للأمل في تعاطف من انجلترا ، فقد لقي تشجيعاً أحرّ من ألمانيا باعتراف بسمارك ، المستشار الألماني ، بأن عرابي اصبح قوة من الضروري أن يحسب حسابها . وقد اشتركت الدول الأوروبية الأخرى في هذه النظرة بينما كررت فرنسا اعتقادها ان الأمير حليم يجب أن يحلّ محل توفيق .

عرف عرابي الوضع كما رآه في منتصف حزيران بلغة فيها توازن بين الأمل والتحدي : « عقد معي الخديوي الآن صلحاً أمام ممثلي ست دول أوروبية ودرويش باشا ، وطلب مني أن أتقلد مسؤولية السلامة العامة . قبلت أمره ، وتعهدت وأقسمت أن أدافع عن حياته وعن حياة سكان مصر جميعاً على اختلاف عقائدهم وشعوبهم ، وسأحافظ على تعهدي ما دمت حياً وما لم يتدخل احد في سلطتي » . ولكن عرابي كان يدرك ، على الرغم من بيان جلادستون في اول حزيران انه « لا تعبئة عسكرية في الهند ، ولن ينزل الجنود في مصر » ، ان الجنود البريطانيين يتجمعون للغزو ، وان ما فعله ماليت وكولفين في القاهرة لم يكن سوى هدنة . ثم أضاف عرابي بهدوء : « لن نكون المعتدين ، لكن سنقاوم كل من يحاول أن يهاجمنا . نحن شعب مخلص ، يحفظ الجميل لمن يأخذ بيدنا ويساعدنا على اصلاح بلدنا . ان الاوروبيين ، وخصوصاً انجلترا ، ينظرون الينا كبرابرة . يقولون انهم يستطيعون سحقنا خلال أربع وعشرين ساعة إذا شاءوا . فليحاولوا ، لكنهم سيخسرون القروض العامة التي تبلغ ثمانين مليوناً وقروض الفلاحين الخاصة التي تبلغ عشرين مليوناً . ان اول طلقة تحررنا من هذه الارتباطات ، والشعب بسبب ذلك لا يريد شيئاً سوى الحرب » .

اظهر عرابي نفسه بهذا البيان أنه ابن الشرق الذي اعتاد ان يدافع عن مجتمعه اذا ما اعتدي عليه . ولكن في اصطدام بين القلاع الأرضية وبين القلاع البحرية من يوجه الضربة الأولى يرجح ان يضرب الأخيرة أيضاً .

بارك السلطان عبد الحميد عرابي وأيده بما يستطيع . في مارس رفع رتبته

من بكباشي الى باشا ، وفي حزيران سلمه درويش باشا وسام المجيدية . كذلك مدحته الصحف العثمانية ، ودعا المصلون له في الجوامع حتى تونس والجزائر .

بيد أن أكثر ما ثبت عرابي تأييد شعبه الغاضب له . حيث سارت عربته في شوارع القاهرة حيته الجماهير هاتفة : « أيدك الله يا عرابي ونصرك » ! ان هتاف الجماهير لا يؤدي الى النصر المنشود ولكن فيه تشجيع لعرابي . وصف لويس صابونجي ، وهو قس مسيحي متعاطف مع المسلمين كان يعمل في القاهرة وكيلاً لولفريد بلانت ومراسلاً ، أمسية حضرها مع عرابي واصدقائه مثل محمود سامي البارودي والشيخ محمد عبده وآخرين ، فقال إنهم امضوا تلك الأمسية الحارة من شهر حزيران في ارتجال شعر الرثاء والهجاء . نظم عرابي قصيدة هجاء ، ومحمد عبدة اثنتين ، ونديم اربعاً ، وسامي اثنتين . جلست للعشاء الى جانب عرابي ، وكان مكوناً من نحو ثلاثين طبقاً مختلفاً بالاضافة الى الحلوى الأوروبية والشرقية والفواكه . تحدثنا بعد العشاء في السياسة وفي مشاريع مختلفة ، وأنواع الحكم . فضلوا النظام الجمهوري ، وحاول البارودي ان يظهر فائدته لمصر . قال : « كان هدفنا منذ بدء حركتنا تحويل مصر الى جمهورية صغيرة مثل سويسرا ، ثم تنضم اليها سوريا ، ويتبعها الحجاز . لكن وجدنا بعض العلماء غير مستعدين لذلك لأنهم وراء عصرنا . ومع ذلك سنحاول ان نجعل مصر جمهورية قبل موتنا » .

كان اعداء مصر لا يضيعون وقتهم في نظم الشعر ، بل يصرفون طاقتهم وما لهم في التأكد من بقائها مملكة ألعوبة . أما وقد ثبت للحكومة البريطانية أن زعماء مصر الذين ينظمون الشعر برابرة ، وأن شعبهم فوضوي ، فقد قررت ان كل ما تحتاج إليه للتدخل هو برهان على ان المصريين خطرون أيضاً . ولكن اعمال عرابي ، أو انعدامها ، لم تؤيد هذه النظرة إلا قليلاً . ثم ان حضور وزير الحربية الصلاة مع الجماعة ، واصغاءه الى الذكر ، واستقباله الوفود من اهل القرى الى أمراء وأميرات الأسرة الخديوية الوطنيين لم يترك له وقتاً للاعداد للقتال الذي تكهن به ، ما عدا الاسكندرية ، أكثر المواقع عرضة للخطر ، حيث بدأ الاستعداد لهجوم محتمل . لا ريب ان العمل في الحصون البحرية بدأ قبل الشعب بأيام قليلة ، ولكنه توقف بطلب من السلطان الذي لم يرد استفزاز الأوروبيين . وفي ٣ تموز تلقى الأميرال الانكليزي أوامر من لندن بمنع استمرار العمل في التحصينات ، واذا لم يتوقف فوراً فإن عليه أن يهدمها ، وان يسكت المدفعية ان اطلقت النار .

بعد يومين انسحبت فرنسا المترددة من الانذار البريطاني لأن الحكومة الفرنسية رأت في ذلك الاجراء عملاً عدائياً ضد مصر ، والدستور الفرنسي يمنع اعلان الحرب دون موافقة المجلس ، ولذلك تولى الاميرال سيمور البريطاني في اليوم التالي تقديم

الانذار وحده . قالت له السلطة العسكرية التي كانت تشرف وحدها على الاسكندرية انه لم تضف مدافع في الآونة الأخيرة ولم تجر استعدادات عسكرية ، وشهد على صحة هذا القول درويش باشا مفوض السلطان وممثل السيادة العثمانية . ولكن لندن كان يحكمها جلادستون الذي لم يهتم بما يقول العثمانيون أو لا يقولون ، وقد قرر أن من حق الاسطول البريطاني الراسي في الاسكندرية ان يدافع عن نفسه . ثم أن الأزمة المصرية بدأت تحدث قلقاً في المقاطعات الشمالية من انجلترا ، وخصوصاً في لانكشير التي تعتمد مصانعها على مورد القطن المصري المنتظم . يضاف الى هذا أن جلادستون يكره كثيراً القادة العسكريين أمثال كرومويل ونابوليون ، وقد بدأ الآن يكوّن نفوراً شخصياً من البكباشي عرابي .

أعدّ البريطانيون خططهم بعناية . أخرجوا من الاسكندرية الأجانب المعرضين للخطر وارسلوهم الى بلادهم الأصلية أو الى السفن الراسية حيث يجدون الحماية . وقد ادرك الخبير دي كوسل ما هو آت ، فانهمك في تهريب مقادير كبيرة من المال من بناية القنصلية وساعد الميجر تالوك ، ضابط استخبارات الاسطول الذي قدم خدمة كبيرة للأميرال سيمور باستكشافاته السرية ، وقد كان مهتماً في الدرجة الأولى بمعرفة ما اذا كان عرابي مستعداً في كفر الزيات ، خط الدفاع ضد أي هجوم على القاهرة .

في ليلة ١٠ تموز خرج الأسطول الفرنسي من الاسكندرية الى بورسعيد. كذلك خرجت السفن البريطانية من داخل الميناء الى مواقع عينت لها . وفي الساعة السابعة من صباح ١١ تموز اصدر الاميرال البريطاني ، وكان على ظهر السفينة « انفنزبل » ، باطلاق قنبلة على حصن جرى تسليحه حديثاً ، ثم تبع ذلك أمر الى بقية الأسطول باطلاق النار على المدفعية المصرية .

لم يبق البارون دي كوسل بين المصريين في الاسكندرية بل طلب السلامة على ظهر السفينة « تانجور » . وقد وصف عملية القصف بقوله : « بالنسبة الى المدني الذي لم ير الحرب ابداً كان المنظر رائعاً . سمعنا الطلقة الأولى من السفينة ألكسندرا وكان إشارة الى بدء الهجوم ، ثم انضمت اليها السفن الباقية واحدة بعد أخرى حتى اشترك الأسطول كله في القتال . كان شيئاً رهيباً ومرعباً جعلني على الرغم مني ارتعد مهتاجاً . لم يمض وقت طويل حتى رأينا جميعاً كتلة من دخان أبيض تحيط بالسفن . كان ما نسمعه أكثر مما نراه ، وقد جعل دوي المدافع قلوب معظمنا تخفق بسرعة قليلة . وكنا بين الحين والآخر نلمح احدى السفن والكثير من القنابل المصرية التي كان المدفعيون المصريون يخطئون تسديدها فتمرّ من فوق السفن البريطانية وتسقط في البحر محدثة أمواجاً من الرذاذ قبل ان تغرق » . قال دي كوسل ايضاً

ان المصريين قاتلوا بجرأة وثبتوا في مراكزهم على الرغم من عدم براعتهم ، ومن النيران الشديدة التي صبتها السفن البريطانية عليهم . لقد كانت تنقصهم المعرفة باسلحتهم ، تلك المعرفة الضرورية لجعل دفاعهم ناجحاً ولو جزئياً .

دام قصف المدافع حتى الساعة الحادية عشرة صباحاً ، وان استمر بعض الحصون في مقاومة متقطعة ساعات أخرى قليلة .

لم يكد قذف القنابل يتوقف حتى بدأت الاسكندرية تحترق ، إما بفعل نيران المدافع أو عمداً . لم يقدم عرابي نفسه ارشاداً حاسماً . اذا كان هو الذي بدأ الحريق كتدبير انتقامي من ضرب المدينة بالمدافع كان لعمله ما يبرره كما برر احراق الروس لموسكو . أما تنصله المتكرر من ذلك فشاهد على ضمير حساس لا على إرادة قوية . على أنه أخرج الجيش المصري الى مواقع دفاعية جنوبي البحيرة التي تفصل الاسكندرية عن بقية مصر ، فترك ذلك فراغاً لأن البريطانيين لسبب ما لم ينزلوا جنوداً الى الميناء الواسع للسيطرة عليه . ولم يكن تحت تصرف الخديوي الذي نجا من القصف اي قوة ، ولم يسلم من القتل على ايدي جماعة من الجنود إلاّ برشوة كبيرة . ثم هرّبه البريطانيون من قصر الرملة الذي يبعد أربعة أميال عن المدينة الى قصر رأس التين ووضعوا سبعمائة من جنود البحرية البريطانيين لحمايته .

اعادت النظام الى المدينة المحترقة قوة بوليس موقتة يرئسها لورد شارلز بيرسفورد ، مؤلفة من عدد من جنود البحرية البريطانيين يرتدون معاطف زرقاء ومن مصريين غير مسلحين . اتخذت هذه القوة مركزاً لعملها ساحة محمد علي الواسعة التي كانت مكاناً هادئاً لتجار القطن الأجانب وسماسرته ، ووضعت طاولة في الوسط بين الاشجار ليتخذ منها لورد شارلز ومساعده الملازم برادفورد محكمة ، وقام البارون دي كوسل بالترجمة . كانت اجراءات هذه المحكمة مختصرة. كل من اتهم بالنهب أو بأعمال المقاومة أدين، وربط الى شجرة واطلقت عليه النار ، ثم حفر له قبر أمام الشجرة ودفن فيه . كتب دي كوسل ، الذي كافأه الخديوي بلقب البيكوية ، يقول : « على الرغم من ان ذلك يبدو ولا ريب فظيعاً جداً إلاّ أنه كان الطريقة الوحيدة والصالحة لمعاملة المجرمين ، فلا شيء أكثر حماقة ولا أكثر إفضاءً الى مثل هذه النتائج السيئة من رقة العاطفة » . وقد أظهر البريطانيون دلائل قليلة على هذه الرذيلة !

ضحّى جلادستون ، بفعلته هذه، بصداقة جون برايت الرجل الأقرب اليه. كتب جلادستون في محاولة لاقناع زميلـــه يقول : « طلب الأسطول البريطـــاني وقف محاولات تسليح الحصون ... واذ قوبل طلبه بالخداع والكذب طلب الاستسلام كي يجردها فوراً ، واذ رفض هذا تقدم لتدميرها . أما الحريق الذي تلا ذلك ،

والنهب ، والاعتداءات الأخرى التي قام بها المساجين الذين اطلق سراحهم ، فلسنا سببها بل ، كما يبدو ، الشر الذي تعمده عرابي » . وكتبت الأوبزيرفر ، وهي صحيفة لندنية كانت في ذلك الوقت متحمسة للاستعمار حماستها في القرن التالي ضده ، تعلن أن سلطة بريطانيا على مصر قد توطدت أخيراً بقوة السلاح وتقول : « أخيراً أيضاً تعلم العالم مرة أخرى أنه مهما كان الحزب الحاكم ومهما كانت المبادىء التي توجه سياستنا الوطنية ، لا يمكن أن يذبح الانجليز في الخارج دون عقاب ، ولا أن يتحدى احد المصالح الانجليزية ويبقى سالماً » .

بعد تسعة أيام من قصف الاسكندرية قرر مجلس الوزراء البريطاني إرسال حملة الى البحر المتوسط بقيادة سير جارنت ولسلي . وبعد يومين تشجع توفيق ، في حماية بريطانيا في الاسكندرية ، فأقال عرابي . بيد أنه لم يجرؤ ، خلال أكثر من شهر على تعيين حكومة جديدة . ومهما كان الحال فقد استمر عرابي يحكم القاهرة والدلتا .

اختبر البريطانيون خطوط الدفاع جنوبي البحيرة المرة ، واذ وجدوا ان اختراقها صعب وضعوا خططاً للزحف الى القاهرة عن طريق قناة السويس . هنا أظهر عرابي أسلوبه في العمل ، أو بالأحرى اللاعمل . عقد مجلساً يومياً أمته شخصيات مصر : التجار الأغنياء ، وأصحاب الصحف ، وعلماء الأزهر . وكان بين انصارة المتحمسين الأميرة الجميلة الحادة الذكاء نازلي ابنة مصطفى فاضل ، ويرجع جزء من حماستها لعرابي الى حقدها على عمها اسماعيل الذي غيّر قانون وراثة العرش كي يحرم أباها ويجعل ولده توفيق وريثه . ولكنها كانت أيضاً معجبة بعرابي فعلاً . قالت لولفرد بلانت ، حين انتهى الأمر ، ان عرابي كان « أول وزير مصري حمل الأوروبيين على طاعته . في زمنه ، على الأقل ، رفع المسلمون رؤوسهم ، ولم يستطع اليونان والإيطاليون ان يخالفوا القانون » . على أنها رأت ضعف عرابي أيضاً، قالت «إنه لم يكن صالحاً تماماً كجندي، وانه كان طيب القلب جداً . هذان هما ما فيه من عيب » .

ظهر هذان العيبان بوضوح في الأسابيع الأخيرة من حكمه . سحره تملق سيدات الأسرة الخديوية والهدايا التي كن يحضرنها له . جلس بطل مصر في خيمة كبيرة كانت ملكاً لسعيد باشا ، والآن قدمتها أرملته هدية وطنية لمساعده السابق . كان عرابي طيب القلب الى حدّ انه لم يشعر ان هذه الرعاية تثير الغيرة في بعض ضباطه الذين خافوا ، اذا انتصر ، أن يصبح الرجل الأقوى ويصبحوا هم لا شيء ، فكان هذا عامل ضعف في الجيش المصري . وهناك عامل ضعف آخر وهو براعة البريطانيين في الرشوة ، فقد أغروا البدو على جانبي القناة بتقديم المعلومات عن

تنظيمات الجيش المصري . ثم ان عرابي ، وقد اقتنع بدوره في انقاذ مصر الذي ارادته العناية الإلهية لم يفعل عملياً سوى الشيء القليل مفضلاً أن يحيط نفسه برجال الدين ، ويضيع معهم في الترنيم والتلاوة الوقت الذي كان عليه أن يصرفه في تنظيم الدفـــاع .

كان اغلاق القناة أحد التدابير الوقائية الواضحة ، وتنفيذه سهلاً بين بور سعيد والاسماعيلية ، ولكن عرابي تردد أمام دفاع دي ليسبس عنها ، وحين قرر اغلاقها جاء قراره متأخراً جداً لأن الاسطول البريطاني كان قد عبر القناة قبل اربع وعشرين ساعة الى البحيرة المرة الكبرى . وكان مع سير جارنت في هذا الأسطول ثلاثون ألف جندي بريطاني ، بينما لم يستطع عرابي جمع أكثر من ثلاثة عشر ألف جندي مصري لهم شيء من الكفاءة ، أما الباقون فكانوا لا يصلحون إلاّ لحفر الخنادق وأمور أخرى بسيطة .

أمضى عرابي الليلة السابقة للمعركة الحاسمة في الصلاة والتلاوة مع رجاله الأتقيـــاء . لم يفتش مواقع الدفاع ، ولو فعل لوجد بعضهـــا خاوياً بفعل الرّشى البريطانية .

في اليوم التالي ، ١٣ ايلول ، بينما كان الجيش المصري واقفاً لصد أي زحف نحو الدلتا من الجهة الشرقية ، هزمه البريطانيون في معركة التل الكبير . لم يفعل عرابي شيئاً فعالاً أو فيه تهور ، بل ركب القطار الى القاهرة وسلم سيفه للضباط البريطانيين الذين كانوا قد احتلوا معسكر العباسية ، تاركاً وراءه أكثر من ألف قتيل مصري . أما البريطانيون فكانت خسارتهم احد عشر ضابطاً وأربعة وخمسين جندياً .

في الصيف أمل عرابي واصدقاؤه أن يروا في مصر قبل موتهم حكومة جمهورية . بينما كان الشاعر البارودي يطري في مجالسه الدساتير المثالية ربما سمعه احد الأطفال . فاذا كان قد كتب لذلك الطفل ان ينجو من وباء البلهارسيا في الدلتا ، وألاّ تطفىء التراخوما نور عينيه ، وعاش حتى بلغ السبعين من عمره ، فقد رأى نهاية أسرة محمد علي وتأسيس الجمهورية المصرية . أما عرابي واصدقاؤه فلم يروا غير حكم توفيق وولده تقف وراءهما قوة من الجيش البريطاني مقيمة في معسكر قصر النيل في قلب القاهرة .

الفصل الخامس

أصبح بلد عرابي وشخصه تحت تصرف بريطانيا . كتب لورد جرانفيل ، وزير الخارجية في حكومة الأحرار الى سلفه في حكومة المحافظين لورد سالزبري بعد أشهر قليلة : « طلب مني أن احدد بدقة تاريخ انسحاب الجنود . لا أرى من الحكمة ان ادلى بمثل هذا البيان . لن نبقي جنودنا في مصر مدة أطول مما هو ضروري، لكن سيكون الانسحاب خيانة لأنفسنا ولمصر وأوروبا اذا تمّ دون التيقن — أو التوقع المعقول لأننا لا نستطيع ان نكون على يقين من شؤون الحياة — من تأسيس حكومة مستقرة ، دائمة ، وخيرة في مصر » .

أوصى سير ادوارد ماليت بيروسبيرو انجليزي لممارسة السلطة الفعلية على مصر . اسم هذا الحاكم الأوليمبي افلين ولقبه بارنج ، وقد عرف في مصر والتاريخ « بكرومر » ، نسبة الى بلدة على ساحل نورفولك ، أما زملاؤه المعجبون به فقد عرفوه بلقب « اللورد » فقط .

أظهرت إدارة كرومر للشؤون المصرية خلال السنوات الباقية من القرن التاسع عشر والسنوات السبع الأولى من القرن العشرين حكم المهجر بصورة مكشوفة . كانت مصر محمية مقنعة لم يكن فيها لتوفيق الذي مات في سنة ١٨٩٢ ولولده عباس حلمي سوى سلطة قليلة . أما مصير عرابي الشخصي فقد أظهر دليلاً على النفوذ البريطاني أقل وضوحاً .

عاش الخديوي توفيق معزولاً شعبياً في قصر رأس التين خلال الفترة المتوسطة بين ضرب الاسكندرية وبين معركة التل الكبير . ولكن النصر البريطاني غيّر الأمور فجأة ، فقد كانت تنقص معظم المصريين جرأة قائدهم المعنوية . كتب دي كوسل يقول : « حين وصلت الاسكندرية أخبار هزيمة عرابي ، كانت عجيبة حقاً تلك الفرحة التي أظهرها الأهالي الذين احتشدوا لتهنئة الخديوي . وأظن ان في طبيعة البشر ، من غربيين وشرقيين، أن يتملقوا الكلاب الفائزة . » تسلـــم البريطانيون عرابي فأحسنوا معاملته ، ثم سلموه للمصريين فأساءوا اليه . نظم احد خدم قصر توفيق زيارة الناس لعرابي في السجن كي يهيء لهم فرص اثبات ولائهم للخديوي بتوجيه الإهانة الى السجين المقيد . كان توفيق نفسه ومساعدوه مصممين على قتل الرجل الذي أخافهم كثيراً ، وقتل رؤساء أنصاره، وكان رياض

باشا ، وزير الداخلية ، أكثر المنادين بإنزال عقوبة الموت فيهـــم ، وهو رجل متقدم في السن ضعيف ذو وجه عصبي مرتعش بدأ حياته وهو صبي خادمـــاً في قصر عباس والد زوجة توفيق .

كثيرون من الإنجليز اصحاب النفوذ أيدوا توفيق ورياض في رغبتهما في الانتقام . يخبرنا مورلي أن جلادستون اتبع خطة عنيفة حين كتب زميله السابق ، جون برايت ، يطلب الرأفة بعرابي . كان جلادستون لا يستطيع ، سيكولوجياً ، عمل شيء غير ذلك ، لأنه اذا لم يكن عرابي شيطاناً فلن يكون جلادستون ملاكاً في في قضية السلم حين وافق على ضرب الاسكندرية . « الحق أقول إني بدأت دون تعصب عليه ، وبرغبة قوية لانقاذه . وقد دفعت الى الاستنتاج انه رجل سيء ، وانه لن يكون جوراً اذا سار في الطريق التي سار عليها بسببه ألوف من أبناء بلده الأبرياء » . وتكلم آخرون بصراحة أكثر . قال سير جوليان جولدزميد الذي قام بدور مهم في الاستخبارات البريطانية : « ما دمنا قد سلمنا زعماء الثورة للخديوي فمن الواضح انه ينبغي ان يسمح له بعقابهم وفقاً للقانون المصري . لذلك يجب ألا نتدخل في الحكم الذي من المؤكد أن يصدر على عرابي والآخرين من القادة الرئيسين في اي بلد اوروبي وفي مصر ، أي عقوبة الموت . ان الرأفة في الشرق تعدّ ضعفاً ، وتغري الآخرين بمشاريع تهور مماثلة . ولهذا أحث على عدم السماح لرقة العواطف بالتدخل ووقف تنفيذ عقوبة الإعدام . »

على ان حياة عرابي قد انقذت ، وانتقام الخديوي قد استبعد ، لا على أيدي المصريين بل على يد الانجليزي ولفريد بلانت .

خلال أشهر الصيف راقب بلانت ما يجري في مصر يائساً . لقد روّعه جهل معظم أبناء بلده ، أو حقدهم . حين حاول ان يقنع زعماء حزب الأحرار بأن عرابي قاد حركة تحررية تستحق تأييدهم اتهم بأنه « عرابي في رداء أوروبي » ! على أن بلانت لم يكن وحده ، بل كان له مؤيدون مثل لورد راندولف تشيرشل وألجرنون بورك المعروف بلقب « باتون » . بعد التل الكبير مباشرة كان بإمكـــان اعداء عرابي ان يستعملوا غبار المعركة ستاراً لقتل قضائي . وكي يحول دون ذلك نشر باتون في صحيفة التايمز بياناً جاء فيه ان الحكومة البريطانية قررت اجراء محاكمة عادلة لعرابي ، ولم يستطع جلادستون أن ينفي بياناً حراً متزناً كهذا نشرته صحيفة مشهورة . أما وقد ثبت « باتون » المبدأ القائل ان الحكومة البريطانية التي استسلم لها عرابي لن توافق على إعدامه دون محاكمة فقد جلب محامياً للدفاع عنه يدعى أ. س برودلي ، كان قد مارس مهنته في تونس ووضع كتاباً عن الاحتلال الفرنسي لها عنوانه « آخر حرب قرطاجية . »

حين وصل برودلي الى القاهرة قادماً من تونس في تشرين الأول زار سير شارلز ولسون الإنجليزي المشرف على السجون المصرية ، ووصفه بأنه رجـــل قوي وذكي ودمث ومبغض لكل انواع التآمر والاضطهاد . على الرغم من كل العراقيل التي وضعتهـــا حكومة الخديوي ارسل اليه سير شارلز ابن عرابي. وبينما كان الصبي ، واسمه محمد ، الذي فقد احدى عينيه وفي العين الأخرى حول ، يحدث برودلي عن المعاملة السيئة التي تعرض لها هو وأمه جاء أمر من رياض باشا يخول المحامي الانجليزي رؤية موكله عرابي ، وقد كان في ذلك يطيع تعليمات جاءته من سير ادوارد ماليت .

كان سجن عرابي في وسط القاهرة ، غير بعيد عن فندق شبرد ودار الاوبرا . أما زنزانته فكانت خانقة أثاثها مؤلف من سجادة شيرازية ، وناموسية ، وفراش ، وبعض الوسائد ، وسجادة صلاة ، وقرآن ، وبعض الاوعية الخزفية والنحاسية . حضر برودلي لمقابلته أول مرة فهاله ما رأى في ملامحه من تجهم منفّر ، لكنه عاد فقال : « بيد أني لم ألبث ان اكتشفت ان ذلك انما هو نتيجة التفكير المستمر العميق لا الكآبة أو المزاج السيء . ان استغراق عرابي في التفكير أكسبه أعداء كثيرين بين اولئك الذين يحكمون على الناس من أول نظرة . حين يضيء وجهه بالحيوية تتغير ملامحه بصورة رائعة الى حدّ ان المرء لا يكاد يدرك انه الرجل نفسه . عيناه تشعان ذكاء ، وابتسامة ذات جاذبية خاصة ، لكن أنفه مسطح ، وشفتيه غليظتان ، فلا يسمح لي ذلك بأن أصفه بالوسامة . »

أمضى عرابي الاسابيع في سجنه يفكر في وضعه القانوني . كان مقتنعاً بأنه لا يمكن ان يوصف بالثائر ، لا قبل ضرب الاسكندرية ولا بعده ، فقد وافق الخديوي على قرار الردّ على نيران السفن البريطانية بالمثل ، واعرب السلطان دوماً عن استحسانه ذلك. بيد أن برودلي كان يعرف انه لا المراوغات القانونية ولا الدفاع البليغ يمكن ان تنقذ عرابي ، وان ما يحتاج اليه هو وثائق لا تثبت شرعية تصرفاته فحسب بل اشتراك الآخرين في مشروعه أيضاً .

كان اليوم التالي لهذه المقابلة عيد الاضحى المبارك . فخرج الناس في أحسن ألبستهم ، وبرز الباشوات بحللهم وأوسمتهم ، وازدحمت شوارع القاهرة بالعربات والمشاة ، « وانهمك توفيق في تقبل التملق والتهاني ، ولم يذكره بالثمن الذي دفعه لدعم عرشه ، وبعواطف رعاياه الغاضبين الحقيقية ، سوى الحرس البريطانيين السائرين جيئة وذهاباً في الخارج أمام قصره . »

شغل العيد الدوائر الرسمية في القاهرة ، ولم يلاحظ احد حادثين صغيرين لهما أهمية كبيرة وقعا في مسرح الشرق الأوسط الذي انتهى فيه دور عرابي . فقد وردت

من السودان برقية مقتضبة تقول ان رجلاً يدعي أنه المهدي قد أعلن الثورة على الحكم الأجنبي . فتح هذا الخبر الصغير فصلاً جديداً في قصة المقاومة في الشرق الأوسط ، وزوّد بريطانيا بمبرر جديد لتمديد احتلالها مصر . ومن بيت عرابي جاء خادمه الشاب الذي لم يؤثر التهديد ولا الرشوة في ولائه لسيده ، يحمل خرقة فيها رزمة وثائق قدر ان يكون لها دور في انقاذ عرابي من الشنق ، فقد كان بينها رسائل من السلطان عبد الحميد تظهر بوضوح أن أعمال عرابي كانت منسجمة مع السياسة العثمانية .

أما وقد سلّم بمبدأ المحاكمة العادلة ، وأصبحت هذه الوثائق في يد الدفاع ، فلا يمكن ان تنتهي المحاكمة إلاّ بتسوية . ذلك بان النيابة لا تستطيع ان تشدد على عقوبة الإعدام دون ان يبرز محامي الدفاع هذه الوثائق التي فيها إحراج لا للحكومة العثمانية فحسب التي لا نزاع في سيادتها على مصر بل أيضاً لكثيرين من أعيان المصريين الذين يلتفون الآن حول الخديوي ، وفي الوقت نفسه لا يستطيع الخديوي أن يصدر عفواً عن عرابي وزملائه لأن في اخلاء سبيلهم دون عقاب خطراً كبيراً .

حضر الى القاهرة في ٧ تشرين الثاني لورد دوفرين ، وهو إرلندي كان سفيراً لبريطانيا في القسطنطينية ، مخولاً سلطة تامة لحلّ القضية ، وقد حلها على الصورة التالية :

« ستوجه الى عرابي وزملائه أمام المحكمة العسكرية تهمة الثورة فقط ، ورداً عليها يقرون بذنبهم. فإذا اصدرت المحكمة حكماً بالإعدام رفع الى الخديوي الذي سيخفضه الى النفي الدائم » . يضاف الى هذا ان المنفيين ستصادر املاكهم (لا أملاك زوجاتهم) ، وأنهم سيخسرون رتبتهم العسكرية ، ويؤخذ منهم تعهد بالذهاب الى حيث يرسلون وبعدم العودة الى مصر ، وإلاّ تعرضوا للموت .

ان بلانت الذي دفع رسوماً قانونية كبيرة قد أنقذ، بمساعدة العدالة الانجليزية، حياة عرابي وأصدقائه ، فبدلاً من أن يعلقوا بالمشنقة ركبوا السفينة الى سيلان . بناء على التقاليد الدينية ، حين هبط آدم وحواء من جنة عدن انفصلا فذهب آدم الى سيلان وذهبت حواء الى الحجاز . واذ اخبر عرابي بأنه سينفى الى سيلان ابتسم ابتسامة هادئة وقال : « لا شيء أعدل من هذا . سأطرد من مصر جنة الدنيا واذهب الى سيلان فردوس آدم . اني لأجد في ذلك فألاً حسناً » .

خرج عرابي في طريقه الى السويس ومنها الى المنفى من ثكنة قصر النيل . هنا قدم لمحاكمة عسكرية فجاء جنوده الغاضبون واطلقوا سراحه ، ومن هنا حكم مصر فيما بعد ، ومن هنا أيضاً ركب القطار في طريقه الى السويس . كان قطاراً طويلاً ، وضع النساء والأطفال والخدم والأمتعة في عرباته الأمامية ، وخصصت

في الوسط احدى عربات الدرجة الأولى لعرابي وصحبه .

لا شيء سوى العدل يمكن أن يرتب رحيلاً ممتازاً كهذا . لو أن عرابي وأصحابه شنقوا لأحزن ذلك عائلاتهم وأصدقائهم ، ولكن المقاومة المصرية كانت ستجد فيهم كشهداء ايحاءً مستمراً . ان البريطانيين ، بنفيهم عرابي الى جزيرة كالفردوس قد ينال العفو في الوقت الملائم ويرجع منها ، قد قضوا على خطره .

تصرف عرابي بوقار وهو يستعد للرحيل ، ورفض غاضباً توقيع كتاب شكر للخديوي . أما محمد عبده الذي حكم عليه بالنفي مدة أقصر فقد أفاد من ذلك بالدراسة والتفكير في أوروبا . بيد أن بعض الضباط كان مهتماً بعدد ما يستطيع أخذه من الزوجات والخدم والأمتعة ، فطمس ذلك القضايا التي ناضلوا في سبيلها .

أما المقاومة في الشرق الأوسط فقد انتقلت الى ساحتين مختلفتين جداً : الى خيمة المهدي السوداني ، والى قصر آخر سلطان عظيم !

الكتاب الثالث

السّلطان عبد الحميد

كان من الضروري ، بعد موت عبد العزيز ، ان يكون على رأس الدولة سلطان ، فخلفه وفقاً للقانون السلطان مراد . ثم مرض مراد وأقيل ، فارتقى العرش السلطان عبد الحميد وفقاً للقانون أيضاً . وقد لوحظ أنه أظهر الرغبة المخلصة في قيادة الدولة على طرق التقدم والقدرة اللازمة لذلك . أظهر تقديراً كثيراً لكل واحد ، وكان تقديره لي واحسانه الي عظيمين . جاء في تقرير رفعه المرحـــوم مصطفى فاضل باشا الى السلطان عبد العزيز ان الحقيقة دوماً آخر ما يسمح له بدخول قصر السلاطين ، والحال ولا شك كذلك .

من رسالة بعث بها مدحت باشا من منفاه في اوروبا الى رئيس التشريفات في قصر السلطان في ١٠ كانون الأول ١٨٧٧ .

الفصل الاول

كان الجدل في القسطنطينية ، عاصمة السلطان الذي أقال اسماعيل وشجع عرابي ، يدور لا حول مقاومة الغرب أو عدمها بل على كيفية تلك المقاومة ، وقد كانت ذروته الرمزية (رهيبة وخاصة في هذه المرة) بين الحاكم والرعية .

من غرفة خاصة غير مرتبة في قصر يلدز ، عرفت « بمقصورة النجمة الجديدة » أشرف السلطان عبد الحميد على امبراطوريته المهددة ، وكان لا يزال يحكم بعض ممتلكاته المؤلفة من بقعة من البلقان ، وشبه جزيرة الاناضول ، وعدد من الجزر اليونانية (تضم تاسوس وكريت ورودس) ، وسوريا (ومن ضمنها فلسطين والأردن) ، والعراق ، والحجاز ، والساحل الليبي في شمال افريقيا . اما في المناطق الأخرى فقد كان حكم السلطان ضعيفاً أو اسمياً أو لا وجود له ، وأما اليمن وداخل صحراء العرب فلم يخضعا له تماماً . كذلك كانت السيادة العثمانية على مصر وقبرص اسمية وان كان البلدان يدفعان اتاوة سنوية . وفيما يتعلق بتونس فقد حكمها الفرنسيون منذ ١٨٨١ .

ورث عبد الحميد عن والده عبد المجيد قصر دولمابغشه الواسع المزخرف بغرفه الكبيرة التي تضيؤها أكبر ثريا في العالم ، ودرجه الرخامي الذي يؤدي الى البسفور . ولكن البذخ في هذا القصر وانفتاحه على العالم لم يروقا لعبد الحميد . زرع بدلاً من ذلك حديقة في أرض عراء عند طرف القسم الغربي من القسطنطينية ، وأنشأ فيها مقاصير متواضعة . ان اسوار يلدز المغلقة ، واشجاره الظليلة ، ومسرحه الخاص ، ومقهاه النموذجي ، حيث يستطيع السلطان المنعزل ، كأي مواطن ، أن يصفق طالباً القهوة قد كشفت شيئاً بسيطاً ، بل صارماً ، في طبيعة الحاكم . بينما عدم وجود صالونات صالحة للرقص أو لأعمال العنف ، والممرات الضيقة التي لا يكاد يمرّ منها اثنان معاً ، ومخابىء التجسس الكثيرة ، والمؤن المخزونة لحالة الطوارىء أشارت الى أمير نشأ قرب اعداء سريين وقتل مكشوف. لقد أظهر جوّ التكتم عزم السلطان على احاطة سلطته بالرهبة . كانت تحرس قصر يلدز فرقتان احداهما ألبانية والأخرى عربية، جندتا من أقصى أطراف الامبراطورية، وكانت بينهما عداوة متبادلة . ثم ان ذلك الجوّ في الليل يصبح مرعباً بصورة خاصة . كتب احد المعاصرين يقول إن الموت السريع يهدد كل متطفل ، وان ممرات قصر يلدز

لا يرى فيها شبح احد الأحياء ، ولا يقطع سكونها الموحش سوى صوت المقرئين عند بوابة القصر يرتلون القرآن الكريم ، ويصل ترتيلهم الى مضجع عبد الحميد الذي كان يشعر ان هذه الآيات الكريمة خير واق له من الشيطان الرجيم . الى هذا القصر المعزول جاء رسول من الطائف في آب ١٨٨٣ يحمل طرداً للسلطان، فتحه عبد الحميد بيده ووجد فيه رأس الرجل الذي اعتبره وهو حيّ ألدّ أعدائه .

قد تكون هذه القصة ، التي أوردتها ألما وتلين في كتابها « عبد الحميد ، ظل الله » ، من حيث تفاصيلها وتاريخها حديث خرافة . ذلك بأن عبد الحميد لم يكن مسلماً تقياً يكره المثلة فحسب بل أيضاً شديد الحساسية الى حدّ ألاّ يستطيع أبداً إقرار حكم بالاعدام . ثم ان مدحت باشا قتل في بقعة من أشدّ بقاع العالم حراً ، وما لم يكن الرأس قد حنط ببراعة (والممرضون في مستشفى الطائف كانوا يفتقرون الى المهارات الأولية) لا يمكن ان ينقل على ظهر الجمل الى جدة ومنها في الباخرة عبر قناة السويس الى يلدز دون أن يفسد .

كان مدحت باشا يكبر السلطان عشرين عاماً ، وكان أكثر منه تفاؤلاً ، ينتسب روحياً الى الجيل نفسه الذي ينتسب اليه الخديوي اسماعيل. ولد في القسطنطينية سنة ١٨٢٢ لأب جاء من بلغاريا ، الولاية العثمانية ، وشغل منصب قاض ديني . التحق مدحت بالخدمة المدنية ، وما لبث أن أظهر حيوية ونزاهة تعيدان ذكرى أيام الامبراطورية الأولى . وقد نجح وهو لا يزال في العقد الثالث من عمره في انجاز مهمة سرية في سوريا بعد ثورة قام بها الدروز ، فأرجع الى الجمرك مائتي ألف جنيه ، وألقى اللوم في الاستياء المحلي على القائد العثماني العام في سوريا ، فاستدعي ذلك القائد الى القسطنطينية ولكن لم تخفض منزلته . وحين ارتقى هذا القائد الى منصب الصدر الاعظم بعد سنتين اختار مدحت لتهدئة منطقة إدرين التي كانت تدار من أدرنة . قد يبدو تكليفه الفتى الذي انتقده هذه المهمة الدقيقة الخطرة اجراءً انتقامياً ماكراً ، ولكنه كان اعترافاً بصفات مدحت الممتازة ، وقد ظهر ذلك في سنة ١٨٦١ حين عينه الصدر الأعظم حاكماً لنيش ، المدينة التي كانت الصرب تحكم منها .

اكتسب مدحت في أثناء ذلك خبرة بالإنشاء كتلك التي اكتسبها اسماعيل خلال اقامته في النمسا وفرنسا . فقد أمضى في سنة ١٨٥٨ ستة أشهر في اجازة دراسية في أوروبا فقوت الانطباعات التي كونها في العواصم الأوروبية الكبرى — فيينا ، باريس ، بروكسل ، ولندن — ايمانه المتزايد بالطرق الأوروبية للاصلاح الدستوري والاداري ، فلو اقتفت الولايات العثمانية في اوروبا وآسيا اثر اوروبا لأصبحت القومية العثمانية رابطة بين مختلف الفئات ، بدلاً من عبء يبغضه أكثر

الاقايات داخل الامبراطورية ، ولرأت في التعاون شرفاً لها ومنفعة . عبّر أحد زملاء مدحت المصلحين ، وكان قد شغل منصب وزير المعارف في اول عهد عبد الحميد ، عن فلسفة هؤلاء العثمانيين الميالين الى الغرب فقال : « حقيقة الأمر انه اذا لم تسر تركيا منذ الآن ، بجد واخلاص ، على طريق الاصلاح وتقبل المدنية الاوروبية بكاملها – وبكلمة مختصرة اذا لم تثبت انها دولة اصلاحية متمدنة – لن تحرر نفسها أبداً من التدخل الأوروبي والوصاية الأوروبية ، وستفقد هيبتها وحقوقها، حتى استقلالها ». ثم جاء مدحت فقام كإداري مخلص مجدّ بتطبيق هذه الفلسفة : أولاً في البلقان الذي معظم سكانه مسيحيون ، واخيراً في العراق الذي معظم سكانه من العرب .

كانت المواصلات اول مشكلة واجهها مدحت في بلاد البلقان الجبلية . فالطرق القليلة القائمة كانت موبوءة باللصوص ، كما كانت تكوّن مصدر ربح فاحش للمتعهدين المحليين الذين كانوا يتعهدون بناء الجسور الخشبية ثم يعمدون الى حرقها كي يعيدوا بناءها فتستمر العملية المربحة . واذ وجد القرويون من المستحيل تسويق منتوجاتهم فقد اصيب الاقتصاد بالركود . وللتغلب على قطاع الطرق ومشكلات البعد اعتمد مدحت على سياسة تعاون بين شعوب البلقان من مسيحيين ومسلمين ، فألف فرقاً من الجندرمة المحليين لحماية القرى من هجمات اللصوص ، وفي الوقت نفسه وضع مشروعاً واسعاً لبناء الطرق والجسور التي وصلت ما بين المناطق التي كانت في السابق معزولة . وقد شجعت طرق المواصلات المتحسنة مدحت على خلق ولاية كبيرة ، بمساعدة الصدر الاعظم علي باشا وفؤاد باشا ، دعيت ولاية الدانوب . تولى مدحت إدارة هذه الولايات الموسعة في ١٨٦٥ ، وكان نجاحه في ذلك رائعاً . ألغى ، كما فعل اسماعيل ، العمل بالسخرة ، وانفق – دون بذخ اسماعيل الشخصي – الكثير على المنافع العامة ، فبنى لا أقل من ١٤٠٠ جسر ، وعبّد ٣٠٠ كيلومتر من الطرق ، وأدخل الملاحة التجارية في نهر الدانوب ، فبدأ رخاء جديد . وزاد في تشجيعه للمزارعين البلقانيين حين فتح لهم بنوكاً زراعية تقدم لهم القروض المالية . كذلك رأى مدحت الحاجة الملحة الى تعليم علماني الى مدارس تضم أبناء البلقان من مختلف الأديان فتكسبهم شعوراً بالمجتمع العثماني . كان مدحت يطمح الى مثل هذه المدارس العصرية ولكنه لم يحقق مطمحه إلاّ جزئياً . أما اصلاحاته الأخرى فقد كانت لها نتائج مالية مشجعة . خلال سنتين زاد الدخل من ولاية الدانوب أكثر من عشرة أضعاف ، اذ ارتفع من ٢٦٠٠٠ كيس في السنة الى ٣٠٠٠٠٠ كيس .

لم ترحب روسيا بنجاح مدحت في البلقان . ذلك بأن الجنرال إجناتييف ،

السفير الروسي الذي حرض اسماعيل على تحدي السلطان ، كان راعياً للوطنيين دعاة الوحدة السلافية ، لذلك جاء الازدهار الذي اوجدته اصلاحات مدحت في ولاية الدانوب ضد مصالح روسيا ، بينما كان اهمال العثمانيين للولاية أهم حجة لانفصال السلاف على الامبراطورية . واذ كان لإجناتييف نفوذ كبير في القسطنطينية الفاسدة فلم تأت سنة ١٨٦٩ ، وهي سنة افتتاح قناة السويس ، حتى نقل مدحت من البلقان الى بغداد والياً للعراق ، فاستطاع الوطنيون السلاف في غيابه ان يستعملوا طرقه وجسوره ويستغلوا الوعي الذي خلقته مدارسه في نضالهم ضد الحكم العثماني .

واجه مدحت في العراق تحدياً أكبر . ان هذا البلد ، مهد الحضارة البابلية القديمة والحضارة الاسلامية في العصور الوسطى ، قد غرق بعد الغزوات المغولية في القرن الثالث عشر في حال من الإهمال المتزايد المتواصل ، اذ أن المغول بتحطيمهم شبكة قنوات الري التي كانت أساس ثروة العراق الزراعية قد حوّلوه من أغنى البلاد الى أفقر بلد . يضاف الى هذا أن العثمانيين الذين احتلوا العراق في نهاية فترة توسعهم الامبراطوري لم يفعلوا منذ ذلك الحين سوى القليل لتحسينه . ولم يعرف العراق في القرن التاسع عشر صدمات خلاقة كالتي تعرض لها المصريون على يد نابليون ومحمد علي . ولا يعني هذا ان الغرب لم يلاحظ امكانات العراق الاستراتيجية والاقتصادية . فقد اقترح البريطانيون كبديل من قناة السويس التي رعتها فرنسا مدّ سكة حديد في وادي الفرات الى الخليج في الجنوب ، لكنه بقي مجرد اقتراح . وفي سنة ١٨٦١ انشأ ثلاثة اخوة بريطانيين – هنري وتوماس وستيفن لنش – شركة ملاحة في الفرات ودجلة برأس مال ضئيل قدره ١٥٠٠٠ جنيه ، بيد أن هذا المشروع لم يؤثر في المدن المتجمعة على النهرين غير المستغلين أشبه شيء بالقرى، التي كانت حياتها تحت رحمة غارات البدو وفيضان النهرين المتكرر ، كما لم تؤثر فيها اكتشاف هنري ليارد مدينة نينوى القديمة . وهكذا تحولت جنة عدن الجغرافية الى أرض كئيبة يسطع فوقها الملح .

اتبع مدحت في العراق السياسة نفسها التي اتبعها في البلقان . كانت مهمته الأولى سحق القبائل البدوية الكبيرة التي اعتادت غزو السكان المستقرين ، فقد أدرك الامكانات الكامنة في الأرض المهجورة اذا ما استتب الأمن . على ان المشكلة الكبرى التي اعترضته كانت امتلاك الأرض ، وقد دوّن ولده تقديره للوضع بما يلي : « كان الفلاح العربي غالباً يأخذ الأرض من الدولة شرط ان يقدم لها ثلاثة أرباع المحصول مستبقياً لنفسه الربع . ومن الطبيعي ألاّ يشجع هذا النظام الزراعة ، وان يجعل كل تحسين لها مستحيلاً » . فنتج عن ذلك أن أهمل أكثر العرب الأرض مفضلين السلب على الطرق الصناعية في كسب الرزق . لذلك قرر مدحت

ان يربط العربي بالتربة باعطائه حقوق الملكية ، فقسم قطع الأرض الكبيرة الى قطع صغيرة عرضت للبيع بشروط سهلة ومفيدة ، واتخذ اجراءً خاصاً يحول دون تجمع القطع الصغيرة في يد واحدة ، فكان نجاح هذه السياسة رائعاً ، زادت دخل الدولة وانقصت كثيراً تمرد رجال القبائل وعصيانهم المزمنين » .

ان الاصلاحات التي بعثت في الدانوب حياة جديدة أحيت الولاية الواقعة بين دجلة والفرات . احضرت الى النهرين قوارب بخارية ترفع العلم العثماني ، واستغلت مياههما في الري ، وبدأت مهمة تصريف المياه من الأراضي المالحة . اما في المدن ، حيث انتشرت الأمية ، فقد بنيت مدارس جديدة ذكرت اولاد العراقيين بأسلافهم الذين اشتهروا بالشعر والعلم . كذلك انشأ مدحت مستشفى ودارا للصدقة وصحيفة ومجالس بلدية ، ودعا الشباب الى الخدمة في الجيش العثماني ، ومدّ خط ترام طوله سبعة أميال وصل بغداد بالكاظمين حيث دفن فيما مضى عدد من أئمة الشيعة ، فرد شاه ايران هذه المجاملة بزيارة النجف في سنة ١٨٧٠ .

مدّ مدحت السيطرة العثمانية الى أبعد من حدود العراق ، والواقع ان الامبراطورية اتسعت في الخليج . كانت الكويت ، الواقعة على الخليج على بعد ستين ميلاً جنوبي البصرة ميناء العراق الوحيد ، قرية صيد لا شجر فيها ولا قيمة لها ، يعمل اهلها في الملاحة ، فيبحر من هذه القرية ، ذات الأسوار الطينية أكثر من مائتي مركب شراعي صغير يدعى الواحد منها « الدّهو » فتحتكر صيد اللؤلؤ في الخليج وقد تبعد فتصل الى المحيط الهندي . ومن اجل تسهيل أعمالها كانت هذه المراكب الكويتية ترفع العلمين البريطاني والهولندي ، لكن مدحت أقنع شيخ الكويت بجعل بلده سنجقاً تابعاً لولاية بغداد ، وبرفع الراية العثمانية على مراكب الكويت . كذلك ازداد توسع السيطرة العثمانية نحو الجنوب على شاطىء الخليج الغربي والى مسافة ما داخل الصحراء العربية .

اعجب السلطان عبد العزيز فترة قصيرة بنجاح مدحت في الادارة والمال فعينه صدراً اعظم في سنة ١٨٧١ ثلاثة أشهر ، ثم إذ رآه شديد الاستقلال في رأيه أحاله على التقاعد وأرسله الى سلانيك حيث أقام حتى بدأت العاصفة المالية في منتصف السبعينات ، فقام مدحت بدور طليعي في مؤامرة عزل السلطان المفلس وتنصيب ابن اخيه مراد سلطاناً بدله . كان مدحت متآمراً غير بارع . حين وجد السلطان المخلوع ، عبد العزيز ، ميتاً في حجرته اكتفى مدحت بنشر تقرير طبي وقعه عدد من الأطباء الأجانب يقول ان جروح عبد العزيز تشير الى ان الموت نتج عن الانتحار ، ولكن الأطباء لم يتمكنوا من القيام بتشريح حقيقي . كانت الحكمة تقتضي تحرياً دقيقاً ، لأن من المؤكد أن أي شذوذ سيستعمل في النهاية ضد المصلحين . وقد زاد مدحت

في تعريض نفسه للخطر حين حرض زملاءه بعد ثلاثة أشهر على إقالة السلطان مراد العصبي السكير ووضع عبد الحميد ، أخيه لأبيه ، سلطاناً مكانه .

احتاج مدحت الى سلطان صوري حيادي يعيد من ورائه تنظيم الدولة العثمانية على أسس غربية دستورية ، وذلك يتطلب الحدّ من سلطة السلطان وجعل الحكم في الامبراطورية لا مركزياً . وقد بدا عبد الحميد كسلطان صوري اختياراً ممتازاً ، لأنه عرف بالهدوء وبالجمع بين التقوى والآراء التقدمية . أما تكوينه الجسدي وهو أمير في الرابعة والثلاثين من العمر نحيل غير مؤثر فقد ظن أنه لن يثير أية عواطف خطرة . ثم ان ملامحه كانت ، كما وصفته ألما وتلين ، تختلف عن ملامح أجداده بعينيه السوداوين الكبيرتين اللتين فيهما من الجرأة أقل مما فيهما من المكر ، وأنفه الأرمني المعقوف البارز بين وجنتين شاحبتين ناعمتين مقوستين .

على أن الأنف الكبير ليس فيه ما يدعو الى سوء التفسير . فلو أن مدحت نظر الى رسم السلطان محمد الثاني بريشة الرسام سنان بك في القرن الخامس عشر لربما وجد فيه تحذيراً له . ان السلطان محمد الذي فتح القسطنطينية واحتل الصرب واليونان كان الأصل الذي جاء عبد الحميد صورة مصغرة عنه . فعلى الرغم من ان السلطان الفاتح كان يضع على رأسه عمامة جليلة وعبد الحميد طربوشاً ، إلاّ انه كان لكليهما أنف معقوف وشفتان شهوانيتان تعلوهما عينان قويتان ماكرتان . إن سلسلة من السلاطين المنحلين الضعفاء قد أنست العالم ان العثمانيين الأوائل كانوا من أقدر الحكام في التاريخ ، وقد كان عبد الحميد مثلاً رائعاً من نسلهم . من عزلته كالمرشح الثاني للعرش عرف تفكير مدحت أكثر من معرفة مدحت بنفسه . كان للأمير مفهوم للإصلاح ورأي في المقاومة يختلفان جداً عن مفهوم الباشا ورأيه . واذ كانت الامبراطورية في مأزق رهيب أسوأ من ان يعالجه طبيبان بدواءين متضادين فقد كان على عبد الحميد أن يحطم ، بمنتهى الحذر ، الرجل الذي رفعه الى السلطنة .

الفصل الثاني

تعلم عبد الحميد الحذر بين الحريم ، فقد توفيت أمه المحظية وهو طفل فوجد عوضاً منها في أم عمه السلطان عبد العزيز .

ان الحريم مؤسسة يصعب علينا اليوم تصورها ... محطة سكة حديد تدخلها القطارات ولا تخرج منها ، مدرسة للجاريات ، ومستنبت للمؤامرات ، مغلقة على حشد من النساء الضجرات الساذجات الجاهلات يحرسهن خصيان نوبيون ، يغذين خيالهن ويقضين اوقات فراغهن في القيل والقال ونشر الشائعات . وإذ كان عبد الحميد في الحريم طفلاً بين أطفال كثيرين فقد اعتاد منذ صغره ان يخفي أفكاره .

في مرحلة قديمة من مراحل التاريخ العثماني كان السلطان الجديد يتخذ من الآية القرآنية « والفتنة أشد من القتل » مبرراً لقتل إخوته . وقد تحول هذا الحذر من الإخوة فيما بعد الى نظام يقضي بحبس ورثة السلطان المحتملين في فيلات جميلة . كذلك تغيرت على مر الزمن حياة هؤلاء الأمراء المساجين ، فصاروا يجلسون على الكراسي بدل الدواوين المنخفضة ، ويلبسون الطربوش بدل العمامة ، ولكنه تغيير خارجي فقط لأن حياتهم انما كانت امتداداً خانقاً للطفولة التي قضوها بين الحريم . ان هذا النظام الذي وضع لجعل إخوة السلطان غير ضارين جعلهم ، بلا أهداف ، فلا التعليم نظم أفكارهم أو وسع مداركهم ، ولا الرحلات زادتهم خبرة بالعالم ، بل إنهم لم يتعلموا سوى الشائعات من النساء اللواتي كان اهتمامهن بالشخصيات أكثر منه بقضايا الدولة . وما أن يبلغ الأمير ، الذي لم يدرب عضله بالألعاب الرياضية ولا قلمه بالكتابة ، سن المراهقة حتى ينغمس في الملذات الجنسية . ولقد كان معظم الأمراء بسبب هذا النظام شهوانيين قبل أن يصبحوا سلاطين ، ولم يبق لديهم سوى فائض قليل من الطاقة للاهتمام بالسياسة .

لم يظهر عبد الحميد اهتماماً كبيراً بالنساء ، ولا عاطفة عميقة نحوهن ، إنما كان بحاجة الى صديق ، لكنه عرف ان الصديق من أبناء قومه قد يكون خطراً ومصدر فساد أكيد . واذ افتقر الى زوجة يثق بها أو صديق ، فقد صب طاقاته في تعلم كيفية الحكم . على ان دراسته كانت غير منتظمة . درس الفرنسية ، مثلاً ، بالجلوس مع أخت له كانت تدرسها ، وتعلم من عمته زوجة السلطان عبد العزيز الاستغراق طوال حياته في الشعوذة والسحر ، ثم اختار فيما بعد ان يحيط نفسه بعرب من سوريا .

كان عبد الحميد أقل جهلاً بالعالم الخارجي من الأمراء السابقين . قبل فتح قناة السويس قام هو وأخوه مراد برحلة الى فرنسا مع عمهما السلطان عبد العزيز الذي قبل دعوة الامبراطور نابليون الثالث لحضور معرض باريس في سنة ١٨٦٧ . وبينما انصرف مراد الى متع الحياة الباريسية ، رفض أخوه الأصغر عبد الحميد التأثر بذلك ، وانصرف الى أمور اخرى : لم يتكلم بالفرنسية مع أنه كان يعرفها ، ولم يطلب كيف يقلد أوروبا المتألقة بل كيف يقاوم هجماتها . كان عقله نشيطاً ، فأغلق عينيه عن الحفلات وفتحهما على المعرض نفسه ، وكان أكثر ما أثار اعجابه في المعرض الآلات التي عرضتها ألمانيا الاتحادية التي لم تلبث ان أصبحت امبراطورية . اهتم الأمير عبد الحميد بدولة ألمانيا الكبيرة الجديدة في أوروبا أكثر من اهتمامه بفرنسا أو النمسا . ذلك بأن ألمانيا كانت مجموعة من الممالك والدوقيات ، مقطعة الأوصال كالامبراطورية العثمانية ، عرضة للهجوم المتكرر من فرنسا وروسيا . أما وقد اتحدت وتمركزت فقد غلبت النمسا بعد قهرها روسيا العدوة الثانية للامبراطورية العثمانية . يوم زار عبد الحميد المعرض التقى بالأمير فردريك ولي عهد بروسيا ومعه وريثه وليام البالغ من العمر خمس سنوات ، وفاز بجائزة المعرض مدفع من صنع ألماني وزنه خمسون طناً .

ان ألمانيا التي لم يهاجم جنودها العثمانيين ، والتي مشكلاتها شبيهة بمشكلاتهم ، وان كان ردها أكثر فعالية ، قد تكون نموذجاً يقتدى أو ربما حليفة ، فان هناك سوابق للتحالف مع دول مسيحية . في القرن السادس عشر ، مثلاً ، عملت انجلترا البروتستنتية مع العثمانيين ضد الدول الكاثوليكية . لذلك فإن القسطنطينية ، بمصادقة ألمانيا واستغلال التنافس بين الدول الأوروبية ، قد تتمكن من الصمود لأعدائها .

اذا كان عبد الحميد قد ارتاب في الغرب في الأيام المفعمة بالأمل حين ربط الخديوي اسماعيل مصر الى أوروبا بقلادة من كلمات ، فقد زادت هذه الريبة حين تولى الأوروبيون شؤون مصر المالية وكافأ مسيحيو البلقان حماسة مدحت الإصلاحية بتجديد الثورات وتوسيعها . وحين نضج الأمير عبد الحميد كون آراءه الخاصة فيما تحتاج اليه الامبراطورية ، وكانت هذه الآراء قد تبلورت تماماً حين دعاه مدحت باشا ، زعيم المصلحين ، الى ارتقاء عرش أخيه السلطان مراد .

إذن على الامبراطورية العثمانية أن تتعلم من المثل الألماني . ان المركزية بزعامة بروسيا ، لا توزيع السلطة على الولايات الألمانية ، هي التي خلقت قوة ألمانيا . ان القوة هي الشيء المهم . أيام كان المشاة العثمانيون أقوياء والنظام العثماني قوياً في القرنين الخامس عشر والسادس عشر اتسعت الإمبراطورية ، والطريقة الوحيدة لبعث القوة العثمانية هي ادخال السكك الحديد وخطوط البرق التي تربط الولايات الأوروبية

والآسيوية والافريقية في ظل حكومة متماسكة .

لم يشارك السلطان الجديد إيمان مدحت بالدستور . ان قوة الغرب مستمدة من الآلات والسكك الحديد والمدافع لا من الدساتير سواء أكانت مكتوبة كما في الولايات المتحدة الأميركية ، أو غير مكتوبة كما في انجلترا ، أو عرضة للتغيير كما في فرنسا ، أو معدومة كما في روسيا القيصرية . طبعاً كانت لدى عبد الحميد ريبة اي اوتوقراطي في الاجراءات التي تحدّ من سلطته ، ولكنه في تقرير حسنات دستور مدحت وسيئاته أظهر النزعة العثمانية الى فن الحكم التي كونتها تجارب القرون .

للدستور بعض الفوائد . انه كالرداء الرسمي والكراسي والموائد قد يؤثر في اولئك الأوروبيين الذين تعصبهم على الاتراك غير متأصل . بيد ان الأكثرية متعصبة عليهم . كتب ادوارد فريمان ، وهو مؤرخ متزن ، يقول : « ان التركي في أوروبا ، باختصار ، ينطبق عليه تعريف لورد بالمرستون للقذر بأنه شيء في غير مكانه » . وصرّح هنريخ فون ترايتسكي ، المؤرخ الألماني ، قائلاً : « ان ضمير العالم الأوروبي لم يعترف أبداً بوجود المملكة التركية كضرورة لها مبرر معنوي » . لذلك شك عبد الحميد في ان يغير الدستور العثماني رأي الكثيرين من الأوروبيين . لكن من أجل فائدة القليلين ، وكإيماءة من ايماءات العلاقات العامة ، اختار صيغة من الكلام يخاطب بها برلماناً كما ارتدى من قبل « الفراك » كلما ذهب لصلاة الجمعة . وكما يضع الفراك في الخزانة كذلك يستطيع ان يضع الدستور إذا بدا ذلك ملائماً لأن السلطان كان مقتنعاً بأن الصراع الحقيقي ليس حول الكلمات أو الأعمال بل في سبيل الأرض والثروة الطبيعية . ان الدول الأوروبية كانت تطمع في أرض تحتل موقعاً استراتيجياً أو تخفي ثروة ، وقد كان العثمانيون لا يزالون يملكون مثل هذه الأرض . ومن الغريب ان انجلترا ، أكثر الدول شرهاً ونجاحاً ، كانت أشدها دفاعاً عن الدستور ، وان مدحت باشا (كما أخبر السلطان عيونه) كان يشرب الشاي دوماً مع سير هنري إليوت السفير البريطاني .

أظهرت انجلترا بصورة متكررة ان سياستها إبقاء الامبراطورية العثمانية في حال وسط بين الحياة والموت . حين هدد محمد علي بالاستيلاء عليها وبث حياة جديدة فيها تدخلت انجلترا الى جانب السلطان ، وعادت فساعدته في حرب القرم ضد روسيا ، ولم يكن قصدها من ذلك تقوية الامبراطورية العثمانية بل منع الدول الأخرى من السيطرة على المنطقة المتوسطة بين أوروبا والهند . ان الشرق الأوسط في حالة فوضى وإفلاس خير لانجلترا من امبراطورية تستعيد نشاطها أو من حصة تافهة فيه . واذا كانت قد أيدت الدستور فلأنه سيبقي الامبراطورية ضعيفة . ان تخيل وثيقة ورقية قادرة على ان تجمع في دولة علمانية واحدة البلغار الارثوذكس ، والألبان

المسلمين ، والرومانيين اللاتين ، والسلاف والصرب ، والأرمن المسيحيين ، والأتراك المسلمين ، والعرب الساميين.، والأكراد الهنود الأوروبيين ، إنما كان أضغاث أحلام .
لا ريب ان الامبراطورية العثمانية اكتسبت في القرن السادس عشر ولاء شعوب خارج حدودها من مختلف الأعراق والأديان ، حتى ان الفلاحين الهنغاريين الذين اساء امراء الاقطاع معاملتهم التمسوا ان ينضموا تحت لواء العدالة الاسلامية ، وأساقفة قبرص الذين يتكلمون اليونانية فضلوا عمامة التركي المتسامح على تاج البابا ، واليهود الذين طردوا مع العرب من اسبانيا التجأوا الى مدينة سلانيك العثمانية . ولكن ذلك الوضع تغيّر ، ولم تعد كفة الميزان تميل نحو العمامة أو الطربوش الذي يعادلها ، فإن كثيراً من البلاد الأوروبية أصبحت علمانية ، ولم تعد تفرق بين الطوائف الدينية ، حتى الدول الأوروبية الرجعية اصبحت في الغالب متقدمة تقنياً . وهكذا اصبح للأقليات المسيحية في « دار السلم » اتجاه آخر ، كاليونان الذين اسسوا لهم دولة هزيلة ، والرومانيون والصرب والبلغار واهل الجبل الأسود الذين تزايد طلبهم الانفصال عن امبراطورية زالت فوائدهم منها . أما في الولايات الآسيوية فقد كان المسيحيون أقل جرأة ، ومع ذلك تمتعت الاقليات اللبنانية منذ ١٨٦٠ بالحكم الذاتي في سنجقها الجبلي ، وطالب الأرمن في اعماق الأناضول على حدود روسيا بمثل ذلك .

كانت الورطة قاسية : إما ان يترك السلطان مناطق من امبراطوريته للذئاب ، أو يتمسك بها بقوة تزيد الحركات الانفصالية عنفاً ، تلك الحركات التي كانت تنتظر فرصتها للانفجار والثورة .

أدرك عبد الحميد رابطاً أخيراً يجمع ثلثي سكان امبراطوريته ، ألا وهو الدين الإسلامي .

ان السلطان بقبوله الاسلام كرابطة سياسية لم يخالف التقليد الاسلامي ، بل رجع إليه والى تقاليد اسلافه من سلاطين آل عثمان . ذلك بأن الاسلام لم يفصل أبداً الجامع عن الدولة ، ولم يخلف الخلفاء الأقدمون النبي في دور النبوة الفريد بل في رئاسة المجتمع الاسلامي . والسلالة العثمانية إنما ارتفعت الى السلطة في اواخر العصور الوسطى بدفاعها القوي عن « الدولة الاسلامية » ونضالها ضد البيزنطيين المسيحيين . كان دفاع العثمانيين عن حدود الإسلام يقوم على اخلاص نادر ، وكان سلاطينهم محاربين أشداء تحملوا الحرمان والاجهاد في حملاتهم ، ولم يفسد معدنهم بسرعة فساد الفرسان اللاتين . ثم إنهم اظهروا واقعية وجرأة في وقت معاً ، ولم تغرهم الكلمات الجوفاء والأتعاب ، حتى الخلافة لم يدعوها لأنفسهم أولاً لأن التقليد يقول ان الخليفة يجب ان يكون من قريش ، وثانياً لأن الخليفة العباسي أصبح ضعيفاً . وحين احتل العثمانيون مصر في القرن السادس عشر أخذوا آخر خليفة الى القسطنطينية وجعلوه أسيرهم

وضيفهم ، ولم يدّع سلاطين آل عثمان الخلافة إلاّ حين أصبحوا ضعفاء بعد زمن طويل .

ان ادعاء الخلافة كان مهماً جداً لعبد الحميد ، آخر سلطان عظيم ، فقد توصل الى النتيجة نفسها التي توصل إليها جمال الدين الافغاني وهي ان الإسلام هو الطريقة الفعلية الوحيدة التي يمكن بها مقاومة الغرب المعتدي ، وأن صيحة « الله أكبر » خير مثل أعلى يلم شعث الامبراطورية . وكان عبد الحميد قد استضاف الرحالة الأفغاني وأنزله بيتاً فيه أسباب الترف بجوار قصر يلدز ، اقام فيه خمس سنين ، ولكن الرجل المثير أصبح فيه اسيراً بالفعل ، وقد راجت شائعة تنسب السرطان المميت الذي أصاب لسان جمال الدين الى قهوة السلطان .

ان راية الاسلام لا تستطيع أن تكسب قلوب المسيحيين ولا أن تنفرها لأن الأمبراطورية كانت قد فقدتهم . فاليونان الذين استقلوا في العشرينات اخذوا يشغبون مطالبين بتوسيعهم دولتهم ، والبلغار والرومانيون والصرب وأهل الجبل الأسود كانوا يعدون لاتباع الطريق نفسه ، واذ وجدوا دعماً أوروبياً فان انفصالهم كان أمراً لا مفرّ منه . لكن الاسلام يستطيع أن يجمع مسلمي البلقان والقسطنطينية نفسها والأناضول الذين يدعون اتراكاً ، ومسلمي الشرق الأوسط الذين يدعون عرباً . ثم ان الاسلام قد فتح للامبراطورية الاسلامية سبيلاً الى القلوب والعقول خارج حدودها ، فإن ادعاء السلطان الخلافة راق لملايين المسلمين . كانت العلاقات بين شيعة ايران وبين العثمانيين السنيين غير ودية منذ زمن طويل ، ولكن الشباب الايرانيين المشمئزين من الملكية الفاسدة بدأوا يتطلعون الى القسطنطينية ، وقد شعروا هم ايضاً بالخطر الأوروبي الآتي من روسيا في الشمال ومن بريطانيا في الجنوب . وينطبق هذا القول على المتعلمين منهم أكثر منه على الفلاحين . كتب حسن عرفه ، العسكري والدبلوماسي الايراني ، يقول : « مثلت الامبراطورية العثمانية لي الدولة الاسلامية الكبرى ، وارثة الخلافة العربية والمدافعة عن الاسلام في وجه الدول الأوروبية المعتدية . حلمت بتحالف بين ايران وتركيا ، يتبعه اصلاح الدول الاسلامية الأخرى ، واشتعلت فيّ الرغبة في أن اصبح قادراً على عمل شيء في سبيل ذلك . كنت شاباً مثالياً على الرغم من حياتي في مونت كارلو وباريس . ومع أنني لم أكن أبداً في بلد إسلامي ، ولم أعرف شيئاً عن الاسلام وشعائره ، وربتني والدة وان كانت في الظاهر قد اعتنقت الاسلام إلاّ أنها احتفظت بعواطفها المسيحية ، إلاّ انني كنت اعتبر نفسي أحد المسلمين الذين كان عددهم في العالم ثلاثمائة مليون » . وقد التحق هذا الشاب (الذي أصبح فيما بعد فريقاً) بالكلية العسكرية العثمانية وعانى نظامها الصارم في سبيل ما رآه قضية الاسلام .

فإذا كان عبد الحميد يستطيع جمع المسلمين من دول مستقلة فإن دعايته تستطيع أيضاً

ان تخترق حدود بلاد الاسلام الواقعة تحت الحكم المسيحي . كانت الامبراطورية البريطانية الدولة الاسلامية الكبرى ، بمعنى أنها تحكم أكبر عدد من المؤمنين ، كما كانت تعتمد على الجنود الهنود المسلمين في قتال القبائل الاسلامية على حدود الهند الشمالية الغربية . فإذا عامل السلطان بريطانيا بالمثل ، وهي التي كثيراً ما استغلت عوامل أتباعه المسيحيين ، أمكنه أن يستغل بدوره عواطف المسلمين . كذلك يستطيع القيام بهذه اللعبة ضد القيصر ، فإن في شبه جزيرة القرم واواسط آسيا ملايين المسلمين الذين يتكلمون اللغة التركية . وليس هذا فحسب ، بل ان العرب في شمال افريقيا الذين تحكمهم فرنسا أو بريطانيا نظروا الى عبد الحميد باحترام متزايد مذ تقلص صراعهم في سبيل الحرية .

استطاع عبد الحميد ، بالضرب على وتر العاطفة الاسلامية ، وبشبكة من السكك الحديد وخطوط البرق ، أن يقاوم الغرب طوال فترة حكمه التي أربت على ثلاثين عاماً . لم يربح ، لأن المباراة التي لعبها كانت بطبيعتها خاسرة . لكن السلطان ، بتضحية حكيمة هنا وانتصار تكتيكي هناك واستغلال مستمر للتفرقة بين أعدائه ، منع أياً منهم من القضاء عليه . قليلة هي الأمثلة في التاريخ للاعب شطرنج يلعب بقطع قليلة وفي وضع عرضة للخطر ويستطيع ان يؤخر طويلاً الهزيمة المحتومة .

الفصل الثالث

لم تبد الهزيمة قريبة كما بدت في يوم من أيام ديسمبر سنة ١٨٧٦ حين خطا السلطان خطوته الأولى .

ان موت أحد السلاطين قتلاً وعزل سلطان آخر اضافا الى الفوضى المالية في الامبراطورية العثمانية وشجع روسيا على التحرك لتنفيذ خطة القضاء عليها ، ووجدت في قمع ثورات البلقان بقسوة مبرراً لذلك ، فاندفعت جيوشها حتى أصبحت على بُعد أميال قليلة من القسطنطينية ، وبدا فجأة ان استيلاء الروس على الممرات واستعادة آيا صوفيا أمرين قريبين . بيد أن الدول ، كي تمنع روسيا من حيازة مثل هذه الأراضي الثمينة وتكسب لمسيحيي البلقان مزيداً من الحرية ، عقدت مؤتمراً في القسطنطينية حضرته كل دولة مهتمة « بالمسألة الشرقية » ما عدا العثمانيين أنفسهم فإنهم لم يدعوا إليه .

في مساء اليوم الذي عقد فيه المؤتمر لعب عبد الحميد لعبته : عين مدحت باشا ، محبوب البريطانيين ، صدراً أعظم . وبينا كان سفراء أوروبا مجتمعين خطا السلطان خطوته الثانية ، فقد اطلقت مدافع السفن العثمانية في القرن الذهبي مائة طلقة كان لها دوي يصم الآذان . بهت رجال الدولة المجتمعون ، ولكن سير هنري إليوت أكثر السفراء اطلاعاً طمأنهم وأخبرهم ان السلطان منح شعوب الامبراطورية حقوقاً أكثر مما كان المؤتمر سيطلب للصرب والبلغار وأهل الجبل الأسود .

لم يكن الدستور الذي أقره عبد الحميد من النوع الذي يحتاج الى انتهاكه أو حتى الى التبريء منه . لم تضعه جمعية تأسيسية بل لجنة وافقت على مسوّدة اعدها مدحت ثم قدمتها الى السلطان لتنقيحها أو رفضها . اتبع في وضع هذه الوثيقة نمط دستور ١٨٣١ البلجيكي ، وظهر فيها تأثير ميثاق ١٨١٤ الدستوري الفرنسي (الذي أعاد آل بوربون) ودستور ١٨٧١ الألماني (الذي أسس امبراطورية بسمارك) . ان الدساتير الأوروبية جميعاً نشأت من الدول المركزية . فالمادة ١٣ من الميثاق الفرنسي نصت على أن شخص الملك « مقدس وله حرمته » ، وقد راق هذا النص لعبد الحميد كثيراً . ثم ان الدستور العثماني حوى مادتين مهمتين حفظتا سلطة السلطان ، الأولى وهي المادة ١١٣ أعطته حق نفي أي شخص يهدد مصالح الدولة ، والثانية أعلنت الإسلام دين الدولة العثمانية .

هاتان المادتان مكنتا السلطان من اعلان الدستور العثماني لأن الأولى تكفلت بالتخلص من الأفراد الخطرين كمدحت باشا ، بينما اعطت الثانية الإسلام مركزاً خاصاً يبقي الأقليات المختلفة في أماكنها . ان الجماهير الاسلامية ، كما أصاب السلطان في توقعه ، ستؤيده حتى النهاية .

لم يكن الدستور خدعة كله ، فقد حوى قيوداً قيّمة على سلطة السلطان ، ونص على انتخاب جمعية وطنية من كل مناطق الامبراطورية وفئاتها . لكن حتى هذه الجمعية كانت محدودة المجال لأنه كان للسلطان حق دعوتها الى الاجتماع أو صرفها كما يرى ذلك ملائماً .

لم يعجب السفراء بالدستور ولكن أغضبهم أن يأتي اعلانه في فترة اجتماعهم. بيد أنهم عملاً بنصيحة لورد سالزبري والجنرال إجناتييف تابعوا مداولاتهم كأن شيئاً لم يحدث وكأن العثمانيين يجب ألاّ يكون لهم رأي في مستقبلهم . وحين انفض المؤتمر كان المؤتمرون قد تنازلوا لروسيا القيصرية عن معظم ما طلبته .

على ان الدول ساعدت السلطان الى حدّ ما ، اذ أرته أنه على حق في رأيه أن أوروبا عدوة الاسلام ، وأرت مدحت أنه كان مخطئاً في ثقته بحسن نوايا أوروبا الغربية ، وبذلك اقتربت نهاية الباشا .

استناداً الى المادة ١١٣ من الدستور أمر عبد الحميد بوضع مدحت في باخرة وارساله الى أوروبا . وبعد بضع سنوات أرجعه الى القسطنطينية وجعله نجم الدفاع في قضية عمه السلطان عبد العزيز التي أعيد النظر فيها ، فقد غيّر اثنان من الأطباء الذين وقعوا التقرير الطبي الأصلي رأيهما وأعلنا أن السلطان مات قتلاً ، وأصدرت المحكمة (المؤلفة من ثلاثة قضاة مسلمين وقاضيين مسيحيين) حكمها بالإعدام على ثمانية من المتهمين ، ولكن السلطان عبد الحميد خفف الحكم على مدحت الى النفي الى الطائف في الحجاز حيث كان من المؤكد أن يهلك أو يقتل .

في غياب مدحت احترم عبد الحميد الدستور في بادىء الأمر . افتتح الجمعية في ٤ مارس ١٨٧٧ بخطاب قال فيه إنه قرر أن يؤسس ، على نفقته ، مدرسة خاصة لتعليم الموظفين الإداريين لاعدادهم لأعلى المناصب الإدارية والسياسية ، على أن يتم انتقاء طلابها من بين جميع طبقات الرعية دون تمييز ديني ، وأن تكون ترقيتهم بحسب كفاءاتهم .

كان النواب متحمسين وهم يحيون مواطنيهم من مختلف انحاء الامبراطورية . رحب الألبانيون بالأكراد ، والأرمن بالسوريين ، والتقى رجال الدين من شتى الطوائف ، وبحث الشعراء العرب وتجار الحجاز في التربية والتجارة ، واكتشف النواب جميعاً أن الامبراطورية كانت تعاني الانحطاط نفسه في كل أقاليمها .

وجد السلطان وهو يراقبهم ان حديثهم حديث هواة ، وأن علاجهم للوضع غير عملي . ولكن الجميع اشتركوا في اكتشاف شيء آخر . خلال الأشهر العشرة التي تلت افتتاح البرلمان كانت الامبراطورية محاصرة من روسيا . وحين تدفق المتطوعون الى القسطنطينية من كل انحاء الامبراطورية اكتشفوا فيما بينهم رابطة الدفاع عن الدين والدولة ضد المعتدين. واذ رأى السلطان بلده في حالة حرب أمر بتعليق الدستور.

لم يستطع التماسك المسلح أن يحرز النصر في الحرب ، ولكن عودة التقاليد العثمانية العسكرية الى الظهور نشط الامبراطورية . منذ خمسين سنة وهي تحاول أن تتحول الى الغرب ، أما الآن فقد اكتشفت ان الدين حقيقة حيوية جعلت الهزيمة محتملة .

واذ زحف الجيش الروسي نحو الجنوب عبر بلغاريا ، وانضم اليه البلغاريون ، سلبت القرى الاسلامية ، واغتصبت نساؤها ، وذبح أطفالها ، فساعدت هذه المذابح التلاحم العثماني ، وأكسبت الامبراطورية احتراماً ذاتياً لأنه ثبت أن رعاياها الثائرين يرتكبون من الجرائم الوحشية ما لا يقل عما نسب إليها . وبدأت الصحف الغربية تنشر أول مرة تقارير عن الأعمال الوحشية التي ارتكبها المسيحيون ضد الأتراك .

احتفظ عبد الحميد ، وهو لا يزال شاباً لا ناسكاً تماماً ، بولاء شعبه حتى بعد أن اقتحم الروس « بلفنا » آخر حصن على الطريق الى القسطنطينية في ديسمبر ١٨٧٧ . اوحت اليه الأزمة باستعمال تكتيكات بيزنطية بقدر ما هي عثمانية . أثار مخاوف بريطانيا من التوسع الروسي ، ودعا الاسطول البريطاني الى البسفور . رست السفن الحربية الداكنة حيال العاصمة في الظاهر لحماية المسيحيين في مدينة مضطربة وفي الحقيقة لوقف تقدم الروس والتهيئة لمؤتمر برلين في السنة التالية .

كان المؤتمر عملية انقاذ ، لم ترجع لعبد الحميد الكثير من أراضيه . وكان السلطان قد تنازل لبريطانيا عن جزيرة قبرص كي يكسب تأييدها له . أما بريطانيا التي احتفظت بهذه الصفقة سراً فقد تنازلت لفرنسا عن تونس . وأما النمسا فقد وضعت مقاطعتا البوسنه والهرسك تحت حمايتها ، ومنحت رومانيا الاستقلال التام ، بينما منحت بلغاريا استقلالاً جزئياً .

احبط المؤتمر خطط روسيا ، العدوة الرئيسة ، فأخذت تتطلع الى أماكن أخرى ، ولم تعد تلك العدوة الرئيسة . احتلت طشقند في سنة ١٨٦٥ واخذت ، بتوسعها نحو الجنوب وتهديدها أفغانستان ، تنتقم من بريطانيا التي سلبتها القسطنطينية والمضائق .

لم تكن عملية الانقاذ دائمة ولا شريفة ، ذلك بأنه لا يمكن ان يحقق نجاحاً دائماً

وشريفاً سوى تحول كلي للمجتمع العثماني . بيد أن عبد الحميد بمهارته في لعب الشطرنج قد أنقذ الكثير . إن اوروبا التي كانت متحدة يوم اجتمع سفراؤها في القسطنطينية أظهرت في مؤتمر برلين أنها مجموعة دول بعضها عدو لبعض . أما بريطانيا التي انقذت القسطنطينية فقد أصبحت ، باحتلالها مصر وتأييدها كل أقلية في الامبراطورية العثمانية ، ألد أعداء السلطان . لذلك تحول عبد الحميد نحو ألمانيا فوصلت الى القسطنطينية ، بعد الاحتلال البريطاني لمصر مباشرة ، بعثة تدريب برئاسة كولمر فون درجولز ، بعد ان تقرر ان يجدد المستشارون الألمان جيش السلطان خلال فترة خمسة عشر عاماً .

تزايد اعتماد عبد الحميد على الألمان في الآلات اللازمة لامبراطوريته . في سنة ١٨٨٨ تم وصل برلين وفيينا بالقسطنطينية بخط حديدي ، واعطيت الشركات الألمانية بعد ذلك امتيازات لمد خطوط حديدية تشق الأناضول ثم العراق الى البصرة على الخليج الأمر الذي أفزع بريطانيا . على أن المشروع الذي استأثر باهتمام السلطان هو الخط الحديدي الذي وصل دمشق بالمدينتين المقدستين في الحجاز. ان هذا الخط الذي لم يكتمل في زمن عبد الحميد قد اختصر الرحلة الى الحجاز ، التي كانت تستغرق فيما مضى اربعين يوماً على ظهور الجمال واثني عشر يوماً بالباخرة عبر قناة السويس ، الى خمسة أيام فقط بالقطار داخل أراضٍ عثماني كلها . وقد تبرع بجزء من نفقات هذا الخط المسلمون الذين رأوا أن القطار يسهل عليهم أداء فريضة الحج .

لعله من أجل توكيد تقويم السلطان لقوة الاسلام أن وقعت حوادث مثيرة تزامنت مع احتلال مصر ووصول بعثة التدريب الألمانية . نشبت في السودان ثورة نجحت حيث فشل عرابي ، واثبتت ان الاسلام يستطيع دون مدافع حديثة أو خطوط برق أن يكون في القرن التاسع عشر قوة لا تقاوم كما كان في القرن السابع .

كانت الثورة نتيجة اجتماع رجلين ممتازين ، لا يشبه احدهما الآخر ، ولا يشبه كلاهما السلطان ، كان أولهما محمد أحمد بن السيد عبد الله . ولد قرب دنقله في اقليم نوبا السوداني في نحو سنة ١٨٤٤ ، وكان أبوه رجلاً بسيطاً يعمل في بناء القوارب النهرية ويدعي أنه سيد من آل البيت .

ومهما يكن أصل محمد أحمد فقد كان احد اولئك العباقرة المثيرين الذين انتجهم الاسلام بانتظام كما انتجت المسيحية قديسيها . ترك اخوته الثلاثة يقومون بالعمل وانصرف الى الدراسات الاسلامية . بدت له الخرطوم في ظل حكامها الأتراك (أو الطبقة المصرية العليا) ، تحت تأثير مزاجه الصوفي وصومه وتهجده ، صورة زائفة للإسلام الصحيح . وكي يبتعد عن فسادها انسحب الى جزيرة « أبا »

التي تكسوها الغابات في النيل الأبيض على بعد نحو ١٦٠ ميلاً الى الجنوب ، وهناك عاش كناسك في كهف .

ان المسلمين لا ينتجون رجالاً مؤثرين فحسب بل يستجيبون لهم أيضاً . انتشرت الشائعات بسرعة عن بركة هذا الوليّ ، فكانت البواخر الذاهبة من فاشودا الى الخرطوم تقف عند الجزيرة للتزود بالحطب ، أما ما كان يريده الملاحون فعلاً فهو الجواب عن هذا السؤال : أهذا هو المنتظر ، أم نبحث عن آخر ؟

كان المسلمون منذ القدم ، كالمسيحيين ، يهتمون كثيراً بالبعث ، ويدرسون « الأخرويات » ، وتشتد هذه الدراسة في أسوأ الأيام . تروْنهم يسألون : متى يأتي البشير بيوم الدين ، أو يوم الحساب ؟ انتشرت في الإسلام نظريات مختلفة ، واهتم الشيعة بهذه المسألة اهتماماً خاصاً . انهم يقولون إن الإمام الثاني عشر من أبناء فاطمة الذي اختفى في سامراء بالعراق في ظروف غامضة إنما هو في حالة سبات وسيعود الى الظهور وقيادة المسلمين. أما أهل السنة فلهم عقائدهم الخاصة في هذا الشأن، احداها ظهور السيد المسيح، ولكن أشهرها أن الله سيرسل المهدي الذي يحمل اسم النبي ويتصف بالقداسة والقوة الروحية .

بدا ان الرجل الحالم في « أبا » تتوفر فيه هذه الشروط . فاسمه الأول محمد ، واسمه الثاني أحمد ، واسم والده عبد الله كاسم والد النبي ، ولرسالته بساطة رسالة المسيح ، وأتباعه المعروفون بالأنصار كأنصار النبي يؤمنون بالله ويعتقدون ان الحياة الدنيا متاع الغرور وأن السعادة بعد الموت . كان يقول ان الحياة في الخرطوم ، المدينة الأوروبية المزيفة ، انما هي للكفار ، ومن اقواله أيضاً « إن هذه الحياة لعب ، والحياة الأخرى هي الوجود الحقيقي » .

كانت رسالته كنقطة ارتكاز مُخْل لرفع العالم . لم يكن للسودانيين سوى شجاعتهم وكبريائهم . كانوا فقراء وأتقياء . وقد توفر لهم الآن أساس روحي يحتقرون منه الحكام الفاسقين الملحدين .

تضاعف الإقبال على رسالة المهدي الدينية بتحالفه مع رجل عمل هو عبد الله ابن السيد محمد الذي كان أول من حارب باسم المهدي ثم خلفه بعد موته في سنة ١٨٨٥ ، والذي عرف في التاريخ بالخليفة . لم يكد المهدي يسرّ لخليفته بحقيقة أمره حتى انتشرت الحركة المهدية بسرعة . وصلت اخبار الحركة المفزعة الى رؤوف باشا الحاكم العام في الخرطوم ، فطمأنه العلماء بأنهم سيصدرون فتوى يدحضون بها ادعاءات المهدي . ولكن رؤوف باشا كان أدرى بتاريخه الاسلامي . عرف أن كل مهدي ظهر فيما مضى تبع ظهوره الجهاد ، فاذا كان محمد أحمد قد قبل كمهدي، كان العنف نتيجة ذلك. في ١٢ اغسطس ١٨٨١ أرسل الحاكم العام باخرة

مملوءة بالجنود للقبض على المدعي واحضاره الى الخرطوم ، وكم كانت دهشة الجميع حين علموا أن أنصار المهدي قتلوا الجنود أو طردوهم . وهكذا بدأت الثورة .

خلال أربع سنوات خرج السودان عن سيطرة المصريين وحكامهم الجدد ، الانجليز ، وقتل اثنان من كبار موظفي الاستعمار — هيكس باشا والجنرال غوردون — في سبيل حمل عبء الرجل الأبيض في دولة الرجل الأسود . كان السودانيون أول من نجح في تحدي قوة الغرب منذ التمرد في الهند، ولكن خلفاء المهدي والخليفة داموا زمناً طويلاً على عكس خلفاء المتمردين الهنود الذين لم يدوموا إلاّ قليلاً .

الفصل الرابع

جاء انتصار المهدي تأكيداً لدهاء السلطان في إدراكه قوة الإسلام ، بيد أنه لم يكن في مقدوره هو وأعوانه تقليد اندفاع المهدي وخليفته لأنه كان على رأس مجتمع عرف أنه في وضع دفاعي .

كانت للسودانيين المهاجمين قوة البساطة . لباس الواحد منهم قميص من القطن فوق سروال طويل قطني ايضاً ، اذا اهترأ قام بترقيعه وإعادة ترقيعه ، لا فرق بين الغني والفقير إلاّ في جمال الرقع وحسن خياطتها . التدخين عندهم ممنوع ، وكذلك المسكرات ومرح الموسيقى وأحلام المخدرات . أما النساء فقد حرمن الزينة وتصفيف الشعر ، وكان زواجهن في غاية البساطة . وإذا مات أحدهم ودفن اعتبر ذلك انتقالاً من سهول السودان القائظة الى جنات النعيم .

كان اسلام القسطنطينية معقداً كالكاثوليكية في أيام البابوات من آل بورجيا . وبينا تقع الخرطوم عند ملتقى نهرين هما النيل الأزرق والنيل الأبيض ، تقع القسطنطينية في أكثر مواقع العالم الجغرافية إثارة عند نقطة التقاء قارتين ، وتصلها أسباب الترف الأوروبي بالقطار من فيينا وبالبواخر من البندقية واوديسا ومرسيليا . في كل الفصول يخيم فوق هذه المدينة النصف اوروبية والنصف آسيوية ضباب من الفساد خفي . واذا كان جوها خانقاً للمصلحين والمثاليين فقد كان منعشاً للمحتالين من كل ملة وعرق . كان انتشار الرشوة علناً يذهل الزائرين الغربيين . قدم سير إدوين بيرس ، وهو محام انجليزي متعاظم ، الى القسطنطينية في أوائل السبعينات وأقام فيها أربعين عاماً . قال إنه وجد نفسه في عالم جديد قد شوّه كل مفاهيم العالم القديم وأصبح لا يعرف في الأمور السياسية أنه قد يكون هناك شعوب أو أفراد لهم مثل عليا ودوافع الى العمل غير أحط أشكال المنفعة الشخصية ، وإنه ما لبث ان اكتشف ان الحكومة فاسدة والرشوة عامة ، فلا يوقع اي موظف مسؤول اي عقد إلاّ إذا ارتشى . كذلك اكتشف أن لكل موظف سعراً خاصاً . واذ استغرب ذلك قيل له إنها ليست رشوة بل هدية ، لأنها تقدم عادة بعد توقيع العقد ، بيد أنه اقتنع في النهاية بأنه لا فرق هناك بين الرشوة والهدية . وقد كان على رجال الاعمال الاوروبيين إما أن يرضخوا لهذا النظام او يفشلوا ، فرضخوا .

كان السلطان عاجزاً عن إصلاح النظام . كلما تقدم في السن وازداد ضعفاً

قلت قدرته على معرفة رعاياه ، فكيف بالسيطرة عليهم ؟ خوفه المقربون اليه من موت عنيف فصار لا يخرج من يلدز إلاّ في المناسبات الدينية كصلاة الجمعة والأعياد ، واذا خرج لم يتبع الطريق البري بل الطريق المائي متخفياً عن الناس كإحدى بنات الخليفة اللواتي ورد وصفهن في قصص ألف ليلة وليلة . حتى السفن الراسية في القرن الذهبي كان يطلب منها ان تبتعد ولا يسمح لأحد بحمل المناظير وآلات التصوير .

وإذا كان عبد الحميد يخشى الغرباء ، ولا يثق بالأتراك ، فقد اعتمد في حراسته على الألبان والعرب لأنهم غرباء عن القسطنطينية وأبعد ما يكونون عن التآمر عليه . كذلك استخدم عدداً من الوكلاء الأجانب المختلفين الذين كانت أقلامهم اللاذعة تخرس خصومه أو يحصلون له بألسنتهم الزلقة القروض من البنوك .

كان أحد أولئك الوكلاء الذين يلتفون حول بلاط السلطان رجلاً في منتصف العمر من الطبقة البولونية الراقية يدعى فيليب ميشيل نفلنسكي . اشتركت عائلته في ثورة فاشلة على الروس سنة ١٨٦٣ فخسر ثروته ، ونبذ المبادىء وان كان قد احتفظ بآداب السنيور العظيم ، وصار كرجال العلاقات العامة في القرن التاسع عشر يتملق في سبيل المال السلطان وأعداءه على السواء . أما اتصالاته التي تقوم عليها تجارته فكانت بالباشوات ، والمنجمين ، والمشعوذين الذين يحومون حول يلدز كالذباب على قطعة لحم كانت شهية . وأما الأموال التي انفقها على الذين يحتمل ان يفيدوه فقد اضعفت صحته ولم تكسب له في النهاية أي صديق . في منتصف التسعينات استخدم عبد الحميد هذا الرجل الفاني في أمر له بعض الأهمية .

كان الأرمن آخر أقلية حاولت التحرر والانفصال ، وقد عرف نفلنسكي زعماءهم وكان طرفاً في خططهم . أيام كانت القبائل التركية ترعى المواشي على تخوم الصين كانت للأرمن دولة زاهرة . اعتنق الأرمن المسيحية واتخذوها ديناً رسمياً قبل الامبراطورية الرومانية بعشر سنين ، ولكن مسيحية ملوك الأرمن اختلفت في التفاصيل عن الارثوذكسية البيزنطية ، فأضعف الخلاف هاتين الدولتين الارثوذكسيتين أمام هجمات المسلمين المتواصلة ولم تلبث ارمينيا وبيزنطيا ان سقطتا في ايدي الاتراك . واذ جاء القرن التاسع عشر كان عدد الارمن في الامبراطورية العثمانية مليوناً ، واذا كانوا لا يكونون أكثرية في اي ولاية إلاّ أن عددهم في الأناضول الشرقي ، موطن مملكتهم السابقة ، كان كبيراً . أما في الولايات الأخرى فكانوا موزعين كاليهود في مجتمعات جعلتهم معزولين ، وقد تفوقوا كاليهود في المهن التي احتقرها المسلمون ، ولكنهم اشتهروا بالبخل والأمانة .

مضت قرون والأرمن ، كاليهود ، يعتبرون أنفسهم ملة خاصة أو مجتمعاً دينياً . وكان الأتراك قد عرفوهم « كملة مخلصة » ، ووثقوا بهم أكثر من ثقتهم بأي جماعة دينية أخرى غير مسلمة ، حتى ان عبد الحميد نفسه كان يدير ثروته الخاصة أرمني يدعى أغوب أفندي .

لكن الملة المخلصة تأثرت برؤيا قومية القرن التاسع عشر أو اصيبت بعدواها . ذلك بأن المبشرين البروتستنت الأميركيين الذين شجعوا اللبنانيين والبلغار على السعي للحكم الذاتي نقلوا الرسالة نفسها الى الأرمن . على أن الوفد الأرمني الذي حاول أن يقنع مؤتمر برلين بالقضية الأرمنية كان نصيبه الفشل لأن القومية الأرمنية لا تعود بربح على الدول الأوروبية . يضاف الى هذا أنها تكوّن خطراً على روسيا ، راعية الحرية البلغارية ، لأن في القفقاس عدداً من الأرمن . كتبت صحيفة في تفليس في سنة ١٨٧٢ تقول : « غداً سنصبح دولة عمال ومفكرين » . كانت للقومية الأرمنية صبغة ثورية أزعجت قيصر روسيا خاصة ، و لا سيما أن الاتحاد الثوري الأرمني الذي تأسس في تفليس سنة ١٨٩٠ كان متأثراً بالماركسية . وكان شعاره نضالياً : « لم يعد الأرمني يتوسل ، يطلب الآن والبندقية في يده ! » .

قابل عبد الحميد هذا الخطر أولاً بصورة مباشرة . ان الأكراد ، جيران الأرمن في الأناضول الشرقي ، الذين طالما اضطهدوهم باللجوء الى القرى الارمنية في فصل الشتاء ، قد ألف منهم عبد الحميد الآن فرقاً مناضلة دعاها باسمه «الحميدية». بدأ الأكراد اضطرابات أدت الى مذابح . وعلى الرغم من كلمات الأرمن الجريئة كانوا أقلية مستوعبة تماماً كالمناضلين الزنوج في الولايات المتحدة بعد قرن من الزمن . وقد أثارت آلامهم عطفاً مكتوماً في أوروبا في التسعينات . وبدأ الناس يتحدثون في تقسيم الامبراطورية العثمانية أو حتى تنصيب الأمير فرديناند البلغاري ملكاً .

انقلب عبد الحميد الى طرق المكائد البيزنطية ، وهي طرقه بالوراثة وبالميل . أراد أن يرسل نفلنسكي الى أوروبا لعقد اتفاقية مع مهاجري الأرمن ، إن استطاع . وقد رغب نفلنسكي في الذهاب وان جعلته معرفته بعناد زعماء الأرمن يشك في النجاح .

في طريقه الى الغرب صادف نفلنسكي صحافياً وكاتباً مسرحياً شاباً يدعى هيرتزل ، نصب نفسه ناطقاً باسم أقلية أخرى ، وكان آخر ما نشر باللغة الألمانية كتاباً عنوانه « دولة اليهود » حاول ان يبرهن فيه ان اليهود ليسوا طائفة دينية بقدر ما هم شعب مشتت في العالم ، وقال ان اليهود يستحقون وطناً يؤسسون لهم فيه دولة يعيشون فيها أحراراً محترمين . لم يحدد المؤلف منطقة معينة لهذه الدولة ولكن

المنطقة التي أوحى بها الكتاب وطالب بها قراؤه الذين لم يعتبروه قصة خيالية تكوّن جزءاً من املاك السلطان عبد الحميد .

شرح هيرتزل لوكيل السلطان مشروعه الخيالي ، واطلعه على رغبته في مقابلة عبد الحميد كي يعرض عليه مساعدة اليهود مقابل قطعة أرض يقيمون عليها وطنهم القومي ، وقال ان عشرين مليوناً من الجنيهات قد خصصت لتنظيم المالية التركية . ثم طلب الى نفلنسكي ان يساعده ويرافقه في رحلته .

شمّ نفلنسكي رائحة الفائدة ، وقد خلق لمثل ذلك ، فادعى انه لم يقرأ كتاب « دولة اليهود » فحسب بل أطلع عليه السلطان أيضاً . ومما شجعه على الاهتمام بالعميل الحالم الجديد أنه لم يكن متسولاً ولا طالب معروف ، بل ابن موظف بنك وصحافياً مشهوراً ، ولا كأحد اولئك النفعيين الذين يحومون حول قصر يلدز . ثم ان نفلنسكي نفسه كان مقامراً تعباً يحن الى صفقة أخيرة كبيرة تمكنه من التقاعد والراحة . يضاف الى هذا ان بولونيا ، وطن نفلنسكي ، من أشد بلاد أوروبا تعصباً . ومهما أصبحت لاسامية نفلنسكي ضعيفة فلا بدّ من ان تكون فكرة خروج اليهود من أوروبا قد راقت له .

لكنه تردد ... ان السلطان لا يمكن ان يتخلى عن القدس المدينة المقدسة في نظر المسلمين التي عرج منها النبي الى السماء . ثم ان السلطان لا يفهم المال تماماً كالخديوي اسماعيل الذي مات قبل سنة . وفوق كل هذا كان مشغولاً بمشكلة الأرمن وبالأكثرية اليونانية في جزيرة كريت التي بدأت تشاغب على حكمه . كل ما كان يهم السلطان هو المحافظة على امبراطوريته . وتذكر نفلنسكي ان بالمرستون كان قد عرض على السفير البريطاني في القسطنطينية اقتراحاً كهذا فقوبل بالرفض ، وأنه إنما جاء الى أوروبا لمهمة أخرى هي مقابلة زعماء الأرمن والتفاوض معهم .

لاحظ هيرتزل تردده وسأله : « ما الذي يدور في خلدك ؟ » فأطلعه نفلنسكي على مهمته . قال هيرتزل ان اليهود يستطيعون المساعدة في هذه القضية أيضاً . بنفوذهم قد يتوصلون الى تسوية ، وعلى كل حال تستطيع صحفهم ان تحسن سمعة السلطان كثيراً . أجاب نفلنسكي بأن معظم زعماء الأرمن أصدقاء شخصيون له ، وأنهم يريدون ان يضربوا ضربتهم في يوليو فاذا أمكن تأخيرها شهراً قد يتوصل الى اقناع زعماء الأرمن بالدخول في مفاوضات مع السلطان فيعود عليه ذلك بربح . فهم هيرتزل قوله وقال له : « ولكن القضية اليهودية ستعود عليك بربح أكثر كثيراً من القضية الأرمنية . لا علاقة لي شخصياً بالمال ولكن سأوصي بك ، طبعاً ، رجالنا الأغنياء » .

هنا تذكر نفلنسكي ثروة روتشيلد الهائلة التي تمول الثورة الصناعية كما كان آل دي مديشي وآل فوجير يمولون النهضة الأوروبية ، وتخيل أكوام الذهب أمامه ، فوافق على مرافقته الى القسطنطينية بعد عودته من لندن في شهر يونيو .

عاد نفلنسكي الى فيينا دون ان يتوصل الى اتفاق مع زعماء الأرمن ، وقابل هيرتزل في ٩ يونيو ١٨٩٦ ، فاتفق الاثنان على الالتقاء في محطة بودابست في القطار الذاهب الى القسطنطينية .

الكتاب الرابع

تيودور هرتزل

الفصل الاول

بعد رحلة دامت يومين وصل القطار الى محطة اسطمبول ، فطلب نفلنسكي عربة اخترقت بهما شوارع المدينة الى فندق رويال المطل على مياه القرن الذهبي اللألاءة .

ولد تيودور هيرتزل في ٢ مايو ١٨٦٠ في مدينة بودابست عاصمة هنغاريا على نهر الدانوب لأبوين يهوديين ، في بيت لا يختلف عن بيوت الطبقة الوسطى الأوروبية . كان أبوه موظف بنك هنغاري ، ينتسب الى أقلية كبيرة في عددها ونفوذها ، حصلت على حريتها الحقيقية الي فرضها الرأي العام في هنغاريا ودستور ١٨٦٧ الهنغاري لأن الهنغاريين كانوا حريصين على كسب اليهود (الذين يشكلون نحو خمس سكان بودابست) الى جانب المجر . وكان اليهود قد وجدوا الثقافة الألمانية أسهل منالاً لأن لهجتهم اليديشية قريبة من اللغة الألمانية ، وأقوى جاذباً لأن المفكرين اليهود كتبوا بالألمانية .

نشأ هرتزل بين بحرين غير متكافئين : بين التقاليد الدينية اليهودية وبين الثقافة الألمانية العصرية الأقوى أثراً . ومع أنه كان يراعي التقاليد الدينية إلاّ أن حماسته اتجهت الى الثقافة التي مركزها فيينا ، وقد جذب هذا المركز عائلة هيرتزل فرحلت اليه في سنة ١٨٧٨ .

كان تيودور مصمماً على دراسة الأدب والمسرح الألمانيين ، ولكن والديه رأيا أنه بحاجة الى مهنة فأدخلاه كلية الحقوق في جامعة فيينا . واذ كان معجباً بغوته وشيلر وموزارت وبتهوفن فقد انضم الى اكاديمية لاسيهالي التي كان مبدأ رئيسها : « في هيكل المعرفة المتعبدون جميعاً سواء » ، وانغمس في الحياة الجامعية فصار يرتدي زي الطلاب وينشد أغانيهم ويشرب البيرة ويلعب الورق والشطرنج ويفعل كل شيء يفعله طالب ألماني .

الفصل الثاني

على الرغم من ان فيينا ، عاصمة آل هبسبرغ ، تفتخر بأنها باريس اوروبا الوسطى ، الا ان هناك أشياء كثيرة مشتركة بينها وبين القسطنطينية . لا ريب ان فيينا متفوقة بالنظافة الصحية والتعليم والطب واسباب الراحة الأخرى ، وان حياتها الثقافية أغنى وعدد سكانها أكبر اذ يبلغون المليونين ، لكن عاصمة فرانز جوزيف على الدانوب تشترك في صفات مهمة مع المدينة التي نصفها في اوروبا ونصفها الآخر في آسيا . كلا العاصمتين حكمت امبراطورية ثائرة وشعوباً معادية : فالتشيكيون والكرواتيون والمجر والسلاف في الامبراطورية النمسوية يقابلهم الأرمن والعرب والبلغار واليونان في الامبراطورية العثمانية . ثم ان فيينا ذاقت طعم الهزيمة ، كالقسطنطينية ، حتى أن قليلين من النمسويين ، بعد تغلب بروسيا على النمسا في معركة سدووا ، ظلوا يؤمنون بدوام الامبراطورية . وقد كانت فيينا أضعف من القسطنطينية في شيء واحد وهو أن آل هبسبرغ كانوا يفتقرون الى التماسك العثماني . لا شك ان فرانز جوزيف كان كاثوليكياً تقياً ، ولكن كذلك كان حكام بفاريا والبرتغال وايطاليا وبلجيكا واسبانيا ، فلا يستطيع امبراطور النمسا ان يدعي تمثيل الكاثوليكية بالطريقة التي يمثل بها عبد الحميد الاسلام لأن الكنيسة منفصلة عن الدولة ، والبابا يقيم في روما لا في فيينا .

لعل الشبه الأساسي بين المدينتين طريقة وقوف كل منهما على حد عالمها الخاص . بينما كانت أسوار القسطنطينية على بعد صرخة من اليونان والبلغار وقفت فيينا على الحافة الجنوبية الشرقية من اوروبا التي تتكلم اللغة الألمانية ، تمتد وراء ضواحيها بلاد المجر والسلاف . واذا كانت القسطنطينية تشعر بأنها مهددة من الغرب ومن عناصر داخل الامبراطورية لها صلة بالغرب ، فقد شعرت فيينا بالخطر من الشرق . بدت فيينا الألمانية في نظر الأجانب مستبدة مسيطرة ، أما في عين نفسها فقد كانت مركزاً من الشرق الذي كاد العثمانيون في القرن السادس عشر يطغون منه عليها .

كان رد فعل المدينتين لهذا الشعور بالخطر على مستويين مختلفين . أقام عبد الحميد في القسطنطينية امبراطوريته على الاسلام ، وهو دين يتسامح مع الاقليات الى ان تثور . أما على المستوى الشعبي بين بعض الذين يتكلمون اللغة التركية فقد

نشأت عقيدة معادية للعرب المسيحيين ولليونان المسيحيين ، يقول دعاتها ان الاتراك شعب خاص اندمج في كتلة متنافرة من الشعوب غير التركية . وحاول فرانز جوزيف في فيينا ان يحافظ على مجتمع مزدوج يقدم الحضارة للجميع ، لكن كان هناك اعتقاد ، كما في القسطنطينية بين المحكومين ، ان الشعب أو العنصر الحاكم مندمج ومهدد فأدى ذلك في النهاية الى الحط من قدر العناصر الأخرى . استاء الأتراك في القسطنطينية من العرب والألبانيين المدللين ، ومن اليونان المتنفذين والأرمن الناجحين ، وازداد في فيينا كره اليهود بصورة مخيفة ، فقد كان النمسويون السيئو الحال المهاجرون غالباً من المقاطعات يحسدون ثروة المائتي ألف يهودي المتحررين في العاصمة ويرتابون في نفوذهم . ان أكبر عدو لليهود في العصور الحديثة إنما كان نمسوياً ولد قبل ان ألف هيرتزل كتاب « دولة اليهود » بستة أعوام .

يرجع بغض أدولف هتلر لليهود الى فيينا . كان قد أمضى صباه مع أمه في بلدة « لنز » الصغيرة يحلم بأن يصبح مهندساً معمارياً فيعيد بناءها على اسس حديثة . ولم يكن في لنز سوى عدد قليل من اليهود الذين تأوربوا على مر القرون في مظهرهم الخارجي فكان هتلر يحسبهم من الألمان ، ولا يشعر بشيء ضدهم . ولما انتقل الى فيينا بعد وفاة أمه صادف فجأة منظراً غريباً ... شخصاً يلبس قفطاناً ، فكان أول شيء تبادر الى ذهنه ان يسأل : أهذا يهودي ؟ ثم أخذ يتأمل ملامح الرجل الغريبة خلسة ويتساءل : أهذا ألماني ؟ وكعادته في مثل هذه التجارب لجأ الى الكتب لإزالة شكوكه .

كذلك صادف هيرتزل ، اليهودي النمسوي الذي كان يخطط ليصبح كاتباً ، اللاسامية في فيينا فلجأ ، كالكاثوليكي النمسوي الذي كان يخطط ليصبح مهندساً ، الى الكتب يستوضحها .

كتابان يمثلان وجهتي نظر مختلفتين جداً ساعدتا الطالب في ١٨٨٢ على التركيز على هذه المشكلة ، أولهما كتاب وليام جنسن « يهود كولون » الذي يصور ما يدعي اللاسامية الدينية في العصور الوسطى .

وجد العداء لليهود على أساس ديني مذ بدأت الكنيسة المسيحية تناضل في سبيل الاستقلال عن الأصل اليهودي . وكان الأوائل الذين اعتنقوا رسالة المسيح إما يهوداً بالوراثة أو ممن اعتنق اليهودية كاليونان الذين كثيراً ما يرد ذكرهم في الانجيل . بيد أن أكثر الرسل ثقافة وتأثيراً ، الرجل الذي قدم الدين الجديد الى عالم البحر المتوسط بصورة يمكن فهمها ، لم يكن يهودياً بالوراثة فحسب بل فريسي النشأة أيضاً . وقد كان تحوله الى المسيحية من أكثر حوادث التحول إثارة في التاريخ ، اذ تغير من « شاوول » الذي يضطهد الكنيسة الى

« بولس » أكبر المبشرين بها . غضب بولس على اليهود لأنهم لم يقبلوا ابن الانسان ابناً للرب ، ووصفهم بأنهم « الشعب الذي قتل السيد المسيح ، والأنبياء ايضاً ، والآن يضطهدوننا ويتصرفون بطريقة لا يمكن ان ترضي الله ، وتجعلهم أعداء للجنس البشري بأسره » . وقد اتخذ هذا القول وأمثاله من الأقوال القديمة في القرن الأول الميلادي مبرراً للاضطهاد ، كما اتخذت عبارة المسيح اللطيفة في حمل الضيوف على حضور عرس مبرراً لإجبارهم على تغيير دينهم . وفي سنة ١٥٨١ قال البابا غريغوري الثالث عشر ما يلي : « إن خطيئة الشعب الذي رفض المسيح وصلبه تزداد جيلاً بعد جيل ، وتحكم على كل واحد من أفراده بالعبودية الدائمة » . كانت « العبودية » كلمة مهذبة ، أدت أولاً الى الغيتو فالطرد فالمذابح . أما كلمة « غيتو » فمعناها الأصلي « البلدة الصغيرة » ، ولكنها اكتسبت فيما بعد معنى آخر حين أصبحت تؤوي الشعب الذي تبناه الشيطان . اتخذ الاضطهاد اشكالاً مختلفة ، فكان الاتصال الاجتماعي باليهود ممنوعاً ، والعلاقات الجنسية محرمة يعاقب عليها بموجب قوانين الشهوة البهيمية . وقد كان سكان الغيتو ينسبون الى السحر الشرير ، ويتعرضون للاضطهاد العنيف . فالمحاربون الصليبيون في طريقهم لذبح المسلمين في البلد المقدس كانوا يعرجون على الغيتو وينهبونه . أمّا تقدير الحكام لليهود وحمايتهم فما ذلك إلاّ لقدرتهم على اقراضهم المال ، مع ان الملوك المدينين لهم كانوا يجدون احياناً في المذابح وسيلة عنيفة للانتقام منهم .

كان تحرير اليهود ، كإلغاء الرق ، ثمرة بطيئة من ثمار المذهب العقلي ، وجاء نتيجة جهود الربوبيين لا المؤمنين . سار تحرير الاقليات الدينية ببطء في روسيا واسبانيا حيث كان تقدم المذهب العقلي بطيئاً ، أما في فرنسا الثورة فقد كان التحرير كاملاً ، ولكن معارضي الثورة عارضوا ايضاً الحريات الجديدة الي منحها اليهود ، وقاوموا بشدة طوال القرن التاسع عشر اولئك الذين نسبوا الى الحركة التي هدمت فرنسا التقليدية .

اذا كان كتاب جنسن قد وصف عالماً مضى ، فان كتاب هيرتزل الثاني يظهر كيف أن التعصب يرجع بثوب جديد .

يعتبر يوجين دورنج ، المحاضر في الفلسفة والاقتصاد في جامعة برلين ، نموذجاً لجيل استعاض بحقائق أوروبا الظافرة من حقائق الدين . ولم يكن الوحيد الذي طرح السؤال التالي المتعلق بذلك : ما الذي جعل أوروبا قوية ، وما هي الأخطار التي تهدد هذه القوة ؟

كان جواب دورنج عن ذلك السؤال في « القضية اليهودية ، قضية عرق واخلاق وحضارة » على أسس لا يفهمها مسيحيو العصور الوسطى . وإذ ردّد

أقوال وليام مار ، وسبق هيوستن ستيوارت تشيمبرلين ، قابل بين عرقين يتنافسان في السيطرة : الألماني النقي واليهودي الفاسد . إن اليهودي مهما كانت عقائده لا سبيل إلى معالجة فساده .

واضح ان هذه اللاسامية العنصرية أخطر من التعصب الديني . ذلك بأن المتعصب دينياً يهاجم دين اليهودي وهو شيء يستطيع اليهودي تغييره ، أما العنصري فيهاجم أصله وهو شيء لا يمكن تغييره .

قرأ هيرتزل كتاب دورنج ممتعضاً ، ومع ذلك اعترف بأن اقراض المال لا بدّ من ان يشوّه خلق الانسان ، ولكنه حاول ان يثبت ان هذه المهنة الكريهة فرضها على اليهود المجتمع المسيحي الذي كان يمنع اعضاءه من اقراض المال بفائدة ولا يسمح لليهود إلاّ بالقليل من الأعمال الأخرى .

كان كتاب دورنج رفضاً لمثل القرن التاسع عشر واحياءً للطعن القديم بعبارات جديدة ، فإن قوله ان اليهود قد « هوّدوا » الصحافة تكرار بصورة اخرى للتهم التي كانت توجه الى اليهود في العصور الوسطى بأنهم يسممون الآبار .

دفع ذلك هيرتزل الى وضع قصة تصور فيها بروز ارستقراطية جديدة مفتوحة للطبقة الوسطى عامة ولليهود خاصة .

أول أزمة شخصية تعرض لها كيهودي جاءت في مارس سنة ١٨٨٣ . كان قد تأسس اتحاد للطلاب يقول صراحة بالعنصرية الألمانية وباللاسامية . اتخذ هذا الاتحاد من وفاة ريتشارد واغنر مبرراً لتظاهرة قومية . قال ان موسيقى واغنر تحوي مثل العنصر الألماني بينما موسيقى ألبريخ ومايم تمثل اليهود . في التظاهرة التي جرت احياءً لذكرى واغنر امتدح أحد أعضاء جمعية « ألباي » التي كان هيرتزل عضواً فيها « اللاسامية الواغنرية » فاستقال هيرتزل من الجمعية احتجاجاً على ذلك ، ولكن الجمعية رفضت استقالته ثم طردته .

جلبت لهيرتزل مواهبه شهرة خلال العقد الثاني كصحافي متخصص بالروايات المتسلسلة أو بالمقالات أحياناً . ذهب في سنة ١٨٩١ الى باريس مراسلاً « للصحافة الجديدة الحرة » ، وهي صحيفة تعمل في اظهار النمسا للعالم وتنشر ما ساهم به اليهود في الثقافة الألمانية . وكانت باريس قد أصبحت مسرحاً جديداً للحركة اللاسامية . صدر في ١٨٨٥ كتاب ادوارد درومونت « فرنسا اليهودية » فكان ذروة الهجوم في القرن التاسع عشر على موقف الثورة الفرنسية من التسامح مع اليهود ، ذلك الهجوم الذي جاء خفياً حيناً ومكشوفاً حيناً آخر . قال درومونت : « ان يهود فرنسا ليسوا فرنسيين بل شعب ضيف يستغل توسع النظام الاقتصادي لمصلحته الخاصة ولتحقيق السيطرة على العالم . انهم كممثلين للرأس مالية الدولية

مع نزعة عرقية الى التجارة قد خلقوا في كل مكان صناعة كبيرة حطمت الطبقة الوسطى المسيحية الناشئة وجمعت الثروة في أيدي اليهود مثل روتشيلد » . حاول درومونت ان يبرهن ان جميع اعداء اليمين كانوا يهوداً ظاهراً او باطناً ، وأوصى بالعدول عن منحهم الحرية ، وبمصادرة ثروتهم واستعمالها في توسيع وسائل الانتاج للفقراء المستغلين .

اذا كان درومونت قد زود اليمين الفرنسي بحجج جديدة ، فقد فعل كارل ماركس مثل ذلك لليسار . عمّد كارل ماركس وهو طفل ، وقد ربط نماذج من يهودية أسلافه ومن مسيحيته الرسمية في نظرة الى التاريخ : « نجد كل طاغية يدعمه يهودي ، وكل بابا يدعمه يسوعي . والواقع أن رغبات الظالمين لا تتحقق ، وأن الحرب لا تكون ممكنة ، لو لم يكن هناك جيش من اليسوعيين يكبت الفكر وقليل من اليهود ينهب الجيوب » .

أظهرت حوادث السنوات القليلة التي امضاها هيرتزل في باريس أن التحرير لم يحلّ مشكلات اليهود الأوربيين ، فحمله ذلك على التفكير في حلّ للقضية اليهودية . رأى أولاً ان اليهود كانوا أقلية مضطهدة بسبب دينها . كان بامكانه أن يتبع طريقة الفيلسوف اليهودي موسى بن ميمون الذي عاش في الأندلس ومصر في القرن الثاني عشر وحضّ اليهود في زمنه على التمسك بدينهم ، وخصوصاً يهود اليمن ، ولكن هيرتزل عاش في زمن ضعف فيه تأثير الدين ، فاختار حلاً معاكساً لحلّ ابن ميمون . بدلاً من ان يحض اليهود على الثبات كشعب خاص نصحهم بأن يصبحوا كغيرهم من الشعوب .

فعل هيرتزل ذلك بطريقتين : أولاً اقترح ان الحلّ الأفضل هو اندماج اليهود التام في العالم غير اليهودي ، واعتناق دينه ، وذلك بتعميد أطفالهم وتحويلهم الى الدين المسيحي قبل أن يعزى تحولهم الى الجبن أو إلى المصلحة . ولكنه أظهر بهذا الاقتراح فهماً قليلاً لليهودية والمسيحية . فاليهود من ناحيتهم رفضوا اقتراحه ، والكنيسة الكاثوليكية كانت من ناحيتها غير مستعدة للترحيب بمهتدين غير مقتنعين بالعقائد اللاهوتية التي حالت ثمانية عشر قرناً دون اعتناق اليهود الدين المسيحي .

ما لبث هيرتزل نفسه أن أهمل هذا الحل ، واخذ يفكر في حل آخر . اقترح مرة أخرى ان يصبح اليهود شعباً كالشعوب الأخرى ولكن على اساس آخر ، على غرار شعوب القرن التاسع عشر ، وقد جاء اقتراحه هذا بعد سنتين إثر محاكمة الكابتن ألفريد دريفوس ، الضابط اليهودي في الجيش الفرنسي ، وتجريده من رتبته العسكرية .

ظهرت قضية دريفوس في بادىء الأمر قضية تجسس عادي من أجل المال .

اكتشف ان السفارة الألمانية في باريس تشتري أسراراً عسكرية فرنسية عن طريق الميجر فون شفارتزكوبن ، وأن هذا الميجر على اتصال بكابتن في الجيش الفرنسي يدعى دريفوس من أصل ألزاسي ، فقد كانت عائلته تملك مصنعاً في مقاطعة الألزاس التي أصبحت منذ هزيمة ١٨٧٠ جزءاً من ألمانيا .

نظرت محكمة عسكرية في القضية وتبين على اساس شهادة الخبراء بالخط أن دريفوس مذنب ، فقضت المحكمة بتجريده من رتبته العسكرية وسجنه . وقد وصف هيرتزل في « الصحافة الجديدة الحرة » الجلسة التي جرت فيها عملية التجريد فقال انها عقدت في ساحة الأكاديمية العسكرية ، واقتصر حضورها على عدد كبير من الضباط وبعض زوجاتهم ، وعلى بعض الصحافيين ، كما حضرها رجال الشرطة وكتيبة عسكرية ، فبلغ عدد الجميع خمسة آلاف شخص . وقف في وسط الساحة جنرال على ظهر جواده ، وحين احضر دريفوس أمامه في بدلته الرسمية خاطبه بقوله : « ألفريد دريفوس ، أنت لا تستحق حمل السلاح . باسم الجمهورية الفرنسية أجردك من رتبتك . فلينفذ الحكم » . صاح دريفوس مقسماً أنه بريء ، ولكن الضابط المكلف نزع شاراته ، ثم وضع القيد في يديه وساقه رجال الشرطة الى السجن كسجين مدني .

لم يذكر هيرتزل في رسالته الى الصحيفة شيئاً عن اللاسامية لأن دريفوس أدين على أساس انه خائن لا لأنه يهودي . ولكن القضية تطورت حين أخذت الصحف المعادية للاسامية تهاجم دريفوس كيهودي ، فأثر ذلك في نفس هيرتزل ، وأصبح دريفوس في نظره رمزاً لليهودي الذي يحاكم في مجتمع أجنبي ، وشغل بذلك ما تبقى من حياته .

جرد دريفوس من رتبته العسكرية في ٥ يناير ١٨٨٥ ، وفي شهر مايو من السنة نفسها اتصل هيرتزل برجل المال المليونير اليهودي البارون موريتز دي هيرش . وكان البارون قبل أربعة أعوام قد أسس « جمعية الاستعمار اليهودي » برأس مال قدره مليونا جنيه استرليني لتوطين اليهود الروس في الأرجنتين ولكن المشروع فشل لأن ثلاثة أرباع الثلاثة آلاف يهودي الذين نقلوا الى الأرجنتين انتقلوا الى الولايات المتحدة . حاول هيرتزل ان يقنع دي هيرش بالحاجة الى حركة سياسية ، لا خيرية ، تشجع جماهير اليهود على الرحيل الى البلد الجديد الموعود ، على ان تثار فيهم روح الاستعمار ، ويقووا كأنما يراد ارسالهم الى القتال ، ويحبب إليهم العمل ، وقال انه سيقابل قيصر ألمانيا ويطلب إليه السماح لليهود بالهجرة ، فوافق دي هيرش على الحاجة الى الهجرة .

في مساء ذلك اليوم وضع هيرتزل أفكاره على الورق ، ومنها انه سيجمع

قرضاً وطنياً . ان اليهود يقدمون القروض لمختلف المشاريع في الصين وأفريقيا فلم لا يقدمون قرضاً لأهمّ حاجاتهم . وفي عيد الحصاد اليهودي (آخر يومين من مايو) بدأ مفكرة سرية عنوانها « القضية اليهودية » ، استمر في كتابتها حتى قبيل موته ، ودوّن فيها اشياء تكونت منها مسودة كتاب « دولة اليهود » الذي نشره أخيراً وكان عبارة عن حديث موجه الى مجلس عائلة روتشيلد . قال ان الفكرة التي يحاول إظهارها في الكتاب قديمة وهي استرجاع الدولة اليهودية . وكي يقنع آل روتشيلد اراد ان يبرهن لهم أن ثروتهم الضخمة لن تكون في مأمن دون دولة يهودية ذات سيادة . وليثبت أن الدولة اليهودية ليست حلمـــاً استعمل القياس العلمي التالي : « الكل يعلم أن البخار يولد بغلي الماء في غلاية ، وأنه يحرك غطاءها فقط . والمشاريع الصهيونية والجمعيات الأخرى لكبح اللاسامية ظواهر من نوع غلاية الشاي . لكن اذا احسن استغلال هذه القوة كانت كافية لادارة محرك كبير ونقل الركاب والبضائع ، مهما كان نوع هذا المحرك » . كذلك قال ان اليهود يلاقون الاضطهاد حيث يذهبون ، وينقلون اللاسامية معهم ، وان قضيتهم لن تحل إلاّ على أساس سياسيّ

اعتبر هرتزل في رأي معاصريه شديد التشاؤم ، ووصف بأنه مثل هملت في حالات الانجذاب . أصبح متعصباً يخاف كالمتعصبين جميعاً من الساخرين ، ولذلك قال : « إن أعنف معاركي ستكون مع السخرية اليهودية لأن هذه السخرية استجابة واهية من السجين في محاولة اظهار نفسه إنساناً حراً » . وكما حلم هتلر بإعادة بناء « لنز » ، كذلك حلم هيرتزل بتأسيس جمهورية يهودية ارستقراطية كالبندقية . وكان انطوني هوب قد نشر قبل عام روايته « سجين زندا » فأثارت أكثر مشكلات حلم هيرتزل سرية وتعقيداً ألا وهي : ماذا يفعل بالسكان الاصليين ؟ ولكنه خط بيده خطة تقوم على طرد السكان المفلسين الى ما وراء الحدود بحرمانهم العمـــل .

قوبلت فكرة هيرتزل بعدم الاكتراث أو العداء أو الهزء . أهمل بسمارك مذكرته لأنه لا يرى فائدة في رجل لا مال عنده ولا جند ، كما أهمل ألفرد روتشيلد في فيينا وسائله ، وشدّد بعض اليهود على الخطر الذي تنطوي عليه المطالبة بقومية يهودية دنيوية قائمة على مبدأ العرق الضعيف الغامض لأنها قد تبدو قبولاً بنظرية اللاسامية العرقية ، وضحك آخرون منه لأنهم لم يصدقوا إمكان نزع ولاية مسكونة من الامبراطورية العثمانية وملئها بمستوطنين تنقصهم الخبرة الزراعية أو العسكرية ، فأغاظ هيرتزل عدم الاستجابة لفكرته حتى أصبح حقوداً منتقماً الى حدّ ان هدد بشن حملة صحافية على البارون دي هيرش اذا سخر هو الآخر منه بنشر ثلاث رسائل كان قد بعث بها اليه .

ان الدولة الأوروبية الوحيدة الي وجد هيرتزل فيها تأييداً فورياً هي انجلترا التي كانت في ذلك الوقت تحكم ربع سكان العالم وتسيطر على ربع مساحته .

ذهب هيرتزل الى لندن ومعه توصيات من زميله الهنغاري « ماكس نوردو » الذي أصبح أقرب مريديه وقدر له أن يخلفه في أداء مهمته . كان قبول نوردو للقومية اليهودية مذهلاً . ذلك بأنه كأوروبي مهذب ومتحمس حقيقي للعلم رفض الاعتراف بالدين اليهودي وضمه الى الأديان الأخرى في كتابه « كذب حضارتنا التقليدي » . قال في ذلك الكتاب « إن العهد القديم كأثر أدبي جاء متأخراً كثيراً عن الفيدا ، وان قيمته كعمل أدبي تفوقها قيمة كل شيء كتب في الألفي سنة الماضية حتى ما كتبه المؤلفون من الدرجة الثانية ، فلا يقابله جاداً بانتاج هوميروس أو سوفوكليس أو دانتي او شكسبير أوغوته سوى عقل متعصب فقد تماماً قدرته على الحكم ، ومفهومه للكون سخيف ، ومبادئه الأخلاقية مغلقة كما يظهر من الانتقام الخبيث المنسوب الى الله » . ولكن نوردو شهد مع هيرتزل ما حلّ بدريفوس ، واكتشف فجأة ان الحركة التحررية ضحلة وضعيفة . وان تحرير اليهود لم ينتج عن عقيدة أو شعور ودي بل كان نتيجة منطقية لقول المذهب العقلي الفرنسي ان البشر خلقوا ولهم حقوق معينة ، وبما ان اليهود بشر فإن لهم بالطبيعة حقوق الانسان .

كانت الجزيرة التي ارسل نوردو إليها زميله هيرتزل الوحيدة الي شذت عن تلك القاعدة لأن « الشعب الانجليزي لا يسمح بفرض التقدم عليه من الخارج بل ينشئه من داخل نفسه . ان التحرر في انجلترا حقيقي ! » .

كان نوردو مصيباً الى حد بعيد . منذ أيام اوليفر كرومويل واليهود يتمتعون في بريطانيا وامبراطوريتها باحترام شعبي متزايد . واذا كان هناك تعصب عام فإنما على الرومان الكاثوليك والانجليكان الذين يلبسون الرداء الكهنوتي ويستعملون البخور أكثر منه على اليهود . وقد كان آخر شغب طائفي ضد الكاثوليك ، واعتنق اللورد جورج غوردون رئيس المشاغبين الدين اليهودي . وأشار احد المحللين للامبراطورية البريطانية الى أن بريطانيا عملت مع اليهود بصورة وثيقة ، ففي « جنوب افريقيا كان الرأس ماليون والمضاربون اليهود احلافاً متحمسين للبريطانيين في عطاءات ذهب الترنسفال ، وفي الهند تحدرت العائلات الانجليزية–الهندية الشهيرة من عشيرة ساسون الفارسية اليهودية » .

بيد أن هناك ظلالاً خفيفة مخالفة لذلك ، منها ان الطبقة العليا الانجليزية كانت مصابة بالخوف من الأجانب وكرههم ومن ضمنهم اليهود ، حتى أن زملاء دزرائيلي لم يستطيعوا اخفاء هذا الشعور ، فقال إيرل دربي « إنه يؤمن بالأبهة كما يفعل الغرباء

جميعاً » ، ووصفه لورد سالزبري بأنه « يهودي مجرد من المبادىء الخلقية لا حق له في أن يكون في مجلس العموم » .

لكن دربي وسالزبري لم يحولا دون تعزيز فكرة هيرتزل . وهناك مثل آخر مهم يتعلق بآرثر بلفور الذي قام ايضاً بدور رئيس فيما بعد . كان بلفور ، الذي ينتمي الى الطبقة التي خلقت الامبراطورية وجمعت المال ، متحرراً فكرياً ولكن غير معجب باليهود كما يظهر من رسالة ورد فيها قوله : « اعتقد ان العبرانيين كانوا أكثرية ، ومع أنني لست متعصباً على العرق إلاّ أنني بدأت أفهم وجهة نظر أولئك الذين يعترضون على هجرة الغرباء » .

فهم بلفور العرق على طريقة هيوستن ستيوارت تشيمبرلين ، وكان مهتماً بالمحافظة على ما اعتبره « النسل الممتاز » . وقد ادت إشارته في محاضرة ألقاها في جامعة كمبردج الى « المهاجرين الغرباء البرابرة الذين اصبحوا مصدر ضعف للامبراطورية الرومانية وخطر عليها » الى مراسلات ودية بينه وبين تيودور روزفلت . ثم ان فهم بلفور للعرق وضعه ضد الافريقيين خاصة فلم يجعل للقارة السوداء اي مكان في « الاتحاد الانجلوسكسوني » الذي كان يحلم به لأنها لا يمكن ان تكون وطناً للعرق الأبيض ، فلا يستطيع البيض ان يعيشوا ويعملوا مع الملايين الكثيرة من الزنوج على أسس متساوية . هذا وقد قام بلفور بدور برلماني في مقاومة هجرة اليهود الى انجلترا ، وحاول ان يشرح لمجلس العموم لماذا يرى ضرورة وقف تدفق اليهود (الهاربين من المذابح القيصرية) بقوله : « يمكننا ان نتصور بسهولة وضعاً لا يفيد هذا البلد ان يكون فيه عدد كبير من الاشخاص الذين ، مهما كانت وطنيتهم وقدرتهم واجتهادهم ، يظلون شعباً منعزلاً ، ولا يختلف دينهم عن دين أكثرية مواطنيهم فحسب بل لا يتزاوجون إلا فيما بينهم أيضاً » .

على ان هيرتزل وجد بين اليهود المقيمين في انجلترا من لا يعتبرها وطناً له . زار اولاً اسرائيل زانجويل واضع شعار « بلد بلا شعب لشعب بلا بلد » ، فقدمه الى جماعة من المهنيين اليهود يدعون أنفسهم « مكابيين » .أقام هؤلاء له حفلة استقبال ، ورحبوا به ، وجعلوه عضواً فخرياً ، واستمعوا الى اقواله ، ولكنهم قالوا له ان الصهيونية قد تتعارض مع وطنيتهم الإنجليزية .

كان سير صمويل مونتاج ، الذي أصبح فيما بعد لورداً ، أقرب الجميع الى فكرة هيرتزل . دعاه مونتاج الى الغداء في بيته ، وأخذا يتداولان الحديث بعد الغداء ، فشرح له هيرتزل مهمته حتى أثاره فأسرّ له مونتاج انه يشعر في قرارة نفسه بأنه اسرائيلي أكثر منه انجليزي ، وأنه يرغب في الاقامة مع أسرته في فلسطين لكن لا فلسطين القديمة بل فلسطين أوسع . لم يرد ان يسمع شيئاً عن الأرجنتين ،

وقال انه مستعد ان ينضم الى لجنة هيرتزل بمجرد ان تنظر احدى الدول الكبرى الى القضية بجدّ .

شجعت هيرتزل زيارته الأولى هذه لبلد رئيس وزرائه دزرائيلي ، وفيه سير صمويل مونتاج الذي لم يلبث ان انتخب عضواً لبرلمانه . لقد اثارت مقابلته لمونتاج مبدأين للحركة التي اصبح هيرتزل شراعاً في سفينتها لا دفة . أولهما ان مشروع الدولة اليهودية سيظل حاماً الى ان ترعاه دولة كبرى ، وثانيهما تعيين البلد الذي تؤسس فيه هذه الدولة . لم يحدد هيرتزل بلداً معيناً ، فالمهم لديه انما كان وجود الدولة لا موقعها الجغرافي ، ولكن مونتاج أصرّ على فلسطين ، وفكر في فلسطين أكبر من فلسطين القديمة .

الفصل الثالث

أول راع فكر هيرتزل في اختياره هو السلطان العثماني الذي كان يسيطر على البلد الذي أراده الصهيونيون . عرض عليه ما اعتبره صفقة ملائمة وهي ان اليهود سيصبحون ، مقابل فلسطين ، حلفاءه ، وكحلفاء سيقدمون له العون في ثلاثة مجالات : الماليون اليهود كسير صمويل مونتاج يساعدون بالمال . لقد وحدت ديون الامبراطورية العثمانية في ١٨٨١ بمبلغ ١٠٦ ملايين جنيه ، ووضعت ادارتها في أيدي هيئة تمثل الدائنين الذين احتكروا الملح والتبغ في الامبراطورية ، واليهود هم الوحيدون القادرون على تحرير السلطان من هذا الوضع المهين . ثم ان الصحافة اليهودية ستحسن سمعة العثمانيين التي شوّهتها القضية الأرمنية والصراع الطويل في البلقان . واذا استقر في فلسطين المستوطنون اليهود الموالون للسلطان أمكنهم أن يساعدوه في حال الخلاف المحتمل مع العرب .

سارت الأمور في القسطنطينية على عكس ما يشتهي هيرتزل . أقام فيهـا اسبوعين حصل له نفلنسكي خلالهما على وسام عثماني لا أكثر . كان السلطان متعباً دبلوماسياً فلم يقابله ، وفي اليوم الثالث جاءه نفلنسكي برد عبد الحميد على مشروعه : « اذا كان الهر هيرتزل صديقك بقدر ما أنت صديقي فانصحه ألاّ يتقدم خطوة واحدة أخرى في هذا الشأن . لا أستطيع أن أبيع قدماً واحدة من البلد لأنه ليس ملكي بل ملك شعبي . لقد ربح هذه الامبراطورية وغذاها بدمه ، وسنغطيها مرة أخرى بدمنا قبل أن نسمح بتمزيقها . اثنتان من فرقي جاءتا من سوريا وفلسطين قتلتا في « بليفنا » حتى آخر رجل . لم يخضع رجالهما ، بل سقطوا جميعاً في الميدان صرعى . ان الشعب التركي هو مالك هذه الامبراطورية لا أنا . لا أستطيع التخلي عن اي جزء منها . يستطيع اليهود أن يوفروا ملايينهم . حين تقسم الامبراطورية قد يأخذون فلسطين مقابل لا شيء . لكن لن تقسم إلاّ جثتنا لأنني لن اسمح أبداً بتشريحنا أحياء » .

أدهش نفلنسكي هدوء هيرتزل وهو يستمع الى ردّ السلطان . ادعى هيرتزل انه « تأثر بكلمات السلطان السامية حقاً . ان هناك جمالاً مفجعاً في هذا الايمان بالقدر الذي يتوقع الموت وتقطيع الأوصال ومع ذلك يحارب حتى آخر نفس » . على ان هدوءه قد يفسر بتقديره لقوة الامبراطورية العثمانية ، فقد كانت أضعف

من عزم اليهود على أخذ فلسطين . ومع أن هيرتزل عاد الى القسطنطينية إلاّ أنه أخذ الآن يتصور تماماً ما تكهن به عبد الحميد : ان تملك فلسطين يتمّ عن طريق انهيار الامبراطورية العثمانية وتقطيع أوصالها .

ان فلسطين — وقد عنت الكلمة في الأصل « أرض الفلسطينيين » — منطقة ذات قوة عاطفية هائلة . انها بالنسبة الى اليهود الذين في الشتات ، وخصوصاً من كان منهم في روسيا ، أرض اسرائيل . كلما زاد اضطهادهم زاد تعلقهم بذكرى دولتهم الزائلة القصيرة الأجل فيها . ولا يعني هذا ان اليهود لم يكونوا يعودون الى فلسطين عبر العصور ، أو أن بعضهم لم يكن يحلم بعودة جماعية ، ولكن محبـة اليهود الروس لصهيون كانت على أشدها ، وهم الذين أسسوا منظمة « أحباء صهيون » . وقد نشرت جماعة في القسطنطينية في سنة ١٨٨٢ بياناً دعت فيه الى تأسيس وطن قومي يهودي في فلسطين ، بمنحة من السلطان ، يكون مستقلاً تماماً إلاّ في الشؤون الخارجية .

ثم ان فلسطين مهمة في نظر المسلمين ومقدسة . ذلك بأن القدس بلد الاسراء وثالث الحرمين الشريفين ، وقد كانت قبلة المسلمين الأولى في صلاتهم قبل فتح مكة ، وبقيت محجاً مهماً للمسلمين . هذا ويعترف المسلمون بقداسة الأماكن الدينية المسيحية واليهودية في القدس لأنهم يعدون المسيحيين واليهود من أهل الكتاب .

ان فلسطين ، حيث أمضى المسيح حياته ، كانت دوماً مصدر سحر وفتنـة للمسيحيين على الرغم من ان القدس تأتي ، كمركز ديني ، بعد انطاكيا والاسكندرية وروما . وحين اعتنق الامبراطور قسطنطين المسيحية اصبحت القدس مركزاً مسيحياً رئيساً وان كان الامبراطور جوليان الجاحد قد حاول اعادة الوثنية واليهودية اليها كحاجزين في وجه المسيحيين الذين كان يكرههم . ثم حين احتل العرب المسلمون القدس في سنة ٦٣٨ ، لم يعد المسيحيون حكامها ، ولكنهم استمروا في ظل الخلافة يتمتعون بحرية دينية تامة ، فكانت القدس خلال العصور الوسطى أقوى جاذب للحجاج من الغرب الذين وجدوا في زيارة الأماكن المرتبطة بحياة المسيح هرباً من السجن في اوروبا المعزولة بالإضافة الى الواجب الديني . كان الاشراف على الاماكن الدينية المسيحية في القدس في يد الكنيسة اللاتينية منذ ايام شارلمان الى أن جاء الحاكم بأمر الله الفاطمي فنقله الى الكنيسة الارثوذكسية ، فأخذ الحج الأوروبي الى القدس طريقة اخرى هي الحروب الصليبية التي حكم الصليبيون في أوجها من لبنان الى حدود مصر .

كان الرومان الكاثوليك في القرن التاسع عشر يحجون الى مزارات أخرى مثل « لوردز » المرتبطة بظهور العذراء مريم . اما البروتستنت فإن ارتباطهم الشديد

بالتوراة جعلهم يقتنعون بارتباط فلسطين بتاريخ اليهود الذي كانت ذروته موت يسوع وقيامته . كتب القس جورج كرولي البروتستنتي في سنة ١٨٤٢ تعليقاً على مجلدي رسوم ديفيد روبرتس للأرض المقدسة مجّد فيه تاريخ اليهود وجعله أعظم تاريخ في العالم ، ثم عاد فقال ان خراب الهيكل دليل على ان اليهود برفضهم يسوع ولداً لله قد حققوا النبوءة القاسية التي تنبأها المسيح لهم . ففي سنة ٧١ م . احتلت كتائب تيتوس القدس ، واحرقت وقتلت مليوناً ومائـة ألف يهودي ، وأخذت ستة وتسعين ألفاً منهم أسرى . وأخذ كرولي ، كالبروتستنت الآخرين ، يتساءل : هل عودة اليهود من الأسر البابلي قد حققت نبوءات العودة أم هناك عودة ثانية تسبق ظهور المسيح ؟ وهناك قس آخر هو ج . فيسك الذي زار بيت لحم والناصرة ، ووصف ما شاهده بلهجة حزينة ، قال : « من أعلى قمة في الجبال ، وبينما نجتاز ممراً لولبياً ينفتح على الغرب ، ظهر أمامنا منظر رائع ... رأينا تحتنا مباشرة سهلاً ممتداً متموجاً ملآن بالقرى وكروم الزيتون يجري فيه نهر جميل صاف » .

زارت فلسطين بعثة أميركية يرئسها و . ف . لينش الملازم في اسطول الولايات المتحدة لتطوف حول البحر الميت وتكتشفه . أحضر لينش معه فريقاً من الشباب الأقوياء الذين تعهدوا له ألاّ يشربوا الخمرة في فلسطين ، وعدداً من القوارب والمعدات نقلت عبر جبال الجليل الى وادي الأردن .

استغرقت رحلة لينش عشرة أشهر ، من فبراير ١٨٤٨ الى ديسمبر من السنة نفسها . وقد روى لنا ما شاهده في فلسطين فكانت تختلف عن رواية كرولي اوفيسك الرومانسية الدينية . لم يعجب لينش بالأكثرية العربية التي تسكن الأرض المقدسة ولا بالأقلية اليهودية . قال عن يهود طبريا انهم قذرون في ملبسهم ومسكنهم ، ولكنه اعترف للعرب بفضيلة واحدة وهي امتناعهم من تعاطي المسكرات ، وقال إنهم أنظف من اليهود .

كذلك كانت وجهة نظره الى « العودة » تختلف عن وجهة نظر كرولي . ذلك بأن رأيه في العبرانيين القدامى لم يكن أفضل من رأيه في يهود طبريا ، بل كان أشدّ قسوة من رأي ذلك الانجليزي الذي قال : « ان الاسرائيليين في عهـد القضاة والأنبياء والملوك دفعوا بتقلبات مذهلة إلى مشهد عنيف توج غدرهم بعمل وحشي جعل جرائمهم السابقة تبدو تافهة كبصيص شعلة أرضية أمام نار الجحيم المتوهجة ، واهتزت الطبيعة وهي تنظر الى قتلة الإله وقد تلطخت أيديهم بالدم الذي وجب أن يعبدوه » . أما أسبابه للرغبة في عودة اليهود فتختلف عن اسباب هيرتزل . لاحظ تكهن حزقيال بأن مصر لن تخضع لسلطة محلية ، ورأى ان تاريخ مصر حتى عهد محمد علي باشا قد أثبت صحة ذلك التكهن ، ولذلك فإن نبوءة ظهور المسيح بعد

عـودة اليهود ستتحقق . ثم ان رأيـه في حكم العثمانيين لم يكن حسناً . قال ان امبراطوريتهم التي جثمت على صدر الشرق كالكابوس قروناً طويلة سوف تتفسخ ، وان تحطيم تلك الامبراطورية سيضمن عودة اليهود الى فلسطين .

واضح أن لينش شاب متشبث بآرائه التي تقوم على تجربة محدودة ولا تستند الى أدلة ثابتة . ان الرجال الذين تركت قراراتهم أكبر الأثر في الأرض المقدسة ، وفرضوا عليها مصيراً عنيفاً خلافاً لرؤيا ديفيد روبرتس ورجال الدين الذين زاروا فلسطين ، أمضوا في فلسطين وقتاً أقل كثيراً من الملازم لينش ، وبعضهم لم يزرها أبداً . لكن هيرتزل أقام فيها تسعة أيام ، من ٢٦ اكتوبر الى ٤ نوفمبر ١٨٩٨ .

الفصل الرابع

قفز هيرتزل من السفينة الى شاطىء يافا ، وعلى رأسه خوذة من فلين ، مستعداً لمناشدة القيصر الألماني شخصياً .

خلال الرحلة من القسطنطينية الى يافا عن طريق اليونان ومصر لم يكتب شيئاً بل ترك لثلاثة من الكتاب الفرنسيين كانوا معه على ظهر السفينة انيكتبوا انطباعاتهم عن هذه الرحلة . لم يلائمه الحرّ ، وفي هذا الوقت من السنة تشتد الرطوبة في شرقي البحر المتوسط وتمتصها جبال لبنان وفلسطين .

لكن الاسكندرية التي أعيد بناؤها بارشاد البريطانيين أعجبته ، فقد اظهرت له كما كتب فيما بعد « كيف تستطيع الإدارة الأوروبية البارعة أن تجعل من أكثر الأجواء حراً مدينة مريحة صالحة للسكن » . على انه لم يقم في الاسكندرية سوى فترة قصيرة ، ولم يختبر ريح الشمال التي تسود المدينة والتي جعلت غيره من النقاد يحكمون على أن جوها مبهج . وقد لمح قناة السويس في بور سعيد فأعجبته أكثر من خرائب الأكروبولس في أثينا .

ركب من الاسكندرية باخرة صغيرة سارت حيال الشاطىء الى يافا ، وأمضى الرحلة في غرفة مع أربعة من الصهيونيين . خشي أن يمنعه الشرطة العثمانيون من دخول يافا ، فأبرق الى القيصر محتجاً ، ولم يكن هناك داع لذلك لأن المسؤولين الذين كانوا ينتظرون على الرصيف وصول القيصر والقيصرة ساعدوه في قسم الجمارك .

كانت مدينة يافا العربية متحمسة . اطلقت المدافع ترحيباً بالعاهل الأوروبي الوحيد الذي كانت سياسته المحافظة على الامبراطورية الاسلامية لا تحطيمها . كان الناس متحمسين ، مستطلعين ، متخوفين . جاء القيصر في الظاهر لتكريس كنيسة بروتستنتية جديدة في القدس . ان العرب حساسون فيما يتعلق بالدوافع الخفية حتى لو لم يكن لها وجود ، وقد شعروا الآن بحق ان الحاكم الألماني إنما جاء لأسباب سياسية . لقد أيّد السلطان في متاعبه في كريت قبل عامين وحضر لأخذ المكافأة ، اراد ان يكون لألمانيا حق في الشرق الأوسط . ان الترحيب الفريد الذي قوبل به في القسطنطينية أبهجه كثيراً فقبّل وجنة السلطان الذي كان راضياً ومذهولاً في آن واحد .

ان هيرتزل ، كالقيصر ، لم يحضر الى فلسطين لأسباب سياحية ، لزيارة الآثار القديمة ورؤية الأهالي (الذين كان عددهم نصف مليون ، او نحو سكان قبرص في سنة ١٩٧٠ ، معظمهم من العرب المسلمين) ، وانما حضر لمهمة مستعجلة .

اراد ان يزور « ميكفا اسرائيل » ، أول مدرسة زراعية انشئت بأموال روتشيلد ، ومستعمرة ريشون زيون (عيون قارة) ، فقد كان في فلسطين ثماني عشرة مستعمرة زراعية يسكنها نحو ٤٥٠٠ يهودي ، ولكنه لم يجد عربة تنقله إليهما . كان مستعداً على الرغم من الحرّ الشديد ان يذهب على ظهر جواد ، ولكن طبيباً روسياً صهيونياً قدم له العربة اللازمة لذلك .

شاهد على مدخل ميكفا اسرائيل لافتات ترحب بالقيصر فظن ذلك من صنع العرب ، لكنه وجد مثل ذلك في قرية ريشون زيون ، فقد كانت فرقتها الموسيقية تعزف مرحبة بالقيصر . وجد وجوه اهل المستعمرة شاحبة ، والعمال اليوميين نائمين على ألواح خشبية ، وحين سأل الطبيب عن سبب ذلك أجاب بأنها الحمّى ! المستوطنون جميعاً يعانون الحمّى ، ولن تصبح المنطقة صالحة للسكن إلاّ اذا أزيلت المستنقعات بعمليات واسعة لتصريف مياهها ، فدون هيرتزل في مفكرته : « هذا هو رأيي أيضاً وما أنويه . سيكلف الملايين ولكنه سيخلق الملايين من ثروة جديدة . ان العرب الذين لديهم مناعة من الحمى قد يؤدون العمل » .

سبب يهود فلسطين كآبة لهيرتزل . كان معظمهم من السفارديم ، نسل اليهود الذين طردهم الملوك الكاثوليك من إسبانيا فلجأوا الى بلاد الإسلام . ومع ان القليلين منهم أخذوا الجنسية العثمانية الاّ انهم اندمجوا جميعاً تقريباً في السكان الاصليين .

قال أحد جيرانهم العرب : « مهما كان أصل جميع هؤلاء اليهود فقد كانوا يتكلمون العربية ، ويأكلون الأطعمة العربية (ما عدا اللحم لأنه ليس كوشر) ، ويسرون بالموسيقى العربية ، ويلبسون الملابس العربية ، ما عدا فئة قليلة من الاشكيناز الذين جاءوا من أواسط اوروبا في القرن التاسع عشر وكان معظمهم يرتدي قفطاناً ، ويضع على رأسه قلنسوة ، ويرسل شعره ضفائر طويلة » . كان اليهود مقبولين لدى العرب الذين ينتسبون الى مجتمع مرتبط بالدين ، فلم يدهشهم ان تحلق اليهودية المتزوجة شعر رأسها وتستعمل شعراً مستعاراً ، ولا ان يلبس اليهودي ضفائر الصلاة ، ولكن هذه الأشياء كانت منفرة في نظر الأوروبي التقدمي .

كتب احد المعاصرين في « رحلة الى فلسطين » يصف يهود القدس بأنهم « ربما كانوا أتعس أصناف البشر ، ينشأون في حالة من الجهل والبؤس يثير قبحها وحرمانها اعمق الاشمئزاز ، لا يمكن الاّ أن يصاب المرء بالهلع وهو يجتاز الحي الذي يعيشون فيه وسط الوحل والقذر والرذيلة والفاقة » . لذلك لم يعجب هيرتزل

وضع القدس ، وقد وضع في مفكرته مشروعاً لاعادة بنائها وتنظيمها إذا أصبحت القدس يوماً لهم .

قطع هيرتزل هذه المسافة ليقابل القيصر في مهمة رسمية . لقد اصبحت الصهيونية قوة بعد نشر كتاب « دولة اليهود » ، وعقد في بازل سنة ١٨٩٧ اول مؤتمر صهيوني نظم الحركة ، ثم عقد المؤتمر الثاني سنة ١٨٩٨ فأسس الأمانة الاستعمارية والصندوق الوطني لشراء الأرض في فلسطين .

بيد ان القضية كلها كانت متوقفة على ايجاد راع تيوتوني . وقد اعجب هيرتزل بالراعي الألماني لثلاثة اسباب : الأول ثقافي ، فقد نشأ هيرتزل كمعظم الصهيونيين الغربيين على الثقافة الألمانية . لفت الى ذلك نظر فيليب تزويولنبرج ، صديق القيصر وسفير المانيا في فيينا ، بقوله : « ان اكثرية يهود اليوم جزء من العالم الثقافي الألماني . لا أقول هذا لأني في سفارة ألمانية بل لأنه صحيح ، والدليل أن لغة مؤتمر بازل الرسمية كانت الألمانية » . والسبب الثاني سياسي ، لأن ألمانيا هي الدولة الأوروبية التي يثق بها العثمانيون ، واذا كان هناك من يستطيع ان يقنع السلطان العثماني فهو القيصر الألماني . أما السبب الثالث فربما كان أقوى الأسباب الثلاثة . ذلك بأن هيرتزل كان مفتوناً بشخصية القيصر ، يظن انه ككاتب روائي يفهم الرجل وراء لباسه الرسمي المزوق وخطاباته الطنانة . ثم ان في اعماق القيصر جرحاً خفياً ، كالذي في اعماق هيرتزل ، ناشئاً عن الشلل في ذراعه الأيسر . يضاف الى هذا ان هيرتزل كان يعتقد ان عبقرية القيصر تشبه عبقريته ، وان كلاً من القيصر والصهيوني يحب الخيارات المثيرة ، والشعارات الرائعة ، والعجائب الهندسية ، فاذا كان هناك حاكم يستجيب له فهو حفيد الملكة فكتوريا الألمعي .

اتصل هيرتزل بالسلطات الألمانية حالما اقترحت زيارة القيصر للأرض المقدسة ونشرت في الصحف اليهودية مقالات تدعو الى تأسيس مستعمرة يهودية في الشرق الأوسط تحت الرعاية الألمانية ، ارسلت نسخ منها الى الحكومة الألمانية والى القيصر .

ساعد هيرتزل اثنان من الحلفاء الألمان ، اولهما غراندوق بادن . قال له هيرتزل : « نحتاج الى حام ، والحماية الألمانية يرحب بها أكثر من غيرها » . والثاني هو السفير يولنبرج . قال له : « إن حركتنا موجودة ، واني لأتوقع أن تؤيدها احدى الدول الكبرى . فكرت أولاً في انجلترا ، وذلك أمر طبيعي ، ولكنني أكون أكثر سروراً لو كانت ألمانيا » .

كان الرجلان من أصحاب النفوذ . فالغراندوق قريب القيصر ، بينما يولنبرج يعرف جميع المسؤولين الألمان ، فقد رتب لهيرتزل في اواخر سبتمبر مقابلة مع فون بولو ، وزير الخارجية . احرج هيرتزل بمقابلة وزير الخارجية ، وما دار بينهما

كان حديثاً عادياً أكثر منه بحثاً جاداً ، ولكنه ذكر ناحية في الصهيونية قد تسرّ فون بولو المحافظ وهي الناحية المضادة للاشتراكية . حاول أن يبرهن بصورة فيها من الوقاحة أكثر من الحقيقة وهي ان مصر التي استعبدت اليهود كانت دولة اشتراكية . وقال : « ان وصايا موسى العشر خلقت مجتمعاً فردياً » .

قابل فون بولو هيرتزل مرة أخرى ، وقد تمت المقابلة هذه المرة في برلين ، وحضرها المستشار الألماني الأمير هوهنلو . كان الجوّ قد تغير . شعر هيرتزل ، من اسئلة المستشار ، أنه ضد السامية . سأل : « هل سيترك يهود برلين الأغنياء البورصة ويتبعوه ؟ كم من أرض السلطان يريد ؟ حتى بيروت في الشمال أم أبعد من ذلك ؟ » اجاب هيرتزل : « سنطلب ما نحتاج اليه . كلما زاد المهاجرون زاد طلب الأرض . طبعاً ستحترم حقوق الملكية الخاصة ، وستشترى الأرض من أصحابها الحاليين » .

— « من أولئك ؟ »

— « العرب ، اليونان ، خليط كبير من الشرق » .

حاول هيرتزل المراوغة حين سأله المستشار عن موقف السلطان ، وأنكر فون بولو ان يكون السفير الألماني في القسطنطينية قد ذكر أن الموقف العثماني ملائم . واخيراً اتفق على ان يقدم هيرتزل مذكرة في القسطنطينية ، ولكن برود فون بولو أفسد تفاؤله .

حصل هيرتزل في القسطنطينية على موعد لمقابلة القيصر سراً ، وكان هذا الأخير مقيماً في يلدز . وقد ارتفعت معنويات هيرتزل حين وافق القيصر على مقابلته في فلسطين على رأس وفد صهيوني رسمي ، فاشترى في الحال تذكرة سفر الى الاسكندرية على ظهر الباخرة الروسية « الامبراطور نيقولا الثاني » . لا بدّ ان يعلن القيصر شيئاً لمصلحة الصهيونية . عرف هيرتزل ما يقدمه له مقابل ذلك : لن يلوح له بالمعونة المالية كما لوّح للسلطان ، بل بشيء يلائم ذوق امبراطور حاسد لبريطانيا . ان نواة من اليهود الذين يتكلمون الألمانية ستقوى نفوذ ألمانيا في الشرق الأوسط ، وستكون ايضاً حاجزاً في وجه الجموع الآسيوية التي كان القيصر (مخترع عبارة « الخطر الأصفر ») يخشاها كثيراً .

وصل هيرتزل والقيصر الى فلسطين .

وكان القيصر سيمر في طريقه في الصباح الباكر على ميكفا اسرائيل ، فوصلها هيرتزل في زيارته الثانية لها بعد شروق الشمس مباشرة .

احتشد العرب على الطريق . أرادوا أن يشاهدوا ويرحبوا بالزائر المسيحي ، بالأوروبي الذي قبل سلطانهم ، بالإنسان الذي أحس السلطان نحوه بشيء من تلك

الصداقة الممكنة بين الأسواء فقط . واذ اقترب الركب لمح القيصر الرجل الذي زاره في يلدز متكئاً على محراث رمـزي ، وبعـد ان انشد أطفال القرية النشيد الامبراطوري ، أوقف جواده ، ومال عن السرج ، وجرى بينهما الحديث التالي :

– كيف وجد صاحب الجلالة الرحلة ؟

– شاقة ! لكن للبلد مستقبل !

– انه لا يزال مريضاً .

– يحتاج الى ري فقط .

– لكن على نطاق واسع .

– للبلد مستقبل !

قال القيصر ذلك وسار مسرعاً .

ظن هيرتزل أنه فهم ما يعنيه القيصر ، وان في كلامه ما يبشر بلقاء رسمي . وقد تم اللقاء فعلاً في ٢ نوفمبر في خيمة القيصر الذي كان قد دخل المدينة المقدسة رسمياً من باب فتح في سور القدس القديم له خاصة ، وأعلن نفسه نصير الإسلام .

كان القيصر يضع على رأسه عمامة ويبدو مرحاً . صافح هيرتزل ولكن المقابلة كانت قصيرة . قال هيرتزل ان فلسطين هي البلد الذي عاش فيه اليهود في الماضي وانها في وضعها الحاضر صالحة للاستعمار ، فرد القيصر قائلاً ان الأرض بحاجة الى الماء والظل . « ان المستوطنات التي رأيتها ، والألمانية منها لا تقل عن اليهودية ، تصلح مثلاً لما يمكن عمله في الأرض . هناك متسع للجميع ، لكن لا بد من توفير الماء والظل . قد يكون الإستعمار بالنسبة الى الأهالي ايضاً مثلاً يحتذى » .

لم تكن لدى القيصر اعتراضات على الاستعمار ما دام على هذه الصورة . وحين قال « هناك متسع للجميع » إنما عنى للألمان واليهود والسكان الاصليين . فقد كان جزءاً من خطته الخاصة العظيمة ان يجعل الامبراطورية العثمانية لألمانيا ما يعادل الهند لبريطانيا . لقد زاد عدد سكان ألمانيا ثمانية عشر مليوناً منذ الحرب مع فرنسا ، وآلاتها الصناعية التي تنمو بسرعة بحاجة الى المواد الخام ، وقد سبق ان حصلت على امتيازات لمدّ خطوط حديدية في الامبراطورية العثمانية ، وستحصل على فوائد أخرى كصديقة للسلطان لا متنمرة عليه . يضاف الى هذا ان القيصر كان حذراً في هذه المقابلة ، فقد أوضحوا له في القسطنطينية ان الأرض المقدسة لن تعطى لليهود طوعاً . يستطيع اليهود ان يعيشوا فيها ، وان يتعبدوا ، لكن لا أمل لهم في استعمارها أو حكمها .

فسّر هيرتزل البرود الذي قابل به القيصر مقترحاته على اساس المصالـح الألمانية ، واذ لم يحصل على بيان عام بتأييده ترك فلسطين على ظهر سفينة بريطانية

تشحن البرتقال من البيارات العربية ، ووصل نابولي سالماً . قرأ في نابولي البلاغ الرسمي الخاص بالزيارة الامبراطورية ، وقد جاء فيه ان وفداً يمثل المستعمرات اليهودية في فلسطين زاره ، وقد ردّ القيصر على رئيس الوفد بقوله انه ينظر باهتمام الى الجهود التي تبذل لتحسين الزراعة في فلسطين ما دامت تلائم مصلحة الامبراطورية التركية وتدار بروح الاحترام التام لسيادة السلطان .

أما وقد خاب أمل هيرتزل فقد راح يبحث عن راع أكثر صراحة أو أقل تردداً .

الفصل الخامس

كانت بريطانيا ، أول راع فكر هيرتزل في اختياره ، أكثر من يربح مــن جنازة تركية ، وكانت ايضاً أول من عبث بالادعاءات الصهيونية . ومع ان سيطرة بريطانيا على مصر جعلت حسابات بالمرستون غير صحيحة ، إلاّ أن ظروف القرن العشرين قد تكسب الفكرة دافعاً جديداً . ان فلسطين تحمي الناحية الشرقية من القناة التي عارضها بالمرستون ثم أصبحت شريان الامبراطورية البريطانية . لذلك فإن فلسطين يهودية معتمدة على بريطانيا تكون قوة موازنة لأطماع فرنسا وروسيا اللتين لهما عملاء في شرقي المتوسط . فقد وضعت روسيا الأرثوذكس تحت رعايتها ، بينما أظهرت فرنسا منذ أيام لويس الرابع عشر اهتماماً بموارنة جبل لبنان . أما بريطانيا فقد افتقرت الى أقلية عميلة ولكن كانت لها في مصر أسرة مالكة عميلة .

ان التدخل الألماني الناجح في الشرق الأوسط قد يدفع بريطانيا الى هجوم معاكس . فاذا سيطر النفوذ الألماني على القسطنطينية أصبحت لبريطانيا مصلحة واضحة في القضاء على الامبراطورية التي أبقتها حية زمناً طويلاً ، ولكن موت الامبراطورية كان بطيئاً .

أسرّ هيرتزل ، في آخر صيف في القرن ، الى صراف في همبورغ يدعى غوستاف كوهن بأنه يفكر كثيراً في قبرص . لم يزر هيرتزل الجزيرة التي ولدت فيها أفروديت ابداً ، ولا كان جاداً في اعتبارها بديلاً من فلسطين ، لكنها قد تفيد كنقطة انطلاق لغزو الأرض المقدسة ، وربما كمستعمرة إضافية .

أثار هيرتزل قضية قبرص أمام جوزيف تشمبرلين ، وزير المستعمرات ، حين استقبله ساعة في اكتوبر ١٩٠٢ . حدثت أمور كثيرة لهيرتزل واصدقائه منذ الأيام التسعة التي أمضاها في فلسطين . مات فيليب نفلنسكي بالسكتة القلبية في القسطنطينية ، فأزعج هيرتزل موته ، ولام نفسه في اعتماده على رجل مريض ، وذكره ذلك مصيره الخاص فقد كان قلبه يسبب له المتاعب ايضاً . ولكن نفلنسكي رتب له مقابلة مع السلطان ، قبل موته ، كصحافي مشهور لا كزعيم سياسي . على ان المقابلة لم تكن ذات فائدة عملية . منحه السلطان وساماً آخر ، وتحدث عن الثروة الكامنة في امبراطوريته ، وذكر البرقية التي جاءته من بغداد تعلن اكتشاف حقول بترول في العراق أغنى من حقول روسيا ، وأظهر حماسة لإدخال الكهرباء

الى يلدز . كان هيرتزل مستاءً لأن الوسام من الدرجة الثانية . تحدث هو الآخر عن اليهود وعما يمكن ان يفعلوه للبلد وللعاصمة ، ولكن لم يتم التوصل الى اتفاق ، فما زالت فلسطين ليست للبيع .

كان تشمبرلين رجلاً قوياً اذا ما قوبل بالسلطان الضعيف ، شبيهاً بمصنوعات بيرمنجهام مصدر ثروة الأسرة . نظر هيرتزل الى العملاق غير المثقف الجالس أمامه نظرة فنان ووصفه بقوله : « لا يعطي تشمبرلين انطباعاً بأي ألمعية . ليس رجل خيال ، بل صانع يريد توسيع عمله . له عقل بلا نزعة أدبية أو فنية . إنــه رجل اعمال ، ولكنه واضح تماماً وتفكيره صاف » . بيد أن تشمبرلين كان متعصباً . مثل ذلك احتقاره الشرقيين ومن ضمنهم اليهود . قال مرة لسياسي ايطالي : « هناك في الواقع عنصر واحد أزدريه — اليهود ! إنهم جبناء بطبيعتهم » .

وصف هيرتزل مفاوضاته مع السلطان عبد الحميد : « تعرف المفاوضات التركية . إذا أردت شراء سجادة عليك أولاً ان تشرب ستة فناجين قهوة ، وأن تدخن مائة سيجارة ، وتروي قصصاً عائلية ، وتورد من وقت الى آخر كلمات قليلة عن السجادة » .

سرّ تشمبرلين بطريقته في الحديث ، وضحك ، فأسرع هيرتزل الى وصف السجادة التي يريدها منه : « عينت المنطقة التي أرغب في الحصول عليها مــن انجلترا : قبرص والعريش وشبه جزيرة سيناء » .

اذهل تشمبرلين عدم مبالاة هيرتزل بالالتزامات القانونية المتشابكة في الشرق الأوسط . ان مصر جزء من الامبراطورية العثمانية وان كانت تحت سيطرة بريطانيا ولذلك فالعريش وسيناء من اختصاص وزارة الخارجية . أما قبرص فشيء آخر ، ويستطيع التحدث في شأنها ، ولكن لا سبيل اليها ايضاً لأن طائفتين دينيتين تسكنانها ، الأولى يونانية مسيحية تؤيدها اليونان وروسيا ، والثانية تركية مسلمة يؤيدها السلطان . ولو لمح الى ان الحكومة البريطانية تفكر في صفقة كهذه لحدثت صرخة عامة !

قال هيرتزل انه لا ضرورة لاطلاع الجمهور على كل شيء في السياسة ما عدا النتائج أو ما كان له فائدة في الجدل . وقال أيضاً انه اعدّ لذلك خطة وهي تهيئة الجوّ في قبرص لتأييد الهجرة اليهودية وذلك بإرسال مبعوثين سريين إليها ، وتأسيس شركة يهودية شرقية برأس مال قدره خمسة ملايين جنيه للاستيطان في العريش وسيناء ، فاذا رأى القبارصة ذلك تاقوا الى تحويل بعض ذلك الذهب الى جزيرتهم . سيترك المسلمون الجزيرة ، اما اليونان فسيسرهم ان يبيعوا أرضهم بسعر عال ويرحلوا الى اثينا أو كريت .

ابتسم تشمبرلين ، وربما كانت ابتسامته ساخرة . وجد في الأمر تناقضاً .

كان هيرتزل يحتج بأن قومه اليهود حرموا الأرض ألف عام ، ويريد الآن أن يتنازل القرويون القبارصة عن أرضهم لقاء المال . انفجر كرهه الكامن لليهود بطريقة أخرى . قال لهيرتزل انه لا أحد يودّ اليهود أكثر منه ، ولكنه يخشى في الوقت نفسه ان تنتقل الى انجلترا عدوى اللاسامية التي لا وجود لها الآن اذا ما استمر تدفق اليهود إليها .

تناول تشمبرلين الأطلس ليتبين بدقة موقع العريش ، وفتح الصفحة التي فيها خريطة مصر وقال : « ستجدون في مصر متاعب مع الأهالي كما في قبرص » . فرد عليه هيرتزل : « لا نريد مصر ، كنا فيها من قبل » . ثم راح يشرح له انهم يريدون مركزاً قريباً من فلسطين يتجمع فيه اليهود ، وان سيناء خاوية ، فاذا اعطتهم انجلترا اياها زادت بذلك قوة واكتسبت شكر عشرة ملايين يهودي . ثم سأله : « هل توافق على تأسيس مستعمرة يهودية في سينا » ؟ أجاب تشمبرلين بسرعة : « نعم ، شرط ألاّ يعترض لورد كرومر ! » .

مرة أخرى اشترى هيرتزل بطاقة سفر بالباخرة وذهب الى القاهرة .

خلال العشرين سنة التي مضت على ثورة عرابي كانت مصر ساكنة ، وادعى حماتها ان الحماية المقنعة كانت الأكثر فائدة في التاريخ : فالمالية والري والعدل والتربية حتى جيش عرابي المنهزم اعيد تشكيلها بالارشاد البريطاني واعتدلت الميزانية المصرية ، اذ اصبحت مصر مزرعة قطن لمصانع لانكشير ، ولكن لم يكن هناك تعليم عال . قبل زيارة هيرتزل بخمس سنين اعيد فتح السودان بعد هزيمة الخليفة ، ومدّ كتشنر سكة حديد من وادي حلفا الى الجنوب. واحضر قوارب كبيرة مسلحة بمدافع مكسيم تسيطر على ضفتي النيل ، فأصبح السودان تحت الحكم الثنائي الأنجلو-مصري ، يقوم فيه الموظفون المصريون بالأعمال البسيطة كجمع الضرائب ، وينفرد الأسياد البريطانيون باتخاذ القرارات وادارة الشؤون العدليـــة .

كانت مصر مستقرة الى حد ان اعيد عرابي من منفاه في سيلان . وقد اظهر القائد المنهزم احتراماً للخديوي الجديد عباس الثاني بن عدوه توفيق ، وأقرّ كثيراً من الاصلاحات الانجليزية .

أصيب هيرتزل في مصر بخيبة أمل مؤلمة ، فكتب في مفكرته وهو عائد منها الى فيينا يائساً : « حسبت أن مسألة سيناء مؤكدة الى حد انني لم أشتر قبراً للأسرة في مقبرة دوبلنجر حيث دفن والدي موقتاً . والآن اعتبرت الأمر منتهياً ، وذهبت الى محكمة المقاطعة فحصلت على القبر رقم ٢٨ » .

يستطيع ان يتصور ما جرى في مصر كل من كان أقلّ تفاؤلاً ، ولكن هيرتزل

كان سريعاً الى تصديق الوعود الغامضة سرعته في انتظار تصديق الناس لوعوده .

لقد فشل مشروع مستعمرة يهودية في سيناء لأسباب اقتصادية وسياسية . امـــا السبب الاقتصادي فهو ان سيناء لا تصلح لمستعمرة واسعة نظراً الى ندرة المياه فيها ، وقد تحل هذه المشكلة بشق قناة من النيل إليها وفي ذلك خسارة لن تتحملها مصر . وأما الأسباب السياسية فبعضها يرجع الى قضية السيادة على مصر ، والبعض الآخر الى القومية المصرية . كانت مصر لا تزال قانونياً ولاية عثمانية ، وفصل جزء حساس من هذه الولاية قريب من حدود الامبراطورية العثمانية لمصلحة اليهود خارج عن حقوق الخديوي القانونية وضد مصلحته . ولا بدّ ان يدرك السلطان الخطر الذي رآه تشمبرلين نفسه وهو ان سيناء قد تصبح مسرحاً للمستوطنين اليهود يغيرون منه على فلسطين كغارة جيمسون على جمهورية البوير في الترنسفال .

على ان الأهم من ذلك ان اقتطاع جزء من الأرض المصرية قد يثير الروح القومية المصرية النامية . ان هذه الروح في الجيل السابق أشعلت ثورة عرابي . ومع ان البريطانيين خففوا النار الاّ أنهم لم يطفئوها، وقد كان مريدو محمد عبده والشباب الذين نشأوا تحت التأثير العلماني الفرنسي ينشرون قومية تختلف عن حركة عرابي ، وربما لم تكن ما أراد محمد عبده . فقد اسس في سنة ١٩٠٣ الحزب الوطني الذي بدأ يمثل دوراً فعالاً بين الشباب المصريين . كان قائد الحزب شاباً ألمعياً جذاباً غير مسؤول يدعى مصطفى كامل . اكتسب بوسامته وفتنته اصدقاء في فرنسا حيث درس القانون . كانت لديه موهبة العبارات الرنانة : « ألغيت في هذا البلـــد عبودية الأفراد وحلت محلها عبودية الشعب » . وقد حظيت هذه القومية في القاهرة بشعارها « مصر للمصريين » التأييد المعنوي والمالي من الخديوي الشاب الذي أقنع السلطان بمنح مصطفى كامل الذي ينتمي الى الطبقة الوسطى لقب باشا .

كان عباس (واقوى صفاته الجشع) من الدهاء على جانب جعله يرى إنه يستطيع ان يحكم كخديوي محبوب ان اظهر نفسه مدافعاً عن مصالح المصريين . بهذه الطريقة ، وبشعب متقلب كريم ، يستطيع أن يبيض سجل أبيه توفيق . وكان قد اصطدم مرة مع كتشنر قائد جيوشه المنتصرة ، واذا كان قد غلب على أمره فقد اكتسب منزلة في أعين شعبه .

كان القوميون المصريون ينزعون الى تحويل القومية الأوروبية الى وضع مصري . واذ كانت القومية الغربية تشعر في الغالب انها نضجت حين تحصل على مستعمرة ، لذلك كان القوميون المصريون يفتخرون بأن محمد علي وورثته قـــد جعلوا مصر دولة استعمارية . إنهم يذكرون مع التأييد ان اسماعيل أسس مراكز حراسة مصرية في موانىء البحر الأحمر الصغيرة ، وفي الجنوب حتى البحيرات

الافريقية الكبيرة . ان هؤلاء القوميين سيعتبرون خسارة سيناء المرتبطة بمصر منذ فجر التاريخ إهانة لا تحتمل .

على أن عباس وان كان الخديوي ، الاّ أن السلطة لقبول اقتراحات هيرتزل او رفضها كانت في يد لورد كرومر ، وهو انجليزي في الستين كان تشمبرلين نفسه يذعن لرأيه .

ان افلين بارنج الذي نال بالتتابع عدداً من الألقاب النبيلة (بارون في ١٨٩٢ ، فيكونت في ١٨٩٧ ، وايرل في ١٩٠١) قد ربط اسمه بكرومر ، وهي منتجع في نورث نورفيلك فيه ملعب للجولف ومنحدرات صخرية عالية .

يعدّ افلين بارنج في المجتمعات الأخرى شاذاً غير مقبول ، أما في الامبراطورية البريطانية فقد كان شاذاً مقبولا . نشأ في عائلة تشتغل بالمال كانت قد هاجرت من هولندا في القرن الثامن عشر ، وجاء تربيته غير منسجمة مع مواهبه . دخل مدرسة في كارشلتون تعدّ الأولاد للكلية العسكرية الملكية فساعده ذلك على اكتساب قدرة على ضبط النفس . ثم التحق بالمدفعية الملكية وهو في السابعة عشرة من عمره للقيام بالخدمة العسكرية التي هيأت له فرصاً للسفر الواسع . زار البلقان فأصبح عدواً للاتراك طوال حياته ، كما زار الجزر الأيونية التي كانت بريطانيا تسيطر عليها فأيّد مطالبة أهلها بالاستقلال ، وأيّد أيضاً اميركا الشمالية في الحرب الأهلية . بيد أن تحرريته هذه تحولت فيما بعد فصار يرى في الامبريالية خير سياسة لبريطانيا وللشعوب الخاضعة لها ، في وقت كان الاتجاه في انجلترا ضد حيازة ممتلكات جديدة فيما وراء البحار ، حتى لقد ايّد احتلال مالطة وجمايكا ، واعتقد ان في حكم بريطانيا للزنوج منفعة لهم .

التحق في سنة ١٨٦٨ بكلية الأركان ، وعين في السنة التي افتتحت فيها قناة السويس في دائرة الطوبوغرافيا والاحصاء التابعة لوزارة الحرب ، وقد كانت تلك الدائرة نواة مصلحة الاستخبارات البريطانية . وحين أصبح قريبه لورد نورثبروك نائباً للملك في الهند سنة ١٨٧٢ أخذ بارنج مساعداً له . اكتسب بارنج في الهند شهرة في الشؤون المالية والإدارية فوقع عليه الاختيار في مارس ١٨٧٧ ليكون ممثلاً لبريطانيا في اللجنة المالية التي ألفت لرضع تقرير حول ديون الخديوي ، ولكنه استقال بعد سنتين معللاً استقالته بقوله : « كنت مهتماً بعمل الاصلاح في مصر ، لكن لم تكن لدي رغبة في البقاء مجرد محصل مال لحملة الأسهم . كنت ممثلهم ، أما عواطفي فكانت مع دافعي الضرائب البؤساء الملتصقين بأرضهم بأعباء الضرائب الباهظة اكثر منها مع اولئك الذين كان واجبي القانوني ان أدافع عن مصالحهم » . الأرجح ان بارنج كان يعطف على الفلاحين ، ولكن تبرمه بعمله

انما كان سببه اليأس وافتقاره الى السلطة .

رجع بارنج الى مصر بعد الاحتلال البريطاني بصفة وكيل بريطاني وقنصل عام له في السلك الدبلوماسي رتبة وزير مطلق السلطة ، واصبح منذ ١٨٨٤ مسؤولاً عن اتخاذ جميع القرارات الأساسية المتعلقة بمصر ، وعن اعادة بناء مجتمع مزقه تبذير الخديوي اسماعيل وفشل ثورة عرابي .

وصفته جيرترود بل ، وهي امرأة مثقفة قدر لها ان تمثل دورها الخاص في تاريخ الشرق الأوسط ، بقولها : « لا شك أن لورد كرومر أظرف شخص في العالم ». ان لكلمة « أظرف » هذه دلائل كانت مفهومة في أوج الامبراطورية فقط ، دلائل غريبة عن أوروبا الوسطى وعن تيودور هيرتزل .

كان لكرومر سكرتير شرقي يساعده في عمله اسمه هاري بويل ، وهو مهرج محب للنكتة ، يتقن عدة لغات منها التركية . أما وظيفته في الوكالة البريطانية في القاهرة فكانت بسيطة لكن تخفي وراءها نفوذاً قوياً لا يقل عن نفوذ اللورد نفسه ، وهي نائب قنصل «مصوع» ، الميناء على البحر الأحمر الذي لم يزره بويل أبداً إلاّ بعد احالته على التقاعد .

كان هذان الرجلان الممثلان لمصر البريطانية هما اللذان جاء هيرتزل للتعامل معهما . كلاهما جعل لبريطانيا المكان الأول في كل القرارات ، ولم يؤمن أي منهما بأن المصريين كانوا مستعدين للحكم الذاتي ، ولكن آلام اليهود ومطامعهم لم تعن لهما سوى القليل . واذا صح ان اصل كرومو يهودي فقد أضاف ذلك ميلاً آخر ضد الحركة التي تؤكد الروابط التي أهملها أجداده ونسيتها أسرته . أما هاري بويل فقد شارك اهل طبقته وزمانه عداءهم للسامية . عنف قائد من الشباب الأتراك بويل لأنه كلمه بالتركية قائلاً : « أتظن أنني استطيع أن أفهم لهجتك العامية » ؟ فكان ردّ فعل بويل ، وهو يروي القصة ، « ان والد الرجل كان يهودياً بولونياً » ذلك بأن التركي كان ، في نظر بويل وجيله ، نبيلاً ولو كانت يداه ملطختين بالدماء ، أما اليهودي مهما كان مستقيماً فليس بنبيل .

فشلت زيارة هيرتزل لكرومر وبويل فشلاً ذريعاً . وجد كرومر أسوأ انجليزي قابله في حياته . أما كرومر فلم يشر الى هيرتزل في كتابه « مصر الحديثة » ، وعبثاً يحاول القارىء ان يجد إشارة اليه في سيرة كرومر الي وضعها المركيز زتلاند .

رجع الى لندن والى جوزيف تشمبرلين فوجد لديه خبراً ساراً . بادره وزير المستعمرات بقوله : « رأيت لك بلداً يا دكتور هيرتزل في رحلاتي الأخيرة . انها يوغندا . حارة في الساحل ولكن الجوّ في الداخل ممتاز بالنسبة الى الأوروبيين » . ان المنطقة التي وجدها تشمبرلين يسكنها الزنوج وتكوّن جزءاً من كينيا ، ولكن

مزاج هيرتزل كان لا يسمح له بالانتقاد ، فقد جعلته الخيبة في مصر يتعلق بقشة . ثم انه قد يستطيع الدفاع عن شرق افريقيا كمنطلق الى فلسطين أو على الأقل كملجأ للخلاص .

كان استعداد هيرتزل الواضح لقبول بديل من فلسطين أحد عملين قام بهما في آخر سنة من حياته ، فورطاه في جدل عنيف مع الصهيونيين الآخرين وأثقلا قلبه ، أما العمل الثاني فهو رحلة قام بها الى روسيا لمقابلة « نياشيسلفا بليهفا » ، وزير الداخلية الروسي ، إثر مذبحة كيشينيف في سنة ١٩٠٣ . واذا كان شرطة بليهفا لم ينظموا المذبحة فقد تغاضوا عنها . قوبلت زيارة هيرتزل للوزير اللاسامي بانتقاد عنيف ، ولكن هيرتزل كان يأمل ان يحمل الروس الاحراج الذي سببته لهم المذبحة في العالم على الضغط على السلطان لإعطاء اليهود وطناً . وقد ردّ على ناقديه بأن الروس اللاساميين والصهيونيين قد وصلوا الى نتيجة واحدة من اتجاهين مختلفين . فالروس الحريصون على ولاء عام للقيصر المسيحي وجدوا اليهود عنصراً غير قابل للاستيعاب ، لذلك سيسرّ الفريقين ان يرحل اليهود عن البلد الذي لا يريدهم الى بلد يريدونه . وقد رأى هيرتزل ان ملايين اليهود التعساء في روسيا هم مصدر قوته لا مئات ألوف اليهود المستوعبين في أوروبا الغربية ، لا سيما وان يهود روسيا كانوا يرجون العودة الى فلسطين بأية وسيلة .

على ان يهود روسيا الذين انتظر هيرتزل ان يكونوا مصدر قوة لحركته الصهيونية أصبحوا أعداءه في المؤتمر الذي بحث في قضية يوغندا ، إذ أصروا على أن هدفهم لا بلداً يسكنه الزنوج بل بلد يسكنه العرب .

الفصل السادس

بعد رحلات لا تحصى بالسفينة والقطار توقف قلب هيرتزل المرهق في ٣ يوليو ١٩٠٤ ودفن في مقبرة دوبلنجر الى جانب والده دون أكاليل ولا خطابات تأبين ، على أن تكون إقامة رفاته في أرض النمسا موقتة الى ان ينقلها الشعب اليهودي الى فلسطين .

كان هيرتزل ميتاً أكثر تأثيراً منه حياً . نسي نقاده أو غفروا ما كانوا يكرهون فيه : الاحترام البيزنطي للرتب الدنيوية ، والخضوع للمال والسلطة . أصرّ ذات مرة على تعيين سير فرانسيس مونتفيوري نائب رئيس للمؤتمر الصهيوني ، مع انه لم يكن صهيونياً روسياً عاملاً ، ودافع عن ذلك بقوله ان سير فرانسيس يفتح له الأبواب الملكية وقد بدا ذلك لأحد الصهيونيين تبريراً سنوبياً .

ان الحركة الصهيونية التي تجند مؤيديها من بين خمسة ملايين يهودي تابعين للقيصر الروسي اللاسامي ، قد اعترفت الآن بالرجل الذي بعد ان يئس من الأقوياء والنبلاء تحول أخيراً إليهم . لقد اعترف هيرتزل بما عرفه الصهيونيون الروس تماماً وهو ان فكرة استرجاع الدولة اليهودية ليست جديدة ، ولكنه وضع الحلم القديم على أسس القرن التاسع عشر فحوّل الحنين الجارف الضائع الى حركة سياسية . وهكذا اصبح هيرتزل للمعجبين به وللآخرين جزءاً من تراثهم . لقد اشترك المعادون والمتحمسون في جنازة هذا الرجل الذي استطاع ، كما في لعبة الجودو الي يستغل فيها المرء قوى خصمه ضده ، ان يستعمل اللاسامية حشوة تفجير تبقى محرك الصهيونية سائراً . ولا يمكن ان يكون هيرتزل قد تصور ، في أحلامه المزعجة أو في تأملاته ، القوة النووية التي سيظهرها هذا البغض غير المعقول ، أو الألم والحركة اللذين قد يولدهما .

في السنة الي سبقت موت هيرتزل نشرت صحيفة « زناميا » الروسية طوال اسبوعين أول مسودة معروفة « لبروتوكول حكماء صهيون » ، ذلك الكتاب الذي أصبح من حيث الرواج في المرتبة الثانية بعد الكتاب المقدس . وقد اعيد نشر هذا البروتوكول ، وعدل ووسّع وعلق عليه وشرح وترجم الى الغات عديدة ، فكان هبة قسطنطين القرن العشرين ، اي وثيقة زائفة لها أثر تاريخي استعملت ، كما أشار نورمان كوهن ، إجازة للقتل بالجملة. سبقت هذا البروتوكول كتابات أدبية

شبيهة به ، وكانت فكرته الأساسية – « الاعتقاد ان اليهود ، كل اليهود في كل مكان ، يشكلون هيئة متآمرة لتدمير البشرية ثم السيطرة على بقاياها » – قد وضعها ثلاثة من كتاب القرن التاسع عشر ، يهوديان وألماني . كتب الألماني هيرمان كودشي تحت اسم انجليزي محترم مستعار هو « سير جون ردكليف » رواية عنوانها « بيارتز » في سنة ١٨٦٨ تكهن فيها بأن حكم اليهودية العالمية سيكون قد توطد في سنة ١٩٦٨ .

أما اليهوديان اللذان ساهما في هذه الأسطورة فقد كانا من المرتدين ، احدهما محتال يدعى « ميلنجر » انتحل اسم « عثمان بك » وصور في كتابه « الاحتلال اليهودي للعالم » برلماناً سرياً يهودياً يجتمع في مكان ما في بولونيا للبحث في احتلال اليهود للعالم ، والآخر يهودي تحول الى المذهب الأرثوذكسي ، اسمه جيكوب برافمان ، وعمل مع الشرطة القيصرية السرية ، صور منظمة « كاحال » اليهودية بأنها أداة لأخذ عمل غير اليهود واحتلال العالم ايضاً .

اكتشف نورمان كوهن ان الوثيقة مستمدة من رواية هجائية ألفها في سنة ١٨٦٤ ضد الامبراطور نابليون الثالث رجل يدعى موريس جولي كان متحرراً وصاحب أسلوب رائع . اراد جولي ان يهاجم الامبراطور الفرنسي بطريقة تخفى على المراقبة ، فتصور حواراً في الجحيم بين ميكافيلي ومونتسكيو ، وكانت آراء ميكافيلي المجردة من المبادىء الخلقية تمثل آراء نابليون . انتحل مؤلف بروتوكول حكماء اسرائيل فقرات من رواية جولي ، وفعل ذلك أحياناً بسرعة دون ان يكلف نفسه إحداث التغييرات اللازمة للترابط المنطقي . وبينما يسخر ميكافيلي جولي من الطغيان القائم في زمانه يتكلم حكيم صهيون الخيالي بلغة المستقبل : بعد أن يفسدوا غير اليهود ، ويرئسوا كل أحزابهم ، ويفرقوهم على أنفسهم ، يتسلم اليهود حكم العالم وفق مخططاتهم .

الأرجح ان بيوتر ايفاندفتش راكوفسكي ، احد رجال الشرطة القيصرية السرية المسؤول عن النشاطات في الخارج من ١٨٨٤ الى ١٩٠٢ ، كان أحد رعاة هذه الاسطورة ، فقد كان يخفي عبقرية في التآمر والخداع وراء قناع من طيب القلب ، ويخطط لعمليات تقسم اعداء روسيا القيصرية على أنفسهم ، كأن ينسف مطبعة اشتراكية ثم يورط حزباً اشتراكياً منافساً في عملية النسف. والمعروف انه كانت له علاقة بالراهب سيرجي نيلوس الذي حرّر آخر طبعات البروتوكول انتشاراً .

لكن مؤلف البروتوكول لا يزال مجهولاً . قد يكون روسياً عاش في باريس أو يهودياً كعثمان بك وبرافمان أراد أن ينتقم من شعبه ، أو مضطهداً مستغرقاً في أحلام اليقظة الخطرة . ومهما كان هذا المؤلف فإنه لم يكن شخصاً اوتوماتيكياً ،

بل أفاد كالمؤلفين الآخرين من المواد المتوفرة له . ان ذلك الكتاب الذي أذكى نيران الكره اللاسامي ، والذي بدا لأدولف هتلر كأنه ايحاء فلم يشك ابداً في صحته ، يفهم من كل طبعاته أن له علاقة بحياة تيودور هيرتزل . قال نيلوس في مقدمة الطبعة التي حررها ، والتي تقبلها بجد لا ادولف هتلر وحده بل ايضاً محرر « لندن تايمز » وهنري فورد ، ان البروتوكول « ليس سوى خطة استراتيجية لاحتلال العالم ووضعه في النير الاسرائيلي ، خطة وضعها زعماء الشعب اليهودي خلال قرون طويلة من الشتات ، وقدمها اخيراً الى مجلس الحكماء تيودور هيرتزل ، أمير المنفى ، حين دعا المؤتمر الصهيوني في اغسطس ١٨٩٧ » .

زوّد هيرتزل اعداء اليهود بظل مشؤوم ، وهو في ذلك ملوم . إنه بوعوده وتناقضاته ، باحترامه للسلطان وسعيه لتقسيم امبراطوريته سراً ، بتعمده وضع سلطة اليهود وصحافتهم ونفوذهم في خدمة الذين يساعدونه وتسليطها على رقاب الذين يعارضونه ، باستعداده للإيمان بالخرافات ومهارته في البناء على الحقائق ، بعدم مبالاته بالإخلاص في اقتراحه الأول تعميد اليهود النمسويين ، وعدم اهتمامه بالأهالي المحليين الذين تؤثر فيهم خططه الاستعمارية ونشره اعتراضات على إمكان العيش معهم بهناء ، إنه بكل أسطورته الخيالية قد جعل يهود العالم يبدون قوة موحدة مخيفة بينما كانوا في الواقع معرضين للخطر مشتتين كما يمكن ان تكون جماعة دينية متفوقة غالباً ، مشاكسة أحياناً ، ومنعزلة دوماً . لقد كانت الأسطورة مفيدة لهيرتزل ، أما لملايين اليهود فكانت مصيبة .

وهكذا ترك هيرتزل لكثيرين من اليهود حلماً موحداً ، ولأعدائهم كابوساً موحداً . وقد وفّر كل من الكابوس والحلم البنزين المفجع لإدارة محركه ، اي لنقل اليهود من بلاد المنشأ الى الشرق ، أما الكابوس فقد كان لحرق الملايين التي لا تريد الانتقال أو لا تستطيعه . أصبح حلم هيرتزل حقيقة إثر حربين عالميتين ، وكان عليه ان يرث آلام الحقيقة وانتصاراتها ، وقد شبك العرب واليهود في نزاع لا نهاية له .

كان نشر كتاب « دولة اليهود » بالنسبة الى الشرق الأوسط تاريخياً لا تقل ذكراه عن فتح اسماعيل قناة السويس .

الكتاب الخامس

المذابح

الفصل الاول

في ابريل ١٩٠٩ كان عبد الحميد قد حكم ثلاثاً وثلاثين سنة تقريباً . لم يبق سوى الكبار يذكرون الأيام التي كان البذيشاه يخرج فيها لصلاة الجمعة ، ذلك السلطان الذي كان يدير امبراطورية أشبه بعربة خشبية مترنحة لا تزال تقعقع في سيرها وقد رقعت وطوقت بقطع معدنية .

في السنوات العشر التالية ، وبقيادة سائقين ضالين جدد ، سارت هذه العربة في طريق أكثر وعورة ، وأخذت تفقد وهي تتمايل مرة مصباحاً واخرى باباً ، وأخذت نوابضها تتحطم وعجالها تتطاير إلى أن توقفت ، بيد أن ركابها الكئيبين لم يفقدوا شجاعتهم ولا اعصابهم . وقد تزامن خرابها مع الحرب العالمية الأولى .

بدت الحرب العالمية (١٩١٤–١٩١٨) للبعض نضالاً في سبيل الديموقراطية ، وللبعض الآخر حرباً لانهاء الحرب ، ومع أنها كانت غير متوقعة الا أنها مثلت رمزياً بغرق « التيتانيك » ، أكبر سفن العالم وأحدثها ، في ١٦ ابريل ١٩١٢ ، لأنه إذا كانت الامبراطورية العثمانية عربة بالية يجرها حصان فان أوروبا القوية كانت باخرة واثقة من نفسها : مرة مسيطرة ومفتخرة ، وأخرى يمزقها جبل جليد خفي . ظن ركاب التيتانيك صوت اصطدامها بجبل الجليد مزاحاً ، وأخذ ركاب الدرجة الأولى يتراشقون بكرات الثلج بينما انزلق جبل الجليد بهدوء . كذلك نشوب الحرب قابلته جماهير الأوروبيين بالترحاب ، ووصف الشعراء التجربة الجديدة بأنها منظفة كحمام صيفي ، ولكن الشعور ما لبث ان تغير حين طالت الحرب ، فقال فيها الشاعر الاميركي عزرا باوند ساخراً :

كثيرون ماتوا
وكانوا من خيارهم
في سبيل عاهر هتماء
ومدنية مرقعة !

قليلون من الناس يستطيعون ، بعد خمسين عاماً ، أن يعينوا النواحي الدستورية التي كان قيصر المانيا أقل ديموقراطية فيها من جورج الخامس ملك بريطانيا ، فان الحروب التالية جعلت شعارات ١٩١٤ سخيفة . بيد أن النزاع المتطاول الذي أدى الى سقوط أربع أسر أوروبية مالكة ترك في أوروبا دولتين منتصرتين اسماً :

فرنسا التي على الرغم من ضعفها بخسارة مليوني رجل استعادت الألزاس واللورين وكسبت مناطق جديدة فيما وراء البحار ، وبريطانيا التي اصبحت أراضيها في نهاية الحرب اوسع منها في بدايتها وان كان الزمن سيظهر كم كانت تلك التعويضات تافهة بالنسبة الى جيل ضائع .

لكن مهما اضعفت بريطانيا وفرنسا كانتا في وضع يمكنهما من تشريح الجثة العثمانية . واذ كانت قد فقدت أطرافها الخارجية المسيحية فإن الامبراطورية التي تحمل السيف التركي والقرآن العربي أصبحت مقسمة على نفسها . ان الاتراك الذين سئموا الحكم والموت في سبيل أقليات متذمرة بدأوا يعملون بأنانية جماعية . أما العرب الذين يئسوا من ايجاد الحماية أو الراحة المعقولة في دار السلام المتداعية فقد قادهم سخطهم ، او الاغراءات الأجنبية ، نحو الانفصال والثورة . وهكذا تفسخت آخر امبراطورية إسلامية عظيمة ووقعت تحت النفوذ الأجنبي أو سيطرته المباشرة . وسواء أهلكت الامبراطورية انتحاراً أو غدراً فأمر مختلف فيه كما في حالة السلطان عبد العزيز .

ان العقد الذي تداعت فيه الامبراطورية بدأ باحتفال موقت سببه ثورة على السلطان الذي حكم طويلا .

مع أن عبد الحميد كان لا يزال محاطاً بالرهبة في نظر ملايين المسلمين ، العرب منهم والأتراك على السواء ، إلاّ أنه بدا لرعاياه المتعلمين طاغية استخدم ثلاثين ألف عين وأساء استعمال الاسلام في دعم حكمه الرجعي . أثبت صغار الموظفين أنهم ألدّ خصومه ، وكانوا يديرون البرق والبريد والسكك الحديد التي أراد السلطان ان يربط بها امبراطوريته . تخرج كثيرون منهم من كليات عسكرية زودتهم بأفضل تربية علمانية في أيامهم ، وتشرب الثوريون القيم الغربية من أجانب عاشوا بينهم ، أو من معلمين أميركيين أو فرنسيين في مدن كالقسطنطينية وبيروت ، أو من زياراتهم للخارج . عرف الأوروبيون حركة هؤلاء الشباب المتبرمين باسم « تركيا الفتاة » ، أطلقه عليهم في فرنسا أمير مصري . ان الشباب الغضاب الذين كانوا يجتمعون في المقاهي ليبحثوا في الأسباب التي جعلت انجلترا وفرنسا متقدمتين كثيراً على الشرق ، والذين كان الشرطة السريون يلقون القبض عليهم فلا يكفون عن البحث في السجن ومابعده ، شعروا أنهم أبطال عثمانيون . كانوا كجيل مدحت السابق خجلين بالتأخر الذي ابتليت به امبراطوريتهم ، تواقين الى توحيد عناصرها المتنافرة واعادة تنظيمها بحيث تصبح قوة في الشرق الأوسط تعمل في سبيل التقدم . وصف مستقبلها الكاتب التركي ضيا جوكالب خريج الكلية العسكرية بقوله : « ان البلاد العثمانية ستصبح اميركا الشرق الحرة التقدمية » . كما ان اهالي

نيو انجلند وتكساس يشعرون أنهم أميركيون ، كذلك على الترك والعرب واليونان والأرمن أن يشعروا أنهم عثمانيون .

انتشرت في انحاء الامبراطورية فرق تبشر بهذه المثل النبيلة . أما الجماعة التي رتبت ثورة ١٩٠٨ ، وسيطرت على الامبراطورية عشر سنين ، فهي « جمعية الاتحاد والترقي » التي ألفت في سلانيك أقرب المدن العثمانية الى الغرب ، وأكثرها تأثراً بـه .

لم تكن الورطة العثمانية أوضح منها في هذه الفرضة المزدحمة ، فإن فيها كما في ايام القديس بولس مستعمرة يهودية كبيرة . استقر اليهود في سلانيك بعد أن طردتهم اسبانيا مع العرب ، وما زال هؤلاء يتكلمون لهجة قشتاله ، وقد دعوا سفارديم (إسبان بالعبرية) تمييزاً لهم من اليهود الاشكيناز من اوروبا الغربية الذين يتكلمون اللغة اليديشية . استفاد اليهود السفارديم من تسامح سلاطين القرن السادس عشر العظام ، وكانوا مهتمين بالامبراطورية العثمانية في فترة انحطاطها . كانت سلانيك التي أكثرية سكانها من المسلمين واليهود البوابة الى المنطقة الجبلية حيث كان الألبان والصرب والمكدونيون يوسعون حرب العصابات ضد السيطرة العثمانية ، ولذلك كانت سلانيك المكان الذي شعر سكانه أنهم معرضون للخطر ، والمكان الذي كان الاصلاح فيه ضرورياً .

شكت لجنة الاتحاد والترقي في ١٩٠٨ في ان السلطان يوشك أن يبطش بها ، فبدأت ثورة انتشرت بسرعة في انحاء الامبراطورية بفضل مصلحة البرق التي أسسها عبد الحميد . وكانت قد أسست فروع للجمعية في كل المدن الكبيرة . كان طلب التغيير شديداً الى حدّ ان عبد الحميد وافق فوراً على طلب اللجنة الرئيس ألا وهو ارجاع دستور مدحت . قال انه كان ينوي ارجاع الدستور طوال الوقت ، ورحب شخصياً بأعضاء الجمعية في البرلمان ، واقترح جعله رئيساً للجمعية ولكن الاقتراح رفض .

من احد اطراف الامبراطورية الى آخر طرف جمعت الفرحة بين السكان جميعاً على اختلاف مذاهبهم وأعراقهم ، وشعروا أنهم شعب واحد . ونشرت جمعية اخوة عثمانية عربية آراء جمعية الاتحاد والترقي في بلاد العرب . حادثان في شهر واحد دلاّ على تلك الروح الأخوية ، افتتاح سكة حديد الحجاز التي ربطت دمشق بالمدينة وتعيين الشريف حسين أميراً على مكة . فالسكة الحديد كانت نافعة لأنها مكنت العثمانيين من جنود ومدنيين من الوصول الى المنطقة الغربية من صحراء العرب دون المرور من قناة السويس التي يسيطر عليها الانجليز وجعلت الحج آمن وأقل كلفة . أما تعيين أمير جديد على مكة فقد كان من نوع إرجاع الشيء الى

أصله . أمضى الشريف حسين خمس عشرة سنة ضيفاً سجيناً عند عبد الحميد . عاش في القسطنطينية عيشة هدوء وورع مشرفاً على تعليم اكبر أبنائه : علي وعبدالله وفيصل . انتخب عبدالله لتمثيل مكة في البرلمان العثماني الجديد ، ثم نائباً لرئيس البرلمان ، وانتخب فيصل لتمثيل جدة .

بدأت الثورة في ٢٤ يوليو ١٩٠٨، وأظهرت أوروبا الرسمية خلال ثلاثة أشهر كم كان ترحيبها ضعيفاً بالإحياء العثماني . في ٥ أكتوبر اعلنت بلغاريا التي كانت لا تزال اسمياً تابعة للامبراطورية استقلالها التام ، وبعد يومين احتلت النمسا رسمياً مقاطعتي البوسنة والهرسك ، وبعد خمسة أيام طلبت كريت الانضمام الى اليونان .

حطمت هذه النكسات التي جاءت بعد الثورة مباشرة هيبة جمعية الاتحاد والترقي ، وشجعت التقليديين ، فقاموا في ابريل ١٩٠٩ بثورة مضادة نجحت في القسطنطينية التي ظل سكانها وحاميتها مخلصين لعبد الحميد . ولكن جيش سلانيك الذي كان قائده ضابط عربي قمع هذه الثورة المضادة ، وزحف الى العاصمة فخلع عبد الحميد ووضع مكانه أخاه لأبيه باسم السلطان محمد الخامس . أما السلطان المخلوع فكان همه توفير منفى مريح . وضع هو وحريمه في قطار نقلهم الى سلانيك معقل الثورة .

بقي السلطان الروحي حتى النهاية رمزاً للسلطة الثابتة بين مسلمي الإمبراطورية . واذ تعرض حكام تركيا الديموقراطيون الجدد لزوابع في الداخل والخارج اختل توازنهم ، فازداد سيرهم تعصباً أو اختلالاً . وبما أن العرب المسلمين كانوا أكثر عدداً من الأتراك بنسبة ٣–٢ تقريباً ، فقد أمرّ الحكام الاتراك الجدد حالاً بحل الجمعيات كجمعية الأخوة العثمانية العربية التي ألفتها جماعات من غير الأتراك . وهكذا بدا الاسلام مصدراً للانشقاق أكثر منه رابطاً .

تزايد تصاعد الحوادث فزاد الجمعية حنقاً . في ١٩١١ غزا الايطاليون ليبيا آخر ممتلكات العثمانيين في شمال افريقيا ، وفي ١٩١٢ أوقفت دول البلقان ما بينها من مشاحنات وتقدمت نحو ما أملت ان يكون ضربة قاضية ، ودعم هجماتها استمرار البرود الأوروبي نحو احلام الجمعية التجددية . كثيرون من الشباب الاتراك تعلموا ان يعتقدوا ان السرّ في الرقي الغربي هو الرأس مالية المتحررة وعقبها العمل الحرّ . انتظروا أن تساعد اوروبا النظام الجديد في القسطنطينية ، واذا كانت المساعدة المباشرة كثيرة فقد أملوا ان تخفف الشروط التي كانت المالية العثمانية تحلب بموجبها لتسديد قروض الماضي المتراكمة ، ولكن خاب أملهم . لم يجدوا مساعدة ولا تساهلاً ، وعلى الصعيد السياسي رفضت بريطانيا السماح للأتراك باستعمال مصر قاعدة لمساعدة ليبيا .

في سنة ١٩١٣ تحولت الجمعية المهزومة المجرحة الى دكتاتورية . ترأس أنور باشا الألمعي الضعيف الرأي حكومة ثلاثية العضوان الآخران فيها هما جمال باشا الصارم وطلعت باشا المجدّ ، وكان شعارها الوحدة قائمة على سموّ العنصر التركي .

نشأ على أثر ذلك التتريك ، أو العنصرية التركية ، ولم تكن أقل من العنصرية الألمانية . كما انتعشت العنصرية الألمانية في فيينا حيث اصطدم الألمان بالصرب ، كذلك استمدت العنصرية التركية من وسط آسيا حيث اصطدمت الشعوب التي تتكلم التركية بروسيا الآخذة في التوسع ، ومن سلانيك على البحر الإيجي . وكما كتب هيوستن ستيوارت تشيمبرلين ، الذي أصبح انكليزياً ، كتاباً مدرسياً عن العنصرية الألمانية ، كذلك كان أول دعاة التتريك غير أتراك . ومن السخرية ان ثلاثة من دعاة العنصرية التركية المهمين كانوا يهوداً أولهم آرثر لملي ديفيدز الذي وضع كتاب نحو باللغة التركية حوى مقدمة حاول فيها ان يبرهن ان الاتراك – لا التتار كما عرفوا خطأ – هم الذين كونوا جزءاً من العنصر القفقاسي . والثاني، أرمينيوس فامبري ، الذي لم يكن صديقاً لتيودور هيرتزل فحسب بل أيضاً لعدد من المنفيين الأتراك ، تجول كثيراً في مناطق آسيا الوسطى التي يتكلم أهلها اللغة التركية فأثارت وقائع رحلاته الاهتمام في القسطنطينية وسلانيك . أما الثالث ، ليون كاهون ، فقد كان روائياً معجباً بجنكيزخان ، وهو واضع نظرية تقول ان العنصر الطوراني الأصلي قد سبق قادمين كالسلت واليونان واللاتين . وقد كان كاهون ، كفامبري ، متحرراً متحمساً .

كانت الافكار التي تشدد على العرق واللغة غريبة عن اتراك الامبراطورية العثمانية الذين يرون أنفسهم تقليدياً مسلمين فقط . أما لغتهم فكانت مزيجاً من التركية والعربية والفارسية كاللغة الانجليزية الحديثة التي هي مزيج من الانجلو–سكسونية واللاتينية والفرنسية . ولكن الأفكار العنصرية تسربت الى العقول وكونت ما يشبه تجمعاً مائياً استهوى آخرين من المفكرين الأتراك مثل أحمد وفيق باشا حفيد يوناني اعتنق الاسلام ، ومصطفى جلال الدين باشا وهو بولوني اعتنق الإسلام أيضاً . بدأ الاول طريقة للكتابة بلغة تركية بسيطة بدلاً من العثمانية المنمقة ، وكي يظهر الفرق ألف قاموساً تركياً–عثمانياً . وحاول الثاني في تنقيحه نظرية كاهون ان يبرهن ان الأتراك كانوا العرق الأصلي الذي جاء منه الأوروبيون جميعاً ، ووصف هذا العرق بأنه « طوراني–آري » . وتمثل سياسة التحول الى الغرب بالنسبة إليه عودة طبيعية الى الاصل لشعب أصبح مشتبكاً ، لسوء حظه ، بثقافة الشرق الأوسط السامية .

هذه العقائد – التي كونت مبرراً سهلاً للفشل التركي – انتشرت بسرعة

مشؤومة . لم يعد ضيا جو كالب يتصور اميركا الشرق الاوسط ، بل أصبح يرى الأتراك شعباً منفصلاً وقابلاً للانفصال ، مقيداً بثقافة غريبة احتفظت بها طبقة الافندية العليا لنفسها . ان الفجوة بين طبقة عليا وطبقة سفلى ليس ، طبعاً ، خاصاً بتركيا ، فقد كتب دزرائيلي « لشعبين » في انجلترا . على أن التفاوت بين الأتراك كان أشدّ كثيراً لأن ثقافة النخبة كانت أكثر غرباً ، فقد استعار الأتراك « مؤسسات شعوب أجنبية وانتجوا منها حضارة زائفة بدلاً من خلق حضارة خاصة بتطوير مؤسساتهم الخاصة » . كان جو كالب يشير الى شعبين اجنبيين هما العرب والفرس . فالاتراك باعتناقهم الاسلام ربطوا أنفسهم الى جهازه الواسع ، تأثروا كثيراً في رحلتهم غرباً عبر فارس بثقافة الهضبة الايرانية القوية ، وأخذوا من العرب والفرس كثيراً من نحوهم ومفرداتهم . طالب جو كالب بنبذ ما أخذ عن الأجانب والعودة الى المصادر التركية الصافية .

« علينا أن نبحث عن مصادر أدبنا الخاص في النقوش الحجرية أو جلد الغزال من جهة ، وفي القصائد الشعبية والحكايات الشعبية والأشعار الحماسية وسواها . يجب أن تبنى لغتنا القومية على النحو التركي ، وان يستمد أدبنا القومي مواضيعه ورموزه من الحياة الاجتماعية التركية ، ومن النظام الاجتماعي التركي ، ومن ميثالوجيا الأتراك وملاحمهم . علينا أن نبعد عن نحونا القواعد الأجنبية ، وعن شعرنا الأوزان الأجنبية ، وعن أدبنا الرمزية الأجنبية » .

كان جو كالب إنسانياً، وقد أكد العنصرية التركية لأنه شعر أن قومه كانوا ثقافياً محرومين . لم يتنكر للثقافة الاسلامية ولكنه طالب بدراسة دقيقة للمؤسسات الاسلامية والتاريخ الاسلامي كي تستطيع الحضارة التركية في نشوئها أن تقتبس ما يفيدها.

ولكن عقولاً أقل دهاءً اندفعت الى استنتاجات أكثر قسوة . بدلاً من النحو الأجنبي والأوزان الأجنبية أرادوا أن يكبتوا الشعوب الأجنبية باعتبارها منحطة أو هدامة . ان العنصرية التركية التي أيدتها دكتاتورية تركيا الفتاة أظهرت ارتداداً الى كثير من أشكال القومية . تبدأ كمحاولة كريمة لخدمة ما هو حسن في مجموعة ما والمحافظة عليه وتنتهي بتأكيد تفوق تلك المجموعة . أخذ موقف كثيرين من المسؤولين العثمانيين يتغير . بدلاً من معاملة العرب والأكراد كإخوة مسلمين تصرف بعضهم كمنحطين مسيطرين . طبعاً بقي كثيرون من الأكراد مسلمين طيبين ، وبقي معظم العرب ينظر الى الاتراك كأعضاء في امبراطورية اسلامية واحدة ، ولكن تولد من الاحتكاك ما يكفي ان يجعل الامبراطورية العثمانية تواجه صراعاً نهائياً مع صدوع رأسية في الوحدة الوطنية ، تلك الصدوع التي درسها اولئك الذين يريدون هدم هذه الامبراطورية .

الفصل الثاني

في صيف ١٩١٤ كان معظم المواطنين العثمانيين يعيشون في جوّ كئيب بين طرفين متباعدين : بينما الدكتاتور أنور يحلم بتأسيس امبراطورية تركية تمتد من الأناضول الى آسيا الوسطى فكر بعض العرب ، لأسباب مثالية أو مصلحة خاصة ، في الانفصال . كان المتطرفون الأتراك قادرين على استعمال وسائل الدولة العثمانية ومنها الشرطة والجيش ، أما الانفصاليون العرب فقد أسسوا جمعيات سرية ، مدنية وعسكرية ، في بيروت ودمشق .

ان الرجال والنساء — اللواتي خرجن من الحريم — شعروا بالمذلة حين لم يبق للامبراطورية في اوروبا سوى موضع قدم ، وباحتلال الايطاليين للساحل الليبي ، وكان ذلك شعوراً وطنياً . وكان عملهم وردّ فعلهم كأن الإصلاح ومنع الانحلال ممكنان .

أتت الحرب في شمال افريقيا بدرس حيوي جديد . لقد استطاع الايطاليون بأسطول صغير فعال ان يحتلوا طبرق ودرنا وبنغازي على ساحل ليبيا وان يواصلوا جلب المؤن والمعدات . اما في الداخل فان العرب السنوسيين استطاعوا بامدادات من تركيا أن يقاوموا . ولو كان لدى تركيا اسطول على شيء من القوة لقطع صلة القوات الايطالية بقواعدها في ايطاليا ولأمكن انقاذ الولاية .

أصبحت السفن الحربية الحديثة حاجة وطنية ملحة ، فتبرع الرجال بأموالهم والنساء بحلاهن ، وخصص الذهب المكدس لشراء طرادين حديثين طلباً من انجلترا . على الرغم من وجود بعثة ألمانية في تركيا يرئسها المارشال ليمان فون ساندرز البروسي ، كانت السياسة العثمانية منع اي نفوذ أجنبي من ان يصبح مسيطراً . ثم ان بريطانيا كانت تملك اكبر اسطول في العالم ، ولها خبرة واسعة ببناء السفن الحربية ، وما زال الاتراك يذكرون المساعدة البريطانية في حرب القرم وما بعدها .

في صيف ١٩١٤ تمّ دفع ثمن الطرادين وأصبحا جاهزين للابحار من بريطانيا .

وفي الصيف نفسه بدأ التذمر في مقاطعتي البوسنه والهرسك . وانطلقت الشرارة في ٢٨ يونيو حين قتل ولي عهد آل هبسبرج وزوجته في سراجيفو . وبعد شهر اعلنت النمسا الحرب على صربيا بحجة ايواء القتلة . واذ كانت روسيا حامية الصرب فقد أعلنت التعبئة ضد النمسا . عندها اعلن الالمان ، حلفاء النمسويين ، الحرب

على روسيا ، وغزوا بلجيكا في ٤ أغسطس كي يضربوا فرنسا حليفة روسيا . وفي منتصف ليلة اليوم نفسه اعلنت بريطانيا الحرب على ألمانيا ، وأجبرت مصر في اليوم التالي على اعلان نفسها في حالة حرب مع اعداء بريطانيا على الرغم من وضع مصر كجزء من الامبراطورية العثمانية المحايدة ومن شعور الشعب الحيادي .

دخلت بريطانيا الحرب قلقة على اسطولها قلق الامبراطورية العثمانية على اسطولها . تزايدت مخاوف الرأي العام من نموّ الأسطول الألماني . ثم ان سفن بريطانيا المدرعة الجديدة لم تجعلها محصنة كما أملت لأن احواض السفن الألمانية بنت سفناً حربيةً تماثل السفن البريطانية في السرعة والفعالية ، فأصبح لدى بريطانيا اول مرة منذ قرون طويلة شك في أمن جزيرتهم. وبناء على هذا الوضع قررت الامبرالية، وكان ونستون تشيرشل على رأسها ، الاستيلاء على الطرادين التركيين .

ومهما كان للقرار البريطاني من مبررات على اساس استراتيجي فإنه يعدّ خطأً سياسياً . ذلك بأن الخبر أغضب حتى اولئك التقليديين الذين كانوا موالين لبريطانيا ، واعطى حججاً جديدة لرجال تركيا الفتاة المتطرفين الذين كانوا يحثون على تحالف مع الدولة الأوروبية الوحيدة التي لم تسرق أبداً ولاية عثمانية . وما لبثت هذه الحجج أن وجدت لها تأييداً عيانياً ، فقد اقلع الطرادان الألمانيان جوبن وبرسلاو من المياه الايطالية (ولم تكن ايطاليا قد قررت الى اي جانب تنحاز) متفادين الأسطول البريطاني ووصلا الى الممرات التركية بين اوروبا وآسيا، فشاهدتهما القسطنطينية بأسرها راسيين حيال القرن الذهبي وهتفت لهما . وجاءت خطوة القيصر التالية أكثر إثارة، اذ وضع الطرادين مع بحارتهما في تصرف صديقه السلطان ، فأصبحت عواطف الاتراك العاديين المتعلقة بالألمان حارة حرّ ذلك الصيف .

كان ردّ فعل الاتراك غير العاديين مختلفاً ، وسأذكر احدهما آخر مرة ، والآخر أول مرة . ارجع السلطان المخلوع عبد الحميد الى تركيا بعد ان احتل اليونان مدينة سلانيك في الحرب البلقانية ، وأسكن قصراً على شاطىء البسفور الآسيوي ، لكنه لم ينظر أبداً الى العاصمة التي فقدها على الشاطىء الأوروبي . ومع ان عبد الحميد كان يعدّ قيصر ألمانيا صديقاً إلاّ انه كره دوماً سفك الدماء ، وقد حاول الآن في أحاديثه الخاصة أن يقنع الأتراك بعدم التورط في الحرب . وقد كان مصطفى كمال ، وهو ضابط من مواليد سلانيك وزميلاً لأنور في الحرب الليبية ضد الايطاليين ، يكره كل شيء يمثله عبد الحميد ، ومع ذلك فقد كان ايضاً في المذكرة التي قدمها لأصدقائه في الحكومة ضد الاشتراك في حرب القيصر .

ولكن تركيا كانت تحت رحمة ميول انور باشا الذي كان ملحقاً عسكرياً في برلين معظم الوقت بين ١٩٠٨ ، حين قام بالثورة ، وبين ١٩١٣ حين اصبح

رئيس الحكومة الثلاثية . كان أنور باشا قوي العزيمة ، سريع الحركة ، شجاعاً ، وقد ترك برلين مرتين ، الأولى لقمع الثورة المضادة في ١٩٠٩ والثانية للاشتراك في الحرب الليبية . غذت النساء المعجبات به في برلين غروره ، وكان يكره الروس ويرى أن القيصر وحلفاءه سيربحون الحرب بسرعة . فاذا ارادت تركيا استعادة ولاياتها ، وكسب المجد على حساب الروس في آسيا الوسطى، لا بدّ له من الانضمام الى المانيا .

لم يعلن الأتراك الحرب رسمياً ، بل فعل ذلك نيابة عنهم الطراد جوبن الذي يقوده أمير بحر ألماني . تقدم مع ثلاث مدمرات تركية فمرّ امام السواحل البلغارية والرومانية وضرب في ٢٩ اكتوبر عدداً من الموانىء الروسية . وبعد اسبوع اعلنت روسيا الحرب على الامبراطورية العثمانية ، وتبعتها بريطانيا ففرنسا .

كان قيصر أحدث امبراطورية في اوروبا ، وأخو السلاح لأقدم امبراطورية أوروبية ، أعظم نصر له في حرب لم تنته بعد . وكان ذلك بالنسبة الى الحلفاء تعقيداً باهظ الثمن . ادرك الاستراتيجيون البريطانيون والفرنسيون منذ اول شهر في الحرب ان روسيا القيصرية قوة كبيرة لقضية الحلفاء وضعف كبير فيها. ان احتياطيها من القوى البشرية واسع ، والأغذية التي تنتجها ضرورية للقتال الطويل ، ومناخها القاسي وامتداد رقعتها قهرا نابليون آخر من حاول السيطرة على اوروبا ، ولكن كانت هناك أشياء ضد هذه المزايا، منها ان الأوتوقراطية الروسية دعاية سيئة لأهداف الحلفاء في الحرب ، واستقرار روسيا السياسي مشكوك في أمره بمقدار الشك في قدرة مصانعها على تجهيز جيوش القيصر .

زاد دخول تركيا الحرب مشكلات روسيا ، لأن اغلاق البسفور والدردنيل منع السفن الروسة المحملة بالحنطة من الخروج والمعدات الحربية الغربية من الدخول وفتح جبهة جديدة على حدود روسيا الجنوبية .

وفي الوقت نفسه عاد الاصطدام النهائي بتركيا على بريطانيا بتعويضات ، وأزال بعض الغموض المتعب. من ذلك امكان اخضاع قبرص واعلانها مستعمرة، وأهم من ذلك إلغاء السيادة العثمانية على مصر التي اصبحت ، على الأقل من اجل اغراض الحرب ، محمية بريطانية .

كذلك ألغي لقب الخديوي . كان عباس الثاني في اغسطس ١٩١٤ يقضي إجازته الصيفية العادية في القسطنطينية ، وحين دخلت تركيا الحرب خلع بحجة انحيازه الى اعداء ملك انجلترا، وكان في وضع لا يسمح له بالعودة الى مصر، لأنه في أواخر يوليو حضر لزيارة الصدر الأعظم التركي فحاول شاب مصري الاعتداء على حياته . قتل حرس الخديوي الأتراك الشاب المعتدي في الحال ، ولكن الخديوي

لزم الفراش بسبب جروح في وجهه .

وضع حسين كامل ، ثاني اولاد اسماعيل، على عرش مصر بعد تردد . كان هذا الرجل المحترم الميال الى الزراعة، عمّ الخديوي المخلوع ، بلا طموح . وكأنما أريد الهزء بالحاكم العثماني فأعطي حسين كامل ايضاً لقب « سلطان » ، ولكن سلطاته كانت أقل حتى من سلطات محمد الخامس ، وكان يصف نفسه لزواره المقربين بأنه « أسير حرب » في قصر . على أنه لم يدم حتى نهاية الحرب .

في اندفاعهم الأول قام الأتراك بمبادرتين عسكريتين بايحاء من أنور، الأولى هجوم على روسيا عن طريق القفقاس انتهى بكارثة وهجوم روسي مضاد على الأناضول الشرقي ، والثانية هجوم عقيم على سيناء ومحاولة عبور قناة السويس من القنطرة والاسماعيلية ، فارتد الاتراك الى فلسطين ، وأخذ البريطانيون يستعدون .

في سنة ١٩١٥ جاء دور الحلفاء .

ان القيصر الروسي اذ اصبح مهدداً بخطط انور في القفقاس ، وتعرض لضغط شديد من بولونيا ، أبرق الى لندن طالباً هجوماً يحول ذلك عنه ، فأرسل طلبه الى كتشنر وزير الحربية الذي حلّ من ١٩١١ الى صيف ١٩١٤ محلّ لور كرومر في منصب الوكيل والقنصل العام البريطاني في مصر . لم يجد كتشنر حين تولى وزارة الحرب جيشاً بريطانيا يقاتل به فبدأ والحرب دائرة تأليف جيش من سبعين فرقة . اما استجابته لنداء روسيا فكان ان اقترح تظاهرة بحرية في الدردنيل لأنه لا يستطيع توفير الجنود لذلك ، واتخذ ونستون تشرشل من اقتراح كتشنر اساساً لمغامرة تخرج الأتراك بضربة واحدة من الحرب التي كان احد الذين جروهم إليها .

في سنة ١٩١٥ اقنع تشيرشل معظم اعضاء الوزارة البريطانية بارسال حملة بحرية الى القسطنطينية ، هدفها المبدئي احتلال شبه جزيرة غاليبولي التي تشبه على الخريطة رأس أوزة مخنوقة متدلياً ولكنها في الواقع أرض كثيرة الآكام والوهاد شديدة الوعورة والجفاف . تصور تشيرشل ان المدافع الحديثة الكبيرة تستطيع اسكات الحصون العثمانية كما اسكتت مدافع الأميرال سيمور حصون الاسكندرية تقريباً . ثم ان ظهور اسطول انجليزي ـ فرنسي امام القسطنطينية قد يؤدي الى ثورة انهزامية .

هكذا كانت حملة غاليبولي مرتبطة تماماً بونستون تشيرشل في الايحاء بها وفي فشلها . كان تشيرشل متورطاً في الشرق الأوسط طوال حياته . اشترك وهو شاب في معركة أم درمان التي تغلب فيها البريطانيون بالمدافع الرشاشة على جيوش الخليفة واحتلوا السودان ، ولكن هذا النصر لم يكن كله بطولياً في تاريخ بريطانيا إذ روى الصحافيون قتل السودانيين الجرحى . وقد حاول تشيرشل ، في اشتراكه مع قساوسة الجيش في الدفاع ، أن يبرهن ان الغالب ليس ملزماً بالرأفة بالمغلوب .

اظهر تشرشل في اتصالاته بالشرق الأوسط قليلاً من العطف على سكانه . فكان بذلك مخالفاً لأبيه اللورد راندولف الذي دافع عن عرابي ، وربما كان انعدام هذا العطف ، او الازدراء الايجابي ، قد مثل دوراً ما في تاريخ حملة الدردنيل لأن تشرشل أساء تقدير قدرة الشرقيين على مقاومة هجوم غربي ورغبتهم في المقاومة . بدلاً من قوة متوازنة من السفن الحربية المزودة بالمدافع الثقيلة يؤيدها الكثير من كاسحات الألغام وطائرات الاستكشاف ارسل اسطول انجليزي فرنسي مؤلف من سفينتين حربيتين حديثتين وستين قطعة قديمة بدأت عملياتها في ١٩ فبراير . تغلب الأسطول على الحصون عند مدخل الدردنيل دون صعوبة كبيرة ، ولكن حين توسط الممرات الضيقة بين كيليد البحر على الجانب الأوروبي وبين شنا قلعة على الجانب الأسيوي حيث تكثر القلاع والحصون واجه مشكلة صعبة. هنا قاومت مدفعية السلطان حتى كادت ذخيرتها تنفد . ساعدت الطبيعة الأتراك لأن التيار المتدفق السريع اعاق تقدم الأسطول ، وفعلت الالغام العائمة التي اطلقها الأتراك في الليل فعلها فأغرقت في ١٨ مارس ستة من سفن الحلفاء الحربية واضطر الاسطول الى الانسحاب على الرغم من نداءات تشرشل له ان يحاول ثانية . وخلال الشهر التالي أعدّ الحلفاء جيشاً من خمس فرق في مصر وجزر البحر الايجي ليقوم بالمهمة التي عجز الأسطول عن القيام بها وفي الشهر نفسه استعد الاتراك للدفاع عن شبه الجزيرة التي بدا أنها هدف الحلفاء .

أنقذ التيار الأتراك في الدردنيل في المرحلة الأولى من الحملة ، أما في المرحلة الثانية فقد قامت ارض شبه الجزيرة بدور أقل من ذلك الذي قامت به المعنويات القوية والقيادة البارعة . نبعت المعنويات من الجندي التركي ، والقيادة من الضابط الذي نصح تركيا ألاّ تدخل الحرب ، وقد استطاع الجنود الأتراك وقائدهم مصطفى كمال ان يحولوا حملة غاليبولي الى نصر تركي دموي كبير .

كان سير إيان هاملتون ، الذي تدرب على الحرب في المستعمرات ، قائد الحلفاء . في ٢٥ ابريل تقدم نحو غاليبولي وانزل قواته في مكانين : الأول قرب رأس هلاس في طرف شبه الجزيرة الجنوبي ، والثاني في جاباتيب على الساحل الإيجي على بعد خمسة عشر ميلاً الى الشمال .

الواقع أن قوة سير إيان كانت غير خبيرة ، فالاستراليون والنيوزيلنديون الذين نزلوا في الموقع الثاني كانوا يجهلون أهوال شظايا الألغام والقنابل ، وأرض شبه الجزيرة الوعرة ساعدت المدافعين عنها . لكن الجيوش في الشرق الأوسط طالما اهملت هذه الميزة . ان مصطفى كمال الذي كان في بداية المعركة قائد فرقة واحدة فقط تابعاً للمارشال ليمان فون ساندرز ، ثم أصبح في النهاية قائد جبهة غاليبولي بأسرها ،

لزم الفراش بسبب جروح في وجهه .

وضع حسين كامل ، ثاني اولاد اسماعيل، على عرش مصر بعد تردد . كان هذا الرجل المحترم الميال الى الزراعة، عمّ الخديوي المخلوع ، بلا طموح . وكأنما أريد الهزء بالحاكم العثماني فأعطي حسين كامل ايضاً لقب « سلطان » ، ولكن سلطاته كانت أقل حتى من سلطات محمد الخامس ، وكان يصف نفسه لزواره المقربين بأنه « أسير حرب » في قصر . على أنه لم يدم حتى نهاية الحرب .

في اندفاعهم الأول قام الأتراك بمبادرتين عسكريتين بايحاء من أنور، الأولى هجوم على روسيا عن طريق القفقاس انتهى بكارثة وهجوم روسي مضاد على الأناضول الشرقي ، والثانية هجوم عقيم على سيناء ومحاولة عبور قناة السويس من القنطرة والاسماعيلية ، فارتد الاتراك الى فلسطين ، وأخذ البريطانيون يستعدون .

في سنة ١٩١٥ جاء دور الحلفاء .

ان القيصر الروسي اذ اصبح مهدداً بخطط انور في القفقاس ، وتعرض لضغط شديد من بولونيا ، أبرق الى لندن طالباً هجوماً يحول ذلك عنه ، فأرسل طلبه الى كتشنر وزير الحربية الذي حلّ من ١٩١١ الى صيف ١٩١٤ محلّ لور كرومر في منصب الوكيل والقنصل العام البريطاني في مصر . لم يجد كتشنر حين تولى وزارة الحرب جيشاً بريطانيا يقاتل به فبدأ والحرب دائرة تأليف جيش من سبعين فرقة . اما استجابته لنداء روسيا فكان ان اقترح تظاهرة بحرية في الدردنيل لأنه لا يستطيع توفير الجنود لذلك ، واتخذ ونستون تشرشل من اقتراح كتشنر اساساً لمغامرة تخرج الأتراك بضربة واحدة من الحرب التي كان احد الذين جروهم إليها .

في سنة ١٩١٥ اقنع تشيرشل معظم اعضاء الوزارة البريطانية بارسال حملة بحرية الى القسطنطينية ، هدفها المبدئي احتلال شبه جزيرة غاليبولي التي تشبه على الخريطة رأس أوزة مخنوقة متدلياً ولكنها في الواقع أرض كثيرة الآكام والوهاد شديدة الوعورة والجفاف . تصور تشيرشل ان المدافع الحديثة الكبيرة تستطيع اسكات الحصون العثمانية كما اسكتت مدافع الأميرال سيمور حصون الاسكندرية تقريباً . ثم ان ظهور اسطول انجليزي – فرنسي امام القسطنطينية قد يؤدي الى ثورة انهزامية .

هكذا كانت حملة غاليبولي مرتبطة تماماً بونستون تشيرشل في الايحاء بها وفي فشلها . كان تشيرشل متورطاً في الشرق الأوسط طوال حياته . اشترك وهو شاب في معركة أم درمان التي تغلب فيها البريطانيون بالمدافع الرشاشة على جيوش الخليفة واحتلوا السودان ، ولكن هذا النصر لم يكن كله بطولياً في تاريخ بريطانيا إذ روى الصحافيون قتل السودانيين الجرحى . وقد حاول تشيرشل ، في اشتراكه مع قساوسة الجيش في الدفاع ، أن يبرهن ان الغالب ليس ملزماً بالرأفة بالمغلوب .

اظهر تشرشل في اتصالاته بالشرق الأوسط قليلاً من العطف على سكانه . فكان بذلك مخالفاً لأبيه اللورد راندولف الذي دافع عن عرابي ، وربما كان انعدام هذا العطف ، او الازدراء الايجابي ، قد مثل دوراً ما في تاريخ حملة الدردنيل لأن تشرشل أساء تقدير قدرة الشرقيين على مقاومة هجوم غربي ورغبتهم في المقاومة .

بدلاً من قوة متوازنة من السفن الحربية المزودة بالمدافع الثقيلة يؤيدها الكثير من كاسحات الألغام وطائرات الاستكشاف ارسل اسطول انجليزي فرنسي مؤلف من سفينتين حربيتين حديثتين وستين قطعة قديمة بدأت عملياتها في ١٩ فبراير . تغلب الأسطول على الحصون عند مدخل الدردنيل دون صعوبة كبيرة ، ولكن حين توسط الممرات الضيقة بين كيليد البحر على الجانب الأوروبي وبين شنا قلعة على الجانب الأسيوي حيث تكثر القلاع والحصون واجه مشكلة صعبة. هنا قاومت مدفعية السلطان حتى كادت ذخيرتها تنفد . ساعدت الطبيعة الأتراك لأن التيار المتدفق السريع اعاق تقدم الأسطول ، وفعلت الالغام العائمة التي اطلقها الأتراك في الليل فعلها فأغرقت في ١٨ مارس ستة من سفن الحلفاء الحربية واضطر الاسطول الى الانسحاب على الرغم من نداءات تشرشل له ان يحاول ثانية . وخلال الشهر التالي أعدّ الحلفاء جيشاً من خمس فرق في مصر وجزر البحر الايجي ليقوم بالمهمة التي عجز الأسطول عن القيام بها وفي الشهر نفسه استعد الاتراك للدفاع عن شبه الجزيرة التي بدا أنها هدف الحلفاء .

أنقذ التيار الأتراك في الدردنيل في المرحلة الأولى من الحملة ، أما في المرحلة الثانية فقد قامت ارض شبه الجزيرة بدور أقل من ذلك الذي قامت به المعنويات القوية والقيادة البارعة . نبعت المعنويات من الجندي التركي ، والقيادة من الضابط الذي نصح تركيا ألاّ تدخل الحرب ، وقد استطاع الجنود الأتراك وقائدهم مصطفى كمال ان يحولوا حملة غاليبولي الى نصر تركي دموي كبير .

كان سير إيان هاملتون ، الذي تدرب على الحرب في المستعمرات ، قائد الحلفاء . في ٢٥ ابريل تقدم نحو غاليبولي وانزل قواته في مكانين : الأول قرب رأس هلاس في طرف شبه الجزيرة الجنوبي ، والثاني في جاباتيب على الساحل الإيجي على بعد خمسة عشر ميلاً الى الشمال .

الواقع أن قوة سير إيان كانت غير خبيرة ، فالاستراليون والنيوزيلنديون الذين نزلوا في الموقع الثاني كانوا يجهلون أهوال شظايا الألغام والقنابل ، وأرض شبه الجزيرة الوعرة ساعدت المدافعين عنها . لكن الجيوش في الشرق الأوسط طالما اهملت هذه الميزة . ان مصطفى كمال الذي كان في بداية المعركة قائد فرقة واحدة فقط تابعاً للمارشال ليمان فون ساندرز ، ثم أصبح في النهاية قائد جبهة غاليبولي بأسرها ،

لم يكن كعرابي باشا ، بل خاض المعركة مدرباً ومستعداً . درس طبيعة الأرض خلال حرب البلقان ، وأظهر الآن في المعركة مراراً نظرة ثاقبة فيما قد يفعله العدوّ . ترك جنود الحلفاء المتعبين العطاش حتّى وصلوا الى المرتفعات وهاجمهم بجنود يذكرون الله ويقاتلون بالبنادق الألمانية الجديدة .

كانت خسارة الأتراك في الرجال لا تقل عن خسارة الحلفاء ، ولكن الحلفاء خسروا المعركة ، وكان النصر الوحيد الذي يستطيع البريطانيون ان يباهوا به انسحابهم ببراعة من خليج سولفا اولاً ثم من رأس هلاس ، ولولا ذلك لكانت المعركة كارثة عليهم .

كان للحملة على غاليبولي بالنسبة الى الشرق الأوسط ، والى الأتراك خاصة ، نتيجتان لا يستطيع حتّى الزمن أن يمحوهما . ان جيشاً من الاتراك والعرب قاوم جيشاً غربياً ودحره ، وذلك أمر يمكن مقابلته على هذا المستوى بتغلب اليابان على روسيا القيصرية قبل عشر سنين . أما على المستوى الشخصي ، في جزء من العالم للشخصية فيه أهمية كبيرة ، فقد ادت الحملة الى ظهور الرجل الذي بنى دولة تركية قومية في الأناضول الذي يتكلم سكانه اللغة التركية .

لكن قبل أن يتمكن مصطفى كمال من فعل ذلك كان عليه ان يصبر ثلاث سنوات قاتلت خلالها الجيوش التركية في حرب حلفائها الفاشلة . وفي سجل الهزائم التي كان العرب سبب بعضها يمثل النصر في غاليبولي كوكباً ثابتاً مشجعاً .

الفصل الثالث

أغلقت الدردنيل الألغام العائمة مع التيار والجراءة التركية فلم يبق أمام الحلفاء سوى طريق القطب الشمالي الى روسيا الغربية ، وهو طريق بحري خطر ولا يعتمد عليه . في ٥ يونيو ١٩١٦ ، بينما كان الطراد هامبشير يشق طريقه في مياه باردة مضطربة شمالي اسكتلندا وعلى ظهره الفيلد مارشال إيرل كتشنر ، غرق دون أن يعثر له على أثر .

لم تسبب نكسة في الحرب مثل هذا الذعر في بريطانيا . كان هلاك أعظم رجالها العسكريين ، الرجل الذي تمثلت فيه العظمة الامبراطورية ، نهاية عملية طمست مظاهر المعركة المشرقة مأسوفاً عليها . ان القتلى في خنادق فلاندرز ، والانسحاب من غاليبولي ، والاستسلام في جنوبي العراق ، وقائمة الاصابات في لندن ، والثورة في إرلندا ، وموت روبرت بروك المحزن غير البطولي بتسمم الدم وأمور أخرى شبيهة بهذه جعلت كلها الحرب رعباً قاتماً .

في اليوم الذي غرق فيه كتشنر قام جيش عربي مؤلف من ١٥٠٠ رجل ، على بعد أكثر من ألفي ميل الى الجنوب الشرقي ، بأطلاق النار في الهواء من بنادق قديمة في الصحراء . ذلك بأن أمير مكة أعلن ان العرب لم يعودوا رعايا السلطان العثماني . وبعد خمسة أيام فوجئت الحامية التركية بهجوم بالبنادق على المباني الحكومية . وفي اليوم نفسه هجمت قوة عربية اخرى على مدينة جدة الواقعة على ساحل البحر الأحمر ، وتقدمت السفن الحربية والطائرات البريطانية لمساعدتها .

رعت جماعة من الانكليز في مصر – مكتب القاهرة – تحولاً خاصاً بها ، جاء أنشط وأنجح من حملة الدردنيل المشؤومة . لقد قوت الثورة العربية المعنويات البريطانية ، وقامت بدور مفيد في هزيمة الأتراك ، وكان الفضل في ذلك للتخطيط الدقيق الذي قام به رجال مثل رونالد ستورس (السكرتير الشرقي في القاهرة الذي خلف هاري بويل) ، والمقدم كلايتون مدير الاستخبارات العسكرية .

كان المخطط الأول للثورة العربية ايرل كتشنر الذي غرق يوم بدأت تلك الثورة . في اوائل ١٩١٤ كان كتشنر مقيماً في الوكالة البريطانية في القاهرة . وفي أحد ايام فبراير فتحت بعد الظهر بوابة الوكالة الكبيرة لأمير من مكة يلبس عباءة حريرية . كان عبد الله ، أبرع أبناء الأمير حسين شريف مكة ، قد مرّ بمصر في طريقه الى

القسطنطينية ليقوم بواجبه كعضو في البرلمان العثماني ، ونزل ضيفاً على الخديوي عباس ، وقد جاء الى الوكالة البريطانية ليرد زيارة كتشنر له في القصر الخديوي . وبناء على قول الأمير عبد الله انه اختار بعد الظهر لرد زيارة الفيلد مارشال آملاً ألاّ يجده في البيت لأن القاهرة ملآنة بالجواسيس العثمانيين فلم يرد ان تتصور الحكومة التركية انه يخطط للتآمر عليها مع البريطانيين ، أما الواقع فقد كان ذلك غرضه من ردّ الزيارة .

جلس كتشنر مع ضيفه يتناولان الشاي على انفراد ، وفي أثناء ذلك أثار بأدب قضية الحجاز ، فقد كان المعروف أنه مضطرب لأن رجال تركيا الفتاة الذين كانت خطتهم تجديد الامبراطورية قرروا توسيع سكة حديد الحجاز بمدها من المدينة الى مكة ومدّ فرعين لها من المدينة الى ينبع ومن مكة الى جدة ، وعينوا حاكماً جديداً على الحجاز ليتعاون مع الأمير حسين . بيد ان الأمير حسين كان يكره هذا الحاكم ، ويعارض توسيع السكة الحديد لأنها تقوي سيطرة الأتراك على مكة ، وقد ايّده سكان الحجاز في ذلك لأن السكة الحديد تجعل الحج اسهل وأقل كلفة وهم يريدون الإفادة من بقائه صعباً وباهظاً .

انتهز عبد الله فرصة إثارة قضية الحجاز فوجه الى كتشنر السؤال الصريح التالي : « ما هو موقف بريطانيا من ثورة عربية ؟ » .

كان عبد الله الذي يرتدي ثياب أمير الابن الثاني لرئيس ديني ادعاءاته أكثر من قوته . اما كتشنر ، الإيرل والفيلد مارشال ، فقد كان أهم حاكم في الشرق الأوسط ، لا يستطيع ان يجيب عن سؤال صريح بصراحة ، ولذلك اكتفى بقوله ان الصداقة التقليدية بين تركيا وبريطانيا تجعل من المستحيل على البريطانيين ان يتدخلوا في شؤونها الداخلية ، والاضطراب في الحجاز شأن داخلي .

بيد أن عبد الله في ردّه على هذا الجواب الرسمي ذكر كتشنر بما قامت به حكومة الهند البريطانية من بسط حمايتها على الكويت وقال : ألم يكن ذلك تدخلاً في الشؤون العثمانية ؟ ابتسم الرجل الإنجليزي ابتسامة حذرة ، انتهت بها المقابلة دون ان يعد بشيء .

على ان كتشنر كان يعرف العالم الإسلامي . بدأ كضابط صغير بإلقاء نظرة الى فلسطين ، وقاد الجيش المصري بلقب سرداد فاتحل السودان ، وعمل في الهند حيث كان عدد من خير الفرق العسكرية مؤلفاً من المسلمين ، فرأى ان الانشقاق العربي قد يكون مفيداً لبريطانيا في ظروف خاصة . لذلك أمر السكرتير الشرقي ، رونالد ستورس ، بتقديم يخت بريطاني لنقل عبد الله الى تركيا ، وان تستمر الاتصالات غير الرسمية بهذا المبعوث الصريح من مكة .

لم تكن مكة أبداً مركزاً للخلافة ، ولكنها احتفظت بمقام فريد بين المدن الإسلامية لأنها المكان الذي ولد فيه النبي ، وفيها الكعبة محجّ المسلمين وقبلتهم في صلاتهم . أي ان مقامها ديني ، لا سياسي ولا ثقافي . أمّا عائلاتها المترعمة التي تدعي التحدر من نسل الحسن بن علي ، ويعرف افرادها بالهاشميين ، فقد أصبح بعض رجالها زعماء اقطاعيين يزداد نفوذهم كلما ضعفت السلطة الخارجية وبالعكس .

حاول السلطان عبد الحميد أن يخفف من اهمية الهاشميين لا أن يتملقهم . ولكن الخمس عشرة سنة التي قضاها الأمير حسين في القسطنطينية جعلت منه رئيس اقليم كبير المقام . كان العقل الذي وراء لسانه الطلق حاداً . قدّر ذلك العقل ضعف الامبراطورية العثمانية اذ انفصلت عنها الشعوب البلقانية واحداً بعد الآخر ، وقدّر قوة بريطانيا التي اخذت مصر ، وازدهار الخديوي الذي يحميه البريطانيون ، ودرس العالم الذي يحكم من ساحة البرلمان . وبعد أن قدّر ودرس سأل نفسه سؤالين : كيف يمكن ان يحافظ على وضعه ، وكيف يمكن ان يحسنه ؟ لم يعامله عبد الحميد بخشونة ، بل ان هذا السجان أظهر له الاحترام وجعله مستشاراً له . ولكن عبد الحميد الذي كان يود العرب قد انتهى ، وأظهر رجال تركيا الفتاة شيئاً قريباً من العنصرية التركية حتى قبل ان يتسلموا الحكم فعاملهم العرب بالمثل .

هنا تناقض آخر : كما ان دعاة القومية التركية كانوا من اطراف الامبراطورية كذلك اصبحت القومية العربية ، غير المعروفة في صحراء العرب ، عقيدة رجال من لبنان وسوريا . فقد بدأ اللبنانيون الصحف ودور النشر الكبيرة في مصر ، ومنهم من ألّف المعاجم والموسوعات باللغة العربية ، وأعجب كثيرون منهم بما فعله لورد كرومر في مصر فأرادوا توسيع الاستقلال الذي حصلوا عليه منذ سنة ١٩٦٠ ولو عنى ذلك تحالفاً مع دولة غربية ضد الأتراك ، وكان تأكيدهم أنهم عرب لا عثمانيون فد سهل عليهم الانفصال عن امبراطورية لها ارتباط وثيق بالإسلام .

أمل الأمير حسين الطامح ان يستعمل الانشقاق والكبرياء العربيين في تحقيق احلامه ، وقد كانت مرنة تمتد من مشروع معتدل لمملكة مستقلة في الحجاز الى تصورات خيالية هي فرض ضريبة على كل المسلمين في العالم بصفته خليفة عربياً .

عملت لمصلحة القومية العربية قوى كبيرة . كان العرب يشعرون بفخر ان الإسلام أوحي به إلى نبي عربي في كتاب عربي ، وان الفرسان العرب على قلة معرفتهم بالملاحة في البحار أو بحصار المدن استولوا على نصف الامبراطورية الرومانية في الشرق واحتلوا فارس . ظهرت سلالات ملكية من عرق عربي (وان كانوا ما لبثوا أن تزاوجوا مع شعوب أخرى) فحكمت من دمشق وبغداد امبراطورية عظيمة . والخليفة الحقيقي ، بناءً على حديث نبوي ، يجب ان يكون من قريش قبيلة النبي ، ويجب

ان يكون أمير المؤمنين عربياً له أنف كمنقار الصقر لا تركياً أفطس الأنف . ولكن انحلال العرب واستخدام حكامهم الضعفاء للغلمان الأتراك في الجندية تركا في الكبرياء العربي أثراً من الشعور بالنقص .

وهناك قوى أشدّ عملت ضد فكرة دولة عربية مستقلة ، منها أن الإسلام كان رابطاً أقوى من القومية . فالعربي المسلم يسمح لابنته بأن تتزوج تركياً مسلماً ولا يسمح لها بالزواج من عربي مسيحي . ثم ان الأسرة والقرية والقبيلة والمجتمع الاسلامي العالمي كلها روابط صحيحة ومقبولة أما القومية العربية فليست كذلك . يتكلم الناس لهجات عربية مختلفة من مراكش في الغرب الى طرف هضبة ايران في الشرق ، ولكن المتكلمين مستعربون أكثر منهم عرباً . انهم أحفاد البرابرة أو المصريين أو الفينيقيين أو البابليين الذين اعتنقوا الإسلام ومعه اللغة العربية . ولا شيء يعاكس هذه الوحدة سوى المصالح أو التقاليد . مثل ذلك ان الطائفة المارونية المسيحية المسيطرة في لبنان كانت على اتصال بروما ومرتبطة سياسياً بفرنسا ، والدروز كانوا يعتمدون على التأييد البريطاني ضد الموارنة ، والأقباط ارتبطوا بمصر ككيان منفصل مع أنهم يتكلمون العربية .

ان تذمر العرب من الامبراطورية التركية كان لا يختلف ، بمعنى ، عن تذمر الأتراك أنفسهم ، ولكن التذمر قد يوحّد ويفرّق . شعر كلا الفريقين بالمذلة لتأخره وعجزه عن الصمود في وجه الغرب ، وحنّ الى الرقي وعبّر عن حنينه اليه احياناً على أساس غربي . خرجت المدارس والكليات الغربية ، وخصوصاً الأميركية ، في المدن العربية والتركية جيلاً قدر له ان يتولى القيادة ، وسافر الشباب من هذه المدن الى المدارس والجامعات الأوروبية . هؤلاء الشباب المتعلمون أعجبوا بالمنجزات الغربية حتى وهم يقاومون سيطرة الغرب ، واعترفوا بالتقدم المادي الذي احرزته مصر في عهد أسرة محمد علي بمساعدة المستشارين البريطانيين والفرنسيين ، فأرادوا أن يدرس أبناؤهم في أكسفورد وفي معهد مساشوستس التقني لا في بلد الشريف حسين .

كانت مكة في أوائل القرن العشرين يسكنها ستون ألفاً يتضاعف عددهم في أيام الحج المعدودات ، ثم يرجع الحجاج الى بلادهم بذكريات دينية ترافقهم بقية حياتهم . بيد أنه كانت دون أداء شعائر الحج أشواك ، وتلك الأشواك هي أهـل الحجاز الذين كانوا يسطون على قوافل الحجاج في طريقها الى المدينة المقدسة ، حتى اذا وصل اليها الحجاج سلبوا اموالهم لقاء الطعام والمأوى . وكان أهل مكة يأخذون الماء مجاناً من قناة بناها العثمانيون ويبيعونه من الحجاج بالمال . ولم يكن الهاشميون مثلاً صالحاً ، فقد أحاطوا أنفسهم بالعبيد ، وملأوا سجلهم بالعنف والغدر ، فكان خريجو الجامعات القليلون لا يرغبون في أن يصبحوا رعايا لهم . ان الأمراء الهاشميين ، بعباءاتهم وجيادهم ، كانوا لا يجتذبون سوى الأوروبيين الرومانسيين .

ما لبثت أن تهيأت لكتشنر ورجال مكتب القاهرة أسباب لتأييد الانشقاق العربي . في نوفمبر ١٩١٤ أعلنت السلطة الدينية في القسطنطينية الجهاد . إن على المسلم ، بموجب هذه الدعوة القديمة الى الحرب المقدسة التي ترجع الى أيام النبي ، ان يحارب في سبيل الاسلام وذلك ضمن حدود معينة منها ألاّ يكون البادىء ، وألاّ يقطع شجرة للعدو ، وان يحترم النساء ويعامل اعداءه معاملة نبيلة . ومن يمت وهو يقاتل « في سبيل الله » يعتبر شهيداً ويدفن في ثيابه .

ان البريطانيين الذين كانوا يحكمون من المسلمين أكثر مما يحكم السلطان ، والفرنسيين الذين كانوا يسيطرون على مراكش والجزائر وتونس ، طالما أرعبهم ما قد يحدث اذا ما أحيا سلطان العثمانيين الجهاد كما أحيا الخلافة ، فلا أحد يستطيع أن يحكم على قوة تأثير هذه الدعوة أو ضعفه في عالم المدافع والسيارات والطائرات . لم ينتظروا طويلاً . على حدود مصر الغربية لبى زعيم السنوسيين الذي كان قد حصر الإيطاليين الغزاة في الساحل دعوة السلطان بحماسة واستولى على السلوم ، وفي السودان استجابت دارفور للدعوة بطريقة مماثلة .

لكن المسلمين الأكثر حنكة نظروا الى الجهاد بحذر ، فقد كان ينطوي على بدعة مثيرة ، اذ دخل الاسلام أول مرة حرباً الى جانب حلفاء مسيحيين ، فكان المفروض في المسلمين الخاضعين للحكم البريطاني أو الفرنسي أو الروسي لا أن يؤيدوا الخليفة فحسب بل ايضاً انصاره الألمان . أما الذين رفضوا الجهاد فقد ربطوا أنفسهم بالمسيحيين الآخرين ، بالبريطانيين والفرنسيين الذين لهم سجل في اخضاع المسلمين أسوأ من سجل الألمان .

ان المشكلة الخلقية التي أوجدها اعلان الجهاد أزعجت أبناء الحسين . كان صعباً على الحسين نفسه أن يستقر على رأي لأنه كان يقبض على الأقل من ثلاث جهات (علاوة على المخصصات العثمانية وما يتقاضاه من بريطانيا لقاء الأتعاب . ظل حتى منتصف ١٩١٥ يتلقى مساعدة مالية من ألمانيا) . أما علي ، ابنه الأكبر ، فقد كان ضعيفاً ومريضاً بالسل فلم يفعل شيئاً سوى اتباع قرار الأسرة . وأما زيد ، أصغر أبنائه ، فقد كان لا يزال صغيراً ، وبما ان امه تركية فلم يكن متحمساً للقضية العربية . بقي اثنان من أبناء الحسين لهما رأيان مستقلان . أحدهما عبد الله ، وقد كان واضح الرؤية ميكافيلياً ، فرأى ان ينتهز العرب الفرصة ويضربوا الأتراك من الخلف . والثاني فيصل ، ثالث أبناء الأمير حسين ، كان مديناً بكل ما يعرفه عن العالم للقسطنطينية التي كان عضواً في برلمانها ، ومطلعاً على ما جرى في العالم في العقدين السالفين . رأى أن بريطانيا وفرنسا قد احتلتا مساحات واسعة من العالم الاسلامي ، وان من المزعج جداً انهما لا تزالان تريدان المزيد . لذلك اقترح ان يتجرع العرب

مظالمهم وان يحاربوا باخلاص الى جانب اخوانهم الأتراك المسلمين ، فإن انتصروا كافأهم الأتراك بتلبية مطاليبهم المعقولة ، وقد تتحول الامبراطورية الى مملكة مزدوجة تركية وعربية ، وان خسروا قاتل الشعبان معاً عدوهما المشترك .

ساعدت المرآة الإرلندية على ايضاح هذه الحيرة العربية . كان الارلنديون في ذلك الحين ، كالعرب ، جزءاً معارضاً في نظام امبراطوري ، وكانوا مثلهم حائرين فيما يفعلون وقد تورط حكامهم في حرب حياة أو موت . طبعاً كانت هناك فروق . منها ان الإرلنديين لم يكونوا مرتبطين بالانجليز برباط الدين ارتباط العرب بالأتراك ولكن يوازن ذلك قربهم من الانجليز ثقافياً عن طريق الأدب الذي أغنوه كثيراً . كثيرون منهم كانوا على رأي فيصل ، اذا حاربوا مخلصين مع انجلترا في ساعة الضيق امكنهم بعد النصر أن يقدموا مطاليبهم الى حليف شاكر . وآخرون كعبد الله رأوا في ورطة انجلترا فرصة لإرلندا ، وكما اتصل عبد الله بالبريطانيين في القاهرة كذلك اتصل الوطنيون الارلنديون بالسلطة الألمانية في برلين ، فجاءت النتيجتان متماثلتين . استمر وضع الخطط للثورة في إرلندا ، كما في الحجاز ، طوال ١٩١٥ ، وبدأت الثورة في ١٩١٦ ، فاستولى الإرلنديون على مركز البريد في دبلين بينما حاصر العرب مكة واستولوا على جدة ، وفي كلا الحالين دفعت ردود الفعل الامبراطورية القاسية المعتدلين السابقين الى معسكري المتطرفين .

بالنسبة الى فيصل والمترددين الآخرين (ومن ضمنهم كثيرون من الضباط العرب في الجيش العثماني) جاء التحول الى الثورة في سنة ١٩١٥ . ذلك بأن جمال باشا ، حاكم سوريا العثماني ، اكتشف خلايا انفصالية في سوريا ولبنان ، فحاكم اعضاءها محاكمة سريعة وشنقهم فوراً وعلناً . أثارت جثث العرب المتدلية من المشانق العرب المترددين وجعلتهم يكفون عن اعتبار الأتراك اخوانهم في الدين ، وما كان فكرة أصبح قضية تستحق ان يقاتلوا في سبيلها ويموتوا .

لكن حتى حين ثارت العواطف من جهة ، وألحت الحاجة من جهة أخرى ، اشتدت المساومة بين العرب الذين وصفهم سترابو قبل ألفي سنة بأنهم تجار وبين البريطانيين الذين وصفوا مؤخراً بأنهم أصحاب متاجر ، وكانت المساومة تتعلق بالمنطقة التي على البريطانيين ان يعتبروها بعد الحرب دولة عربية مستقلة ، وبحدود هذه الدولة .

قرر الأمير حسين ان يستشير المثقفين العرب في الشمال ، اعضاء جمعيتين سريتين احداهما مدنية والأخرى عسكرية تسعى كلتاهما للانفصال عن الأتراك . كان مبعوثه الى دمشق ولده الثالث فيصل . أصرّ السوريون — والكلمة تشمل جميع أولئك الذين يعيشون فيما دعي فيما بعد سوريا وفي لبنان وفلسطين وشرق الأردن —

على استقلال العرب في كل المنطقة التي يكوّن المتكلمون بالعربية أكثرية سكانها ، وعينوا حدودها كما يلي : شمالاً خط يمتد من مرسين عبر جبال طوروس وهضبة الاناضول إلى حدود ايران ، شرقاً الحد الذي كان قائماً بين الامبراطورية العثمانية وبين ايران والخليج العربي ، جنوباً المحيط الهندي ، وغرباً البحر الأحمر والبحر الابيض المتوسط . لم يذكر شيء عن عدن التي كانت محمية بريطانية ، ولا عن مصر وشمال افريقيا ، ولا عن اليمن التي كان لها إمامها ، ولا عن وسط الصحراء العربية التي يتنازعها ابن الرشيد الموالي للاتراك وابن سعود الذي ارتبط بالحكومة البريطانية من الهند للدفاع عن نفسه .

وافق القوميون العرب على قيدين لاستقلالهم : معاهدة دفاعية تربط الدولة العربية المقبلة ببريطانيا ، ومنح بريطانيا أفضلية اقتصادية في هذه الدولة .

لم يكن ممثل بريطانيا في القاهرة رجلاً قوياً مختفياً وراء « القنصل العام » الضعيف ، بل كان سير هنري مكماهون المندوب السامي المسؤول عن محمية مصر ، الذي يمثل جيلاً يرى ان قيام الشعوب الملونة بحكم نفسها أمر لا يزال مستحيلاً ، ولذلك تردد مكماهون في الموافقة على الأهداف الثورية البعيدة للقوميين العرب ، ولكن المأزق الحرج الذي كانت فيه بريطانيا جعل ما عرف « برسائل مكماهون » بين مكة والقاهرة شيئاً ممكناً ، تلك الرسائل التي منعت بريطانيا نشرها عشرات السنين . في ذلك الوضع الحرج لجأ مكماهون في مخاطبة الحسين الى عبارات التبجيل كما يتضح من مقدمة اول رسالة بعث بها اليه :

« الى السيد الحسيب النسيب سلالة الأشراف وتاج الفخار وفرع الشجرة المحمدية والدوحة القرشية الأحمدية صاحب المقام الرفيع والمكانة السامية السيد ابن السيد والشريف ابن الشريف السيد الجليل المبجل دولتلو الشريف حسين سيد الجميع أمير مكة المكرمة قبلة العالمين ومحط رحال المؤمنين الطائعين عمت بركته الناس أجمعين » .

بيد ان الحسين الذي كان بائع سجاد بارع لم يفته ادراك المراوغة وراء هذا الحشومن الكلام . ذلك بأن مكماهون ركز على حلم الحسين بالخلافة كي يتفادى مسألة الحدود . وقد عاتبه الحسين بقوله : « ان هدفنا ، أيها الوزير المحترم ، التأكد من أن الأحوال الضرورية لمستقبلنا يمكن ضمانها على أساس من الحقيقة لا العبارات والألقاب المنمقة » .

في ٢٤ اكتوبر ١٩١٥ ارسل مكماهون المذكرة التي حددت الشروط التي سيبدأ العرب بموجبها ثورتهم في اللحظة الملائمة . أوضح المندوب السامي أولاً ان تردده الظاهر في بحث مسألة الحدود (اشار اليها في رسالة سابقة « بالتفاصيل ») إنما سببه شعوره بأن ذلك البحث لم يحن وقته ، لكن بما أن الحسين يعده أمراً جوهرياً فإنه

مفوض من قبل حكومته البريطانية بإعطاء العرب بعض الضمانات .

تقول المذكرة ان بريطانيا تتعهد بالاعتراف باستقلال العرب وبالدفاع عنه ضمن المنطقة التي حددها الشريف حسين مع بعض التحفظات التي يتعلق أهمها بالأراضي في آسيا الصغرى وسوريا ، وبالكويت الذي تربطه ببريطانيا معاهدة ، وحماية الأماكن المقدسة ، والاستعانة بالمستشارين البريطانيين ، ونوع خاص من الإدارة لمقاطعتي بغداد والبصرة .

حددت التحفظات الخاصة بآسيا الصغرى وسوريا في الجملة المهمة التالية : « ان مقاطعتي مرسين واسكندرونه ، واقساماً من سوريا واقعة الى الغرب من مقاطعات دمشق وحمص وحما وحلب ، لا يمكن ان يقال انها عربية صرفة ، ولذلك يجب أن تستثنى من التخطيط المقترح » .

كان سير مكماهون في استثنائه مرسين واسكندرونه لا يفكر في تركيا التي انتهت اليها هاتان المقاطعتان فيما بعد بل في فرنسا ، حليفة بريطانيا ، التي كانت لديها خطط لهما . ثم انه بتحديده الغامض لأقسام من سوريا غربي مقاطعات دمشق وحمص وحما وحلب إنما كان يشير الى المنطقة التي ليست لدى فرنسا خطط لها فحسب بل لها ايضاً ارتباطات قديمة بها منذ أيام لويس الرابع عشر ، وهي جبل لبنان الذي أكثرية سكانه من الموارنة المسيحيين الذين وان كانوا يتكلمون العربية ليسوا من أصل عربي ، والذين كان الدين يربطهم بروما والتاريخ بفرنسا . تمتع الموارنة في متصرفيتهم ، بسبب تدخل الامبراطور نابليون الثالث ، باستقلال ذاتي ستين عاماً (قضى على هذا الاستقلال حين نشبت الحرب العالمية الأولى) . لم يذكر المندوب السامي فلسطين التي كان العرب تسعة أعشار سكانها ، ولو أنه اراد استثناءها من المنطقة العربية التي ستصبح مستقلة لأشار اليها باسمها التقليدي أو بوضعها العثماني : النصف الشمالي جزء من ولاية بيروت ، والنصف الجنوبي متصرفية القدس .

تم التوصل الى اتفاق حول هذه الخطوط في أوائل ١٩١٦ ، وبدأت الثورة في يونيو . جاءت الثورة متأخرة . لو ان الانفصال العربي لقي تشجيعاً مبكراً ، وفي مناطق أكثر حساسية من الحجاز ، في سوريا مثلاً الواقعة على حدود الأناضول الجنوبية ، لربما ألحق بالاتراك ضرراً أكبر . ذلك بأن معظم الجيش العثماني الرابع في دمشق كان من العرب ، وكان كثيرون من ضباطه اعضاء في الجمعية العسكرية السرية التي كانت تعمل للانفصال عن تركيا . ولكن جمال باشا اكتشف في سنة ١٩١٥ الى اي حد كان الثوريون العرب يضعفون معنويات رجاله ، فنقل الجنود العرب فوراً الى غاليبولي حيث أحسنوا القتال ، واحضر الى سوريا بدلهم جنوداً يتكلمون اللغة التركية .

اما المنطقة الثانية فهي العراق — الذي كان مكتب القاهرة مهتماً به — وهو ولاية عثمانية اخرى أهم للأتراك من الحجاز . هنا ضيعت الفرصة أيضاً . غزى العراق جيش من الهند البريطانية ، وكان يظن ان هذا الوادي الحاوي صالح للفائض من سكان الهند ، ولذلك كان قواد الجيش الغازي غير مضطرين الى التسرع في عرض الاستقلال على العراقيين ، كما كانوا ينتظرون ان يكون غزو العراق عن طريق البصرة نزهة ، اما الواقع فكان نشوب حرب طويلة ضارية وقف فيها العراقيون يراقبون .

كان ثمن الثورة بالنسبة الى العرب غالياً في المدى الطويل والقصير . دفعوا جميعاً هذا الثمن مع أن أقل من عشرة بالمائة منهم اشتركوا في الثورة . حتى في الحجاز لم يكن الرأي العام وراء الحسين ، ولكن خروجه على الأتراك وما تبعه من فرار الضباط العرب وبعض الضباط الأكراد من الجيش العثماني حطم ما تبقى من الفكرة العثمانية ، وفتح الطريق في المدى البعيد الى تركيا التركية . أما في المدى القصير فإن جمال باشا قضى بقسوة على الذين شعر نحوهم بالازدراء الذي شعر به البريطانيين نحو الإرلنديين الكاثوليك ، فعذّب في فلسطين العرب الذين افترض انهم موالون لقضية الحلفاء وشنقهم ، وعرّض لبنان الذي لا شك في تعاطفه مع الغرب لمجاعة أودت (بناء على إحصاء قام به المبشرون الاميركيون) بنحو ربع سكانه أو ثلثهم .

كانت الثورة العربية ذات قيمة كبيرة للحلفاء . ذلك بأن رفض أمير اقدس مدينة إسلامية للجهاد ساعد على منع حركة تمرد في الجيش الهندي . ثم ان احتلال مكة وجدة اضطر الأتراك وحلفاءهم الألمان الى ارسال الجنود والذخائر الى الجنوب ، واهمال خططهم الأخرى ضد قناة السويس. بدا عرب الحجاز في نظر رونالد ستورس جبناء وغير منظمين . لا ريب أنهم كانوا يختلفون عن الجيوش الأوروبية ، ولا يعرفون شيئاً عن الفنون الحربية الغربية ، لأن خبرتهم كانت مقصورة على الغارات البدوية التقليدية التي يزيد فيها الصراخ على القتل . يضاف الى هذا ان المنازعات بين قبائلهم جعلت توحيدهم صعباً ، حتى اذا وحدوا أصبح من الصعب قيادتهم وابقاؤهم في مكان واحد . ولكن قوتهم كأفراد واعتزازهم برجولتهم جعلاهم يبدعون في نوع من القتال قام فيه الإندفاع والبراعة ، لا روح الفريق والانضباط ، بدور رئيس . كانت قبائل الحجاز صورة لأبطال هذا القرن ، للمغاوير ورجال العصابات ، الذين ظهروا فيما بعد .

كانت الثورة العربية ذات قيمة للحلفاء ، و خصوصاً لبريطانيا التي بالغت في تقدير فتح جبهة جديدة في بحر مجهول فجاءت الثورة مقوياً حين كانت المعنويات العامة منخفضة. ان نهوض أبناء الصحراء الشجعان لتأييد بريطانيا عوض من المذابح

المستمرة في الجبهة الغربية . وهكذا عادت الحرب ساحرة ، وفي وسطها سحر شاب انجليزي خيال معاصريه أكثر من أي شخص آخر . إنه لورنس الكابتن في الاستخبارات البريطانية الذي كان يزال في العقد الثالث من عمره ، والذي أصبح في نظر قراء الصحف ملك الجزيرة العربية غير المتوج وصانع سلالة جديدة من الملوك العرب ، وجعلته الأسطورة بطلاً معبوداً من أقصى الصحراء الى أقصاها . قال : « إنهم لا يسألونني من أنا ، لأن ثيابي ومظهري عاديان في الصحراء . اشتهرت بأني الحليق الوحيد ، وضاعفت هذه الشهرة بارتداء ثوب من الحرير الأصلي أبيض ناصع ، وكوفية قرمزية وعقال مذهب مكبين ، وخنجر ذهبي » .

كان هناك منذ ١٩١٤ دور بطولي ينتظر من يؤديه ، وقد وجد ان لورنس ممثل مدرب مستعد لأدائه أمام مشاهدين خصوصيين من الخاصة وعلى المسرحين البريطاني والعالمي . كان ابن مربية أطفال عاشرت ملاكاً انجليزياً – ارلندياً غيّر من أجلها اسمه وهجر زوجته وبناته الأربع ، ولذلك تهيأ للورنس ذلك الأساس الإجتماعي المشوش الذي يدفع في المجتمع الراقي الى الطموح أكثر من أي شيء آخر . وكان لورنس كالكثيرين من الرجال الذين لديهم قوة دافعة ضارية « ماسوخياً » يعذّب جسده في سبيل انطلاق روحه ، وكمعظم الرجال الذين يحققون حياتهم الجنسية بالنزوات « كذاباً زنيماً » . لكن كل هذه الأمور كانت خافية على الخبراء الذين رأوا فيه البطل الذي ينشدون كما ينشدون النصر . فإن ونستون تشرتشل وروبرت جريفز وبرنارد شو وسواهم لم يكونوا سوى قليلين من مشاهير الرجال الذين وجدوا في هذا الشاب البارع في التمثيل البطل الذي كانت الحرب تفتقر اليه . كانت فيه انعزالية شديدة فاترة ، وتعظيم للعنف العدمي الذي يتحرك بصورة غريبة نحو المثقفين والسياسيين أصحاب الياقات المنشاة .

لما كان لورانس يتمتع بعقل سليم وسحر قوي ، وكان قد أتقن دوره قبل الحرب في « الحفريات » التي نصفها أثري والنصف الآخر تجسس ، ووجد من السهل ان يصدق كذبه سهولة النطق به ، فقد اتقن دوره بصورة اقنعت تماماً الغربيين المعجبين به . ادعى ، وكان يعرف ان ادعاءه كاذب ، انه يستطيع ان يقنع العرب بالطريقة نفسها . كانت عربيته ضعيفة ولكن كافية للتغلب على الصعوبة التي يواجهها كل غربي يريد ان يحادث عربياً . ان هذا الانجليزي الأزرق العينين الذي يرتدي الحرير النقي كان مقنعاً للعرب بمقدار قدرة اميركي يرتدي الكيمونو على الاقناع .

لم يحمل لورنس العرب على الثورة بايحائه ، فقد رأينا ان جماعة من العرب كانوا يخططون للثورة لأسباب خاصة بهم . ولا قادهم الى النصر بمعرفته الاستراتيجية ، فان للبدو الرماة شعورهم الغريزي في الكمون ، وقد كان بين الضباط العرب الذين

فروا من الجيش التركي وانضموا الى فيصل رجال مدربون على احدث الطرق الحربية الألمانية منهم ، على سبيل المثل ، نوري السعيد الذي قدّر له ان يقوم بدور خطير في تاريخ العرب . ترك نوري السعيد بيته في بغداد والتحق بالكلية العسكرية في القسطنطينية وهو في الرابعة عشرة من عمره ، وتخرج ضابطاً صغيراً بعد أربع سنوات ، ثم قضى الفترة من ١٩٠٨ الى ١٩١٦ ، قبل أن ينضم الى فيصل ، في دراسة الفن العسكري في كلية الأركان ، وفي التدريب عليه في الحرب البلقانية .

ان لورنس مدين بنفوذه الى وفرة الجنيهات الذهبية الانجليزية التي تحمل على احد وجهيها صورة القديس جورج على ظهر جواده . كان الشريف حسين يعتمد على موارد الحج والإعانات المالية الأجنبية ، فما كانت القبائل لتلتف حوله أو تبقى ملتفة دون تشجيع مالي . شاهد أحد الانجليز الكابتن لورنس على ظهر جمل في لباس عربي ، وسمع البدو يحيونه بقولهم : « مرحباً أبا خيّال » ، وكان هذا الانجليزي يفهم معنى الجملة ، ولكن حيّره سبب استعمالها ، فسأل عربياً واقفاً بجانبه : « لماذا يدعون لورنس أبا خيال ؟ » فاجابه العربي سائلاً : « ألم تر الجنيه الانجليزي الذهب الذي يحمل صورة خيال ؟ » ان الذهب البريطاني ، أكثر من القضية البريطانية ، هو ما دفع أبناء الصحراء من مكة الى الشمال .

آخر شيء لم يتوفر في لورنس ، على الرغم من الأساطير هو صداقة العرب . كانت عاطفته ضد الاتراك والفرنسيين على السواء ، وقد وجه كل أعماله الى ما رآه في مصلحة الامبراطورية البريطانية . كانت سياسته أولاً اخراج الأتراك ثم ابعاد الفرنسيين . ذهب الى الحجاز ليشرف على الحركة العربية لا ليلهبها . طبعاً وصف زيارته بصورة مختلفة .

كانت زيارته الأولى للحجاز لتكوين فكرة عامة عن الداخل ، وتقويم قائد الثورة العربية وأبنائه الأربعة .

وجد لورنس ان الحسين قوي الإرادة الى حدّ يجعله غير صالح لغرض بريطانيا . وقد اعترف بعلي ، أكبر أبنائه ، كرجل لا كقائد . بدا له سيداً دمثاً ولكنه كان عليل الجسم وعصبياً ، عالماً بالفقه والدين ومتديناً الى درجة التعصب . ان وعيه لتراثه العظيم يجعله غير طموح ، ونقاوة طبيعته تحول دون رؤيته الدوافع المصلحية فيمن حوله أو الشك فيها .

وكما صرف النظر عن علي كذلك صرفه عن زيد اصغر ابناء الحسين وكان في التاسعة عشرة من عمره . قال انه كان شاباً خجولاً هادئاً ، نشأ في الحريم مع أمه التركية فلم يتحمس للثورة والبعث العربي ، ومع ذلك قام بدور بسيط في العمليات العسكرية ، ثم انصرف الى العمل الدبلوماسي وتزوج رسامة تركية ، فكانت حياته

أهدأ من حياة إخوته .

كان المعقول أن يقع خياره على عبد الله ثاني أبناء الحسين ، وعضو البرلمان النشيط الذي كان أول من طرح مسألة الثورة على كتشنر بصراحة . ثم انه الوحيد من أبناء الحسين الذي ترك أثراً قوياً في نفوس العرب . قال لورنس : « رأى العرب في عبد الله رجل دولة بعيد النظر وسياسياً داهية . لا ريب انه كان داهية لكن ليس الى الحدّ الذي يقنعنا دوماً بإخلاصه . وكان طموحه واضحاً . جعلته الشائعات دماغ أبيه ودماغ الثورة العربية ولكنه بدا ليناً جداً بالنسبة الى ذلك . كان هدفه طبعاً كسب الاستقلال للعرب وتأسيس دولة عربية ولكنه قصد أن تكون إدارة هذه الدول في أسرته » .

ادعى لورنس انه أدرك فوراً ان الرجل الذي يبحث عنه إنما هو فيصل ثالث أبناء الحسين ، وكان في الحادية والثلاثين من عمره . قال لورنس إنه لم يكن مثقفاً ، وقد أراحه ذلك بعد ما رأى في أخيه عبد الله من حب الاستطلاع والحيوية ، وان طبيعته كانت تكره التفكير لأنه يشل سرعته في العمل . لكن تكوينه الجسدي كان مثيراً : « كان طويلاً ، رشيقاً ونشيطاً ، جميل المشية جداً ، في رأسه وكتفيه هيبة ملكية . طبعاً عرف ذلك ، فكان جزء كبير من تعبيره بالإشارة والإيماءة » .

طالما حيّر قراء لورنس تفضيله فيصل على أخيه عبد الله مع أن رسمه يظهر ضعفاً . لكن من يعرف غرض لورنس يجد اختياره معقولاً . ذلك بأنه لم يكن يبحث عن رجل قوي يثير البدو في زحفهم نحو الشمال الى سوريا ، بل عن رجل ضعيف ومهيب يستطيع هو أن يؤثر فيه . عندها تتزين الثورة العربية بلباس الصحراء ، وتكون وجهتها دمشق ، أما غرضها فسيكون مختلفاً عما يتصور العرب الذين يهتفون للحرية .

لقد حدّد لورنس ، بعدم اكتراث ، موقفه الحقيقي من الثورة العربية في وثيقة سرية كتبت في يناير ١٩١٦ ولم يرها سوى عدد قليل من المسؤولين . ان ثورة الحسين في الحجاز ستكون مفيدة لبريطانيا « لانها تتمشى مع الأهداف الحالية : تحطيم الكتلة الإسلامية ، والتغلب على الامبراطورية العثمانية وتمزيقها . أما الدول التي ستقام لتخلف الأتراك فستكون غير ضارة بنا كما كانت تركيا قبل ان تصبح آلة في يد الألمان . بل ان العرب أقل استقراراً من الأتراك ، فاذا احسنت معالجتهم ظلوا في حالة تفرّق سياسي ، ولايات صغيرة متحاسدة عاجزة عن الاتحاد » .

بعد ان عمل لورنس مع فيصل سنة تقريباً ألّف ما يعادل كتاب ديل كارنيجي « كيف تكسب الأصدقاء وتؤثر في الناس » . ولكن لورنس كان مهتماً بخلق الدمى والتأثير في العرب ، فجاء كتابه إيحاء لجيل من « المستشارين » البريطانيين كيف يحكم من وراء ستار . وقد أعطى ذلك معنى صحيحاً لخلاصة رأي لورنس في فيصل :

« قائد ملهم اذا ما قُنّع اعطى الفكرة وراء نشاط الثورة العربية صورة قوية » .

مسكين فيصل ، أدرك متأخراً جداً الفكرة التي دفعت زوبعة الصحراء ، تلك الزوبعة التي سار في وسطها مبجلاً سهل القياد كئيباً .

الفصل الرابع

غدت الثورة العربية ، كعاصفة في الصحراء ، أزهاراً قصيرة الأجل ، وكحروب العصابات جميعاً استغرق ظهور تأثيرها زمناً . لقد قوّت المعنويات ولكن لم تربح الحرب . كان شتاء ١٩١٦–١٩١٧ أول فصل منذ صيف ١٩١٤ تصور فيه الحلفاء الوقوع في مأزق ان لم يتصوروا الهزيمة . لم تكن التكهنات المتشائمة مبالغاً فيها ، فقد شهدت سنة ١٩١٧ ثورتين في روسيا : أطاح كيرنسكي بالقيصر في مارس، ثم جاء لينين فتغلب على كيرنسكي في نوفمبر . هذا وقد دحر الايطاليون في كابوريتو ، وتمرد الجيش الفرنسي بعد أن مني بخسائر تبلغ ضعفي خسائر بريطانيا التي وصفها زعيم حزب المحافظين في مجلس اللوردات ، وان كانت أقلّ ، بأنها « تقتل ببطء خيرة رجال الجزر » البريطانية التي هددها حصار الغواصات الألمانية بالمجاعة. يضاف الى هذا تقدم الألمان السريع في رومانيا وان لم يكد يضف شيئاً الى هذه الصورة الكئيبة جداً .

قابلت بريطانيا الأزمة بقسوة غريزية . في اوائل ديسمبر ١٩١٦ حلّ لويد جورج محلّ أسكويث في رئاسة الوزارة ، وكان سياسياً قبل كل شيء آخر ، ثملاً بأصله السلتي ، مؤمناً بأن قضية بلده ستنتصر وان اقتصادها حقّ . أظهر اثنان من اعضاء وزارته ، هما لورد ملنر وزير الحربية وليوبولد أمري ، امبريالية جديدة وطلبا امبراطورية أوسع . في يناير ١٩١٧ قدم أمري مذكرة قال فيها ان على بريطانيا ان تبذل جهدها للحصول على أراضٍ جديدة أو للسيطرة على افريقيا الشرقية وما بين مصر والهند .

ثم في فبراير المظلم جلب تراجع العثمانيين نسمة من نسمات ربيع الشرق ، اذ انهزموا في كوت العمارة جنوبي العراق وانسحبوا الى بغداد ، وفي الشهر التالي تخلوا عن بغداد نفسها أكثر العواصم العربية شهرة مع أنها لم تكن في ١٩١٧ سوى مدينة محاطة بأسوار من الطين على شاطىء دجلة المملوء بالغرين .

في وضع كهذا بدا أنه لا الحلفاء فيه ولا دول الحلف المركزي قادرون على احراز نصر حاسم ، وان التقدم في الجبهة الغربية يقاس بمئات الياردات وألوف الجثث ، كان توازن العوامل دقيقاً.وفي حرب تعدّ العوامل فيها أهم كثيراً من المبادىء كانت للفريقين المتصارعين مصلحة في ضمان التأييد اليهودي ، وأكبر

مجتمعين لليهود هما اللذان في روسيا والولايات المتحدة .

دخلت اليهودية العالمية الحرب كما دخلته الكاثوليكية العالمية . وكما اندفع البافاريون لقتال الفرنسيين إخوانهم في المذهب الديني ، كذلك تطوع اليهود للقتال في كل البلاد المتحاربة ومن ضمنها روسيا التي تحسنت معاملتها لليهود بعد ١٩١٤ بصورة ملحوظة . واذا كان يهود العالم غير متحدين فان الصهيونية العالمية اختارت ، كالبابا ، حياداً يقظاً . ولكن الصهيونيين لم تكن لهم مؤسسة كالفاتيكان ، ولذلك نقلوا الرئاسة من برلين الى كوبنهاجن ، كما نقل الدكتور ماكس بودنهايمر ، رئيس الصندوق القومي اليهودي ، أموال الصندوق الى خزائن لاهاي .

واذا كان الصهيونيون حياديين رسمياً فإن معظم زعمائهم كان مرتبطاً عاطفياً بألمانيا . فقد كانت الألمانية لا تزال لغة منظمتهم الرسمية ، واكثرهم يعيش في الدول التي تتكلم هذه اللغة . ثم ان كثيرين من اليهود لم ينضموا الى الجيش الألماني فحسب بل ادعوا أن الثقافة الألمانية متفوقة على ديموقراطية بريطانيا وفرنسا الزائفة وحضارتهما السطحية . ألف هؤلاء الصهيونيون الميالون الى المانيا ، ومنهم ناحوم غولدمان المؤيد لبودنهايمر ، « لجنة لتحرير اليهود الروس » حصلت على تأييد معنوي من اللجنة المركزية التابعة للمنظمة الصهيونية العالمية .

فتح النصر في معركة تاننبرج المقاطعات الروسية الغربية أمام الألمان . وحين دخلت جيوشهم المنطقة الروسية التي يسكنها اليهود رحب هؤلاء بها كمحررة لهم . سرّ الجيش الألماني أن شبه ألمان بين الكثيرين من السلاف ، فان اللغة اليديشية لا تكاد تبعد عن اللغة الألمانية أكثر من بعد اللهجات الألمانية الاخرى على حدود هولندا وسويسرا . وقد وصف تقرير سري للمستشار الألماني في الشهر الأول من الحرب اللجنة الصهيونية بأنها « أداة لا تثمن للاستخبارات والتخريب ، وخصوصاً في روسيا » .

كانت لدى اللجنة أسباب قوية لتأييد ألمانيا ، منها أن روسيا شهدت أسوأ الاضطرابات ضد اليهود وتساهلت معها ، بينما فتحت ألمانيا ابوابها لليهود الموهوبين . واذا كانت اللاسامية قد هيجت بعض رعايا القيصر الألماني فأولئك كانوا من المهووسين وغير المتعلمين لا من أرباب النفوذ . أسرّ رئيس المنظمة الصهيونية العالمية الى بودنهايمر بأنه يرى أن انتصار الألمان سيكون ذا فائدة كبيرة للعالم كله .

كانت هناك ، كما في كل العلاقات البشرية ، عقبات ، خفية . فالمعاهدة الألمانية العثمانية لم تعط اليهود فرصة لذكر فلسطين ، على الاقل ورحى الحرب دائرة. بيد أن مساعي الألمان في القسطنطينية ساعدت على ضمان معاملة للمستوطنين الألمان في فلسطين أفضل من تلك التي كان يلقاها اليهود الروس . سكتت اللجنة عن

فلسطين ، ودعت الى تأسيس مجتمعات يهودية مستقلة في مناطق الحدود المحررة ، رأت فيها منطلقاً الى فلسطين لا تعويضاً منهـا كما اراد هيرتزل في حـالة قبرص أو أوغندا . وحين تربح المانيا الحرب ستضغط على تركيا لإقرار الحقوق اليهودية في استيطان فلسطين .

في منتصف اكتوبر ١٩١٤ دعي بودنهايمر واحد زملائه الى مقابلـة لودندورف وهندنبرج ، قائدي الحرب المانية ، في مقرهمـا في الجبهـة الشرقية ، وقد سحر اليهوديان بالمجاملة التقليدية التي قابلهمـا بها ممثلا العسكرية البروسية .

بيد ان تأسيس مناطق يهودية مستقلة يتوقف على النصر الألماني ، وقد كان مجيئه بطيئاً . ثم إن فعالية النمسا في الجنوب وحاجات الجبهة الغربية اضعفت الاندفاع الألماني . وقد اضطر الجيش الألماني الى إخلاء مواقعه في بولونيا الجنوبية . وقبل ذلك اكتشف الألمان عقبات في سبيل المشروع الصهيوني . ان البولونيين الذين يفوقون اليهود عدداً كانوا قوميين عنيفين لا يتساهلون إلاّ مع نوع واحد من الصهيونية ، النوع المتطرف الذي يخرج اليهود من أوروبا ، وليست هذه اول ولا آخر مرة يصبح فيهـا الصهيونيون واللاسلاميون حلفاء واقعيين .

كتب مارتن بوبر في ١٩١٢ ، وهو يهودي ارتفع تأثيره الروحي عن الحواجز الدينية ، يقول : « لن نكتشف انفسنا ثانية حقاً إلاّ في آسيا . نحن هنا في اوروبا كأسفين دقته آسيا في البنيان الأوروبي ، شيء يثير القلق والاضطراب . علينا أن نرجع الى قلب آسيا ، وان نعود في الوقت نفسه الى المعنى الحقيقي لرسالتنا ومصيرنا ووجودنا » . وقد أعيد نشر هذه الكلمة مراراً ، وكان البولونيون أول من وافق عليها لأنهم ارادوا ان يهاجر اليهود (وكانوا ينظرون إليهم كمنافسين لهم في العمل) من بولونيا لا أن يؤسسوا مجتمعات مستقلة ذاتياً في الأرض البولونية .

كانت لموقف اللجنة الصهيونية نتيجة أمكن أن تساعد هدفهـا البعيـد ولكن على حساب آلام شديدة تعرض لها اليهود في الحرب العالمية الأولى . ذلك بأن الاستخبارات الروسية انتبهت الى نشراتهـا . لمحت كتابات هذه اللجنة بالنسبة الى الروس (الذين كانوا يشكون دوماً في ولاء الأقلية اليهودية) الى أن هناك على حدودها ستة ملايين ونصف مليون شخص يحتمل أن يكونوا خائنين . وبحركة اتصفت بالذعر والقسوة أخرجت روسيا على الأقل مليون يهودي ، فأثر ذلك كثيراً في تحول الرأي العام في البلاد المحايدة ، وخصوصاً في اميركا ، ضد إحدى دول الحلفاء ، واسرعت ألمانيا الى استغلال هذا التهجير. وحين تحولت المعركة مرة اخرى في مصلحتهم دعوا صحافيين أميركيين الى اوروبا الغربية ليروا باعينهم الدليل على الاسامية الروسية .

ان الرجال المسؤولين عن الدعاية للحلفـاء أزعجهم تصرف حليفتهـم روسيا ، وكان خير مخرج فكروا فيه هو انه اذا كانت المعاملة الروسية السيئة لليهود قد شوهت سمعة الحلفاء فإن المعاملة التركية السيئة للأرمن قد شوهت الثقافة الألمانية .

و لكن هذه الطريقة في الدعاية كانت غير فعالة لا لأن الرأي العام العالمي قبل ادعاء الاتراك بأن الارمن كانوا يتآمرون عليهم مع الروس بل لأنه كان لا يعرف تماماً من هم الأرمن . فالأرمن ، خلافاً لليهود، كانوا طائفة مسيحية معروفة قليلا، كما كانت امكاناتهـا ضئيلة لا تكفي لفت انتباه الرأي العام العالمي الى مظالمهـا .

أمام المزايده الألمانية الناجحة لكسب تأييد اليهود ، أو على الاقل حيادهـم ، دخلت أميركا الحرب ، وقد أوجد دخولهـا مشكلات جديدة للامبرياليين الجدد . ذلك بأن حكومة الرئيس وودرو ولسون كانت معروفة بتعصبهـا على الاستعمار ، وفوق ذلك برفضها الاتفاقيات السرية ، وكانت بريطانيا واميركا قد عقدتا عدداً منها ، وسيسبب كشفهـا ازعاجاً للرئيس ولسون وللشريف حسين .

في هذه الفترة الحرجة ظهر من عدّ لها . إنه حاييم وايزمن الذي استطاع أن يقنع مخططي السياسة البريطانية بأنه إذا كسب الحلفاء تأييد اليهود لهم في الحرب فإن ذلك يخدم مصالح الامبراطورية ويزيل آثار المذابح الروسية .

ولد وايزمن في منسك لأب كان تاجر خشب ناجح . لم يتصل في صغره بغير اليهود وان كان يجيد الكتابة بالروسية الى حدّ أنه ادعى أن اليهود أوسع اطلاعاً على هذه اللغة وعلى أدبهـا من معظم الروس . وكان يفضل استعمال اللغة العبرية على اليديشية التي نصفها ألماني لأنه أراد كصهيوني التمسك بثقافته الخاصة ، ولأن الصهيونيين يعتقدون « ان الاستيعاب خيانة عامة لعلم الشعب اليهودي ومثله » .

كانت عائلته ثرية في بيتهـا مكتبة تضم كتباً من مختلف المواضيع حتى الكيمياء والطب والهندسة ، ولذلك كانت تدور بين أفراد الأسرة مجادلات باللغات الثلاث ، الروسية واليديشية والعبرية . أما الموضوع الذي كانوا يتفقون عليه فهو وضع اليهود الذي لا يطاق في روسيا القيصرية ، فقد حصروا في مناطق معينة وحدد عدد من يلتحق من أبنائهم بالجامعات . ولكن حاييم وأخوه شمويل اختلفا في طريقة حلّ هذه القضية : بينما أراد حاييم ان يخرج اليهود من روسيا الى البلد الموعود رأى شمويل ان يبقوا ويحولوا روسيا نفسها الى البلد الموعود بالعمل الثوري . ولذلك كانت أمهما تقول : « مهما حدث فسأكون بخير اذا كان شمويل على صواب بقينا في روسيا سعداء ، واذا كان حاييم على صواب ذهبنا لنعيش في فلسطين . »

بدأ حاييم يشعر بمشكلـة اليهودي الروسي حين تخرج من الجمنازيوم في

منسك وأراد الالحاق باحدى الجامعات الروسية . كان باستطاعته ان يلتحق بجامعة كييف ، كما فعل أخوه من قبل ، ولكن الطريق إليها ملآن بالتحايل والخداع والمذلة فآثر التوجه غرباً . وكانت اول محطة نزلها ، كي ينتقل منها في النهاية الى منشستر في انجلترا ، بلدة فونجستات الألمانية حيث عمل في تعليم اللغة العبرية في مدرسة يهودية . وجد جوّ هذه البلدة مختلفاً عن جوّ روسيا ، كما وجد يهود ألمانيا يختلفون عن اليهود الروس . مثلاً وجد الدكتور بارنس ، مدير المدرسة ، يهودياً متديناً ولكن ولاءه لألمانيا كان صادقاً . كانت ثقافته ألمانية وديانته يهودية ، وكان يعتقد ان اللاسامية ستختفي بشيء من الاستنارة خلافاً لوايزمن الذي اعتقد ان اللاسامية جرثومة يحملها كل من كان غير يهودي .

ان الاستعداد لقبول كون اليهود ساخطين على وضعهم ساعد على تسهيل دور وايزمن كداعية صهيوني في انجلترا حيث أصبح كيماوياً قبل اندلاع الحرب بفترة قصيرة، وحيث وضع في ١٩١٧ في مسرح التاريخ الصهيونية إن رجال السياسة الذين كان عليه ان يقنعهم كان اليهود في نظرهم خليطاً من الذهب والوحل كثيراً ما ازدروه في قرارة نفوسهم . نشأ لويد جورج على العهد القديم ، وكذلك وزير خارجيته آرثر بلفور ، وكان يرى ان العبرانيين القدامى يمثلون الذهب أما اليهود المعاصرين فقد كان رأيهم فيهم غير حسن . في إحدى المناسبات ، بعد جدل مع عضو يهودي بارز في وزارته ، التفت الى صديق له وصاح : جبان قذر ! ان الرجال من ذلك العرق دوماً كذلك » ! أما بلفور الشديد الحساسية فقد كان يستحيل عليه أن يرسل تعميماً كهذا ، ولكنه اشترك مرة في بحث مع كوزيما و اجنر (زوجة فون بولو قبل زواجها من الموسيقي) وشاركها كثيراً من مبادئها اللاسامية .

قدم وايزمن الى سياسيين وطنيين أصيلين مثل لويد جورج ، منهمكين في حاجات الجبهة ، أو مثل بلفور الذي كان يحلم بحلف بين الأعراق الممتازة ، صيغة مغرية بقدر ما كان الكيماوي البديل من الأستيون نافعاً . شيئان في هذه الصيغة جذبا لويد جورج وبلفور : بعث عبرانيي العهد القديم ، وإنقاص عدد اليهود في بريطانيا . وهناك شيء ثبت الصفقة وهو أن بريطانيا بعرضها على الصهيونيين ما يريدون قد تضع يدها على فلسطين ، واذا أصبحت فلسطين تحت السيطرة البريطانية كان في ذلك حماية لمشارف قناة السويس ، وتسهيلاً للسبيل الى العراق هدف الامبرياليين الجديد . ثم ان التأييد البريطاني لمصالح اليهود ، في رأي وايزمن ، يقضي على البلبلة التي تحاول صحف العدوّ خلقها باعطاء اليهود دعوة غامضة .

لذلك يجب ان تكون الوعود ، كي يضع اليهود ثقلهم وراء الحلفاء ، أكثر من وعود غامضة ، لكن يجب ان تكون أيضاً أقل من محكمة اذا ما أريد عدم إضعاف قضية الحلفاء في الجبهة العربية ، فقد سبق ان ضمنت بريطانيا للعرب الاستقلال في منطقة تضم فلسطين ، وكذلك ذكرت نقاط الرئيس ولسون الأربع عشرة (٨ يناير) ، في النقطة الثانية عشرة ، ما يلي : « ان القوميات الأخرى التي هي الآن تحت الحكم التركي يجب ان يضمن لها أمن على الحياة لا شك فيه ، وفرصة مطلقة مصونة لتطوير الاستقلال الذاتي » . وإذا كان تقرير المصير يعني شيئاً فقد عنى ان للأكثرية العربية في فلسطين حقاً ثابتاً في تقرير مصير بلدها .

أن الوعد الذي قطع للصهيونية جاء في صورة تصريح بدا مثلاً للفوضى ، أرسله بلفور الى لورد روتشيلد في ٢ نوفمبر ١٩١٧ .

« عزيزي اللورد روتشيلد :

« يسرني جداً أن أبلغكم بالنيابة عن حكومة جلالته التصريح التالي الذي يعبر عن عطف الحكومة على أماني الصهيونية . وقد رفع هذا التصريح الى الوزارة وأقرته :

« ان حكومة جلالة الملك تنظر بعين العطف الى تأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين، وستبذل جهدها لتسهيل هذه الغاية على ان يفهم جلياً انه لن يؤتى بعمل من شأنه ان يغير الحقوق المدنية والدينية التي تتمتع بها الطوائف غير اليهودية المقيمة الآن في فلسطين أو الحقوق والوضع السياسي الذي يتمتع به اليهود في البلدان الأخرى .

« هذا واني أكون شاكراً لكم اذا تفضلتم بنقل هذا التصريح إلى اتحاد الجمعيات الصهيونية . »

المخلص

آرثر جيمز بلفور

لم يكن الغموض نتيجة إهمال أو كتابة بيروقراطية ، فإنه لم تلق كلمات قليلة في التاريخ العناية التي لقيها هذا التصريح . ولم تكن كلمات بلفور . الواقع ان الصهيونيين كتبوا تصريحهم الخاص ، وهذا يضفي بعض المرارة على الجملة الأخيرة . ثم عبر النص المحيط الأطلسي الى مستر لويس براندايز ، مستشار الرئيس ولسون الخاص ، الذي كان منذ ١٩١٣ صهيونياً نشيطاً ، ومنذ ١٩١٦ رئيساً للمحكمة العليا . بعد أن وافق براندايز على المسودة قدمها لورد روتشيلد الى بلفور في ١٨

يوليو . لم ترد في هذه المسودة إشارة الى سكان فلسطين الاصليين وقد اعتبرت فلسطين « الوطن القومي » لا « وطناً قومياً » للشعب اليهودي ، وقد « منحت اليهود في فلسطين استقلالاً داخلياً، كما منحتهم اليهود حرية الهجرة، وتأسيس شركة استعمار قومية يهودية لاستيطان البلد وتنميته الاقتصادية » . ولكن بسبب اعتراض بعض اليهود — لوسيان رولف ، كلود مونتيفيوري ، وسير ماتيوناتان — لا بسبب اعتراض العرب ، اعيدت كتابة المسودة .

اقرت المسودة التي اعيدت كتابتهـا في اميركا ثانية ، وقبلت فيهـا الحكومة البريطانية مبدأ إعادة انشاء فلسطين كالوطن القومي للشعب اليهودي ، وبذل أقصى الجهد لضمان تحقيق هذا الهدف ، وان تبحث مع المنظمة الصهيونية في الطرق والوسائل اللازمة لذلك . وقد قاوم سير أدوين مونتاج ، وزير التموين الحربي ، هذه المسودة بقوة .

بدلاً من أن يرى سير مونتاج في التصريح دليلاً على صداقة بريطانيا لليهود وضع مذكرة مذهلة عنوانها : « لاسامية الحكومة الحالية » ، قال فيها إن قبول الافتراض القائل ان اليهود شعب لا طائفة دينية لن يساعد المجتمع اليهودي في المدى البعيد . وكتب ايضاً : « بدت الصهيونية دوماً عقيدة سياسية ضارة يتعذر على أي مواطن وطني في المملكة المتحدة أن يدافع عنهـا . اذا وضع يهودي انجليزي عينيه على جبل الزيتون ، وتطلع الى اليوم الذي ينفض فيه غبار بريطانيا عن حذائه ويرجع الى العمل الزراعي في فلسطين ، بدا لي أنه اعترف بأهداف لا تنسجم مع الجنسية البريطانية ، وأقرّ بأنه لا يصلح للمشاركة في الحياة العامة في بريطانيا أو للمعاملة كانجليزي . »

شدّد مونتاج على أربعة مبادىء بنى عليها اعتراضه . أولها انه ليس هناك شعب يهودي . قال : « ان افراد أسرتي ، مثلاً ، الذين مضت عليهم في هذا البلد أجيال لا يشتركون في اي نوع من الرأي أو الأماني مع اية أسرة يهوديـــة في أي بلد آخر وإن كانوا يعلنون الى حدّ ما ولاءهم للدين نفسه » . ان اليهود في انجلترا واليهود في مراكش لا يكوّنون شعباً واحداً تماماً كما لا يكوّن المسيحيون في انجلترا و المسيحيون في فرنسا شعباً واحداً .

ثانياً ، ان الصهيونية ستسبب الألم بتشجيع البلاد اللاسامية على طرد يهودها ، ثم تضعهم في وضع يطردون فيه سكان فلسطين ويأخذون خير أراضيهم .

ثالثاً ، أنكر مونتاج ان تكون فلسطين في القرن العشرين مرتبطة باليهود . ان الوصايا العشر نزلت على موسى في سيناء ، ولا ريب ان لفلسطين دوراً في التاريخ اليهودي ، ولكن لها مثل ذلك في التاريخ المسيحي وفي تاريخ الإسلام .

ربما كان الهيكل في فلسطين ، ولكن هناك ايضاً الموعظة على الجبل وصلب السيد المسيح .

أما حجته الرابعة والأخيرة فهي ان قبول افتراضات الصهيونية يعاكس الاتجاه الذي رحب به مونتاج نحو استيعاب اليهود في الحياة البريطانية بالطريقة التي تمّ بها استيعاب أقليات كالهيجونوت . قال : « ان تلقينا التعليم في المدارس والجامعات، واشتراكنا في السياسة والجيش والخدمة المدنية في هذا البلد ، آخذ الآن في التزايد . وإنه ليسرني ان أظن ان التعصب على التزاوج يتلاشى . لكن حين يصبح لليهود وطن قومي فإن الدافع الى حرماننا حقوق الجنسية البريطانية لا بدّ من أن يقوى كثيراً » .

نزولاً عند مثل هذا الرأي وضعت مسودة جديدة نصت على « وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين » . عند هذه النقطة بدأت الوزارة تعيد النظر في الأمر . لقد أدهشها أن يؤيد رأي مونتاج سبعة وأربعون من كبار اليهود رسمياً بتوقيعاتهم . ضمت القائمة كل يهودي بارز في الحياة العامة ما عدا اللورد روتشيلد ومستر هيربرت صمويل وقليلين آخرين . وقد حذر كيرزون ، الذي عرف الشرق أكثر من أي انجليزي عاش فيه ، زملاءه الضرر الذي سينجم عن أي تعهد بشأن فلسطين اذا ما اكتشفه العرب .

في هذه الأزمة خدم الحظ الصهيونيين . في ١٤ اكتوبر ١٩١٧ أبحر سير أدوين مونتاج الى الشرق كوزير للهند ليبدأ اصلاحات جديدة ، فأزيح بسفره أكبر معارض لبرنامجهم . في الوقت نفسه اشتد الضغط الأميركي على أعصاب بريطانيا ، فصدرت المسودة التي أقرها الرئيس ولسون والقاضي برانديز بالنص الذي تقدم . وقد أدخل إصلاح واحد في الحظة الأخيرة ، إذ وردت خطأ عبارة « للعنصر اليهودي » فغيرت حالا وأرجعت الى « الشعب اليهودي » .

كانت نتائج تصريح بلفور العملية أقل عوناً مما كان يرتجي . كـــان أحد الاعتبارات الرئيسة في أذعان أولئك الذين شجعوه الحاجة الى إبقاء يهود روسيا (الذين يفترض أنهم يسيطرون على تجارة الحبوب في السهوب) الى جانب الحلفاء . ولكن نشر التصريح تزامن مع الثورة البلشفية التي اعلنت ان التجارة الخاصة غير قانونية . وقد أيد معظـــم اليهود الروس دعوة لينين الى انهـــاء الحرب . وفيما يتعلق بالرأي العام الأميركي حولته حملة الغواصات الألمانية ضد ألمانيا . ووجد شاب يهودي يدعى ديفيد غرين (بن غوريون) أن التصريح شجع كثيراً تطوع يهود نيويورك في فرقة يهودية . لقد عودت هذه القوة اليهود ان يشعروا بالسلاح إلاّ انها قامت بدور صغير جداً في الصراع العسكري .

وكانت لنشر التصريح نتائج محرجة لبريطانيا في الشرق الأوسط . حاول عملاؤها إخفاء الخبر عن الشريف حسين وأبنائه . وحين لفت الألمان في دمشق نظرهم الى التصريح بوساطة مبعوثين سريين عبثاً حاول المسؤولون البريطانيون ان يثبتوا أن التصريح عنى أقل مما ورد فيه ، وذلك أن اليهود سيسمح لهم باستيطان أراض غير مستعملة ، وان الحقوق السياسية داخلة في الحقوق المدنية والدينية التي حافظ التصريح عليها . ولكن عبارة « الطوائف غير اليهودية في فلسطين » كانت أكثر شيء موسف لأن إساءتها للعرب تشبه تماماً ان يقال عن الإنجليز البروتستنت انهم « الطوائف غير الرومانية الكاثوليكية في انجلترا » .

نسفت ثقة العرب بالتفسيرات البريطانية حين نشرت الحكومة السوفييتية الجديدة نص اتفاقية سايكس – بيكو السرية التي عقدت في اوائل الحرب لتوزيع أراضي الإمبراطورية العثمانية بين بريطانيا وفرنسا وروسيا . وكانت روسيا ستحصل بموجب هذه الاتفاقية على القسطنطينية والممرات وجزء من الاناضول ، أما بقية الامبراطورية فتقسم بالطريقة الاستعمارية التقليدية : تكافأ ايطاليا على اشتراكها في الحرب بمنطقة في جنوبي شرقي الأناضول وجزر الدوديكانيز التي كانت قد استولت عليها ، وتأخذ فرنسا الأرض التي تمتد من سيليزيا جنوبي الاناضول الى الموصل ، أما بريطانيا فتأخذ قطعة من الأرض تمتد من البحر الأبيض المتوسط جنوبي لبنان شرقاً الى العراق . وقد تركت للحسين مملكة الحجاز القاحلة .

بعد نشر تصريح بلفور واتفاقية سايكس – بيكو لم يبق لبريطانيا أصدقاء من العرب بل عملاء فقط . وكانت أسرة الملك حسين متورطة في تأييد بريطانيا الى حد يمنعها من التراجع ، وإن كان فيصل قد فكر لحظة في قبول شروط تركية لصلح شريف . ولكن العرب والمسلمين في كل مكان الذين حذروا إخوانهم قبول الذين احتلوا الجزائر ومصر محررين لهم لم يفعلوا شيئاً سوى أن قالوا لهم : « ألم نقل لكم ؟ » وهكذا ساور الشك الأكثرية الساحقة من سكان الشرق الأوسط ، وسبب ذلك متاعب لبريطانيا . أما أحفاد الحسين ومؤيدوه فقد أظهروا اخفاقاً رهيباً كال آرتيوس في مسرحية أسكيلكس .

ولكن تصريح بلفور حقق جزءاً من هدفه : كان اتباع هيرتزل ، على الأقل الى ان اصطدم التفسير البريطاني لحدوده بالسياسة الصهيونية ، متحمسين لبريطانيا التي رأى الصهيوني الأول أنها الراعي المنطقي لحلمه. وقد كتب جون كيمشي يقول ان خبر التصريح البريطاني انتشر بين يهود العالم حتى قبل ان يبدأ زعماء الصهيونية حملتهم لتأييد الحلفاء ، ورحبوا به جميعاً ومن ضمنهم الصهيونيون الألمان الذين بدأت ثقتهم بالقيصر تتزعزع أول مرة .

الفصل الخامس

في ٣٠ أكتوبر ١٩١٨ وقع أميرال بحر بريطاني ووزير البحرية التركية في جزيرة لمنوس الواقعة حيال مدروس هدنة على ظهر السفينة الحربية البريطانية أغاممنون، وكان الجو ودياً خلال المفاوضات التي دامت ستاً وثلاثين ساعة . وقد أمل الأميرال البريطاني بتوقيع هذه الهدنة « ان يوضع حد لسفك الدماء الذي استمر سنوات طويلة » . ثم تصافح المبعوثان على حل الامبراطورية العثمانية الذي ظل قروناً حلماً أوروبياً وفزعاً تركياً .

تبع ذلك توقيع الألمان قبولهم بالهزيمة في ٢٩ سبتمبر حين وقعت بلغاريا هدنة مع قوة من الحلفاء اندفعت الى الداخل من سلانيك . كان انهيار بلغاريا قد جاء عقب فشل هجوم لوندورف الكبير الأخير في الجبهة الغربية ، فكانت خسارتها بالنسبة الى المانيا خسارة البلقان جسرها الى الشرق ، أما بالنسبة الى تركيا فقد كانت ضربة حاسمة أشد من خسارة سوريا التي احتلها جيش اللنبي البريطاني وجنود فيصل غير النظاميين لأنها قطعت مصدرها الوحيد للسلاح .

لم يحافظ الحلفاء المنتصرون طويلاً على طريقة الأميرال البريطاني الودية . حين اشتد برد الشتاء في القسطنطينية المغلوبة أظهر ممثلو بريطانيا وفرنسا مزيجاً من الغطرسة والتردد . كانت للدولتين اطماع خسيسة مقنعة بادعاءات نبيلة تافهة، وشعور خطر بأن لديهما كل القوة وكل الوقت لاستعمالها . وقد دعم هذا الوهم الخطر الرجل الذي كان عليهما ان يتعاملا معه ، وهو أخ ثان لعبد الحميد ورث العرش العثماني المتزعزع من السلطان محمد الخامس في آخر فصل صيف من الحرب باسم محمد السادس الذي اجتمع فيه ضعف من نشأ بين الحريم وفظاظة الطبع . كان سلطاناً – خليفة حكم القدر عليه بأن يتنازل عن الهيبة والسلطة معاً . وإذ كان همه الوحيد منصرفاً الى عرشه وعاصمة ملكه فقد كان مستعداً للترحيب بحل يبقيه حاكماً على القسطنطينية يذكر المؤمنون اسمه في صلاة الجمعة ، ولذلك لم يكن فيه شيء يخافه الحلفاء .

على أن معظم خطط الحلفاء قد أجهض ، وأحد أسباب ذلك طبيعة انتصارهم . بعد أربع سنوات من القتال ضد دول الحلف المركزي كانت بريطانيا وفرنسا كضحيتي سرطان انتصرتا قليلاً في شجار مع مصدورين . ان انتصار الاستنزاف

قد أضعف الغالبين والمغلوبين باستثناء الولايات المتحدة الأميركية .

لو أن أميركا اشتركت أو تورطت في تسوية الشرق الأوسط لأمكن التوصل الى شيء ايجابي على الرغم من اختلاف الحليفتين الأوروبيتين . لكن الأميركيين كان لهم غرض واحد طاغ هو العودة الى قارتهم . ولذلك رفضت الولايات المتحدة رفضاً باتاً ، في ٦ مايو ١٩١٩ ، ارسال قوات تساعد على احتلال تركيا . أمّا قبول الرئيس ولسون الموقت مسؤولية الولايات المتحدة نحو القسطنطينية واستقلال ارمينيا فقد قضى عليها مرضه ورفض بلده قبول الانتداب . لقد شعرت اميركا أنها شريكة في زمن الحرب مع الدولتين الامبرياليتين لا حليفة لهما .

لم يستطع الحلفاء ، دون اميركا ، ان يتفقوا على تقطيع الجثة العثمانية أو طهوها . ولا لوم عليهم في حيرتهم ، ولكن غدرهم المتبادل أهان موتاهم . كان وضعاً لا سابقة له . أربع امبراطوريات انهارت نتيجة الحرب . بينما هزيمة ألمانيا والنمسا خدمت قضية الحلفاء ولم تفعل هزيمة روسيا القيصرية ذلك . ان المنطقة الى الشرق من تركيا – الجسر القفقاسي بين روسيا والشرق الأوسط – كان رقعة من دويلات صغيرة تطالب بالاعتراف بها ، ومن بين شعوبها الارمن الذين تعرضوا لأكثر الاضطهاد وكان لهم أعلى الأصوات . ومع أنهم لم يكونوا سوى أقلية تكاد تكون كبيرة بالنسبة الى أي منطقة أخرى (٤٠ بالمئة في بعض مقاطعات الأناضول الشرقي) إلاّ أن أحد مندوبيهم طالب بدولة تمتد من البحر الأسود الى الاسكندرونة على شاطىء البحر الأبيض المتوسط .

وماذا عن تركيا في اوروبا ؟ الآن وقد خرجت روسيا من الحلف (ستظل جيوش الحلفاء تقاوم ثورة لينين بعض الوقت) فالأفضل ان تبقى القسطنطينية عاصمة السلطان ، أما الممرات فيجب ان توضع إما تحت سيطرة الحلفاء أو عصبة الأمم التي تأسست حديثاً .

وفي أماكن أخرى برزت المنافسات التي كانت مستترة خلال جفاف الحرب كسيقان الفاصوليا اليانعة في غيث الانتصار . كانت سوريا الساحة الرئيسة للمنافسة الفرنسية البريطانية ، وهي الولاية التي بدت خير جوائز الحرب . خصصتها اتفاقية سايكس–بيكو لفرنسا ، وفي مباحثات سرية وعد ناطق باسم الحكومة البريطانية العرب بها ، ودخلت قوة عربية بقيادة فيصل مدينة دمشق طليعة لجيش اللنبي ، وكان لورنس يرجو بهذه الطريقة ان تخسر فرنسا ما وعدتها به اتفاقية سايكس–بيكو . في ذلك الوقت سببت سوريا خلافاً حاداً . شارك معظم البريطانيين في القاهرة ، الى درجة ما ، ريبة لورنس في الفرنسيين ، ومن ناحية فرنسا كانت ريبتها في بريطانيا شديدة ايضاً . ان الطريقة التي أخذت بها بريطانيا مصر وقناة السويس

لا تزال ذكراها أليمة . أما وقد تكبدت فرنسا في الحرب خسائر تعادل ضعف خسائر بريطانيا فقد صممت على السيطرة على سوريا البلد الذي كان يراود فكر فرنسا منذ الحروب الصليبية . ثم ان سوريا عنت لفرنسا لبنان وسيليزيا والمنطقة المحيطة بدمشق وحلب .

أما وقد أمضوا زمناً طويلاً في كسب الحرب ، وكانت لهم آراء متناقضة فيما يجب عمله بالغنائم ، فقد أخّر الحلفاء توقيع الصلح . لم توقع معاهدة « سيفر » مع الأتراك إلاّ في أغسطس ١٩٢٠ . ان التحايل على المركز ، والمساومات السرية ، جعلتها أقسى معاهدات التاريخ ولكن أكثرها سخفاً ، لأنه بين ١٩١٨ و ١٩٢٠ تعرض الوضع في الشرق الأوسط لتغييرات زلزالية . ان شعارات الرئيس ولسون واصداءها في بيانات بريطانيا وفرنسا الرسمية حملت على محمل الجدّ في البلاد العربية وفي مصر ، واخيراً فيما أصبح بعد البتر تركيا الأناضولية .

كان الحلفاء ، وخصوصاً بريطانيا ، سيواجهون المتاعب في ثلاث مناطق . انتشر الوعي في البلاد العربية لتصريح بلفور وبنود اتفاقية سايكس–بيكو السرية بين قوم منفصلين حكموا إسمياً بعدد من أفراد أسرة الملك حسين وكانوا في الواقع تحت سيطرة الجيوش البريطانية (باستثناء الحجاز) . ان الهاشميين المرتبطين بالحلفاء بطريقة لا رجعة عنها لم يستطيعوا شيئاً سوى ان يطالبوا ، بوساطة لورنس وضباط بريطانيين آخرين ، بالوفاء بعهود أيام الحرب . تعرض فيصل للاذلال مراراً ، أولاً من الفرنسيين الذين رفضوا الاعتراف به كممثل في مؤتمر الصلح ، ثم من البريطانيين الذين قرروا ان مملكته في سوريا لا تساوي حقول البترول في شمالي العراق التي كانت فرنسا مستعدة لمقايضتها بدمشق ، وأخيراً من السوريين أنفسهم . لم يكن سخط العرب على فيصل راجعاً الى غدر أو ميل الى التقلب بل الى محاولته اليائسة اجبار الحلفاء ولو بموافقته على المساعدة فيما يتطلبه الوطن القومي اليهودي في فلسطين . قابل فيصل وايزمن اولاً في العقبة ثم في اوروبا ، وعمل لورنس بينهما سمساراً غير شريف . أكد وايزمن لفيصل ولعرب آخرين ان الوطن القومي لا يعني أبداً دولة مستقلة ، وقال الهاشميون انهم يرحبون بالعون اليهودي على اعادة بناء الحضارة السامية . وقد أضاف فيصل انه مستعد للترحيب بالاستيطان اليهودي في فلسطين شرط ان تفي بريطانيا بعهودها لأسرته .

تورط الهاشميون في وضعهم الساخر ، اذ ثاروا على الخليفة لمصلحة الدولتين اللتين احتلتا مصر والجزائر . أما العرب العاديون فلم يتورطوا كذلك ، ولكن تزايد ادراكهم للحقيقة التي لم يبينها أحد مثل بلفور الذي كتب في اغسطس ١٩١٩ دون تحيز ولكن ليس للنشر : « فيما يتعلق بفلسطين لم تصدر الدول بياناً بحقيقة

لم تكن خطأً لا يمكن انكاره ، ولا تصريحاً بسياسة لم تقصد دوماً ألاّ تخالفها » .

في دمشق التي استقبلت نساؤها فيصل بصيحات الفرح ورجالها باطلاق الرصاص رفض مؤتمر سوري اتفاقيته مع وايزمن . وفي الوقت نفسه كان الفرنسيون يستعدون ببطء للتخلص من فيصل كلياً وتوطيد انتدابهم على سوريا ولبنان .

كان السخط في العراق على الاحتلال البريطاني عنيفاً الى حدّ ان اضطرت بريطانيا في اوائل العشرينات الى استخدام مائة ألف جندي لحراسة بلد استطاع العثمانيون السيطرة عليه بستة عشر ألفاً . ولكن الحاجة الى السيطرة على العراق بثمن قليل كانت ملحة بسبب نفاد الموارد البريطانية بصورة مستمرة ، وقد كانت ارلندا ثائرة ايضاً ، واراد الجنود البريطانيون العودة الى زوجاتهم وبيوتهم .

وإذا كان العرب قد اصبحوا غاضبين فإن الوضع في مصر كان متفجراً . كانت الحرب قد أججت تدفق الشعور القومي المصري الذي طال غليانه . حين زار هيرتزل القاهرة كانت قومية الشاب مصطفى كامل قد بدأت تثير المتعلمين وان قلّ عددهم نسبياً . في ١٩٠٦ وقع حادث مثير وفظيع أظهر ان التفاهم الظاهر بين البريطانيين المحتلين وبين الشعب الذي هتف لعرابي إنما كان ذهولاً لا قبولاً قلبياً . وصف مصطفى كامل ما حدث لقراء الفيغارو بما يلي :

« في ١٣ يونيو ترك بعض الضباط البريطانيين معسكراتهم ومروا بالقرب من دنشواي في مديرية المنوفية ليصطادوا الحمام في أرض خاصة . حذرهم فلاح هرم بوساطة مترجمهم ان ضباطاً بريطانيين اغضبوا السكان في السنة الماضية باطلاق النار على الحمام ، وان غضبهم سيزداد اذا ما تكرر ذلك .

« على الرغم من التحذير بدأ اطلاق النار . اطلقت النار فأصيبت امرأة بجراح ، واحترق مخزن حبوب . اندفع اهل القرية من كل جهة الى مكان الحادث ، ونشب شجار اصاب البريطانيون فيه ثلاثة مصريين ، واصاب المصريون ثلاثة ضباط هرب أحدهم ، وهو الكابتن بل ، واخذ يعدو بأسرع ما يستطيع في يوم بلغت حرارته ٤٢ درجة فمات بضربة الشمس . وحين بلغ الجنود البريطانيون ما حلّ بضباطهم هاجموا قرية أخرى مجاورة وقتلوا فلاحاً بكسر جمجمته » .

ربما كان مرد شيء من المشكلة الى جهل الضباط بأن الفلاحين يعتنون بالحمام ويربونه في ابراج بيضاء ، لاستخدام لحمه لا للصيد ، وانه يمثل احد المصادر النادرة للبروتين في غذائهم .

ولو كان البريطانيون مرتاحين لرأوا الحاجة الى ازالة سوء التفاهم ، ولكنهم كانوا منفعلين . فالعلاقات بينهم وبين المصريين كانت تسوء منذ زمن ، ويقع جزء من اللوم في ذلك على اللورد كرومر : أصبح كلما تقدم في السن أكثر نكداً

واقتناعاً بأن الأذى الوحيد وقع على دوام الحكم البريطاني أو على حكمة قراراته . كان كرومر قد أوصى في بعض المناسبات بجلد الفلاحين عقاباً للوقاحة . لكن في وضع ١٩٠٦ الملتهب ربما كان سيتخذ اجراءات أخف من تلك التي اتخذها وكيله القليل الادراك الذي رأى في الحادث تحدياً للسلطة البريطانية ، فتيلاً اذا ترك محترقاً اشعل نار ثورة مصرية . ثم ان العناصر التي ايدت الحكم البريطاني في مصر — التجار الأجانب والشرقيين والاقليات — أصرت على استعمال الشدة خشية ان يرفع التعصب الإسلامي رأسه اذا لم يعاقب القرويون بقسوة . من تلك العناصر ، كمثل نموذجي ، فارس نمر (الذي منح فيما بعد لقب باشا) رئيس تحرير المقطم الصحيفة التي كانت تتكلم عادة باسم الوكالة البريطانية . كان فارس نمر مسيحياً من الشرق اشتغل بالتدريس في الكلية السورية البروتستنتية (التي أصبحت فيما بعد جامعة بيروت الأميركية) ، ثم رحل الى مصر نتيجة عدائه للامبراطورية العثمانية . وكان بأحد المعاني قومياً عربياً ، وزوج ابنته ، جورج انطونيوس ، هو الذي كتب الرواية الهاشمية للثورة العربية . لكن فارس نمر لم يشعر نحو الفلاحين إلاّ بالقليل من العطف ، حتى قبل صدور الحكم على فلاحي دنشواي أعلنت صحيفته ان مجموعة من المشانق ارسلت الى القرية .

ركب البريطانيون مركباً وعراً . كانت المحكمة الخاصة التي حاكمت اثنين وخمسين قروياً متهماً محكمة غريبة مؤلفة من خمسة قضاة ، ثلاثة انجليز لا يفهمون اللغة العربية وواحد مسلم مصري والخامس قبطي . اعطيت المحكمة سلطة الحكم بالإعدام وجعلت احكامها غير قابلة للاستئناف . وقد اتبعت هذه المحكمة قانوناً خاصاً يوفر الحماية للجنود البريطانيين مصمماً « لإجراء العدالة بسرعة وانزال عقوبات أشدّ مما يمكن انزاله لو طبق قانون العقوبات المصري بأمانة » .

كانت المحكمة سريعة وصارمة . خصصت ما معدله اربعاً وثلاثين ثانية لكل متهم ، اي الوقت الذي يكاد يكفي تدوين اسمه وعمره . خلال ثلاثة أيام من الجدل الغاضب — فقد دافع عن الفلاحين مصري قوي العزيمة هو الكاتب المصري المعروف أحمد لطفي السيد — اتضح ان الضباط هم الذين أثاروا الحادث ، حتى لو لم يفعلوا ذلك عمداً ، وخصوصاً بجرحهم المرأة المصرية . ان ردّ فعل المصريين — الفلاحين ذوي المزاج الحاد لكن ليسوا قتلة متعمدين — إنما كان ضد سارقي الصيد لا ضد الانجليز . وقد شهد الطبيب البريطاني الملحق بالمحاكم المصرية بأن الكابتن بل مات متأثراً بحرارة الشمس لا بجراحه . واراد ضابط شرطة ان يشهد بأن الضباط هم الذين بدأوا اطلاق النار فلم تسمع شهادته . وفي ٢٧ يونيو اصدرت المحكمة احكامها التي قضت باعدام أربعة قرويين ، وبالسجن المؤبد مع الاشغال

الشاقة على اثنين ، والسجن خمس عشرة سنة مع الاشغال الشاقة على واحد ، والسجن سبع سنوات مع الاشغال الشاقة على ستة ، كما قضت بسجن ثلاثة قرويين سنة واحدة مع الجلد علناً ، وجلد خمسة آخرين دون سجن .

اذا كان اصدار الحكم سريعاً فقد كان تنفيذه اسرع . بعد ظهر اليوم التالي أحضر المساجين الى القرية في الساعة الواحدة والنصف بعد الظهر ، وهي الساعة التي وقع فيه الحادث قبل اسبوعين . وكانت المشانق قد نصبت واعدت مراكز الجلد في ساحة محاطة بالحبال على مرأى من أهل القرية الذين تجمعوا على اسطحة بيوتهم المبنية من اللبن . قام الجنود البريطانيون والفرسان المصريون بحراسة الساحة ، وحضر وكيل كرومر مع مجموعة من الضباط . توسل ابن أحد المحكومين بالاعدام ان يسمح له بوداع أبيه فحرم ذلك . استعد الجنود وسلّوا سيوفهم . نفذ أول إعدام بين عويل النساء المشاهدات وجلد اثنان بسوط ذي تسع شعب أمام الجثة المعلقة ، وتكرر هذا المشهد نفسه ثلاث مرات : شنق رجل وجلد رجلين . وهكذا زرعت في نفوس القرويين ذكرى الظلم الذي لا ينسى ، وكانوا يدمدمون قائلين : « لعنة الله على الطغاة المستبدين ! » وحين أرخى الليل أستاره حفروا القبور وأخرجوا جثث الموتى كي لا يظلوا مدفونين في ثياب سجن البريطانيين .

كانت المذبحة صغيرة اذا ما قوبلت بالمذابح الأكبر التي شهدها القرن فيما بعد . في بريطانيا نفسها هاجم دنشواي ، كما اعترف بذلك مصطفى كامل ، رجال كبرناردشو وبعض اعضاء البرلمان ، ولكن أثرها داخل مصر كان خطيراً ودائماً. حوّل هذا العكس الوحشي للطرق البريطانية العادية ملايين المصريين الى جانب مصطفى كامل . وسواء أكانت الأغلال من ذهب أو من فولاذ فانها تظل أغلالاً ، وقد أصبح الاحتلال البريطاني عدواناً لا يطاق .

كانت دنشواي بالنسبة الى المصريين الذين لهم علاقة بالمحكمة خطراً مميتاً . احتج بطرس غالي ، وهو قبطي ألمعي كان في ذلك الحين قائماً بأعمال وزير العدل ، لأسرته بأنه إنما جلس في المحكمة ليحول دون أحكام أكثر قسوة من تلك التي صدرت ، ولكن احتجاجاته بقيت داخل الأسرة . وحين أصبح رئيساً للوزارة سنة ١٩٠٨ لقي مصرعه في سنة ١٩١٠ ، وقيل في تعليل السبب انه يعود الى علاقته بدنشواي .

أما بالنسبة الى البريطانيين فقد كانت نتائج دنشواي لا تقل خطورة . كان كثيرون من المصريين يشعرون شعوراً صادقاً بأن البريطانيين يستطيعون أن يعلموا مصر أشياء كثيرة قيمة ، وكثيرون منهم اعجبوا بعمل كرومر ومعاونيه ، ولكن ذلك انتهى الى الأبد . اصيب كرومر الذي يخفي حساسية وراء بروده الظاهر بعلة

في معدته فاستقال في السنة التالية ، ومنذ ١٩٠٧ الى نشوب الحرب العالمية الأولى ازداد التوتر حدة بين البريطانيين والمصريين ، وكان موت مصطفى كامل في ١٩٠٨ مناسبة لجنازة صاخبة .

حين اعلنت الحرب انقسم الرأي العام المصري بين محايدين ومتعاطفين مع تركيا . لم يرد أحد في مصر أن يتورط في القتال ، وحين أعلنت بريطانيا ان مصر في حالة حرب مع دول الحلف المركزي وعدت بأن تكون مسؤولة وحدها عن حماية مصر ، وألاّ تطلب من المصريين المساهمة في الحرب أو محاربة اخوانهم المسلمين . ولكنها ما لبثت ان نقضت وعدها ، وجندت فرقاً مصرية مؤلفة من مليون ونصف مليون رجل ساعدوا البريطانيين في الحجاز وفلسطين وغاليبولي .
أفادت الحرب أغنياء المصريين لأن سعر طن القطن ارتفع من أربعة عشر دولاراً في ١٩١٤ الى مائة وأربعين دولاراً في ١٩٢٠ ، أما الفلاحون وسكان المدن الفقراء (الذين أصبح غذاؤهم يستورد من الخارج بعد استغلال أكثر اراضيهم في زراعة القطن) فقد ازدادوا فقراً .

في اليوم الذي وقعت فيه الهدنة قام الرجل الذي أعلن الحرب في ١٩١٤ ، بعد تردد ، كرئيس للوزارة المصرية ، بالمطالبة بالاستقلال المصري . كان رشدي باشا ، رئيس الوزارة ، التركي المهيب الذي تشع عيناه الفاسقتان بالخبث من وراء نظارته ، جالساً في نادي محمد علي بالقاهرة ، وكان الحديث يدور حول السياسة ، فقال :

« كنا حكماء خلال الحرب ، والآن نطلب المكافأة التي وعدنا بها . قدمت مصر للحلفاء ولاءً ومساعدة منظمة وفعالة . قبلت بالحماية البريطانية كضرورة لا مفرّ منها شرط أن يكون الاستقلال جزاءها بعد كسب الحرب . تلقيت هذا التعهد شخصياً ، وقد حان الوقت للوفاء به . ثم هناك نقاط ولسون المشهورة » .

لم يثر قول رشدي باشا الانتباه لأنه كان يمثل الطبقة المصرية الراقية من أصل تركي التي سيطرت على السياسة المصرية جيلاً آخر . كانوا الوحيدين الذين يقابلهم معظم الغرباء . قال صاحب رشدي باشا في نادي محمد علي فيما بعد انه في السنوات العشرين التي قضاها في مصر كان كل رجال السياسة الذين عرفهم — باستثناء واحد — من الأتراك . كان هؤلاء الأتراك المصريون في الغالب وطنيين إما نتيجة شعور بالاختلاف عن الغرب المسيحي أو رغبة في احتلال المناصب التي لا يزال يشغلها الأوروبيون . لكنهم كانوا بعيدين عن مصر المكونة من قرى ضيقة الشوارع مزدحمة بالسكان بيوتها أكوام من الطين ، « لا أنهم لا يحبون البلد ، أو غير مخلصين له ، وانما إذ كانوا يفتقرون الى الروابط المحلية بالأرض التي يحكمون يعطون

أحياناً انطباعاً بأنهم فرضوا من فوق على حياة البلد ، وأنهم يديرون مصر بنشاط متحفظ شبيه بنشاط مدير احدى الشركات » .

ان الوحيد الذي شذ عن القاعدة هو سعد زغلول ، المسلم المصري الذي رقاه كرومر وخصه بالمديح في خطاب الوداع الذي ألقاه في أوبرا القاهرة ، والذي أضاف نغمة عاطفية الى طلب الاستقلال وجعل العقد التالي مؤلماً للبريطانيين .

لم يحصر حركته في نادي محمد علي الهادىء . في يوم من أيام شتاء ١٩١٨ ترأس وفداً طلب الى المندوب السامي البريطاني السماح بالسفر الى لندن للبحث في استقلال مصر . وكانت لندن في تلك الفترة مشغولة بعواقب الحرب وبمشكلات بدت أكثر إلحاحاً . طالما قسمت بريطانيا المصريين الى ارستقراطيين نفعيين تستطيع صدهم ، ومواطنين جهلة غير قادرين على العمل ، ولذلك رفض طلب سعد، وبدأ الاضطراب.

كتب انجليزي مسؤول عن شرطة القاهرة الى بلده في ٢٤ نوفمبر يقول : « بدأ هؤلاء المصريون الشياطين يزعجوننا كثيراً . ان طلب الشعب حق تقرير المصير حسن جداً لجزر ساندويتش (هواي) أو للجبل الأسود ، لكنه لا يصلح لبلد عاجز عن حكم نفسه ، يعتمد استقراره الاقتصادي على احتلالنا ، وفيه قناة صغيرة مهمة تدعى قناة السويس » .

في اوائل ١٩١٩ استجابت بريطانيا للاضطراب بنفي سعد زغلول الى مالطة ، فتحول الاضطراب الى ثورة عنيفة على السلطة البريطانية .

بيد أن البلد الذي أصبحت فيه المقاومة أكثر تطرفاً ونجاحاً لم يكن بلاد العرب الهاشمية ولا مصر المحمية بل تركيا نفسها الدولة المهزومة . في نهاية ١٩١٩ بدأ اللورد كيرزون المسؤول عن الشؤون الخارجية البريطانية يخشى ان ينتهي أضعف أعداء الحلفاء ، وأشدهم قنوطاً بتحقيق أعظم انتصار . ان المنافسة بين الحلفاء وتلكؤهم كوّنا طبقة من الفحم لعنقاء مذهلة . على أن ما أشعل النار في الفحم كان عمل غرور وقح اصطدم ببطل . أما الهجناء ، كما دعا الهيلينيون القدامى من يتصف بذلك الغرور المميت ، فقد كانوا اليونان .

مرتين خلال ثلاثة آلاف سنة كان اليونان القوة الرئيسة في الشرق الأوسط ، الأولى حين نشر الاسكندر الكبير الحضارة الهيلينية في الاناضول والعراق حتى الهند تاركاً وراءه وريثتين هما سلالة البطالسة في شمال افريقيا والسلالة السلوقية في سوريا . ثم جاءت المناسبة الثانية حين حكمت الدولة البيزنطية التي تتكلم اليونانية النصف الشرقي من حوض البحر الأبيض المتوسط باسم المسيح .

منذ الثورة البيرونية الأولى على الحكم العثماني واليونان الحديثة دولة توسعية . نشط جناحاً متطرفاً من الحركة اليونانية القومية ما دعي «الخطة الكبيرة». وكما في

حالة هيرتزل استعملت « الخطة الكبيرة » الحنين غير السوي الى الماضي وقوداً لها . كان العلمانيون مؤيدو الخطة الكبيرة يحنون الى هيلاّس بركليس والاسكندر ، وكان المتدينون يحنون الى امبراطورية قسطنطين الكبير المسيحية ، لكن مهما كان اقتراح هذه الفكرة فقد كانت توسعية ، تنطوي على عكس لكل شيء رمزت اليه سنة ١٤٥٣ حين دخل الفاتح التركي القسطنطينية على ظهر جواد أبيض . في نوفمبر ١٩١٨ دخل جنرال فرنسي المدينة نفسها راكباً جواداً أبيض أيضاً ، وهنأ اليونان بعضهم بعضاً بينما أخذ الأتراك يبكون . كان اليونان يستعدون لهذه الإيماءة الرمزية قبل عدة أيام حين ملأت سفن الحلفاء الحربية المياه خارج القرن الذهبي.

لم يسع اليونان المؤمنون بالخطة الكبيرة للنصر بالوكالة ، بل ارادوا ان يحققوا حلمهم بأنفسهم. في هياج النصر الذي ساهموا فيه قليلاً (منع ملكهم الموالي للألمان فنزيلوس الموالي للحلفاء من ادخال اليونان في الحرب حتى منتصف ١٩١٧) بدأوا يرون أن ما يستطيعون كسبه قد يكون ضئيلاً . وعدتهم بريطانيا بإعادة قبرص شرط أن يشتركوا في الحرب . ان اليونان أسسوا الاسكندرونة، وقد عادوا إليها أقوياء . كان مطلبهم الفوري « دولة بنطس » التي مركزها مدينة سمسون على البحر الأسود والمنطقة الغربية من الأناضول التي مركزها إزمير . وقد جاءت تقارير تقول ان الأتراك في كل من المنطقتين يسيئون معاملة اليونان ، فأكسب ذلك مطلبهم إلحاحاً عاطفياً .

لسوء حظ اليونان ان لويد جورج كان لا يزال رئيس الوزارة البريطانية وهو الذي كان يوازن دهاءه السياسي جهله بالعالم . فقد عدّ فنزيلوس أكبر رجل دولة يوناني بعد بركليس ، ولم يزعجه كون اليونان أقلية في بنطس والأناضول الغربي لأنه كان متأكداً من أنهم شعب المستقبل في البحر المتوسط الشرقي ، وأنه لا داعي لأن يحسب للأتراك حساباً .

منذ هدنة « مدروس » والسفن الحربية البريطانية راسية في ميناء ازمير . وفي ١٥ مايو ١٩١٩ نزلت الجيوش اليونانية ، تحت حماية مدافع تلك السفن ، الى البرّ التركي في أول مراحل تحويل الخطة الكبيرة الى حقيقة . أراد الأتراك أن يحاربوا ولكن جاءتهم أوامر برقية من حكومة السلطان في القسطنطينية تمنعهم من المقاومة ، فقامت مذبحة غذتها ذكريات الماضي المؤلمة قتل فيها مئات من المدنيين الاتراك ورميت جثثهم في البحر الذي شهد ولادة الحضارة الهيلينية .

كان هذا عمل الهجناء .

سمع مصطفى كمال ، البطل الذي كان اليونان سيصطدمون به ، عن الغزوة وهو في القسطنطينية . وبينما الساحة الكبيرة قرب الجامع الأزرق تعج بالمتظاهرين

الذين كانوا يأملون ان يسرع السلطان الى قيادتّهم ، اعدّ الرجل الذي سيهزم خطة اليونان الكبيرة وخطط الحلفاء الصغيرة ، بهدوء رحلة بطيئة بالقارب . اما وجهته فكانت ، كأعدائه ، الأناضول .

الكتاب السّادس

أتاتورك يَلْبسُ القبعَة

« إن لباساً مهذباً ودولياً جدير بشعبنـــا ، وسنلبسه . الحذاء لأقدامنا ، والسروال لأرجلنا ، والقميص وربطـــة العنق ، والمعطف والصدرة ، وليكتمـــل ذلك طبعاً غطاء ذو حافة لرؤوسنا . أريد أن أكون واضحاً : إن غطاء الرأس هذا يدعىّ قبعة » .

مصطفى كمال

الفصل الاول

بعد أربعة أيام من نزول اليونان في أزمير ، ألقى تيهور أول حجارته الصامتة في مرفأ اقل شهرة . واذ تجمعت قوته الدافعة وزادت كتلته فإن «التياهير» اللاحقة غيّرت تاريخ الشرق الأوسط ، وجعلت أقوى دولة فيه تتحول الى الغرب .

ألقت سفينة الشحن باندیراما مرساتها في يوم جوّه سيّء تجاه سمسون الميناء الوحيد المهم بين البسفور وطرابزون ، وخرجت العنادل لانزال الركاب إلى رصيف خشبي طويل متداع نبتت فوقه الأعشاب فكان أشبه بالامبراطورية المهزومة التي ترفع الباندیراما علمها . قفز الى الرصيف مصطفى كمال الذي عيّن مفتشاً عاماً للجيش العثماني التاسع ، وكان قد أملى شروط تعيينه وجعلها غامضة بحيث تفسر بأنه للأناضول بأسره ، ولكنه كان شيئاً أعظم من ذلك .

ان الحرب ، كالمذبح ، لا تتطلب ضحايا فحسب بل تجعلهم مجهولين أيضاً . برزت من عناوين الصحف اسماء ولكن كانت بلا أوجه ، وصنعت تماثيل من شمع للمتاحف وتماثيل حجرية للميادين ولكنها لم تفتن سوى القليلين . ان جوفروفوش ، جاليكو وهيج ، لودندورف وسمسونوف ، واللنبي وليمان فون ساندرس ، برزوا من بين الجثث يرتدون الزي نفسه . تحركت في الحرب أيضاً فجأة أشياء كثيرة ، وتشابكت الحوادث كعجلة مسننة ملطخة بالدم في سجن آلات التعذيب ، لا أحد يستطيع أن يعتقد ان شخصيته قد سيطرت على الحوادث أو أثرت فيها . لم يجرؤ أحد على ذكر سبب واحد لانتصار الحلفاء أو هزيمة الألمان ، ولا منتصر يستحق الهتاف !

قام مصطفى كمال بدور مهم في الحرب المجهولة . كان القائد العثماني الذي لم يغلب بل قاوم حتى النهاية ، والشخصية الرئيسة في الدفاع البطولي عن غاليبولي ، فجلب الحمد للجندي التركي العادي . أما في الجبهة السورية فقد حال دون تحوّل هزيمة الجيش التركي على يد اللنبي الى هزيمة منكرة .

لكنه الآن اذ وقف يدرس سمسون بعد الحرب ، ويتبادل التحية مع الضباط الذين جاءوا للترحيب به ، كان رجلاً قد بدأ يبرز بأهداف محددة خاصة يريد تحقيقها . كان عليه أولاً أن يكسب ولاء أعيان الأناضول ، وأن يسيطر على كل شبكة البرق المهمة . سيدعي أنه يدافع عن الحكومة الشرعية العاجزة عن الدفاع عن نفسها كي يعزز القومية التركية كقوة دافعة تطرد اليونان . وحين يزداد دكتاتورية

سيسيطر على البلد ما دام حياً ، ولكنه سيكون دكتاتوراً من نوع غير عادي . سيقبل بالحاجة الى المعارضة ، ويترك وراءه هيبة دائمة . من قبره سيقود ، كرئيس فخري ، الجيل التالي .

أمضى مصطفى كمال ست عشرة سنة شاقة في الإعداد ، كجندي ، لملحمة بدأت من الميناء المتداعي ، ملحمة مقاومة للمنتصرين في الحرب ، ولليونان الذين دخلوها متأخرين ، ولآخر سلطان وآخر خليفة ، وفوق كل شيء مقاومة ضد الماضي .

تركت السنوات التي أمضاها في الجندية طابعها في جسمه ، فجعلته خشناً وصلباً . كانت ملامحه قاسية : أنف كبير بارز ، ووجنتان آسيويتان ناتئتان ، وشفتان قاسيتان مزدريتان ، ومن فوق ذلك كله عينان فيهما كل عاطفة وكل معرفة ما عدا الدفء أو الحبّ . كانتا تشعان وهو يتكلم عن الأتراك ، كما يفعل غالباً ، وكانت جملته «لا شيء أفضل من أن يكون المرء تركياً» تصلح للنقش في الأنصاب التذكارية . ولكن هاتين العينين نفسيهما تستطيعان النظر الى الموتى الاتراك العديدين بهدوء نابوليوني إلاّ أنه دون أي تظاهر بالشجاعة الشخصية وراءهما بل مجرد تكريس بارد لهدف وطني ملتحم تماماً بذاته بطريقة لا تظهر أثر اللحم . عبد تركيا ، وكانت تركيا نفسه . أما يداه فكانتا طويلتان نحيلتان كأيدي النساء ، يمسك بهما بشره كل شيء موقتاً ليخضعه أو يتمتع به لا ليحبه ويحترمه . كانت ملامح مصطفى كمال تشير الى ما يخفي وراء زيّه الأنيق ، الى كبد تحجرت تدريجاً بالمسكن ذي الطبيعة القاسية والدواء الوهمي للقبض المزمن . لن يستطيع السلطان – الخليفة ، ولا ساسة الحلفاء ، ولا جنرالات اليونان قتل هذا الرجل ، أما الخمرة فتستطيع .

لم تكن سمسون كاسطنبول ذات الجوامع الساحقة ، أو بيرا ذات الفنادق الرائعة التي كان يتردد عليها العثمانيون الذين يتكلمون الفرنسية والشرقيون والأوروبيون الذين كانوا يجنون المال من مرض الدولة ، فقد كان البسفور حتى في حال الهزيمة مزدحماً كالقناة الكبرى في البندقية . تعكس سمسون التي تخدم الهضبة إهمال العثمانيين لتركيا الأساسية ، فقد كان ميناؤها تنقصه المرافق الملائمة ، ليس فيه سوى أرصفة خشبية كالرصيف الذي نزل اليه مصطفى كمال . لكن هذه المدينة كان لها ماضيها ، فقد أسسها اليونان من ميليتوس ، ثم جاءها في القرن الخامس قبل الميلاد مستوطنون من أثينا ، فأصبحت بوابة إقليم بنطس المؤلف من سهول ساحلية وراءها جبال وعرة تتخللها وديان خصبة . وحين وصلها مصطفى كمال كانت تسكن المدينة وضواحيها أقلية يونانية من الطبقة الوسطى بيوتها حجرية تتوفر فيها وسائل الترف . وقد اختار أحدها بيتاً موقتاً له فحكم عليه بأن يصبح في المستقبل متحفاً .

ترتفع وراء سمسون هضبة الأناضول التي كانت مصدر أشد أعداء الجزر اليونانية خطراً كالفرس في أيام كورش ، ثم الأتراك . وكان الأناضول ، بالنسبة الى امبراطورية بنيت على الفتح أكثر منها على الفلاحة والتجارة ، مستودع جنود . حالما عبر العثمانيون الى البلقان ترك السلاطين مدينة بورصة ، عاصمتهم في الأناضول ، وانتقلوا الى أدرنة ثم الى القسطنطينية ، وبدأوا يزدرون رجال الهضبة ويعدونهم فلاحين مغفلين . لم يشركوهم في إدارة الدولة ، بل اعتمدوا على الانكشارية المجندين من ابناء المسيحيين الذين كانوا يقدمون الى السلطان ضريبة فيربيهم لخدمة الاسلام . لم يكن أحد منهم تركياً . والواقع ان حكام الامبراطورية المتأخرين ، من السلطان الى اصغر الموظفين ، كانوا جميعاً عثمانيين ، معظم دمهم مستمد من البلقان ، ولغتهم ملآنة بالكلمات الدخيلة .

كان مصطفى كمال لا يكاد يعرف الأناضول ، مثله في ذلك مثل القادة العثمانيين الآخرين . عبره مرة في طريقه الى سوريا ، وفي مرة أخرى انسحب امام جيوش الحلفاء والعرب الى حدوده الجنوبية شمالي حلب . ان الأناضول غير معروف تماماً جغرافياً . انه هضبة مرتفعة فيها نحو أربعين ألف قرية منعزل بعضها عن بعض بالجبال التي لا تتبع نمطاً معيناً ، وبالأنهر المتقلبة المتحولة ، والسهول التي تشتد حرارتها في الصيف وتغطيها الثلوج في الشتاء . ثم ان هذه الجبال ملتفة ومتشابكة ، والطرق النادرة بينها ذات منعطفات كثيرة ومرتفعات ومنحدرات . في وسط الأناضول سهل مقفر فيه حوض من البحيرات الكبيرة ، ومركزه مدينة أنقرة . أما غربي الأناضول فإن أوديته تتجه نحو بحر إيجه ، بعضها صالح للزراعة والبعض شديد الانحدار تقوم على جوانبه الآجام ولا يستعمل في الزراعة . ثم ان جباله متداخلة غير منتظمة تحول بين مقاطعات برمتها وبين سهولة الوصول الى البحر . معظم قرى الأناضول فقير ، يبني سكانها بيوتهم بقوالب اللبن التي تعزل الحرارة في الصيف أكثر من الحجر ، ويسوون سطوحها بالمحادل الضخمة ولكنها تظل تدلف في الشتاء ، ويقتصر غذاؤهم على الحبوب التي تزرع في الأودية . ان هؤلاء القرويين أقوياء عنيدون مخلصون ، يؤمنون بالخرافات ، ويرتابون في السلطة ، ولا صلة لهم بالعالم الخارجي . ثم انهم واثقون تماماً من ان الرجال متفوقون على النساء ، والمسلمين على أرباب الديانات الأخرى . يفتقر الأناضوليون الى الشعور القومي . اذا سألت أحدهم : « أتركي أنت أم قروي ؟ » أجابك بكلمة واحدة : « مسلم » . ان الاسلام هو القوة العاطفية الوحيدة فيهم ، وتأتي بعده الأسرة الموسعة التي تقرب المداولات بين رجالها من الديمقراطية في اتخاذ القرارات المتعلقة بالقرية .

لم يكن مصطفى كمال قروياً ، ولا تركياً بالمعنى الصحيح . دعاه اللورد

كنروس ، كاتب سيرته ، « مكدونياً » ، وهو مصطلح يضم الأتراك واليونان والسلاف والألبان والفلاش سواء أكانوا مسلمين أو مسيحيين أو يهوداً . أما في أيام نشأة مصطفى كمال فكان مصطلح « البلقانيين » يقسم السكان الى قسمين : في طرف أولئك الذين يشعرون أنهم مرتبطون بالامبراطورية العثمانية ، وفي الطرف الآخر أولئك الذين يشعرون أن الامبراطورية تقيدهم . كان والداه عثمانيين مخلصين ، الوالد موظف صغير أراد أن يكون تاجر خشب ولكن اعمال العصابات احبطت مساعيه ، والوالدة من منطقة البحيرات غربي سلانيك على حدود البانيا ولكنها ادعت أن أسلافها هاجروا من الأناضول بعد الفتوح العثمانية الأولى . وكان ولدها مصطفى كمال يود أن يعتقد أنه ينتسب الى اليوروك ، وهم قبائل رحالة تتكلم التركية ، ولا تزال تتجول في جبال طوروس التي تكسوها أشجار الصنوبر ، وتتصف باللون الأشقر وزرقة العينين التي ورثها مصطفى عن أمه زبيدة . وقد كانت زبيدة ، كغيرها من أهل الأناضول وخلافاً لزوجها ، مسلمة تقية تريد ان يصبح ولدها من رجال الدين .

مهما كانت روابط مصطفى كمال بالأناضول ضعيفة فقد كان أول عثماني بنى سياسته على الفلاحين وعلى موطنهم الآسيوي الوعر . قال : « ما دام الفلاح ليس سيد بلده لن يكون في تركيا تقدم حقيقي » . كوّن هذا الرأي قبل ست سنوات أيام كان ملحقاً عسكرياً في بلغاريا ، فقد حدث وهو جالس في مقهى راق من مقاهي صوفيا ان دخل فلاح وجلس الى مائدة بجواره . نادى النادل مرات فلم يجبه أولاً ، ثم تقدم منه وأخبره أنه يرفض خدمته ، واخيراً جاء صاحب المقهى وحاول طرده ، فغضب الفلاح ، واحتج قائلاً : « كيف تجرؤ على طردي ؟ تعيش بلغاريا على عملي ، وادافع عنها ببندقيتي » ! وهنا تدخل شرطي فأيد الفلاح ، واضطر صاحب المقهى الى خدمته وتقديم الكعك والشاي له .

تأثر مصطفى كمال بهذا الحادث ، واتخذ من بلغاريا مثلاً . كانت ولاية عثمانية ، واذ استقلت تحولت الى الغرب واعادت بناء العاصمة صوفيا على النسق الغربي .

من السهل الاعتراض على مصطفى كمال لتعلقه بحب المدنية الغربية التي نظر اليها بمرآة مشوهة ، ولكنه اعتراض تافه أيضاً . ذلك بأن العبقرية تلمح غالباً ما تحتاج اليه بنظارة مكسورة . عرف كيتس عن هومر ، من خلال ترجمة شابمان غير الدقيقة ، أكثر من كثيرين من المتبحرين في اللغة اليونانية . ولقد كان مصطفى كمال في اتخاذه من بلغاريا مثلاً أكثر واقعية من عبد الحميد الذي أحب بروسيا هوناً ما أو الخديوي اسماعيل الذي أحب فرنسا حباً عميقاً . إنه بإعجابه بالطريقة التي اتبعتها ولاية حقيرة من ولايات امبراطوريته في تغيير سيرها قد خطا أول خطوة نفسية نحو

التغيير الذي أثبتت بلغاريا أنه ممكن عملياً .

ان مصطفى كمال في تعظيمه الفلاحين لم يفكر أبداً في اعطائهم السلطة ، بل كان تعظيمه لهم رمزياً فقط . كان بحاجة الى من يعتمد عليه ضد الأقلية من الأفندية فلجأ الى الفلاحين الذين يكوّنون الأكثرية . ثم إنه بتقليله من شأن الأقلية الحاكمة يستطيع ان يرفع نفسه الى السلطة على أكتاف هذه الأكثرية . لكن حلمه بالتحول الى الغرب كان ضد ما يريده فلاحو الأناضول تماماً . كان الاسلام في نظرهم أهم شيء ، والسلطان — الخليفة رمزاً غالياً ، بينما رأى مصطفى كمال في الخليفة خائناً منحلاً وفي الخلافة شركاً علق به الشعب التركي في رحلته غرباً وشغله بقضية الشرق السامية . وكما رأى روسّو ان الناس يجب أن يحرروا بالقوة كذلك اعتقد مصطفى كمال ان الأناضوليين سيحققون أنفسهم بحرمانهم كل ما هو عزيز عليهم . سيستعمل السجن والمشنقة في تحويل الفلاحين الى ما يريد أن يكونوا : أقوياء ، مستقلين ، يرتدون الثياب الغربية . لكنه كان بحاجة أولاً الى إشراكهم في معاركه دون أن يخامر عقولهم اي شك . ان طلب كمال من الأناضوليين محاربة اليونان أثار فيهم بأساً شديداً أدهش العالم .

الفصل الثاني

لم يكن على مصطفى كمال ان يحارب اليونان وحدهم في جبهة واحدة فقط بل في جبهات اخرى ايضاً : ضد السلطان المستعد للتضحية بأي شيء في سبيل الاحتفاظ بعاصمته ، ضد الحلفاء البريطانيين والفرنسيين الذين حاربوا الامبراطورية العثمانية ليهزموها وقد أقروا الغزوة اليونانية ، ضد الإيطاليين الذين احتلوا انطاكيا ورودس ، ضد الأرمن الذين ارادوا تأسيس دولة في الأناضول الشرقي تحت رعاية الولايات المتحدة ، وأخيراً ضد الأتراك الذين لم يفهموا نواياه أو فهموها ولكن رفضوها .

ما لبث ان اكتشف ما يريد أن يجد ... وجد الأناضول يتحرق غضباً على الأجانب ، وخصوصاً على اليونان الذين كانوا رعايا تابعين للامبراطورية العثمانية والآن يهددون بأن يصبحوا أسيادها . ثم جاءت حكايات الإهانات والمذابح في أزمير المحتلة فساعدت على اشعال النار .

عقد في ٢٣ يوليو المؤتمر الوطني الأول في أرضروم ، فتعهد بالدفاع عن حقوق الأناضول الشرقي وانتخب مصطفى كمال رئيساً له . ثم عقد في ٤ سبتمبر المؤتمر الوطني الثاني في سيواس التي تبعد ثلاثمائة ميل الى الغرب ، وكان أهم من المؤتمر الأول ، فانتخب مصطفى كمال رئيساً له ، وكان ضد حكومة القسطنطينية ، بيد أنه استثنى السلطان وبقي موالياً له . وفي ١٠ سبتمبر ارسل مصطفى كمال برقية يعلن فيها اسقاط هذه الحكومة بتهمة الخيانة ، كما أصدر ممثلو الأناضول براءة جماعية من كل اعضاء تلك الحكومة ما عدا السلطان نفسه ، وأبرق جيش الأناضول يعلن ولاءه له .

ربما فكّر محمد السادس في أن من الملائم أن ينضم الى الوطنيين . والواقع أنه ادعى فيما بعد الاشتراك في سرّ رحيل مصطفى كمال الى سمسون ، وتكليفه انقاذ قلب الأناضول . وقد رضخ لاحتجاجات الوطنيين فعزل صهره الداماد فريد باشا ، الصدر الأعظم ، وكان محتقراً ، وعين مكانه علي رضا باشا الذي كان بعض عواطفه مع مصطفى **كمال** . ثم اجرى انتخابات جديدة اعادت الى القسطنطينية برلماناً سيطر عليه مؤيدو **مصطفى** كمال . أقر هذا البرلمان « الميثاق الوطني » الذي وضع في ارضروم وسيواس ، والذي نصّ على ان تكون تركيا دولة مستقلة وان تُعطى الولايات غير التركية حق تقرير المصير .

راحت لجنة الحلفاء في القسطنطينية تتخبط في تصرفاتها ، إمّا لأنها أساءت

تقدير مدى تمثيل البرلمان الجديد للرأي العام التركي ، أو لأنها اعتبرت الرأي العام التركي قليل الأهمية ، فأجبرت السلطان على عزل الصدر الأعظم الجديد وتعيين وزير البحرية مكانه وهو رجل يمكن الاعتماد عليه في الاذعان للحلفاء . وفي ١٦ مارس ١٩٢٠ اتبع البريطانيون السياسة التي طبقوها على مصر في السنة السابقة فاحتلوا الأحياء التركية الصرفة في القسطنطينية ، واعتقلوا مائة وخمسة وعشرين من الوطنيين الاتراك ، ونفوهم الى مالطا كما نفوا من قبل سعد زغلول .

كان رد فعل البرلمان التركي قوياً . أصدر في ١٨ مارس بالاجماع قراراً استنكر فيه اعتقال بعض اعضائه ، وعطّل نفسه . أما موته فقد حدده السلطان الذي أمر في ١١ ابريل بحله ، فكان آخر برلمان اجتمع في القسطنطينية .

أصبحت أنقرة في قلب الأناضول العاصمة الفعلية لتركيا المستقلة . وقد اختارها مصطفى كمال لوقوعها على السكة الحديد التي تربط القسطنطينية بالجنوب . كان ينتظر مثل هذا الخطأ من الحلفاء ، فلم يكد يعطل البرلمان نفسه حتى أجريت انتخابات لجمعية وطنية جديدة تجتمع في أنقرة .

اجتمعت الجمعية الوطنية الكبرى المنتخبة في ٢٣ ابريل ، ونظر اعضاؤها الى أنفسهم كممثلين للشعب إلا أنهم ظلوا موالين للسلطان ، فقد اعتبروا اجراءاته ضد البرلمان المنتخب في القسطنطينية أنها كانت ضد إرادته وعزوها الى تدخل الحلفاء . ولكن السلطان محمد السادس كان يفتقر الى الحكمة في تصرفاته فاتخذ هو ، لا مصطفى كمال ، اجراءات واضحة أدّت الى القطيعة التي كان قليلون من الأناضوليين يقدمون عليها من تلقاء أنفسهم لولا ذلك .

كانت خطوته الأولى ارجاع صهره الى رئاسة الوزارة ، والثانية حمله رجال الدين على اصدار فتوى تعلن الوطنيين ثواراً وتبيح قتلهم . لم تكن تلك الفتوى مجرد إجراء بسيط ، بل تبعها بسرعة تجنيد قوة لتنفيذها والقبض على الثوار . وفي ١١ مايو حكم على مصطفى كمال والقواد الوطنيين الآخرين بالاعدام كخائنين ، فرد الوطنيون في أنقرة على ذلك بتعيين مجلس وزراء خاص بهم ، واعلنت الجمعية الوطنية في ١٩ مايو أن الصدر الأعظم خائن ، كما أصدر مفتي أنقرة فتوى مضادة اعتبرت أي مرسوم يصدر بتهديد من الأجانب باطلاً .

على أنه كان لفتوى القسطنطينية وزنها . ذلك بأن السلطان من بني عثمان كان منذ قرون يحمي الأتراك ، ويدعم بشخصه الشريعة الاسلامية السمحة ، ولهذا قامت في أجزاء كثيرة من الأناضول تظاهرات ضد الوطنيين ، وبقيت مناطق بأسرها إما موالية للقسطنطينية أو انضوت تحت لواء زعيم حربي محلي .

هنا أيضاً ساعد الحلفاء قضية الوطنيين دون قصد . في يونيو ١٩٢٠ ، بعد جلسات

طويلة من المساومات ، توصل ممثلو بريطانيا وفرنسا الى وضع شروط الصلح وقدموها الى حكومة السلطان . ان لمحة قصيرة الى تلك الشروط تظهر أنها كانت قاسية جداً ، لم تبق للسلطان في اوروبا سوى العاصمة وقطعة أرض صغيرة ، وكان ذلك لأن كره الحلفاء للبلاشفة الروس فاق كثيراً كرههم للأتراك ، ووضعت الممرات تحت اشراف دولي . هذا وقد فقد السلطان كل ممتلكاته العربية . اعترف بالحسين ملكاً على الحجاز ، ووضعت سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي ، بينما وضع العراق وفلسطين تحت الانتداب البريطاني ، وبذلك سيطرت بريطانيا على الجسر المؤدي الى الهند وعلى الطرق المؤدية الى قناة السويس . واعطيت اليونان مدينة ازمير وضواحيها على ان يجرى استفتاء بعد خمس سنوات ، وتركت لايطاليا جزيرة رودس وجزر الدوديكانيز ، وتقرر تأسيس دولة أرمنية مستقلة مؤلفة من أربع مقاطعات في الأناضول الشرقي على أن يعين رئيس الولايات المتحدة حدودها النهائية .

استطاع حتى السلطان الضعيف أن يرى وحشية هذه الشروط فاحتج عليها . ولم تكن بريطانيا وفرنسا اللتان خرجتا من الحرب منهوكتي القوى مستعدتين لتنفيذها بالقوة ، وخصوصاً بعض رفض الولايات المتحدة الاشتراك معهما ، فوجد لويد جورج علاجاً رخيصاً للمشكلة وذلك بتشجيع اليونان على التوغل داخل الأراضي التركية . وقد تمّ ذلك ، فاحتلوا في ٩ يوليو مدينة بورصة العاصمة العثمانية الأولى ، واحتلوا في ٢٥ يوليو أدرنه العاصمة العثمانية الثانية في تراقيا ، فاضطرت حكومة القسطنطينية الى توقيع معاهدة « سيفر » في ١٠ أغسطس .

إن رفض الوطنيين في أنقرة معاهدة « سيفر » لم يكسبهم تأييد الأتراك جميعاً فحسب بل تأييد الاتحاد السوفييتي أيضاً . فقد احتج الزعماء الروس على هذه المعاهدة ، واعيدت العلاقات الدبلوماسية بين حكومة مصطفى كمال في أنقرة وبين حكومة لينين في موسكو ، وبدأت الذخائر والمؤن ترد من روسيا الى تركيا عن طريق ميناء طرابزون على البحر الأسود فقامت بدور حيوي في السنتين التاليتين . ولم يقل عن ذلك فائدة التأييد الدبلوماسي الروسي لمصطفى كمال . ان قيام جمهورية أرمنية مستقلة تحت رعاية اميركا لم يلائم الروس ، ولذلك اتفقت الدولتان على تعيين الحدود بينهما كما كانت في أيام السلطان والقيصر ، واسست في منطقة من القفقاس جمهورية أرمنية سوفييتية اشتراكية عاصمتها يريفان .

في محاولة لإظهار الود والتقدير للروس سمح مصطفى كمال لحزب شيوعي مرخص بالعمل في تركيا ، ولحزب حقيقي غير مرخص يعمل سراً . لم ينل كلا الحزبين تأييد الأناضوليين الذين وجدوا حتى اصلاحات مصطفى كمال متطرفة . كان مزاج مصطفى كمال الدكتاتوري لا يتساهل مع آراء الآخرين ، كما كانت النظرة الماركسية

إلى التاريخ مناقضة لنظرته الخاصة ، ولكنه أراد أن يستفيد من الشيوعيين حتى اذا انتهى غرضه منهم منعهم بلا رأفة .

ازداد القتال بين الأتراك واليونان صبغة دينية ، وخصوصاً بعد سقوط فنزيلوس في استفتاء ١٩٢٠ وهو الذي أراد احياء الامبراطورية الهيلينية الوثنية ورجوع الملك قسطنطين الى العرش والتفاف رجال حوله من الذين أرادوا احياء الامبراطورية البيزنطية المسيحية التي كانت القسطنطينية عاصمتها . وكما يحدث عادة في الحروب الدينية ازداد المتحاربون في الجانبين شراسة ، فنهب اليونان القرى التركية ، وقتلوا النساء والرجال لمجرد أنهم ينتسبون الى الاسلام الذي قضى على الامبراطورية البيزنطية .

اشتدت حماسة الأتراك حماة الاسلام للقتال ، فاستغل مصطفى كمال حماستهم ، وقد كان بحاجة الى استغلال كل شيء وكل واحد . كانت جيوش اليونان الأفضل تسلحاً قد شنت هجوماً أدى في ربيع ١٩٢١ الى احتلال مدينة اسكيشهر التي سبق ان احتلها عصمت إينونو ، وتقدمت شرقاً فأصبح صوت مدافعها يُسمع في أنقرة .

دعا مصطفى كمال ، حين رأى اقتراب اليونان من أنقرة ، الجمعية الوطنية وطلب تخويله سلطات مطلقة مدة تسعين يوماً ، ولكنه احتفظ بها بطريقة ما بقية حياته . استخدم السلطات التي منحها بصورة تركت أثراً مذهلاً في أزمة ١٩٢٢ . عبأ الأناضول جميع قواته في حرب « شعبية » اشتركت فيها النساء أول مرة لا كجنديات ، وان كان بعضهن كذلك مثل خالدة أديب ، بل كسائقات للعربات البطيئة التي كانت تنقل الطعام والقنابل على الطرق الجبلية الوعرة .

استعملت القنابل في معركة حاسمة على نهر سقارية ، الحاجز الطبيعي بين قواعد اليونان على بحر إيجه وبين أنقرة . لم يقصد اليونان البقاء في الداخل ، ولكن ملكهم ومستشاروه اعتقدوا ان قهر الوطنيين الاتراك وحملهم على نقل حكومتهم الى سيواس أو أرضروم يخدمان غرضين : تشويه سمعة الوطنيين الأمر الذي يعود بالفائدة على الحكومة الضعيفة في القسطنطينية ، وإرجاع الاتراك الى السهول والأودية القاحلة في الهضبة بينما تبقى في أيدي اليونان السواحل التي كانت فيما مضى يونانية .

كانت معركة سقارية أطول معارك التاريخ ، إذ استمرت من ٢٣ أغسطس الى ١٣ سبتمبر ، سقط فيها الألوف من الطرفين في قتال انتقل من دقيقة الى دقيقة ومن رابية الى أخرى الى أن تلاشت حماسة اليونان أمام العناد الذي اختص به الجنود الأتراك .

ادعى كل من الطرفين أنه كان المنتصر ، وبينما قرعت أجراس الكنائس في أثينا خلعت الجمعية الوطنية في أنقرة على مصطفى كمال لقب « الغازي » القديم . بيد أن المعركة كانت حاسمة بالنسبة الى الأتراك لأن اي شيء ما عدا الوصول الى أنقرة

كان هزيمة استراتيجية لليونان ، واي شيء أقل من هزيمة كان نصراً للاتراك .

أمضى مصطفى كمال السنة التالية بعد معركة سقارية في تعزيز جيشه . اكتفى الايطاليون برودس وجزر الدوديكانيز وتخلوا عن كل ادعاء بالأناضول ، واعترفت إيران بالوطنيين فقوى ذلك حدودهم الشرقية واضعف موقف السلطان المذعور . كذلك حلت مشكلة الحدود مع جورجيا واندبيجان وارمينيا ، وجاء مقتل أنور باشا في تركستان على يد الجنود السوفييت فألاً حسناً ، فقد قام هناك بحركة ترمز الى الفرق بين الجامعة التركية التي كان يدعو لها وبين أهداف مصطفى كمال المحدودة الحذرة .

عبّر مصطفى كمال عن هدفه بأمر القتال الذي بدأ به معركة دوملو بنيار : « أيها الجنود إن هدفكم هو البحر الأبيض المتوسط » .

كانت الاعدادات للوصول الى الساحل معقدة ومخادعة ، أظهرت ان إحدى مواهب مصطفى كمال القدرة على التعلم من أعدائه ومن التجارب . كما أخذ مفهوم المدنية الغربية عن بلغاريا كذلك أخذ استراتيجية النصر عن الجنرال اللنبي في فلسطين الذي جعل الأتراك ، بالأوامر والرموز المزيفة ، ينتظرون الهجوم من الغرب الى الشرق عبر الأردن ، فاقتنعوا بأن لا خطر عليهم من الساحل ، بينما جاء هجومه الكبير عن طريق الساحل .

طبق مصطفى كمال هذا الدرس على جيش قسطنطين المنتشر على جبهة طولها ثلاثمائة ميل من بحر مرمرة في الشمال الى وادي مندريس في الجنوب . وكان هدفه التقدم بأقصى سرعة من أفيون الى أزمير . أخفى نواياه ، وتظاهر بالتحرك نحو بورصة واسكيشهر بينما اندفع في الليل نحو أفيون الوادعة . كان الضباط اليونان يرقصون حين داهمهم الأتراك . لم تفدهم خطوط الدفاع الثلاثة التي أقاموها أمام الأتراك الذين تمكنوا ، بالاستهتار بالموت وبدمائهم التي غذوا بها أرض الصيف العطشى ، من اختراق جميع المواقع والاستيلاء عليها . انكسر اليونان ، وبسرعة تفوق سرعة الأتراك في التقدم فروا مذعورين نحو البحر وهم يحرقون كل شيء يجدونه في طريقهم ويذبحون كل شخص .

في ١١ سبتمبر سقطت ازمير وبورصة في أيدي الأتراك ، وجلس مصطفى كمال ، الذي لم يذق الخمرة منذ بدء الهجوم ، على شاطىء البحر يواجه السفن الحربية التي رمزت أولاً في القسطنطينية ثم هنا في ازمير الى القوة الحقيقية وراء العدوّ . ولكن المسيطرين على مدافع لويد جورج لم يطلقوها . لقد اعترفوا بالأمر الواقع ، وهو أن الأناضول أصبح في أيدي الأتراك . أما اليونان فقد انجروا الى بلدهم حيث هرب الملك مرة أخرى ، وقامت محكمة ثورية بمحاكمة عدد من قواده ووزرائه وحكمت عليهم بالموت رمياً بالرصاص .

الفصل الثالث

تأكدت في نهاية سنة ١٩٢٣ قدرة الأتراك ، بعد جهد كبير ، على إباء المذلة التي ألحقتها بهم معاهدة سيفر وذلك بمعاهدة جديدة وقعت في لوزان . مثّل الحلفاء في بداية المفاوضات التي دامت تسعة أشهر اللورد كيرزون ، ومثّل الأتراك عصمت إينونو الذي كافح بصبر وعناد لتحقيق أهداف مصطفى كمال المحدودة . أصرّ مصطفى كمال على إلغاء الامتيازات الى الأبد ، وتمشياً مع فكرة دولة تركية قومية قاعدتها الأناضول تنازل عن الولايات العربية . وقد بذل عصمت جهده بعض الوقت لاستعادة مدينة الموصل محتجاً بأنها كردية ولذلك فهي تركية ، ولكن اللورد كيرزون رفض حجته وأشار الى أن الموصل مدينة عربية محاطة بمنطقة فيها أقلية صغيرة تتكلم التركية وعدد أكبر من الأكراد الذين وان كانوا غير عرب إلاّ أنهم ليسوا أتراكاً . غير ان تركيا استعادت جزيرتي تنيدوس واميروس اللتين تحرسان مدخل الدردنيل ، وأخذت اليونان بقية جزر البحر المتوسط الشرقي ما عدا قبرص التي بقيت في يد بريطانيا وجزر الدوديكانيز التي بقيت إيطالية حتى نهاية الحرب العالمية الثانية . أما مشكلة الأقلية اليونانية في الأناضول فقد حلّت باستبدالها بالأقلية التركية التي في اليونان وان كان قد بقي بعض الأتراك في شمالي اليونان وبعض اليونان في القسطنطينية ، وهكذا قضت معاهدة لوزان نهائياً على سبب مجد الإمبراطورية العثمانية وضعفها ، أي التعايش بين شعوب مختلفة تحت سقف واحد .

الآن وقد تحرر مصطفى كمال من تهديد مدافع الحلفاء ومن الغزاة اليونان فقد بدأ سلسلة من الاصلاحات المتطرفة لا نظير لها في التاريخ . ذلك بأن المنتصر على العرب كان يعدّ لنقل شعبه من طريق حضاري الى طريق آخر ، الى طريق يؤدي الى الغرب ، طريق أعدائه المغلوبين . أما الرافعة التي رفعت المحرّك ، أو العربة التي تجرها الثيران ، فقد كانت إرادة كمال الأثرية .

بما أن الإرادة هي اللغز الأساسي في مصطفى كمال فمن الجدير ان نفحصها ولكن من خلال ملاحظات خالدة أديب أكثر الأشخاص حساسة في بطانته ، وقد كانت معه في الوقت الذي تمّ فيه احتلال ازمير . قال في لحظة نسي فيها الحذر إن كل من يخالفه سيعدم دون محاكمة . وقال أيضاً : « حين ينتهي القتال ستكون الحياة مملة ، فلا بدّ من أن نجد إثارة اخرى يا خانم ! » وقد علقت خالدة على ذلك بقولها : « ان

هذه الكلمات مفتاح مزاجه . لا بدّ من ان يكون هناك شيء يعمله . لا بد من ان يكون على المسرح ، ممثلاً فريداً يدهش العالم بصورة مستمرة ، ممثلاً من نوع خطر على الآخرين الا على نفسه . يجب أن ينتزع كل ما يمكن ان يصدر عن المشاهدين : الخوف ، والتعجب ، والافتتان » .

كان مصطفى كمال أكثر وضوحاً فيما يتعلق بنشاطه حين جلس حول مائدة ضمت خالدة أديب في مزرعة في الأناضول قبل معركة سقارية . قال في أثناء الحديث مظهراً دافعه في الحياة :

...« ما أعني هو هذا : اريد من كل واحد ان يفعل ما أريد ، وأن أحكم » .

قالت خالدة : « ألم يفعلوا ذلك في كل شيء جوهري وفي سبيل القضية التركية ؟ »

تجاهل جوابها وتابع حديثه بالصراحة نفسها :

« لا اريد أي رأي ، أو نقد ، أو نصيحة . سأتبع طريقي الخاص فقط . وعلى الجميع ان يفعلوا كما آمر » .

كان أول من خضع لهذه الإرادة العنيفة الظافرة آخر سلاطين آل عثمان . في اول نوفمبر ، بعد هزيمة اليونان ، ألغى مصطفى كمال السلطنة ، فكان الوضع مخالفاً تماماً لما حدث في الاسكندرية في أيام عرابي . اعادت السفن الحربية البريطانية في ذلك الحين الخديوي توفيق الى عرشه ، أما في ١٧ نوفمبر فإن سفينة حربية بريطانية أخذت محمد السادس ، آخر سلطان عثماني ، الى خارج تركيا . وقد نصب ابن عمه عبد المجيد خليفة فقط .

كان فصل الجامع عن الدولة خطوة واحدة قصيرة في خطة مصطفى كمال ، فقد كان كرهه لكلمة « خليفة » لا يقل عن كرهه لكلمة « سلطان » لأن كلتيهما جاءت من الشرق . بيد أن ملايين من المسلمين ، وخصوصاً الهنود ، رأوا في ذلك الفصل اهتماماً بالدين ، وبدا لهم مصطفى كمال مصلحاً ، فازداد تعلقهم الروحي بتركيا على الرغم من أن السنة تقضي بأن يكون الخليفة رئيساً دينياً ودنيوياً . لكن مصطفى كمال قرر ، لأسباب سياسية ، ان يلغي الخلافة في أول فرصة لأنه كان لا يطيق أن يرى منافساً له ، ولا سيما حين تبين ان بعض أقرب زملائه إليه أخذوا ينظرون الى الخليفة الجديد الضعيف بعطف واحترام ، ويرون فيه كابحاً لقائدهم الأوتوقراطي .

أصدر مصطفى كمال في ٣ مارس ١٩٢٤ مرسوماً يلغي الخلافة ، ونفى الخليفة عبد المجيد وجميع اعضاء أسرته من الأرض التركية . ولم يكتف بمهاجمة الرموز بل عمل في هدم المؤسسات الإسلامية فألغى « الكُتّاب » الذي كان يدرس فيه القرآن الكريم ، واسم « مدرسة » العربي ، كما ألغى الوقف الإسلامي وضمّ أملاكه الى الدولة ، وسنّ مجموعة قوانين أوروبية وطبقها بدل القوانين المستمدة من القرآن

والسنة الإسلامية .

فعل مصطفى كمال كل ذلك وحده ، وحملت هيبته العظيمة حاشيته على اتباعه ، لكن اصلاحاته قوبلت في الأناضول الشرقي بالرعب ، وقام الأكراد بثورة قمعت بمذبحة .

سار مصطفى كمال في سنة ١٩٢٥ في تنفيذ برنامجه الديني بخطى أسرع ، فاقفل التكايا ، وحلّ فرق الدراويش الصوفيين ، وأمر رجال الدين الاّ يرتدوا أزياءهم الدينية الرسمية إلاّ في الجامع أو الكنيسة أو الكنيس ، وألغى التقويم الهجري واستعاض منه بالتقويم الغربي ، وجعل الأحد يوم العطلة الأسبوعية بدلاً من يوم الجمعة . كان كره الدين من أقوى مشاعر مصطفى كمال، ولكنه كان حريصاً على الاّ يقر الحاد زعماء روسيا الشيوعيين، وان يتظاهر أمام شعبه بأنه يؤمن بجوهر الاسلام وانه إنما يريد تنقيته مما علق به من أشياء ضارة به ، بينما كان يعترف أمام المقربين إليه بأنه لا أدريّ .

عزم مصطفى كمال على اغراق كل ناحية من نواحي الحياة التركية في الطوفان الغربي الذي رأى أنه يكسب الحياة ، وعلى قطع كل علاقة تربط الاتراك بالعرب كالخديوي اسماعيل الذي شق الشوارع الواسعة المشجرة في القاهرة ، وفتح قناة السويس التي وصلت الشرق بالغرب ، ودعا امبراطورة أوروبية ، وبنى دار الأوبرا ، وانتظر من الناس أن يظهروا اعجابهم بكل ذلك ، لكنه لم ينتظر ان يغيروا حياتهم الشخصية كما لم ينو ان يغير حياته الخاصة . أمّا مصطفى كمال فقد أراد ألاّ يترك شيئاً في حياة الأتراك دون تغيير حتى ما كان خاصاً جداً كغطاء الرأس الذي يميز المسلمين من غير المسلمين . قال في خطاب عام : « إن لباساً مهذباً دولياً جدير بشعبنا ، وسنلبسه . الحذاء لأقدامنا ، والسروال لأرجلنا ، والقميص وربطة العنق ، والمعطف والصدرة ، وليكتمل ذلك طبعاً غطاء ذو حافة لرؤوسنا . أريد ان أكون واضحاً : ان غطاء الرأس هذا يدعى قبعة » .

كانت قومية مصطفى كمال تختلف كثيراً عن قومية معاصره المهاتما غاندي الذي امتدح الألبسة الهندية التقليدية وكثيراً من المواقف الهندية التي كانت تعدّ في الغرب غريبة . لم تكن قومية مصطفى كمال مدفوعة بمحبة ماهو كائن . لقد أحبّ الشعب التركي الذي تخيله واشمأز من الشعب التركي الذي وجده . فقد جعله ما رأته عيناه في سلانيك وصوفيا يرى الأتراك متأخرين .

لم يقنع كمال بتغيير لباس الرأس بل هاجم أيضاً ما في داخل رؤوس الأتراك وأراد تغييره بالحماسة نفسهـــا . بدأ بترك الحروف العربية واستعمال الحروف اللاتينية . وقد استند في هذا التغيير الى أساس أقل ضعفاً من تغيير الطربوش . ذلك

بأن تعلم الحروف العربية كان صعباً جداً على الطلاب الأتراك كما كان عاملاً في تفشي الأمية بين الأناضوليين ، فجاءت كتابة اللغة التركية بالحروف اللاتينية عاملاً سهلاً شجع على الاقبال على تعلمهـــا حتى لقد زاد عدد الذين يعرفون القراءة والكتابة في الثلاثين سنة التالية من عشرة الى أربعين بالمائة . ثم انتقل الى تغيير اللغة التركية نفسها ، وكانت هذه اللغة في عهد السلاطين قد تطورت بصورة غريبة ودخلها عدد كبير من الكلمات العربية والفارسية ، فعزم كمال أتاتورك على تنقيتها من هذه الكلمات واستعمال كلمات من أصل طوراني بدلها .

لا ريب ان تغيير الحروف ساعد على تخفيف الأمية في البلد ، وان تغيير الحروف واللغة قد انسجم مع برنامج مصطفى كمـــال في قطع كل علاقة لتركيا بالشرق ، ولكنه كان ضربة شديدة للشعب لا سابقة لها في تاريخ أي دولة حديثة . ذلك بأن الجيل الذي نشأ على تعلم الحروف اللاتينية واللغة التركية الجديدة لم يستطع أن يفهم شيئاً مما نشر قبل هذا التغيير إلاّ بدراسة تخصصية لأنه أصبح بالنسبة الى التركي العصري كلغة شوسر بالنسبة الى الأميركي العصري . ولا ريب أيضاً أن رفض الماضي كان له ما يبرره كصدمة نافعة للعقل التركي دفعته الى العلوم العصرية لا الى الأدب والعلوم الدينية كما كان الحال في الماضي ، ولكنه كان بالنسبة الى الروح التركية قطعاً لها من أعمق جذورهـــا .

وكخاتمة لعملية التحول الى الغرب والانفصال عن الشرق (وهي عمليـــة تضمنت أيضاً الأذان باللغة التركية ، والاستعاضة من اسم الجلالة بكلمة تركية ، وحظر لموسيقى الشرقية) (١) تقرر في سنة ١٩٣٤ ان يتخذ كل شخص لنفسه كنية بدلاً من الانتساب الى أبيه ، وبناء على ذلك اتخذ عصمت لنفسه كنية « إينونو » ، واطلقت الجمعية الوطنية على مصطفى كمال لقباً فريداً هو « أتاتورك » أو أبو الأتراك ، فأصبح يدعى « كمال أتاتورك . »

كان أتاتورك ، سواء أشاء أم أبى ، خليفة عبد المجيد ، وقد أصبح بعد أن ألغى اللقب القديم بحاجة الى لقب جديد . وكما كوّن اللورد كرومر وهاري بويل صورة للامبريالية الناجحة كذلك كوّن أتاتورك وعبد الحميد صورة ناجحة لمقاومة السيطرة الأجنبية .

كان عبد الحميد على ضعفه متمسكاً بالفكرة العثمانية السمحة التي تقبل تعدد العناصر البشرية ولكن يقعدها عجزها عن تحقيق نواياها . أما أتاتورك فقد قاتل

(١) أهملت كل هذه التغييرات بعد وفاة أتاتورك ، فعاد اسم الله على السن الأتراك ، واستؤنف الأذان باللغة العربية ، وأخذ راديو أنقره يذيع الأغاني الشعبية .

بعنف من أجل بقاء الشعب التركي في وطن تركي مستقلاً في حكم نفسه ، ولكنه تنازل عن معظم ما تميز به الأتراك في الماضي . مجّد أتاتورك قومه غير أنه ازدرى ما حققوه في الماضي . قال : « إن الامبراطورية العثمانية التي نحن ورثتهـا لا قيمة لها ولا ميزة » ، وهو قول قليلون هم المؤرخون الذين يشاركونه اليوم فيه. كانت حاجة أتاتورك قليلة الى القيم التي جرى المجتمع الشرقي على تقديسهـا كالشفقة والتقوى والصداقة ، فقد هلك زملاؤه على أعواد المشانق أو في المنفى نتيجة غضبه عليهم أو غيرته منهم . تزوج بعد النصر مباشرة لطيفة خانم ، وهي فتاة متعلمة ومهذبة ومن أسرة أفضل من أسرته ، فعاملها خلال فترة السنتين ونصف السنة التي أمضياها معاً قبل أن ينفصلا معاملة كانت مزيجا من السلوك العصري والجلافة. أصرّ على أن تظهر سافرة في وقت لم يكن السفور فيه قد أصبح عاماً ، وأشركهـا في جلساته مع اصدقائه ، وطلب منها أن تقرأ أمامهم شعر فكتور هيجو أو بايرون . لم يظهر لها سوى القليل من الاحترام والاعتبار ، ولم يخفف وجودها معه من إدمانه الشرب الذي قصّر حياته .

استغل أتاتورك موهبة الأتراك ، مهارتهم التقليدية في الحرب ، في إنقاذ الأناضول كدولة قومية من مصير بقية بلاد الشرق الأوسط ، ولكن ثمن هذا الانقاذ كان باهظاً . ذلك بأن الشعب الامبراطوري حين يفقد امبراطوريته قد يصبح تافهاً منطوياً على نفسه . كذلك الاتراك ابتعدوا عن الشرق الأوسط ، مسرحهم منذ قرون ، وكان بالامكان ان يظل الدين الذي كانوا حماة له رابطاً يربطهم بالعالم الخارجي . بيد ان أتاتورك لم يرد ذلك الرابط ، وحين بدأ الهنود المسلمون ينظرون الى الخليفة كمصدر للسلطة الروحية جاء رد فعله إلغاء الخلافة . كان يدافع عن الدين الأسلامي على منابر المساجد ولكن لم يكن في قلبه سوى القليل منه ، فقد أخرجه من حياته الخاصة كما اخرجه من حياته العامة .

بيد أن الدين لم يمت ولكنه لم يتطور كما حدث في مصر . اعتنق الرجال والنساء في المدن التركية مزيجاً من الأفكار الاوروبية غير منتظمة ولا جزور لها في ماضيهم ، وأخذ أحفاد الانكشارية يرقصون « الفوكس تروت » في المقاهي ويشربون الخمرة من صنع محلي . ان التجديد السطحي والتكيف للغرب سهلان سهولة ارتداء السروال والقبعة ، لكنهما في ساعة الموت أو الأزمة لم يرضيا سوى القليل . هذا في طرف ، اما في الطرف الآخر البعيد حيث القرى التي يعيش فيها معظم الأتراك الذين كان سكان المدن في أحد الأيام يزودونهم ويعتبرونهم جهلة بأمور الدين ، فقد أخذوا بدورهم يزودون اهل المدن ويعدونهم غير متمدنين . وهكذا بقي الدين، وان كان ممزوجاً بالخرافات ومتحجراً ، مصدر تماسك شديد بين الأتراك .

أمضى أتاتورك آخر أيام حياته في قصر دولما بغشة الذي بناه والد السلطان عبد الحميد على شاطئ البسفور . وفي ١٠ نوفمبر ١٩٣٨ توفي ونقل الى انقره في قطار مجلل بالسواد حيث ووري مثواه الأخير .

كانت القومية عزاء البلد الحزين ، « فلا شيء أفضل من ان يكون المرء تركياً » .

بيد ان ذلك لم يوفر جواباً للسوال الذي واجه الأتراك : ماذا تستطيع القومية ان تفعل اذا توقف القوم عن الإعجاب بأنفسهم ؟

الكتاب السابع

العلاقات الأنجلو-عربية في العشرينات

يمكنك أن تركن الى شيء واحد : لن اشترك ابداً مرة أخرى
في خلق الملوك ، إن في ذلك إجهاداً شديداً .

جيرترود بل
في رسالة بعثت بها من بغداد في ٨ يوليو ١٩٢١

الفصل الاول

في سنة ١٩٢١ رجع بويل المتغير الى قاهرة متغيرة . أصبح سكرتير كرومر الشرقي في مصر ، بزوجته الألمانية وشاربه الأشقر ، عضواً في جهاز فخم تسيّر به بريطانيا ممتلكاتها المتململة ، الدول العربية الواسعة الممتدة من مصر غرباً الى العراق شرقاً ، تربطهما فلسطين وشرقي الأردن .

خرجت بريطانيا ظافرة من حرب اضعفتها . وكان الرجال الذين نشأوا في عهد الملكة فكتوريا — مثل اللورد كيرزون وزير الخارجية منذ ١٩١٩ ، واللورد اللنبي المندوب السامي في القاهرة — يحاولون دعم الامبراطورية في عالم أضعفته الشيوعية السوفييتية في الشرق ومثالية ولسون في الغرب . أما رجال كبويل فقد كانوا بمثابة الهوائي للامبراطورية ولكن الوضع لم يشعر بويل بالارتياح .

كانت بريطانيا لا تزال قلقة على قناة السويس ، شريان حياة امبراطورية لا تزال الشمس لا تغيب عنها . وكي تحمى الطريق المؤدي إليها بذلت جهدها لوضع فلسطين تحت سيطرتها . وبما أن مصر على الجانب الآخر من القناة فقد كانت بريطانيا لا تستطيع التخلي عنها . لكن عالم ما بعد الحرب عاد ، في الوقت نفسه ، لا يستطيع تقبل الاستعمار . لذلك جاء مصطلح « الانتداب » الذي أطلق على المناطق التي استولت عليها بريطانيا وفرنسا في الحرب عبارة ملطفة للاستعمار ، كما تضمن معنى كونه موقتاً وعرضة للتقييد من عصبة الأمم . أما مصر فلم تكن مستعمرة ولا تحت الانتداب ، بل محمية منذ ١٩١٨ ، وكان رجالها الذين عرفهم بويل كأصدقاء شخصيين يقودون الدعوة الى الاستقلال . أفكان ذلك جنوناً أم خيانة ؟

كان حزنه في أعماق قلبه . ذلك بأن « بويل القاهرة » كان كلورنس بلاد العرب ، انجليزياً عرف البلد الذي يعمل فيه ، وأتقن لهجته ، وأحبه . لم يدّع أنه يستطيع ان يكون مصرياً بلدياً ، لكن لغته التركية السلسة التي تعلمها في تركيا مكنته من ان يزور متخفياً الشوارع الخلفية في القاهرة الخديوية . واذ كان غير مهتم بالمال ولا بحياة الترف فقد انصرف الى الاهتمام بقوة بريطانيا المجردة ، وامجادها الصحيحة ، واذ كان أيضاً خفيف الروح فقد جعله كل ذلك نقيضاً للورنس المنطوي على نفسه الذي اصبح يعمل في وزارة المستعمرات مستشاراً في الشؤون العربية لونستون تشيرشل ، أحد المعجبين به .

كان بويل ، الكاتب الناثر العاقل ، لا يزال يضع أفكاره على الورق كما اعتاد ان يفعل في أيام كرومر :

« ان اكثرية سكان مصر غير الرسميين — كل اولئك الذين لهم مصلحة ، مهما كانت صغيرة ، في استمرار الهدوء والرخاء في البلد — يحبذون بإخلاص بقاء السيطرة البريطانية » .

لا يمكن الشك في عقيدته . لقد كان ، ككل انجليزي آخر في وضع شبيه بوضعه ، بحاجة سيكولوجية ملحة الى ايجاد برهان على أنه وان كان المتعلمون العرب معارضين للحكم البريطاني فإن العرب العاديين ، سواء أكانوا فلاحين يرتدون القميص الأزرق أو بدواً يلبسون العقال والكوفية ، يودون ان يحكمهم رجال مثل بويل . ان صغار الناس الذين كان يحتك بهم في جولاته الليلية ، كصاحب المقهى الصغير الأحول وصاحب الحمام التركي العملاق ، لا بدّ من ان يكونوا قد شاركوه الأسف على كرومر ، النموذج الاوليمبي .

راح بويل يبحث عن ذلك البرهان كصحافي يبحث عن سائق سيارة أجرة يردد صدى آرائه . كانت شرفات فندق شبرد مملوءة باشخاص عاد لا يعرفهم ، وعادوا لا يرون في الانجليزي الرث الثياب الرجل المهيمن . وفجأة ثار في نفسه دافع قديم: سيتجول في الأزقة المعتمة ليستوعب ثانية ما دعاه لزوجته « روائح الشرق وألوانه » . كان مكان التجول حديقة الأزبكية التي يقوم عند أحد أطرافها فندق شبرد وعند الطرف الآخر دار الأوبرا وتمثال ابراهيم باشا ، وما يحيط بها من شوارع ضيقة نصف مضاءة تكثر فيها المقاهي والحانات اليونانية والفنادق التي يجتمع فيها الفرنجي والبلدي ، والتي كثيراً ما يقع فيها الشجار بين السكارى أو ما يدعى « الدوشة » التي تبدأ كأنها معركة كبيرة ثم تهدأ فجأة الى الاسترضاء والصفح . سمع بويل ، وكان يرتدي الجلبية ، جلبة وشخصاً يصرخ ، فأسرع الى مكان الحادث واذا بأحدهم يصيح : « بوليس ... يا بوليس ... كرومر ، ساعدني يا كرومر » ! كان الرجل قد ضربه أفراد احدى العصابات واذ ذكر كرومر تقدم رجل آخر وضربه وقال : « قل ، يا ابن الكلب ، ساعدني يا سعد . كرومر مات وحلّ سعد محلّه » ! وهكذا وجد بويل البرهان على ان اسطورة كرومر لا تزال حية وقوية .

أمرض بروسبيرو ان يرى العنصر المصري يظهر إرادته . كان الحزب الوطني الذي يقوده مصطفى كامل قد شن بعد حادث دنشواي هجوماً « فاق في غطرسته وعنفه كل حدود العقل واللياقة . لا يمكنك ان تصدق اللغة التي استعملوها حتى الآن في صحفهم ضدّ اللورد » .

مات كرومر سنة ١٩١٧ بعد مضي عشر سنين على رحيله عن مصر ، وكان في آخر خطاب ألقاه قد مدح « سعد زغلول » الذي زعم ذلك المصري انه حلّ محلّه ، سعد الذي نفي الى مالطه في سنة ١٩١٩ ثم سمح له بالانتقال الى فرنسا بسبب شيخوخته ورداءة ماء الشرب في تلك الجزيرة ، واعيد الى القاهرة في ابريل ١٩٢١ ، بعد المؤتمر الذي عقد فيها ، حيث استقبل بحماسة شديدة ، وما لبث أن نفي في السنة نفسها ، بعد ان اعدمت محكمة عسكرية بريطانية ستة عشر من اعوانه ، الى عدن فجزر سيشل فجبل الطارق ونقل من هناك الى فرنسا مرة أخرى في سنة ١٩٢٣ بسبب اعتلال صحته أيضاً .

لم يملك سعد أبداً قوة كرومر غير المقيدة ، ولكنه مثل مطامح المصريين وآمالهم المكبوتة بصورة لم تتهيأ لأحد منذ عرابي . بل ان سيطرته على ولائهم وخيالهم كانت أقوى من سيطرة عرابي الذي خرج من معركة التل الكبير مهزوماً . استطاع سعد غير المؤيد بالحراب أن يثير الذين خيب عرابي آمالهم ، وأن يفوز بمحبة المصريين . أما ان هذا الحب كان ممزوجاً بحب الذات فلم يضعفه ذلك . رأى المصريون في سعد واحداً منهم ، ورجلاً ناجحاً نجاحاً مذهلاً .

لم يكن سعد جندياً مؤثراً كعرابي ، ولا شاباً متأنقاً كمصطفى كامل ، بل كان باشا كهلاً طويلاً ونحيلاً ، أبرز ملامحه وجه عريض أسمر وعينان ضيقتان تكادان تكونان منغوليتين . كان مدنياً من رأسه الى أخمصه ، يتصف بحب ابن البلد المصري للنكتت والطعام الطيب والقمار والملذات الجسدية .

بيد ان وراء ابن البلد الذي تعلم النطق بالفرنسية وتقدير الأشياء الفرنسية الجميلة رجلاً من قرية مصرية.يظل سعد بالنسبة الى حكام مصر والمصريين المحكومين فلاحاً وكذلك الباشا الفلاح يبقى في نظر الاتراك والشراكسة فلاحاً . اما الفلاحون فقد رأوا فيه أحد اعضاء طبقتهم الريفية . كان أبوه عمدة أحدى قرى الدلتا ، تتمتع عائلته بدخل حسن من مائتي فدان من الأرض ترويها المياه ولا تنقطع عنها الشمس ، في بيته المبني بقوالب اللبن والخشب قاعة استقبال تتسع لمائتي قروي يجلسون على مقاعد خشبية مغطاة بقماش قطني .

كانت مصر أشبه بكعكة ذات طبقات ، كل طبقة تحسد التي فوقها . أعلاها او غطاؤهـــا السكري الخديوي ، أو السلطان كما سمته بريطانيا منذ الحرب ، الذي أراد ان يصبح ملكاً حقيقياً ان لم يكن كجورج الخامس ملك بريطانيا فربما كألفونس الثالث عشر ملك اسبانيا . ويأتي بعده المستشارون البريطانيون الذين كانوا يحلمون بالرتب والأوسمة ، فالباشوات الأتراك — الشراكسة الذين كانوا يحلمون بالتخلص من البريطانيين ليحلوا محلهم ، فالمتعلمون المصريون الذين

كانوا يحلمون بأن يصبحوا باشوات ، فالمحامون الذين كانوا يحلمون بأن يصبحوا بيكوات ، فالفلاحون اصحاب الأراضي الذين كانوا يحلمون بأن يصبحوا عمداً ، فالمزارعون الذين كان كل واحد منهم يحلم بأن يمتلك فداناً من الأرض .

بعد ان انهى سعد تعليمه الابتدائي التحق بالأزهر في السنة نفسها التي وصل فيها جمال الدين الأفغاني الى القاهرة ، وانضم الى حلقة محمد عبده ، وقد سأل الأفغاني وعبده يوماً السؤال التالي: كيف نمنح الاسلام حياة جديدة ؟ فادهشه جواب محمد عبده اذ قال : باصلاح العدالة والتربية وتطبيق التقاليد على الحاجات العصرية . وفي سنة ١٨٨٠ ، وكان في اوائل العقد الثالث من عمره ، عين مساعداً لمحمد عبده في الجريدة الرسمية براتب شهري قدره ثمانية جنيهات . وكغيره من طلاب محمد عبده أيدّ ثورة عرابي ، وحين انهارت الثورة حبس فترة قصيرة واخرج من وظيفته .

كانت الصدمة قاسية بالنسبة الى الفتى الطموح . لقد احرقت المثل أصابعه ، فحول مواهبه الى جمع المال . تعلم الفرنسية، ودرس القانون ومارسه ، حتى وصل دخله السنوي الى خمسة آلاف جنيه وهو في الأربعين من العمر . في هذه المرحلة تحولت أفكاره الى الزواج ، وكانت الفتاة التي اختارهـــا ابنة مصطفى باشا فهمي ، رئيس الوزارة المصرية الذي كان لا يعجبه في مصر شيء ، ولا يذكر إلاّ بأنه كان يرسل قمصانه الى لندن لغسلها وكيّهـــا ، وأن بنان بنصره كان مقطوعاً،ويقول الناس ان مفتش مالية الخديوي اسماعيل عضه وقطعه وهو في سكرة الموت فقد كان مصطفى فهمي المخلص هو الذي كلف بقتله .

مثّل الزواج من ابنة رئيس الوزارة نصراً لا سابقة له لابن عمدة القرية .كان سعد مستشاراً في محكمة الاستئناف الأهلية منذ ١٨٩٢ ، ولكن الارستقراطيين لا يزوجون بناتهم عادة إلاّ من الأتراك والشراكسة الآخرين لا من الفلاحين مهما كان الواحد منهم كفوءاً .

الأرجح ان فكرة الزواج نشأت في صالون الاميرة نازلي إبنة أصغر أخوة الخديوي اسماعيل التي كانت تحب المفاجآت . دعت الى صالونهـــا اعيان القاهرة جميعاً،من اللورد كرومر وهاري بويل فالذين دونهما.وقد رأينا ان هذه الأميرة الذكية الجميلة المحبة للابتداع غير المسؤولة كانت تمدح عرابي وان احتقرت عدم قدرته العسكرية . ازعجت هذه العواطف الفوضوية اقرباءهـــا الذين خافوا ان يقضي عرابي على اسرتهم . ولكن نازلي لم تهتم ، لأنها كانت حاقدة على الأسرة . أقصي أبوها عن ولاية العهد حين رشا اسماعيل باشا السلطان كي يغير قانون الوراثة المصري . تفرست نازلي في المحامي الوسيم المندفع الذي يتقن الفرنسية زعيماً

محتملاً ، وان كان مثيراً للمشكلات أيضاً فذلك أفضل. وحين بحث كرومر عن « معتدلين » ليقويهم ضد الوطنيين المتطرفين قدمت نازلي سعد زغلول أيضاً . واذ كان عضواً في حلقة محمد عبده ، اول مصري دافع عن المرأة ، فقد شجعت نازلي الزواج ، وكان ناجحاً جداً ، وأطلق المصريون على صفية زغلول لقب «أم المصريين » .

تصدر سعد في فترة بدت القوة البريطانية فيهـا صلبة كالهرم الذي حاول احد الخلفاء في العصور الوسطى هدمه فلم يكد يخدشه . تبين له ان من العبث تحدي الامبراطورية البريطانية التي كانت تحكم ربع الكرة الأرضية ، ورأى من الحكمة ان يرعى النبات الذي يمكن ان ينمو في وقاء من الريح ، وخصوصاً القانون والتربية . أظهر كقاض أنه غير قابل للفساد ، وأنه متحمس لتحقيق العدالة . أقرّ كرومر هذه الفضائل المدنية كالشيء الوحيد اللازم للمصريين . وفي سنة ١٩٠٦ ، وهي السنة السابقة لحادث دنشواي ، وقبل ان يتقاعد اللورد ، رشح سعداً لوزارة التربية . كان العمل في وزارة التربية مرهقاً لأن المصريين لم يستطيعوا تغيير نظام تربوي كان المشرف الفعلي عليه ، مستشار وزارة المعارف الاسكتلندي الذي يدعى « دنلوب » ، مقتنعاً بأن التربية الوحيدة التي يحتاج إليها المصريون هي في مستوى تخريج الكتبة ، وان لغة التدريس يجب ان تكون الانجليزية .

استقال سعد في ١٩١٣ من منصب وزير التربية ورشح نفسه لانتخابات مجلس وطني وافق عليه البريطانيون بعد تردد ، وكان القصد منه ان يكون صمام أمان . نجح في الانتخابات ، ثم وقع عليه الاختيار ليكون نائب رئيس المجلس ، ولكن المجلس لم يدم طويلاً ، بل اغلق بموجب القانون العسكري على الرغم من احتجاج الجيل الجديد من الوطنيين المصريين .

اظهرت الحرب العالمية الأولى لسعد مدى قوة القومية بين الشباب المصريين مرة اخرى . كانت هزيمة عرابي قد اخضعت معاصريه ، ولكن الجيل الجديد الذي أثاره مصطفى كامل كان يتمتع بحرية التصرف . ثم أظهر أنتصار الأتراك في في غاليولي ان الامبراطورية التي بدت قوية جداً يمكن قهرهـا . واذ اقتربت الحرب من نهايتهـا ، واعلن الرئيس ولسون نقاطه الاربع عشرة ، ورددت بيانات بريطانية وفرنسية صداهـا ، ارتد سعد الى السياسة التي زاولهـا في شبابه ليرئس الوفد الذي طالب بالاستقلال . لكن رفض بريطانيا مجرد البحث في هذا الطلب ، ونفيها سعداً الى مالطة ، اشعلا نار ما يذكره المصريون بأنه « ثورة ١٩١٩ » . طاف الطلاب شوارع القاهرة ينادون بالاستقلال ويهاجمون بريطانيا ، والنساء نصف المحجبات رفعن العلم المصري الاخضر ذا الهلال والأنجم

الثلاثة . اطلق البريطانيون النار على المصريين وجرحوا اعداداً منهم ، وضرب المصريون بدورهم الجنود أو قتلوا منهم ، وهكذا انطلقت العواطف التي كانت كامنة .

كان سعد في مصر العشرينات أوسع شهرة من أتاتورك في تركيا . أيّده الاقباط والمسلمون ، الأغنياء والفقراء ، ابناء المدن وأبناء الريف ، ولكنه لم يتحكم في مصر بالطريقة التامة التي تحكم بها اتاتورك في الأناضول . فاته ادراك الاستقلال السياسي الكلي الذي سعى له ، واذ افتقر الى حرية العمل التي ضمنها أتاتورك باطاحته بالسلطان فالخليفة وطرده اليونان الغزاة ، لم يستطع الاهتمام بالمشكلات العميقة ، ولا فرض فكرة بناءة على شعبه للتغيير الاجتماعي . لقد أهمل المصريون المشكلات الأساسية : كيفية إطعام السكان الآخذين في التزايد ، وكيفية القضاء على الهوة التي تفصل مختلف أقسام المجتمع المصري . ان الاخلاص المصري كان مركزاً على سعد الرجل ، لأن هذا الفلاح في نظر اتباعه الذين يرئسهم إنما كان طلسماً . حين كان يقاوم منافسه عدلي باشا التركي – الشركسي الذي كان يعمل بحذر لأهداف مماثلة كان السعديون يرددون : الاحتلال على يد سعد ولا الاستقلال على يد عدلي . ولكن زعيمهم لم يعنفهم .

جاء نوع من الاستقلال المصري ، باسرع مما كان منتظراً ، منحة من بريطانيا عملاً بنصيحة المندوب السامي اللورد اللنبي الذي رأى ان المشكلة لن تحل اذا ما طالت المفاوضات واستمر القتل والهياج . لذلك أعلنت بريطانيا من جانب واحد إنهاء الحماية والاعتراف بمصر مملكة مستقلة ذات سيادة .

كان للمانح امتياز استرجاع منحته متى شاء ، فقد احيطت منحة الاستقلال المصري بشروط إحاطة الأربطة بمومياء فرعونية . اما تلك الشروط فهي ما يلي :

أولاً ، تتولى بريطانيا الدفاع عن قناة السويس والإشراف عليها . وقد مكنها ذلك من إطالة احتلالها الجزئي لمصر الى أمد غير محدود . ذلك بان الدفاع عن الممر المائي يقتضي وجود جيش بريطاني ، ووجود الجيش يعني استمرار إمكان التدخل في الشؤون المصرية .

ثانياً ، تعهدت بالدفاع عن مصر ، وبذلك حوّل الجيش المصري الى كتائب مساعدة للجيش الأجنبي .

ثالثاً، نصبت بريطانيا نفسها حامية للأقليات في مصر. وهذا علاوة على إلقائه الشك على نوايا مصر الحسنة نحو المسيحيين والأقليات الأخرى يهيىء مبرراً آخر للتدخل.

رابعاً ، وهو الشرط الأشد خطراً ، احتفظت بريطانيا لنفسها بالسيطرة على السودان، المنطقة الجغرافية الواسعة التي تتحكم بمنابع النيل التي دونهـا تهلك مصر .

قاوم سعد هذه القيود على السيادة المصرية خلال السنوات الخمس التي بقيت من عمره ، ولكن دعم الشعب المصري الحماسي له لم يكف احراز النصر . لا ريب ان الوفد ، حزب سعد ، قد فاز في كل انتخاب اجرى للبرلمان خلال الحياة البرلمانية التي دامت ثلاثين عاماً منذ ١٩٢٢ ، بيد ان بقاء الوفد في الحكم لم يتوقف على الفوز في الانتخاب وحده بل على رغبة القصر والسفارة البريطانية . ان مكالمة تلفونية أحياناً أو همسة كانت تطيح بالوزارة . في احدى الحالات دخلت الدبابات البريطانية قصر عابدين وعلى رأسها السفير البريطاني لتجبر الملك على تغيير الوزارة .

كان صاحب القصر في العشرينات رجلاً واقعياً . انه الملك فؤاد سادس أبناء الخديوي اسماعيل وأصغرهم . ولد في السنة التي سبقت فتح قناة السويس ، وصحب والده الى المنفى ، وتلقى علومه في تورين مع أمير ايطالي أصبح فيما بعد الملك فكتور عمانوئيل الثالث ، وخدم في المدفعية الايطالية برتبة كابتن . تولى فؤاد ملك مصر في سنة ١٩١٧ بعد وفاة أخيه السلطان حسين كامل ، وكان في الخمسين من عمره . تزوج نازلي صبري حفيدة الفرنسي سليمان باشا الذي اعتنق الإسلام وخدم محمد علي باشا ، ورزق منها في ١٩٢٠ بولي للعهد سماه « فاروق » وأطلق عليه لقب « أمير الصعيد ،» والصعيد هو مصر العليا التي يسكنها نحو ثلث السكان الذين يعيشون على الزراعة ويسقون أراضيهم عن طريق فيضان النيل . كان الصعيد فقيراً ، كثيرون من اهله يرحلون الى القاهرة ومنطقة الدلتا ، وكان بين الراحلين رجل يدعى عبد الناصر يحمل شهادة ابتدائية ، جاء الى الاسكندرية ووجد له له عملاً في دائرة البريد ، ، ورزق في سنة ١٩١٨ بولد سماه « جمال » . في تلك السنة طالب سعد بالاستقلال ، وكان الشعور القومي قد امتد أبعد كثيراً من صالون الاميرة نازلي ، أو نادي محمد علي ، فقد أصبحت ذكرى جمال الدين الأفغاني محترمة في مقاهي الفقراء ونواديهم .

أقلق المحافظين العنف الذي صحب الحركة القومية ، ووجد كثيرون منهم في الملك فؤاد أماناً لهم . كتب احد رجال البلاط في اوائل العشرينيات يقول : «شعر المصريون جميعاً طوال هذه الحوادث بعمل ملكهم الفعال ، وأحبوه باخلاص كما أحبوا ولي عهده سمو الامير الملكي فاروق » . وعلى الرغم من أن احد رجال البلاط فقط يستطيع ان يدعي أن الملك فؤاد كان محبوباً كسعد زغلول ، إلا أن الملك كان سياسياً بارعاً ، قرأ الكثير ، وعمل ساعات طويلة ، وأظهر اهتماماً بعلم الآثار المصرية والفنون واستصلاح الصحراء ، وساعد كثيراً على تأسيس اول جامعة مصرية حديثة حملت اسمه جيلاً كاملاً ووصفت بأن لها « روح الشرق

وعقل الغرب » . ثم كان مصرياً كسعد في محبة الملذات الجسدية ، وعرف نقاط التأخر في مصر والدور الذي يستطيع القيام به .

بدا المثلث المصري — البرلمان والقصر والسفارة البريطانية — في ١٥ مارس ١٩٤٤ متوازناً ومنسجماً حين سار الملك فؤاد في عربته مرتدياً بدلة فريق ورئيس الوزراء سعد زغلول عن شماله في موكب ابتسم له البريطانيون من القلعة في جبل المقطم الى دار البرلمان حيث كان المندوب السامي اللورد اللنبي ينتظر مرتدياً بدلة مشير بين دوي المدافع من التلال والفرسان عن الجانبين . جلس الملك في البرلمان عن شماله سعد ووزراؤه وعن يمينه أمراء العائلة المالكة ، واستمع الى خطاب العرش الذي القاه سعد وفيه تأكيد هادىء الاستقلال وطلب لطيف للمفاوضات مع بريطانيا . خطط سعد لتزيين وضع مصر بزيارة لندن حيث بدأ عهد جديد يبشر بالخير بتولى رمزي مكدونالد الحكم ، وهو اشتراكي دفعته آراؤه السلمية الى مقاومة الحرب . كذلك كانت للملك فؤاد وهو يستمع الى خطاب العرش في البرلمان خطط لتزيين عرشه . كان أتاتورك قبل ثلاثة اسابيع قد الغى الخلافة ، فاصبح أكبر منصب في الاسلام شاغراً . وقد اسرع حسين ملك الحجاز الى المطالبة به ، وأعلن نفسه في في شرق الأردن ، حيث نصب ولده عبد الله اميراً ، خليفة عربياً . بيد ان وضعه كخليفة ، على الرغم من انتسابه الى الأسرة الهاشمية ، كان ضعيفاً . ذلك بأن مملكته في الحجاز كانت مزعزعة ولاسيما بعد ظهور عبد العزيز بن سعود وتوحيده شبه الجزيرة العربية . ثم ان امتلاكه مشاعر المسلمين لم يكن قوياً ، وقليلون هم المسلمون غير العرب الذين وثقوا بمن انضم الى بريطانيا وفرنسا في الحرب ضد السلطان — الخليفة المسلم .

ان قيام خليفة جديد يعتمد الى حد كبير على بريطانيا التي كانت في الماضي تخشى سلطة الخلافة على المسلمين الهنود ، أما الآن فقد حاولت إحياء هذا المنصب لأغراضها الخاصة ، فلا ريب ان تنصيب ملك مصر التي تسيطر عليها بريطانيا خليفة يمكن ان يكون مفيداً .

على ان خطط كل من الملك ورئيس وزرائه قد احبطت . ذلك بأن رسالة هدمت حلم فؤاد بالخلافة . كان عنوان الرسالة « الإسلام وأصول الحكم » ، كتبها الشيخ علي عبد الرزاق أحد علماء الأزهر ، ودعا فيها الى فصل الدين عن السياسة ، وقال ان الإسلام دين وليس نظاماً سياسياً . أثارت الرسالة عاصفة رملية ، وقدم المؤلف للمحاكمة في الأزهر ، وحكم عليه الا يدرس الدين ولا يتولى القضاء الشرعي ، فنزع الشيخ عمامته ورجع الى الملابس المدنية . بيد ان الرسالة بلورت مواقف جديدة ، فقد عقد مؤتمر في الأزهر في مايو ١٩٢٥ قرر بعد تردد ان

الانقسامات السياسية في العالم الحديث وانتشار القومية تجعل الخلافة مستحيلة .

أما فيما يتعلق بالخطط التي كان سعد يحلم بها لمصر فإن قوة أكبر من الرسالة قد احبطتها . ذهب الى لندن ، وزار رئيس الوزارة الاشتراكي ، ولكن السلطة جعلت الرجل المثالي واقعياً بصورة محزنة . قال رمزي مكدونالد لسعد : « لا تستطيع حكومة بريطانية أن تجرد نفسها كلياً ، حتى لمصلحة دولة حليفة ، من مصلحتها في حراسة خط حيوي في المواصلات البريطانية كقناة السوس » .

رجع سعد بخيبة أمل ليواجه في القاهرة صدمة أكثر أيلاماً . كان الجنرال البريطاني سيرلي ستاك سرداراً ، أي قائداً عاماً ، للجيش المصري . واذ ازعج الوطنيين المصريين أن يجدوا انجليزياً يلبس الطربوش على رأس جيشهم ، تآمروا عليه وقتلوه . كان الحادث صدمة شديدة بالنسبة الى سعد نظراً الى عنفه وما قد نتج عنه ، فاسرع الى الاعراب عن أسفه الى الحكومة البريطانية . ولكن ذلك لم يكن كافياً ، فقد أصدر اللنبي انذاراً جاء فيه ما يلي : على مصر أن تقدم اعتذاراً رسمياً ، وان تدفع غرامة قدرها نصف مليون جنيه استرليني ، وتسحب جيشها من السودان ، وتعترف رسمياً بحق البريطانيين المسيطرين على السودان في ان يسحبوا من الماء لاستعمال السودانيين بقدر ما يرون ملائماً . وعلاوة على هذا ، وعلى الرغم من ان سعد زغلول مؤيد بأكثرية البرلمان ، عليه ان يستقيل. وقد حلّ محله ، بناء على نصيحة الملك ، زيور باشا ، وهو تركي — شركسي بدين ، سرّه ما حدث فقال : « على هؤلاء الأوغاد ان ينالوا ما يستحقون بسبب سياستهم الحرقاء . الأفضل ان ينسحبوا بسرعة إلاّ اذا كانوا يريدون شيئاً أسوأ لأنفسهم ولمصر » . وحين انتخب البرلمان سعد زغلول رئيساً له أقدمَ زيور باشا على حله ، ونصح الملك فؤاد بتغيير قانون الانتخاب لأن « قوته كانت بالجهلاء والبسطاء ، ويرى رئيس الوزراء أنه يستطيع بجعل الانتخابات مقصورة على المتعلمين وطبقة الملاكين ان يحطم أتباع سعد » .

كان الملك فؤاد على درجة من الذكاء تمكنه من ان يرى ان الديموقراطية قد تقدمت خطوات واسعة جداً ، فعمد الى استعمال حقه الملكي في الأختيار والعزل . ولكن زيور كان مصيباً في تقديره للمتعلمين والملاكين. انه وهو التركي الأصل الذي تعلم في المدارس اليسوعية نموذج لأغرب طبقة حاكمة كان الرابط الرئس بينها أنها غريبة عن البلد الذي تحكمه ، يتكلم افرادها التركية أو الفرنسية أو اليونانية او الانجليزية لا لغة البلد، وتضم العلاقات القريبة والبعيدة من العائلة المالكة ، والاتراك – الشراكسة الذين بدأوا يعلنون أنفسهم وطنيين بعد ان رأوا ما حلّ بتركيا ،ومن وراء هؤلاء أبناء الأوروبيين وأحفادهم الذين جاءوا الى مصر من ايطاليا أو اليونان أو مالطة او فرنسا او انجلترا ، يخدمون كمستشارين ماليين أو أطباء أو

مرابين أو قوادين ، وقد اغتنوا فلم يعودوا يعتبرون انفسهم رواداً بل مواطنين يحيون حياة ترف في فيلات في القاهرة أو الاسكندرية .

في السنة ١٩٢٤ التي رأت سعد زغلول رئيساً للوزارة أسس نادي السيارات الملكي في القاهرة . وبما أنه لم يكن يملك السيارات في ذلك الحين سوى الاغنياء جداً ، فقد كانت عضوية النادي مقصورة على اصحاب القوة الاقتصادية . حتى في سنة ١٩٢٧ ، وهي السنة التي توفي فيها سعد ، كان عدد اعضاء النادي مائتين وخمسين ، وكانت لجنته مؤلفة من ثلاثة امراء ، وثلاثة باشوات ، وستة بيكوات ، وتسعة عشر أجنبياً بينهم مسلم واحد هو عبد الحميد الشواربي . كان اعضاء النادي غير المصريين جميعاً يحملون عادة جوازات سفر أجنبية ، ومن اصحاب الاملاك الذين يشعرون بخطر كل من يمثل المصريين سواء أكان مسلماً أو قبطياً اذا كان مصرياً حقيقياً . وكانوا بقوتهم يدعمون القصر والسفارة البريطانية . ابتهج رجل البلاط الذي ادعى محبة الشعب للملك وولي العهد الصغير حين أخرج الوفد من الحكم فقال : « اليوم ، ومصر توجه بحكمة ، تسير نحو مستقبل أفضل . بعد تدخل الملك السعيد الذي وضع المتطرفين حيث لا يستطيعون اتباع سياسة خطرة على البلد فان مصر تدخل عهداً جديداً » .

كان الداعم للعهد الجديد ، اي الامبراطورية البريطانية ، أكثر مفيد منه . بقي حكام البلد الجنرالات البريطانيون والسفراء ورؤساء البوليس . حين اعتقل سعد في ١٩١٩ قام بالاعتقال رجل انجليزي ، وحين قتل السردار سيرلي ستاك قام بالتحقيق ذلك الانجليزي نفسه. انه راسل باشا قائد بوليس القاهرة من ١٩١٧ الى١٩٤٨.

كان راسل باشا كروزو على اتصال بالنبلاء. وكان أبوه مبشراً من عائلة محافظة خرج منها لا لوردات ورجال دولة فحسب بل ايضاً رجال لامعون مثل بيرتراند راسل الفيلسوف ، ودوق بدفورد الذي عارض بجرأة الحرب العالمية الثانية . لم يكن راسل باشا مثقفاً ، ترك الجامعة وفضل العمل في البوليس المصري ، وكانت له محبة الارسقراطيين للحيوانات وحزمهم . حين اعتقل سعد زغلول كان يعلم أنه مصاب بالسكري فأعدّ له طعاماً خاصاً ، وأدى ذلك الى صداقة دائمة بين عائلته وعائلة زغلول . وبقدر ما كان رفيقاً بالحيوان ، محترماً للنساء ، معاملاً لرجاله كأب لهم ، كان قاسياً على العناصر التي يزدريها : تجار المخدرات والوطنيين والمتمردين من الطبقات الدنيا ، حتى لقد كان احياناً يحضر شنقهم ولا يفسد ذلك شهيته لتناول الفطور ، ويقر الجلد كما كان يقره كرومر وينزله عادة بالمشتركين في التظاهرات الجامحة .

حفظ راسل بطباعه اللطيفة وقسوته في معالجة الأمور مثلث السلطة المصرية

جيلاً ، فالقصر والسفارة البريطانية وازنا الوفد ثلاثين عاماً تقريباً . ثم حفظ المثلث الطبقة التي كان نادي السيارات الملكي المصري رمزهـــا ، كما حفظ في المدى القصير اولئك الذين أسسوه ، أما في المدى البعيد فقد عمل ضد الملكية ، وجعل البريطانيين مكروهين ، واضعف النظام البرلماني .

كانت الملكية دوماً غريبة عن مصر . لكنها في بعض المناسبات — خلال انتقادات محمد علي باشا ، وحين ربط اسماعيل مصر بأوروبا ، وايد عباس حلمي الوطنيين ضد كتشنر — ارتبطت بالاعتزاز المصري . أما بعد ١٩٢٢ فقد كان دور الملكية في المثلث دور الكابح ، اذ كان الملك يستطيع عزل الوزارة أوحل البرلمان ومنع اي فرد أو حزب مصري من ان يعمل لمصر ما عمله أتاتورك لتركيا .

أما بريطانيا ، كدولة مخططة لهذا النظام ومنتفعة به ، فانها كانت تستغلـــه مادام البلد هادئاً ، لكن بمجرد ان تكافح مصر في سبيل التحرر تجد ألا مفر من ان تظهر انهـــا العدو الامبريالي الذي لا يمكن التخلص منه . كانت الملكية والسفارة قوتين لا يهمنا فقدانهـــا أو ضعفهما ، أما الشيء المحزن فهو السمعة السيئة التي لحقت بالنظام شبه الديمقراطي الذي عجز عن تحدي الملك أو السفير البريطاني .

مات سعد زغلول بالحمى القرمزية في سنة ١٩٢٧ قبل ان يظهر تماماً عجز السياسة الحزبية ، واقيم له تمثالان واحد في الاسكندرية يواجه البحر الأبيض المتوسط والآخر في القاهرة يواجه جبل المقطم ، تطل فيهما من عينيه المنغوليتين كآبة وخيبة أمـــل . كانت خيبة الأمـــل شخصية لأن البريطانيين لم يسمحوا بعد نوفمبر ١٩٢٤ بعودته الى رئاسة الوزارة على الرغم من تأييد الأكثرية البرلمانية له ، وكانت وطنية أيضاً لأنه تكهن بأن أتباعه سيرثون عجزه لا سحره .

ان العفن الدي يصيب الطرف غير المستعمل سيهاجم حزبه ، حزب الوفد . وبما أن وضع المثلث يشجع نقطتين على الاتحاد ضد النقطة الثالثة فان خليفته مصطفى النحاس اتحد مع السفارة البريطانية ضد الملك خلال الحرب العالمية الثانية ، بـــل فرض كرئيس وزارة بقوة الدبابات البريطانية . لقد قدر لهذا الحادث الثاني في قصر عابدين ان ينسف نقاط السلطة الثلاث ويؤدي الى تحطيم الطبقة التي كان المثلث يقوم بحمايتهـــا .

حين تسلم المصريون بعد ذلك مصيرهم بأيديهم ، أهملوا برلمانيي العشرينات ، ورجعوا بأنظارهم الى الجندي الذي تصدى للخديوي في حادث عابدين الأول . ان عرابياً ثانياً ، لا زغلولاً ثانياً ، يستطيع أن يحرز لمصر استقلالا لها ويحطم الطبقة الأجنبية التي حكمتها طويلاً ، وان يفعل ذلك على حساب خبرة ديموقراطية دامت جيلاً ، وكما في حالة عرابي تحت خطر الحرب .

الفصل الثاني

على بعد نحو سبعمائة ميل من مصر كان المسؤولون البريطانيون ينشئون مثلثاً سياسياً آخر على ضفاف دجلة .

كان المغول قد دمروا بغداد ألف ليلة وليلة ، فأصبحت بلدة ريفية منتشرة على جانبي نهرها الكئيب ، اذا هبت عليها عاصفة رملية من الصحراء بدت مسربلـــة بالوحل . لم يبق سوى مسجد الكاظمين على بعد أميال قليلة الى الشمال بقبابه الذهبية وسط غابة من النخيل يذكرنا بمدينة الخلافة ، ولكن هذا المسجد وبقايا قليلة مبعثرة لا تؤكد سوى الهوة العميقة بين الماضي المجيد والحاضر القاتم . وفيما عدا ذلك لم يكن في عاصمة العراق المغبرة ما تفخر به سوى أثر معماري مهيب واحد : السرايا العثمانية الكبيرة التي هي عبارة عن حصن من المباني الحكومية التي ترجع الى عهد الوالي مدحت باشا .

في اواخر اغسطس ١٩٢١ شهدت هذه السرايا احتفالاً غير عادي الغرض منه تنصيب ملك هاشمي . اذا قوبلت هذه الملكية الجديدة في العراق بالملكيات القديمة بدت قصيرة الأجل كإحدى الجزر الصيفية التي تظهر في نهر دجلة بعد انحسار مياه الفيضان ، فقد دامت أربعين عاماً هي فترة السيادة البريطانية في الشرق الأوسط .

تجمع ألف وخمسمائة شخص حول منصة ترتفع عن الأرض حتى الركبة فقط . جلس في المقاعد الأمامية البريطانيون : سير بيرسى كوكس وهوبروسبيرو آخر طويل سكوت ، والضباط والموظفون والخبراء بكل شيء من السدود الى العمـــل البوليسي ، والآنسة « جيرترود بل » السكرتيرة الشرقية لسير بيرسى . واحتل المقاعد وراء هؤلاء الموظفون العرب الذين فر معظمهم من الجيش العثماني ، فوفود كثيرة تمثل مختلف طبقات المجتمع العراقي كالتجار الأغنياء واعيان المدن ورجال الدين المسلمين والمسيحيين واليهود ، ومن وراء هؤلاء شيوخ القبائل العربية ذوو الأنوف المستدقة الذين يرتدون العباءة والكوفية والعقال وشيوخ الأكراد في ألبستهم العجيبة التقليدية .

أما المنصة المتواضعة فقد جلس فوقها فيصل، ثالث أبناء الحسين ملك مكة ، وأكثرهم جاذبية وحساسة ، وان لم يكن بارعاً كثيراً ، الذي اختاره لورنس . ان خمس سنوات من الصراع والشك والبهجة والكآبة والنفي انتهت في هذه اللحظة

المتأخرة من الظفر المحفوف بالخطر . وقعت عين فيصل ، وهو جالس يرتحف بين قوم اشتهروا بالتقلب والعنف ولم يمض على مقامه بينهم سوى شهرين ، على عين المرأة الانجليزية التي عملت لا أقل من غيرها في جعله ملكاً . ابتسمت له الآنسة « بل » مشجعة فردّ عليها بابتسامة فاترة ، لأن اللحظة كانت لها أخطارها وسخرياتها . ذلك بأن فيصل من أبناء ابنة النبي ، وهذا الشعب العراقي نفسه هو الذي دعا حفيد النبي من الحجاز وتركه يقتل هو وأسرته . والآن تلا احد العراقيين اعلان سير بيرسي كوكس ، السفير البريطاني ، الذي جاء فيه انه لا أقل من ستة وتسعين بالمائة من شعب العراق قد اختاروا فيصل ملكاً عليهم . ثم رفع العلم العراقي الجديد ، واذ لم يكن قد وضع للعراق نشيد وطني خاص فقد عزفت موسيقى الجيش نشيد « الله يحفظ الملك » .

رتب هذا الاحتفال سير بيرسي كوكس وسكرتيرته ، أما القرار بإقامته فقد اتخذ في شهر مارس حين دعا مستر ونستون تشرشل ، وزير المستعمرات البريطاني ، عدداً من موظفي الامبراطورية الى اجتماع عقد في القاهرة للبحث في مستقبل الشرق الأوسط . كان الأناضول موضع خلاف بين اليونان والأكراد ، وقد احتل الفرنسيون سوريا ولبنان كنصيبهم من غنائم الحرب ، واصبحت صحراء العرب تحت حكم الملك القوي المحارب عبد العزيز بن سعود بعيدة عن قبضة بريطانيا وان لم تكن بعيدة عن نفوذها ، وكانت الموانىء الصغيرة على الخليج التي يعيش اهلها على استخراج اللؤلؤ والصيد فقيرة جداً لا شأن لها وسيظل حكامها الوراثيون تحت ارشاد بريطانيا الأبوي ، وكذلك حال المنطقة الساحلية من مسقط في الشرق الى مستعمرة عدن في الغرب ، فلم يبق بعد مصر سوى العراق وشرقي الأردن وفلسطين .

كان ونستون تشرشل ، الرجل المسؤول في الدرجة الأولى عن القرارات الخاصة بالمستعمرات شديد الاعجاب بالكولونيل « لورنس » رجل الغموض الذي قلما رآه أحد ، ولم يعرف عنه سوى القليل . شجّع هذا الجهل به نشوء أسطورة . كان يقف أمام شجر النخيل والخيام السوداء ووراء أباريق القهوة لتلتقط له الصور الفوتوغرافية ، فكان طبيعياً ان يحسب شيخاً عربياً . ثم اذ توفرت حقائق اخرى عنه وضعت فوق صورته الأولى صورة اخرى لجبار نوردي ، أو كما أكّد البعض قزم نوردي . وعلى كل حال كان وسيماً نشيطاً ، له عينان نفاذتان ، وعضل متين ، وقدرة كبيرة على الجلد . كان نزيهاً ، مخلصاً ، غير مبال بالشقاء ، قانعاً بالقليل من الطعام وانعدام الفراش ، بعيداً عن الرغبة الجنسية ولكن رجلاً ، ظريفاً ومنصفاً . كان أيفنهو والشيخ العربي وبولدوج دراموند مجموعين في شخص واحد » . كان تشيرشل جاهلاً بالشخصيات المعقدة ، فاتخذ هذا الشاب المشهور مستشاراً له في

الشؤون العربية . لم يعرف ان لورنس مرشد غير دقيق ، ولم يدرك ان لورنس وقع في ١٩٢١ فريسة اخطبوط سيكولوجي ترك آثاره في كل كتابه عن الثورة العربية ذلك الكتاب الذي عده تشيرشل « بين أعظم ما كتب باللغة الانجليزية » . وحين استقال لورنس من منصبه الرسمي بعد أشهر قليلة سعى لانحطاطه الروحي بالعمل جندياً في زمن السلم كعقاب تأديبي ، وحيّر أطباء الجيش بعرض ندوب في ردفيه وفخذيه من أثر السياط ، مدعياً أن الأتراك جلدوه في درعا ، أما الأرجح فهو أنها ندوب حديثة انزلها به الجندي الاسكتلندي الشاب الذي استبقاه ليقوم بجلد البطل بصورة دورية ما تبقى من سني حياته .

ان كشف الحقائق المتعلقة بهذا الرجل الغامض يتطلب عقوداً . كان تشيرشل قد دخل دور الخرف حين أظهر رتشارد ألدنجتون في دراسة هجومية ولكن دقيقة في جوهرها ان مؤلف « أعمدة الحكمة السبعة » كان كاتباً ملفقاً مريضاً . وبعد موت كل من تشيرشل وألدنجتون أظهر صحافيان في لندن أن لورنس كان ماسوخياً . ثم ان الأسطورة القائلة ان لورنس كان مدفوعاً بالعطف على حرية العرب كانت قوية ايضاً . اما الحقيقة فهي ان لورنس كان يرى ان دوره هو دور خادم الامبراطورية. بينما كان يطمح ان يصبح عالم آثار استخدمه القائد هوجارت في اعمال التجسس في السنوات التي سبقت اندلاع الحرب ، وكان اقوى عاطفتين مسيطرتين عليه كرهه للأتراك اعداء الامبراطورية وللفرنسيين حلفائها . كان احترامه للعرب على العموم قليلاً ، مع ان شاباً عربياً سائق حمار يدعى سالم أحمد كان رفيق حياته المنحرفة ، ولم تتأثر عواطفه بالصراع المقبل بين العرب واليهود ، وما اعترافه المحزن بقوله : « لو كنت ناصحاً مخلصاً لنصحت العرب بالعودة الى بيوتهم وعدم المجازفة بحياتهم في القتال » سوى حالة من صدق القول وعقاب النفس . أما اهتمام لورنس بفيصل فقد كان اهتمام المالك . ذلك بأنه هو الذي اختاره قائداً صورياً للثورة العربية ، وزحف معه أمام جيش اللنبي لاحتلال دمشق قبل أن يحتلها الفرنسيون . بيد أن خطط لورنس أخفقت . لا ريب ان فيصل اعلن ملكاً على سوريا ولكن عهده فيها كان قصيراً أولاً لأن حماسة السوريين له قد خفت بسبب تنازلاته للدكتور وايزمن من وجهه وعدم تمشي خلقه مع منظره من جهة أخرى ، وثانياً لأن القوات الفرنسية جاءت وأخرجته منها ، فذهب فيصل الى لندن وجلس هناك عبأً على الضمير البريطاني .

كانت هناك عقبتان في سبيل تتويج فيصل ملكاً على العراق ، اولاهما أن بعض العراقيين ارسلوا عريضة الى الملك حسين يطلبون فيها ارسال ولده عبد الله الى بغداد ، وهكذا كان هناك مرشح آخر لعرش العراق.والواقع انه اذا كان لا بدّ من ان يحكم

العراق احد ابناء الحسين فان اكثرية العراقيين تفضل عبد الله . ذلك بأن العرب سريعو التأثر دوماً بالفصاحة ، يتبينون تحت المجاملة التقليدية موهبة سياسية ، وقد بدا عبد الله رجلاً يمكن ان يبيع وان يباع ، ولكنه كان ايضاً قادراً على المناورة في سبيل صفقة رابحة . غير ان البريطانيين لم يكونوا مولعين ابداً بالرجال المحليين البارعين ، ولذلك فضلوا فيصل البليد على أخيه الفطن ، على ان يعطوا هذا الأخير بديلاً من العراق مملكة أدنى مقاماً في مكان ما ، وبذلك زالت العقبة الأولى وبقيت العقبة الثانية ، وهي آراء ثلاثة ملايين عراقي .

كانت هذه العقبة في العراق هائلة . ذلك بأن البلد لا يضم مجتمعاً منسجماً يمكن اقناعه بحجة واحدة . فاذا تركنا جانباً اليزيديين الذين يعبدون الشيطان متخفياً في زيّ طاووس ملاك ، واليهود ومختلف الطوائف المسيحية ، وجدنا سكان العـراق منقسمين الى ثلاث فئات كبيرة . في الشمال يسكن الأكراد الوديان الجميلة بين الجبال على حدود الأناضول وإيران . ومع أنهم مسلمين سنيين كالأتراك إلاّ أنهم يتكلمون لغة قريبة من لغة الايرانيين الشيعيين ، ويدعون التحدر من نسل الماديين القدامى . انهم جبليون فقراء ومحاربون أشداء يكوّنون ثلث سكان العراق . وفي الجنوب والغرب يقيم العرب الساميون من سكان مدن ومزارعين وبدو على ضفاف دجلـة والفرات ، وهم منقسمون الى فئتين : في الشمال أكثرهم سنيون تعاونوا مع الأتراك وكانت لهم صلات وثيقة بالسوريين السنيين ، وفي الجنوب أكثرهم شيعة في مدن كالنجف وكربلاء والبصرة ومستنقعات العمارة . وللشيعة تقليد ثوري ، وقد ثاروا على الأنتداب البريطاني سنة ١٩٢٠ وكلف بريطانيا تهدئة ثورتهم ثلاثين مليون جنيه .

من الصعب في أفضل الأوقات – وقد كانت سنة ١٩٢١ وقتاً صعباً – اقناع هذه الفئات بالاتفاق على حاكم . كانت لكل فئة اعتراضات على الملك الذي ترعاه بريطانيا . فالأكراد كانوا يفضلون الاستقلال على حاكم عربي ، وكثيرون من السنة أخذوا على الهاشميين تحالفهم مع بريطانيا ، بينما كثيرون من الشيعة كانوا سيختارون الجمهورية .

عارضت جيرترود بل وسير بيرسي كوكس – وتؤهلها معرفتها الأوسع بالبلد للأولية – استمرار الاحتلال المكشوف. ذلك بأن الإصطدامات المسلحة بالقوى الشعبية تؤدي الى مزيد من القمع الوحشي أو ، ما هو أسوأ ، إلى خروج بريطانيا من هذا القطر الجديد ، فاقترحا تأسيس حكومة عربية في ظاهرها ، لها سلطة اخضاع العراقيين لكن يديرها على كل مستوى مستشارون بريطانيون ، على أن يكون على رأسهـا ملك عربي من أنبل النسب ، ومن أنبل من فيصل الشريف الطيّع .

ولدت السيّدة التي جاهدت لتتويجه ملكاً في السنة التي سبقت فتح قناة السويس ،

وهي السنة نفسها التي ولد فيها الملك فؤاد .. كان ابوها ، سير لوثيان بل ، ثريـاً ينتسب الى طبقة خدمت الامبراطورية وأفادت منها . تخرجت من جامعة أكسفورد وتعلمت العربية والفارسية خلال رحلاتها الجريئة في هضبة إيران والصحارى العربية . برعت وهي فتاة بكل شيء ما عدا الموسيقى والكتاب المقدس . كانت عبقريتهـا منصرفة الى النثر الفني ، ومزاجها الساخر بليد الاحساس بالدين . كتبت عن رحلتها الى فلسطين قبل الحرب العالمية الأولى تقول : « زرت جميع المبشرين . فلتحفظنا السماء ! اي مجموعة من الفزّاعات هم ! يبدو لي من المؤسف ألاّ يمثل الدين المسيحي سوى سيدات بشعر خفيف ونظارات » . علاوة على جهودها العلمية والأثريـة ستظل خرائطها التي نشرت للقصور العربية في الصحراء دون منافس .

واذ كانت الآنسة بل مقتصدة ومهذبة وهادئة فقد افترضت أنها متحدرة من أرومة ممتازة ولم تشعر بالحاجة الى مناقشة ما هو بديهي . كتبت الى أمها من فلسطين في أثناء تلك الزيارة نفسها ما قبل الحرب تقول : « أمي العزيزة ، أتناول الآن الطعام مع زنجي مقيم في هذا الفندق . انه زنجي لطيف ، وبما أنه يتكلم العربية فلا أبالي بلونه . هناك شيء مضحك . يلبس في احدى يديه قفازاً أسود ، ولولا أزراره لما عرفت اي اليدين بلا قفاز . نبحث باحترام في القرآن ، ويؤكد أن كل المعرفة البشريـة توجد فيه ، فأوافقه تأدباً » .

واذ كانت الآنسة « بل » أنثى في امبراطورية ذكور فقد حظيت باحترام رؤسائها وزملائها . ربما كان الإنجليز العاديون يبتسمون لها كما كانت تبتسم للزنجي . أما في نظر العرب فقد كانت هذه المرأة السافرة المسيطرة وسطاً بين الرجل وبين ما يعتبرونه امرأة . بيد أنها لم تهتم بذلك ؛ كانت الإبنة المحبوبة لعائلة حنونة ، وقد عرفت كل شيء عظيم ، واهتمت كثيراً بالأشياء الجميلة والأثرية . كانت حماستهـا لبغداد كحماسة بويل للقاهرة . بل تركت في بغداد أثراً أبقى . فهي التي بذلت الجهد في جمع نواة المتحف العراقي ، وماتت وهي مشغولة بذلك . لم تفكّر في الشهرة لنفسها أو في البترول للعراق ، بل كانت تحلم بإحياء عظمة بغداد التي كانت حاضرة العالم في القرن التاسع ، وترى ان الخطوة الأولى في سبيل ذلك تنصيب ملك عربي . كانت تعبد فيصل كما يعبد الأبطال ، وقد اشتركت في حملة إجبار العراقيين على القبول به ملكاً ، وحققت ذلك بالرشوة والمهرجانات وعند الضرورة بالقوة . مثل ذلك أن السيد طالب النقيب ، أحد اعيان العراق في البصرة ، عارض فيصل فدعي الى الشاي مع السير بيرسي كوكس والسيدة كوكس وجيرترود بل ، وبينما كان خارجاً وضع في سيارة مدرعة وارسل في احدى السفن الى سيلان .

عرفت جيرترود بل أن استياء العراقيين من السيطرة البريطانية ، سواء أكانت

مباشرة أو غير مباشرة ، كان لا يزال كامناً . كتبت في أواخر يونيو ١٩٢١ ما يلي : « في الفرات الأدنى قبائل تعد عرائض تطالب بالجمهورية ، وعلماء الشيعة المجتهدون ضد فيصل » . ومن ناحية اخرى حضها رجال الأعمال الموالون لبريطانيا على الاستغناء عن الاجراءات الديمقراطية قائلين : « يجب ان ننهي هذا الأمر . لا نستطيع انتظار الانتخابات . يجب ان يعلن فيصل ملكاً بطريقة ما » . وبعد اسبوعين ، في ١٦ يونيو ، كتبت ما يلي : « الحرّ رهيب في النهار وفي الليل أيضاً . ومن ناحية أخرى تسير الأمور السياسية على عجل جيد التشحيم ، ويحرز سير بيرسي وفيصل انتصارات عظيمة ... يوم الأثنين في ١ أكتوبر ، بعد حادث النقيب ، اعلن المجلس بالإجماع فيصل ملكاً ، وكلف وزارة الداخلية اتخاذ الترتيبات الضرورية . تناولت العشاء وحدي في تلك الليلة ،وكنت أشعر بالقلق ، فالحرّ كما أظن يجعل الانسان غير طبيعي . بالامكان تصور كيف كان الأمر حين ذهبت الى مكتبي في الصباح وسمعت ذلك الخبر من سير بيرسي حال وصولي . أضاف أنه يشعر بأن الوضع حسن ، ولكنه غير كاف ، وان من الضروري اجراء استفتاء يثبت أن الشعب يؤيد فيصل فعلاً » .

أشرف على حملة اقناع العراقيين بانتخاب فيصل موظفون لهم شعور البريطانيين بالصور الرائعة . كان المسرح خيمة كبيرة على شاطىء الفرات تجمع فيها شيوخ قبائل الدليم حول علمهم . وقف اثنان من الشيوخ عن يمين فيصل وشماله وأعلنا ما يلي : « نقسم أن نكون موالين لك لأنك مقبول لدى الحكومة البريطانية » . نظر فيصل الى الآنسة « بل » رافعاً حاجبيه وقال : « لا شك في علاقاتي بالبريطانيين ولكن يجب أن نسوي شؤوننا بأنفسنا » ، فاستجابت الآنسة « بل » بسرعة بضم يديها الاثنتين ورفعهما رمزاً ، كما كتبت ، الى الاتحاد بين الحكومتين العربية والبريطانية .

لا ريب ان زعماء القبائل أدركو الحقائق . اختار البريطانيون فيصل والمطلوب من الشعب ان يقرّ ذلك . لم يكن هناك اقتراع علني أو سري ، بل ارسل الى كل الألوية عدد كبير من نماذج مطبوعة لتعبئتها . وكان وكيل بريطاني في كل لواء ، وهو عادة أحد الضباط العرب السابقين في الجيش العثماني الذين فروا مع فيصل من سوريا ، يعدد أمام الجمع المحتشد محامد فيصل . يقول مثلاً : « ألا يستحق رجل هذا سجله في خدمة العرب مكافأة ؟ » ، فيردون عليه : « نوافق ! » ثم يقول : « فلتكن المكافأة تاج العراق » ، فيأتي الرد أيضاً : « نوافق » ، ثم يقوم بتعبئة النماذج . لم تشترك السليمانية ، قاعدة الأكراد ، في هذا الاستفتاء ، بينما اعطى سكان كركوك صوتهم ضد فيصل وطالبوا بأحد أبناء السلطان العثماني ، وطالب سكان أربيل والموصل بحكم ذاتي ، ورفضت البصرة دفع الضرائب لحكومة بغداد .

ومهما يكن فقد كتبت الآنسة « بل » في ٢٦ أغسطس ١٩٢١ ما يلي : « كان

اسبوعاً شاقاً ولكننا توجنا ملكنا » . وقد رفضت في آخر لحظة اقتراح وزارة المستعمرات أن يذكر فيصل في خطاب التتويج ان السلطة العليا في يد المندوب السامي ، وأصرّت على أن تبدو سلطة فيصل غير مقيدة كي يتمكن من السيطرة على المتطرفين .

على ان بريطانيا قد احتفظت بالسلطة على العراق ، وكانت أداتها لفرضها سلاحها الجوي . وصفت جيرترود بل قبل موتها كيفية عمل تلك الأداة بقولها : « أعجب شيء حدث في هذا الأسبوع عرض لقذف القنابل قام به سلاح الجوّ الملكي . كان أروع حتى من العرض الذي رأيناه في العام الماضي لأنه أكثر واقعية . بنوا قرية خيالية على بعد ربع ميل من سد ديالا حيث كنا جالسين ، وألقوا قنبلتين من علوّ ثلاثة آلاف قدم فأصابتا وسط القرية واشعلتا فيها النار . كان منظراً رائعاً ورهيباً . ثم اسقطوا قنابل حول القرية كأنما لتصيب الهاربين ، واخيراً قنابل محرقة ظهر لهيبها في أكثر أيام الصحراء اشراقاً ، يخرق المعدن ولا يطفئه الماء . وفي النهاية جاءت سيارات مدرعة مسلحة بالمدافع الرشاشة لجمع الهاربين . لقد أثر في ذلك كثيراً » . طبعاً كان القصد من العرض التأثير في العراقيين . لم يدعم النظام شعب العراق ، بل دعمته قاعدة جوية في الحبانية ، البحيرة الواقعة غربيّ بغداد .

لم تبد الملكية أبداً طبيعية للعراق . لم تخلق ، على عكس الأسرة المالكة في مصر ، شجرة نبيلة ولا جذوراً كثيرة تدعم جذعها . ومع ان المفكرين البريطانيين دعوا الى توسيع طبقة شيوخ القبائل إلاّ ان هؤلاء احتفظوا بصفات الطبقية الصحراوية . وهكذا بقيت الملكية وحيدة ، لم تظهر اهتماماً بالأمور العقلية ولم تهتم إلاّ قليلاً بالأمور الثقافية ، بل رعت سباق الخيل والقنص ، فكان عبد الإله يصطاد بنات آوى في مزارع النخيل في ضواحي بغداد . كان المهم من شؤون المملكة يدار من البلاط الملكي ، وهو عبارة عن طابق واحد من الآجر واللبن يزينه تاج خشبي ضخم يضاء بمصابيح كهربائية . ذلك بأنه لم يتوفر المال إلاّ بعد توسع صناعة البترول لبناء قصر يضاهي قصر عابدين في القاهرة ، ولكن بناءه لم يتم إلاّ متأخراً فلم يسكنه احد من الهاشميين وسكنه الدكتاتور العسكري الذي قضى على الأسرة المالكة .

كان فيصل مؤسس الأسرة المالكة لا يستحق بغضاً . لم يحصل على التعليم العالي . وكل ما كان له من مصادر القوة هو مظهره ، ومع ذلك فقد اضعفه ارتداؤه الثياب الغربية . بيد أن براءته كوفئت بحكم دام اثني عشر عاماً الى ان مات في سويسرا سنة ١٩٣٣ موتاً طبيعياً في ظاهره . أما اعضاء الأسرة الآخرون فقد كان مصيرهم مفجعاً يستحق مسرحية كإحدى مسرحيات عصر أليصابات .

أقام كل من جيرترود بل وبيرسي كوكس بناءً على الرمل ، وأورثا العراق ما أورث اللنبي مصر . ربما لو أصغى سير بيرسي لرجال الأعمال في بغداد ، وصرف

النظر عن الواجهة الديمقراطية ، لكانت الأمور أصدق وأبقى على المدى الطويل ، ولما جربت الديمقراطية نصف تجربة وباءت بالفشل . كان السفير البريطاني الذي سفارته في الجانب الغربي من دجلة معروفاً في بغداد « بمختار ذاك الصوب » ، وكان يعتقد أنه صاحب السلطة العليا في البلد في الإبرام أو النقض ، يعين لا الوزراء فحسب بل المديرين أيضاً . ان الهاشميين الخاضعين لهذا المختار لم يرتبطوا بالعراق أبداً ارتباط أسرة محمد علي بمصر في احدى الفترات ، وحين سقطوا جاء سقوطهم وسط كراهية أشدّ وسخرية أكثر ، وكان ذلك انتقام الشعب الذي جاءوا ليحكموه وبقوا حتى خسروه . أما بالنسبة الى بريطانيا فقد كان العراق ربحاً قصير الأجل .

الفصل الثالث

تلقى مؤتمر القاهرة الذي اختار فيصل لعرش العراق أخباراً مزعجة عن أخيه ، فقد وردته برقية من عمان تعلن وصول عبد الله فجأة الى البرية التي يسيطر عليها البريطانيون شرقي نهر الأردن ، وانه ينوي كما تقول الشائعات أن يقود رجال القبائل الى سوريا في الشمال في محاولة لإعادة فيصل الى عرشه ، وقد بدأ الاصطدام بين الجنود الهاشميين وبين القوات الفرنسية على الحدود السورية .

لو بدا من المحتمل ان يخرج عبد الله الفرنسيين من سوريا ، كما قال لورنس ، لما اعترضت بريطانيا على ذلك ، ولكن كانت لديها صورة واضحة عن موارد عبد الله الضئيلة وعن مدى مهارته العسكرية . ان غزوة فاشلة لسوريا قد تشجع الفرنسيين على القيام بهجوم مضاد نحو الجنوب ، ومع ان شرقي الأردن غير مهم في حدّ ذاته الاّ انه بالنسبة الى بريطانيا الرابط الجغرافي بين العراق وفلسطين . على على ان موقف عبد الله الهجومي ذكر بريطانيا القوية بأن له حقوقاً ملكية لا تقل عن حقوق فيصل ، ولكن الوضع كانت له أخطاره .

لذلك حالما انتهى مؤتمر القاهرة ورجع سير بيرسي كوكس وجيرترودبل الى الى بغداد ذهب ونستون تشرشل الى القدس عن طريق غزة . كان مركز الحكومة مبنى ألمانياً كبيراً على جبل الزيتون ، وكانت بريطانيا قد اختارت سير هربرت صمويل ، اليهودي الشهير ، مندوباً سامياً لفلسطين . ارسل تشيرشل الكولونيل لورنس الى الأردن ليحضر عبد الله الى القدس . أطلعه لورنس على خلاصة شروط تشيرشل : لا يستطيع فيصل الرجوع الى سوريا لكن يمكنه أخذ العراق ، أما هو فيستطيع أخذ شرقي الأردن ان أحسن التصرف . ثم رجع الرجلان القصيران ، صانع الملوك وملك المستقبل ، الى القدس عن طريق أريحا يسوق سيارتهما رقيب بريطاني . تجمع عرب فلسطين في القدس على الطريق ليظهروا رغبتهم في حاكم عربي ، ولكن جاء رسول عسكري راكباً دراجة نارية وطلب الى الركب الاسراع الى دار الحكومة حيث استقبل عبد الله استقبالاً رسمياً : وجد المندوب السامي واقفاً على الباب ، واستعرض حرس الشرف ، وعزفت الموسيقى . وقد ذكر عبد الله فيما بعد ذلك اللقاء فقال : « استقبلني بطريقة ودية جداً وشربت الشاي مع أسرته » . ان تناول الشاي مع المندوبين السامين قد يكون خطراً كما اكتشف ذلك الوجيه العراقي

حين تناول الشاي مع سير بيرسي كوكس في بغداد ، ولكن لم تدع الحاجة الى اجراءات شديدة مع عبد الله ، فقد أصغى بكياسة الى ما يستطيع ان ينتظر وما لا يستطيع . عليه الا" يزعج الفرنسيين . وبما ان موارد شرقي الأردن تفتقر الى التنمية فهناك حاجة الى معونة مالية . عبث عبد الله بالزجاجة القاتلة التي قد يكون الجني المحبوس فيهـا متعباً لبريطانيا ومهلكاً له . ذكر انه قال لهربرت صمويل ومستر تشرشل : « ان شعب فلسطين يرفض تصريح بلفور ويصر على المحافظة على طابع فلسطين العربي . لن نوافق على افناء العرب في سبيل اليهود . » كان تشيرشل في رده لطيفاً ومراوغاً ، أما سير هيربرت فقد أصرّ على ان الوطن القومي اليهودي لا يعني دولة يهودية . بعد هذا التطمين عاد عبد الله الى عمان . لم يسبب متاعب للبريطانيين ولم ولم يتعبوه . أما جيشه العربي فسيستخدم عدداً كبيراً من البدو ويوفر لبريطانيا قوة احتياطية قيمة ، وأما المتاعب من شعبه فقد لازمته طوال حياته ولم توهن عزيمته.
لا بد من أن يكون قد ساوره الشك في حكمة الثورة العربية ، والشعور بأنه « بينما بقي الأتراك أتراكاً في كل شيء » اتجه العرب بصورة عمياء نحو الغرب مهملين ثقافتهم الشرقية الاسلامية . ولكن حين بدأ تصوير فيلم للثورة العربية في أواخر حياته عرض ان يمثل دوره بنفسه ، فارتبك المخرج وقال : « لكن يا صاحب الجلالة ، كنت شاباً في الثلاثين » . فرد عليه عبد الله قائلاً : « لا ريب أنك بوسائل المكياج تستطيع ان ترد الي شبابي » .
أما ان هربرت صمويل قد تكلم كما قال عبد الله فشيء لا ريب فيه ، ذلك بأنه قال الشيء نفسه في خطاب عام ألقاه في القدس في الحفلة الرسمية التي اقيمت بمناسبة مولد الملك جورج الخامس :
« دعوني اولاً ان أشر الى سوء الفهم المحزن فيما يتعلق بعبارة تأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين ، التي وردت في تصريح بلفور . أسمعهم يقولون في أماكن كثيرة ان الشعب العربي لن يوافق على أخذ بلده منه ، وأماكنه المقدسة وأراضيه واعطائهـا الغرباء ، وانه لن يوافق على إقامة حكومة يهودية تحكم الأكثرية الإسلامية والمسيحية . يقول الناس انهم لا يستطيعون ان يفهموا كيف وافقت على هذه السياسة الحكومة البريطانية المشهورة بعدالتهـا في كل انحاء العالم . وجوابي هو ان الحكومة البريطانية التي تهتم فعلاً بالعدالة قبل كل شيء لم توافق ابداً ولن توافق على مثل هذه السياسة . انها ليست ما يعنيه تصريح بلفور . ربما كانت ترجمة الكلمات الانجليزية الى العربية لم تنقل معناها الصحيح . انها تعني ان اليهود ، الشعب المبعثر في انحاء العالم والذي تتجه قلوبه نحو فلسطين ، يجب ان يمكنوا من ايجاد وطن لهم هنا ، وان بعضهم ضمن الحدود التي يعينها عدد السكان

الحاليين ومصالحهم يجب ان يأتي الى فلسطين كي يساعدوا بمواردهم وجهودهم على تنمية البلد لمنفعة سكانه جميعاً » . كان سير هربرت يتكلم كمسؤول بريطاني ، وقليلون هم الذين طعنوا في نزاهته ، وكانت كلماته تتفق مع البيانات الرسمية .
حين اشيع عن تصريح بلفور أول مرة في الشرق الأوسط — لم يفعل البريطانيون ذلك ، فقد حرصوا على كتمانه ، بل الألمان في دمشق التي كانت لاتزال في ايدي العثمانيين — طلب الملك حسين تفسيراً لما بدا مناقضة صريحة للوعود التي قطعت له وللعرب ، فأخذ القائد هوجارت الجواب الى جده في اوائل يناير ١٩١٨ ، وقد فوض بأن يقول للملك حسين : « لن يسمح بالاستيطان اليهودي في فلسطين الا" بقدر ما ينسجم مع حرية السكان العرب السياسية والاقتصادية » . كان للتعهد تأثير في إعادة تحديد القسم الثاني الغامض من التصريح . وقد أعطى مستر تشرشل تطميناً مماثلاً لوفد عربي زاره وهو في القدس . رفض ان يوصي بالغاء التصريح ولكن أكد ان القسم الثاني مهم كالقسم الأول : « اذا ثبت احد الوعدين ثبت الوعد الآخر . سنفي بالاثنين باخلاص . ادرسوا كلمات تصريح بلفور بدقة ، ان فلسطين ستكون وطناً قومياً لليهود لا الوطن القومي . هناك فرق كبير بين المعنيين . ان تأسيس وطن قومي لا يعني دولة يهودية تسيطر على العرب » . لم يكن في الظاهر شيء مفاجيء في تأكيدات القائد هوجارت أو سير هربرت صمويل أو مستر ونستون تشرشل لأنهـا تتفق مع أهداف الحرب التي نشرهـا الحلفاء . وبعد شهر من زيارة هوجارت للحسين أوجز الرئيس ولسون جزءاً منهـا بقوله : « لن يسلم الشعب من سيادة الى اخرى بمؤتمر دولي أو تفاهم بين المنافسين والخصوم . » ولم يكن الصهيونيون المسؤولون أقل تطميناً للعرب . كان ناحوم سوكولوف أوثق المتعاونين مع وايزمن في التفاوض في شأن تصريح بلفور ، وقد كتب بعد مرور سنة على صدور التصريح بلهجة يبدو فيها الغضب : « قال أعداء الصهيونيين ، ولا يزالون يكررون القول بعناد ، ان أهداف الصهيونية خلق دولة يهودية مستقلة ، ولكن ذلك مغالطة كله . لم تكن الدولة اليهودية أبداً جزءاً من البرنامج الصهيوني » .
أول من ابتكر أصطلاح « الوطن القومي » بدل « الدولة اليهودية » هو ماكس نوردو الكاتب صديق هيرتزل وذلك في المؤتمر الصهيوني الأول الذي عقد في بازل . ومع ان كتاب هيرتزل دعي « دولة اليهود » فقد نصح نوردو بعدم استعمال هذا الاصطلاح . قال : « بذلت جهدي في اقناع المطالبين بالدولة اليهودية في فلسطين بأننا قد نجد كلمة تعبر عن كل ما نعنيه لكن نقول ذلك بطريقة نتفادى بها استفزاز الأتراك حكام البلد الذي نريد ، فاقترحت الوطن القومي كمرادف للدولة . كان اصطلاحاً غامضاً ولكننا جميعاً فهمنا ما يعنيه ، فإنه بالنسبة الينا كان يرمز الى الدولة

الهودية ولا يزال كذلك حتى اليوم . »

لا داعي الى تصوير السلطات البريطانية العليا بأنها كانت غافلة عن ستار الصهيونية الدخاني ،فقد بحث الموضوع بصراحة في اجتماع في بيت بلفور بلندن في ٢٢ يوليو ١٩٢١ ، وكان بين الحاضرين وايزمن وتشرشل ولويد جورج . كان وايزمن مستاء من خطاب سير هوبرت في القدس فقد عنى له « نفياً حقيقياً لتصريح بلفور » . أما تشرشل الذي لم تكن له يد في التصريح ولكن كان يعطف على أهدافه العامة فقد سأله ان يفسر ذلك . عندها قرأ وايزمن نصّ الخطاب الذي نشر ،جملة فجملة كي يبرهن أنه يناقض التصريح الذي عنى بالنسبة اليه«أكثرية يهودية في نهاية الأمر ،وهو الخطاب لا يسمح بتلك الأكثرية » ، هزّ تشرشل رأسه لهذا التفسير لكلمات سير هربرت التي تتفق مع ماقاله هو للعرب ، بينما قال لويد جورج وبلفور انهما قصدا بالتصريح دوماً دولة يهودية في النهاية .

اذا كانت نوايا البريطانيين أو الصهيونيين غامضة فقد كانت احساسات عرب فلسطين واضحة.ارسل الرئيس ولسون في ١٩١٩ مبعوثين لتقرير ذلك هما الدكتور هنري تشرشل كنج ومتّر شارلز كرين ، وكان كلاهما في أوائل الستين من عمره و مؤهل تماماً للمهمة . عمل كنج مع جمعية الشباب المسيحيين الملحقة بالبعثة العسكرية الأميركية في اوروبا ، وله عدة دراسات في الكتاب المقدس ، ولذلك عرف خلفيته معرفة تامة ، وكان رئيس كلية أوبرلين منذ ١٩٠٢ . أما كرين احد رجال الأعمال في شيكاغو فقد فقد زار الشرق الأوسط مراراً وكان عضواً في مجلس أمناء كلية روبرت في استنبول.صادف وصولهمـــا الى الشرق في الوقت الذي بدأ فيه اليونان يغزون الأناضول . ارسلا الى الرئيس ولسون من فلسطين برقية في ١٢ يونيو أطلعاه فيهـــا على ما أحدثه عمله من إثارة عامة للمشاعر . اما فيما يتعلق بالأماكن المقدسة فقد ذكرا ما يلي : « ان السكان الأقدمين هنا ، من مسلمين ومسيحيين ، يقفون موقفاً موحداً ومعادياً جداً لأي هجرة يهودية واسعة أو لأي محاولة لفرض سيادة يهودية عليهم . نشك في ان يعتقد اي مسؤول بريطاني او اميركي هنا ان بالامكان تنفيذ البرنامج الصهيوني إلاّ بمساعدة جيش كبير» . اتفق الأستاذ ورجل الأعمال على ان المشكلة الرئيسية دينية ، لأن في فلسطين أماكن مقدسة للمسلمين والمسيحيين على السواء . « يشك ، مع احسن النوايا الممكنة ، ان يبدو اليهود للمسيحيين أو المسلمين حراساً صالحين للأماكن المقدسة أو قيمين على الأراضي المقدسة عموماً . والسبب هو هذا : ان الأماكن الأكثر قداسة في نظر المسيحيين ــ الخاصة بالمسيح ــ والأكثر قداسة في نظر المسلمين ليست غير مقدسة في نظر اليهود فحسب بل بغيضة أيضاً . لذلك كان من المستحيل ، في هذه الظروف ،

للمسلمين والمسيحيين ان يشعروا بالرضى عن وضع هذه الأماكن في أيد يهودية أو جعل اليهود قيمين عليها . هناك أماكن أخرى يكن لها المسلمون الشعورّ نفسه . والواقع ، من وجهة النظر هذه ، إذ كانت الأماكن المقدسة للديانات الثلاث جميعاً مقدسة عند المسلمين فقد جعلهم ذلك بصورة طبيعية جداً قيمين عليهـــا مرضياً عنهم أكثر من اليهود . »

بينما كان رجال السياسة يراوغون والخبراء يجادلون ، كانت في فلسطين حقيقة يهودية متزايدة ومتغيرة . اتبع المستوطنون اليهود الأوائل في الثمانينات طريقة الألمان الذين اسوطنوا فلسطين في تشغيل العمال العرب في إدارة مزارعهم ، فساهموا في دخل هؤلاء العرب الذين علموهم حقائق أساسية عن الزراعة في فلسطين التي مثلت الحمضيات دوراً مهماً فيهـــا .

لكن موجة ثانية من المهاجرين اليهود جاءت الى فلسطين إثر المؤتمر الصهيوني الأول والمذابح في روسيا القيصرية ، فادخل هذا النوع الجديد من المستعمرين فلسفة جديدة : « طريقة العمل اليدوي » . استعمل هذه العبارة هارون ديفيد غوردون الذي وصل الى فلسطين في ربيع ١٩٠٤ ووجد له عملاً بصعوبة في احدى بيارات البرتقال . كان غوردون يمجد الكدح تمجيد تلاميذ وليام موريس للحرف اليدوية أو تولستوي (وكان غوردون معجباً به) لارتداء قميص الفلاحين الروس . اعتقد مارتن بابر ، صهيوني متأخر له نفسية غوردون، ان قلب غوردون جرحه الشعور بأن اليهود « انحرفوا لا عن تقرير المصير السياسي بل عن الكون ، وان السلوك المتفتح لن يمكنهم من ايجاد مكانهم فيه ثانية . لا يستطيع الإنسان ان يشترك في الكون الا حين يفعل شيئاً في المجال الكوني الذي هو مجاله الخاص ، كما تدور الكواكب حول محاورها وتتجه الأشجار نحو الشمس . ان ما يليق بالإنسان هو العمل في الأرض التي ائتمن عليهـــا ، والرجال الذين ارسلتهم اسرائيل الناهضة حديثاً للعمل في تراب أرضها يمثلون اعادة اتحادهـــا لا بالأرض بل بالكون ». وقد كرر غوردون نفسه الجملة التالية : « فصل الشعب اليهودي كلياً عن الطبيعة وحبس ضمن أسوار ألفي عام . اعتدنا كل طرائق الحياة ما عدا العمل . فلا بد من بذل جهد كبير كي يصبح هذا الشعب طبيعياً مرة أخرى » .

اصطدمت فكرة غوردون في العودة الى الحالة السويّة بفلسفة اثنين من الصهيونيين أرادا ايضاً ان يصبح اليهود عاديين بتقليد القوميات الأخرى ، ولكن هذه القومية ستفتقر الى نهضة روحية يهودية معينة كان غوردون قد رآها مبرراً للصهيونية . كتب صمويل هوجو بيرغمان يقول عنه انه « رأي الامتحان الحاسم في موقف اليهود من العرب . لم يكف أبداً عن تأكيد ان الارض تخص الشعبين ، وان الشعب

الذي له اعظم الحق في الأرض هو الذي يقاسي أكثر في سبيلهـــا » .

لم يقبل كل اليهود على العمل اليدوي بروح غوردون التولستووية ، فقد كان هناك بن غوريون المستوطن الذي جاء من أوروبا الشرقية وعمل في الزراعة فترة غير طويلة ، ثم ما لبث ان تحول الى الكتابة في صحيفة أحدوت (الوحدة) . قال ان ما دفعه إلى الكتابة غضبه على ما رآه في بيتا تكفا حيث كان المزارعون اليهود يرفضون تشغيل العمال اليهود ويفضلون عليهم العمال العرب لأنهم يتقاضون أجوراً أقل . كان بن غوريون اشتراكياً نشيطاً عمل لا من اجل تشغيل العمال اليهود فحسب مهما كانت الكلفة بل من اجل تنظيمهم أيضاً على المبادىء الاشتراكية لمنفعتهم لا لمنفعة العرب ، وقد قام بدور رئيس في تنظيم اتحاد عمال يهود مسلح كان النواة التي نبتت منها الهاجناه فالقوات الاسرائيلية المسلحة .

واذ نمت المستوطنات اليهودية التي لا تشغل سوى العمال اليهود نشأ وضع استعماري جعل المستعمرين بحاجة الى حماية أنفسهم من الاهالي . كان ذلك قبل حرب ١٩١٤ ، وازداد الوضع تأزماً بعد تصريح بلفور . وبينما انهمك بن غوريون الواقعي في تأليف مجموعات مسلحة لحماية المستوطنات اليهودية من هجمات الشركس أو الدروز أو العرب ، نظر المفكرون في تلك المستوطنات الى وضعهم على اساس استعماري.في ٢٤ ابريل ١٩٠٩ ألقى مستوطن صهيوني من المؤمنين بهذه الفلسفة الثانية ، يدعى آرونسون ، محاضرة على المستوطنين الفرنسيين في تونس عن»الاستعمار اليهودي في فلسطين « وصف فيها الصهيونية بأنهـــا « حركة استعمار » شبيهة بالاستعمار الفرنسي في تونس ، وان المستوطنين اليهود في فلسطين كالفرنسيين في تونس لا يريدون ان يضعوا انفسهم في مكان الأهالي بل الى جانبهم ، ولذلك فاستعمارهم مسألة تجاور لا استبدال .

تجاور أم استبدال ؟ لازم هذا السؤال الأساسي الانجليز الذين اداروا الانتداب في فلسطين مرتبطاً بتنفيذ تصريح بلفور . حاولوا ان يكونوا منصفين . بعضهم تحيز للعرب ، والبعض لليهود ولكن أكثرهم حاولوا ، بينما حافظوا على السيطرة البريطانية على فلسطين ، ان يوازنوا بين التعهدين اللذين في التصريح ، فوجدوا أنفسهم في وضع لا يقل إيلاماً عن وضع بيلاطس .

علت من جهة صيحات الفلسطينيين ،وهم في الواقع من نسل الكنعانيين الذين عاشوا في فلسطين قبل العبرانيين ، وبقوا فيها ، وتزاوجوا مع الفينيقيين واليونان والعرب.وبما أنهم يمثلون ٩٠ بالمئة من السكان فقد ادعوا حقاً طبيعياً لا في البلد الذي اعتبروه ملكهم فحسب بل ايضاً في مؤسسات ديمقراطية . بيد ان البريطانيين عرفوا انه اذا سمح بتلك المؤسسات فإن الأكثرية العربية ستستعملهـــا في منع مزيد

من الهجرة اليهودية. ذلك بأنه وان كان العرب قد انسجموا مع اليهود المتدينين القدامى إلاّ انهم كانوا شديدي الريبة في نوايا المهاجرين الذين جاءوا من اوروبا بعد الحرب . لم يفهموا ، أو لم يتقبلوا ، أحلام اليهود بفلسطين التي تنطوي عـــلى اخضاعهم لحكم الاقلية .

بالنسبة الى العرب كان لحجج اليهود في « العودة » الى أرض اسرائيل صدى مزعج : ان الدولتين الكاثوليكيتين المستعمرتين في شمال افريقيا ، فرنسا وايطاليا ، كثيراً ما أكدتا أن شمال افريقيا كان لاتينياً في احد الأيام ويجب أن يعود لاتينياً . على هذا الأساس اعلنت الجزائر مقاطعة فرنسية ومنع تدريس اللغة العربية في المدارس ، واتبع الايطاليون في ليبيا اجراءات قاسية لتحويل العرب الى طبقة ثانوية من المواطنين . لذلك كان الارجح الاّ يرحب العرب بهجرة واسعة النطاق . وبناء على خبرتهم الأخيرة نظروا بتخوف في افضل الحالات ، وبذعر في أسوئهـــا ، الى اقلية ادعت بصورة غامضة ان فلسطين وطنهـــا الثابت . شعر العرب ان هذه الإقلية اذا اصبحت أكثرية — او شعرت بقوة كافية — طردتهم بالقوة أو حولتهم الى اقلية ضعيفة .

من جهة اخرى كان اليهود يتكلمون لغات الحضارة الغربية . ان مهاجري العشرينات تعلموا في اوروبا ، وسبقوا العرب في التكنولوجيا ، وكانوا في الغالب مثاليين جداً . تعرضوا في ماضيهم وحاضرهم لآلام شديدة ، والألم الشديد كما قال شيلر يجعل المرء يشعر بأنه الموجود الوحيد ! كان المستوطنون اليهود العاديون غير معادين كثيراً للعرب بقدر ما كانوا غير مبالين . ولكن العرب باعتراضهم على شعار اليهود « ارض بلا شعب لشعب بلا أرض » ، ومقاومتهم للهجرة وبيع الأراضي كوّنوا عقبة في سبيل اسرائيل،فلم يستطع اليهود خلال واحد وثلاثين عاماً ، من ١٩١٧ الى ١٩٤٨ ، ان يوسعوا بالشراء ما يملكونه من مجموع ارض فلسطين أكثر من ٢ بالمئة الى ٧ بالمئة . أحرج العرب اليهود فراح هؤلاء يحاولون التغلب على ذلك بالجدل . قالوا ان الفلسطينيين ليسوا شعباً ، وانهم غير مرتبطين بالأرض وبالامكان نقلهم الى أرض أخرى ، وان عددهم في فلسطين كان قليلاً . قال ليفي اشكول ، رئيس حكومة اسرائيل ، في مقابلة صحافية مع نيوزويك في فبراير ١٩٦٩ : « من هم الفلسطينيون؟ حين جئت الى هنا كان عددهم ٢٥٠ الفاً معظمهم من العرب والبدو » ، مع أن الموسوعة البريطانية في ذلك الحين ذكرت ان عدد سكان فلسطين ٦٥٠ الفاً عشرة بالمئة منهم يهود .

أمام تضارب الادعاءات وما يلازمه من عنف أملت بريطانيا ان تزول المشكلة بطريقة ما ، أو على الأقل ان تهدأ.شاهدت العشرينات هجرة واسعة نتيجة كره

الحكومات الجديدة للأجانب في بعض بلاد اوروبا الشرقية . واذ شفيت اوروبا من الحرب ،وعاد اليها الرخاء ، خف الضغط على اليهود . في سنة ١٩٢٧ شعرت بريطانيا بالابتهاج ، لأنه أول مرة منذ الحرب غادر فلسطين يهود أكثر من من الذين هاجروا اليها . ان تحسن التجارة العالمية ونموّ التسامح في اوروبا قد يجعلان المستحيل في بلد المعجزات ممكناً . وهكذا جلست بريطانيا على مقعد بيلاطس تنتظر الفرج ، فإن وقت غسل يديهــا لم يكن قد حان .

الكتاب الثامن

أوروبا الغاضبة

اعلموا أن على الفاشستي ، وخصوصاً الجندي ، ألاّ يؤمن بسلام دائم .

المبدأ الأول من الوصايا الفاشستيـــة

في هذا العالم ما ليس عرقاً نفاية .

أدولف هتلر .

الفصل الاول

انهارت آمال عقد سيء في ٢٩ اكتوبر ١٩٢٩ بفقاعة وول ستريت . كانت موجات الصدمة أكثر تدميراً لأنها بدأت في أميركا . دعم الرخاء الأميركي والقروض الأميركية الحلفاء الأوروبيين الذين خرجوا من الحرب ظافرين ، وبما أن الولايات المتحدة لم تنضم الى عصبة الأمم فقد بقيت اوروبا نقطة الارتكاز السياسي في العالم .

كانت آثار الركود الأولى اقتصادية . توقفت اميركا عن ضخ دولاراتها في بقية العالم ، فكان أكثر المتضررين البلاد الفقيرة التي تنتج محصولات العالم الأساسية ، واذ كفت الشركات الأميركية عن شراء هذه المواد الخام ازدادت تلك البلاد فقراً . وبما أن منتجي المواد الخام لم يستطيعوا استيراد البضائع الجاهزة ، فقد تضررت أيضاً البلاد الصناعية التي تملك المصانع وخطوط الشحن ، وانتشرت البطالة في أوروبا من حدب الى آخر .

ان الضربات التي اصابت الجيب انطوت على ضربات أشد خطراً في القلب والرأس . لم تترك الكارثة المالية التي بدأت في وول ستريت في اوروبا بلداً سالماً ، حتى الاتحاد السوفييتي لم يستطع أن يكون بمعزل عن آثار ما كان في جوهره أزمة رأس مالية لأن الحالات النفسية في بلاد اوروبا الرأس مالية تؤثر في الأمن الروسي . اما المجتمع الذي تأثر بصورة أشدّ فهو جمهورية وايمار ذات الجذور غير العميقة التي حلت محل امبراطورية ألمانيا القيصرية . إن أقدم أكبر شعوب العالم القديم وأفضلها تربية قد أقدم ،نتيجة الهزيمة العسكرية في الحرب ومذلة الاحتلال الطويل الأمد وانهيار النقد ، على رفض الحضارة المسيحية التي أيدها منذ عصر شارلمان . اما ايطاليا المسيحية فقد نفخت دكتاتورية محلية مغمورة عرفت بالفاشستية ، وجعلت منها نظاماً يحلم علناً باستعادة الامبراطورية الرومانية الوثنية . بعد أن اخضع الايطاليون بقسوة (كرمي الثائرين من الطائرات إرهاباً للأجيال القادمة) القبائل السنوسية في برقة حوّلوا احلام اليقظة الى حقيقة باحتلال الحبشة القبطية ، ذلك الاحتلال الذي باركه البابا اللاتيني . كانت انجلترا وفرنسا ، الدولتان المنتصرتان المنهوكتان ، تستطيعان ان تقاوما عقيدتي روما وبرلين العنيفتين ، ولكن تقويض الأسس العامة يلحق بهما ضرراً لا يقل عما سيلحق بألمانيا وايطاليا . قبل مضي عقدين من العنف استنفدت بريطانيا طاقاتها في صراع عالمي ، بينما عانت فرنسا على ايدي الألمان الاحتلال العسكري الذي فرضته

على العرب في شمال افريقيا وسوريا . ان أوروبا التي بدت متحدة بحضارتها حين افتتح اسماعيل قناة السويس ستنقسم على نفسها ، والاقسام المتناحرة لن يطعن بعضها بعضاً بالسلاح فحسب ، كما كانت الحال في حرب ١٩١٤–١٩١٨ ، بل سيمزّق بعضها أحشاء بعض بالغضب الايديولوجي . سيهلك ملايين الأوروبيين في عنف متفجر سيترك القارة القديمة بلا حول تقريباً ، وستصبح الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي القطبين الجاذبين في العقود التالية . أما اوروبا العصر الفكتوري الأولمبية فسوف تتلاشى كالحلم .

كان رد فعل الشرق الأوسط لهذا الحلم ، منذ أيام نابوليون ، كالطبل للنقارة . إن اوروبا التي مزقها الغضب المعربد ما زالت ترسل موجات متذبذبة بين سكان الشرق الأوسط الأصليين وبين القادمين الجدد إليه .

بلد واحد بقي في منعة من ذلك . انه الأناضول التركي ، كل ما تبقى من الامبراطورية العثمانية ، الذي أذعن لأوروبا كلياً ، فاقتبس حروفها الهجائية ، ونظامها القضائي ، ويوم عطلتها الأسبوعية ، ولباسها . بعد موت أتاتورك في سنة ١٩٣٨ تابعت تركيا تقليد الحضارة الأوروبية . بذل قادتها – مثل عصمت اينونو الذي خبر الدمار التام الذي ينجم عن الحرب – جهدهم لانقاذها من المغامرات . أخذت من فرنسا التي كانت تحكم سوريا ولبنان سنجق الاسكندرونة ، وأظهرت حكوماتها بعد الحرب بعض الاهتمام بمصير الأقلية التركية في قبرص ، وفيما عدا ذلك كان الأتراك غائبين عن الميدان الذي سيطروا عليه طويلاً . وحين اظهر عدنان مندريس ، رئيس الوزارة التركية الميال الى الدين ، دلائل على توريط تركيا في شؤون جاراتها الدول العربية ، أسقطه انقلاب عسكري باسم مبادىء أتاتورك وأعدمه ، كأنما الأتراك بإلغائهم الخلافة قد اختاروا الخروج من التاريخ .

كانت على عكس ذلك حالة البلاد العربية التي كان الأتراك يحكمونها ، وقد أظهر عصر المتاعب الجديد كم كانت وهمية انجازات الهاشميين واتباع سعد زغلول .

عاد العنف المشوش على مصر في اوائل العشرينات ببعض المكاسب الإسمية فقط . وبدلاً من أن يترك سعد مصر منهمكة بجد في تنظيم مجتمع أكثر عدالة أورث وادي النيل والدلتا السليبين نظاماً برلمانياً انهمك حزبه في عداء مع عدة تحالفات للفوز بمكان فيه . ازاء الاحتلال البريطاني المضني والاستبداد الملكي دلّت حمى النزاع الداخلي ، الذي بعضه تافه وبعضه عميق ، على أن مصر تعاني مرضاً مميتاً .

كتب طالب مصري في اوائل العقد الثالث من عمره يقول لا أحد سوى الله يعلم كم ليلة امضينا نبحث في وضع الدولة ... في مرضها الحالي والأدوية الممكنة ...

في كيفية معالجة ذلك المرض ووقفه !

كان حسن البنا ، كالكثيرين ممن أثروا في تاريخ مصر الحديث ، ابن قروي ناجح . ولد في سنة ١٩٠٦ ، وهي السنة التي نسف فيها حادث دنشواي اسطورة التعايش السعيد بين البريطانيين والمصريين . أول شيء أثّر في حياته هو القرآن الكريم الذي حفظه غيباً ، ثم تعاليم الصوفية وحلقات الذكر التي كانت تدخل الدفء الى حياة الفلاحين الفقراء . اشترك في تظاهرات ١٩١٩ ، وبدأ في ١٩٢٩ تحديه الرسمي لتقليد الغرب الذي تميز به اسماعيل وأتاتورك خاصة ، وعرابي وسعد زغلول ايضاً ، ذلك التحدي الذي انطلق بمصادفة مهمة انطوت على اعمال قتل عنيفة من ضمنها مقتله . فقد عيّن بعد تخرجه معلماً للدين واللغة العربية في مدرسة في الاسماعيليــة تتبع في التدريس المنهج الأوروبي الذي كان اسماعيل يؤثره . لم يجد المعلم الشاب شيئاً يعجبه في الاسماعيلية التي كانت تعج بالأجانب الذين جاءوا لاستغلال موقعها الجغرافي ومعظم تجارتها ، بل وجد فرقاً كبيراً بين القسم الأوروبي بشوارعه العريضة المشجرة وبين القسم القذر الذي يسكنه الأهالي ، كما وجد في اسماء الشوارع الانجليزية والفرنسية رمزاً للعبودية .

في هذه التربة التي لا يرجى منها خير زرع حسن البنا اول بذور حركته التي نمت بسرعة نموّ اغصان الفاصوليا وظللت الحياة المصرية العامة طوال العشرين سنة التالية . جاء ارتباطه بالإخوان المسلمين على أثر « جمعية الشباب المسلمين » التي اسست قبل عام لتنافس جمعية الشبان المسيحيين المصرية . لم يكن البنّا مهتمــاً بدعم النشاطات الترفيهية ، لأن اهدافه كانت سياسية وثورية منذ البداية ، لذلك كان للنوادي الرياضية التابعة للأخوان المسلمين هدف نضالي ، وبعد سنــة ١٩٤٠ قام الإخوان برعاية الإرهاب .

استعمل البنا جدول مواعيد السكة الحديد كرجل أعمال ، فكان دائم التجوّل في مصر يخاطب الألوف في الجوامع والمقاهي الذين جمع بينهم الشعور بالهوان واليأس . اتصل بأولئك الذين شعروا أنهم مبعدون عن المجتمع المصري : بالفلاحين الذين لم يتصل بهم اي حزب سياسي ، وبالطلاب الذين لا عمل لهم ، فاستجابوا بحماسة لإثارته الماضي الذهبي وازدرائه الغاضب للحاضر التافه . لقد مثل البنّا ظاهرة التكرر الدوري في التاريخ الإسلامي ، وكان واعظاً يطلب العودة إلى أسس الإسلام . أراد أن يعيد تنظيم المجتمع المصري على خطط اسلامية نقية ، كما أراد لمصر أن تقاوم الثقافة الغربية لا أن تعتنقها . واذا كان تقليد أوروبا في نظره خيانة ، فإن حركة محمد عبده ومريديه الإصلاحية المعتدلة ، الموازنة بين العقل والنقل ، تنطوي على دقة غريبة عنه . ذلك بأن اطلاعه على التعاليم المستمدة من سقراط الشكاك كان قليلاً ، أمــا

رأس ماله العقلي فكان ذاكرة قوية تحفظ الكثير من الشعر العربي والأقوال المأثورة ، وقوته العاطفية مزيج مؤثر من الإرادة والسحر .

كانت دعوته بسيطة : ندعوكم الى الإسلام ، والى تعاليم الاسلام ، ومبادىء الاسلام ، وارشاد الاسلام . فاذا عنى ذلك لكم سياسة فهي سياستنا . قال ان المسلمين كوّنوا شعباً عظيماً حين كانوا مخلصين تماماً للاسلام الذي علاوة على كونه آخر الأديان التي تقول بالتوحيد وأكملها قد وضع مخططاً لمجتمع مثالي، بينما أوجد عصيانهم تعاليم الدين وضعاً تحطمت فيه المفاهيم الخلقية وانهارت مقاييس الفضيلة . ان الطلاق بين شريعة الدين وبين قانون الدولة كفر فعلي . ومع انه مدح اتاتورك لإلغائه الأحزاب السياسية إلاّ أنه كان يعتقد انه لا بدّ للإسلام من رئيس سياسي . وقــد اتهم في أواخر حياته بأنه كان يعدّ لتسلّم الحكم في مصر واعلان نفسه خليفة . ولو فعل لكان خليفة صارماً ، ولحكم مصر وكل بلد آخر يقبل افكاره بتطبيق احكام القرآن تطبيقاً حرفياً . وبما أن الجهاد أحد أركان الدين ، فلم يقبل الإخوان المسلمون بالحرب المقدسة كإمكان نظري فحسب (كما قبل الكاثوليك امكان الحرب العادلة) بل دربوا رجالهم على القتال . لم يرفض البنّا جهاز الدولة الغربي ، بل رأى في الحضارة الغربية اشياء كثيرة حسنة واخرى سيئة ، وانه لا بدّ لنهضة المسلمين الحديثة من أخذ ما هو نافع في الصناعة والعلم . والواقع ان الاخوان نجحوا دنيوياً ، فكانت لهم معاملهــم ، ومخازنهــم ، ومطابعهــم ، وجعلوا الاغتيال الإنتقائي جزءاً من استراتيجيتهم .

ان الناحية الحربية في حركة الإخوان واستعمالها الارهاب فيما بعد ذكرا بعض الناس بالاشتراكية الوطنية وان كانت تختلف عنها كحركة دينية . كان البنّا كهتلر (وقد امتدح استعماله الراديو في تنوير شعبه) مبسطاً كبيراً . ولكن تبسيطاته ليست مدينة لأوروبا بشيء . ومن الناس من يقابل هذه الحركة بالصهيونية المناوئة الرئيسة لها التي يزداد جذبها لليهود من اوروبا الشرقية ، اذ تبدو العودة الى الإسلام كالعودة الى صهيون . في ذلك الوقت الذي اتصف بالإذلال وعدم الاستقرار ، وبدا الاحتلال البريطاني أبدياً ، وهبطت أسعار القطن فهددت بانتشار البطالة ، جاء الرجوع الى الاسلام مرضياً لأولئك الذين لم يتوصلوا الى شيء يرضيهم . أما الذين حققوا مستوى من الضمان او الثقافة فكانوا أقل تأثراً بذلك . وكما عجزت الصهيونية عن اغراء كثيرين من اليهود الانجليز او الأميركيين بالهجرة . كذلك اقنعت حركة الإخوان قليلين من المنعمين . على ان أكثر المصريين كانوا لا يتمتعون بالضمان أو الثقافة الرفيعة ، فأخذت الحركة تنتشر تدريجاً بين شعب عدده نحو عشرين مليوناً.حتى لقد ادعت ، وليست مبالغة كثيراً ، ان عدد اتباعها بلغ مليونين ونصف مليون . وما

لبثت الحركة وهي في أوجها ان سيطرت على جامعات مصر ، وفازت بولاء المعلمين والطلاب على السواء ، واصبحت مقاومتها خطرة ، تضرب مفتشي البوليس ورؤساء الوزارات بالضراوة نفسها . وهناك شبه آخر بينها وبين الصهيونية . ذلك بأنها اذ كانت عنيفة حسنة التنظيم فقد بدت ذات فائدة للذين هم خارج دائرتها السحرية . فكما أن البريطانيين اولاً ثم الفرنسيين والاميركيين وجدوا الدولة اليهودية مفيدة لهم كذلك كثيرون من الذين لم يشاركوا حركة الاخوان فلسفتها وجدوها مفيدة كحاجز للأفكار الاشتراكية . فقد كان البنّا يبشر بأن الاسلام متفوق كثيراً على الشيوعية تماماً كما أكد هيرتزل لفون بولو طبيعة الصهيونية المضادة للاشتراكية . عرفت كلتا الحركتين كيف تكون مرنة ، فالإخوان لم ينشئوا مستوطنات كالكيبوتز ولكن مارسوا نوعاً من الاشتراكية خاصاً بهم . كذلك ابقت الحركتان احسانهما لأعضائهما . فكما شعر الفلسطينيون بأنه لن يكون لهم مكان في اسرائيل المستقبل ، تكهن غير المسلمين بأنه لن يكون لهم مكان في المجتمع الذي سيعيد الإخوان المسلمون بناءه ، اذ تأكد لهم ان انتصار الإخوان سيسلبهم كل شيء كسبوه منذ القرن التاسع عشر . ان الاخوان المسلمين ، بفضل أسرة محمد علي ، وصلوا الى أعلى المراكز في المجتمع ، وضمن لهم التأييد البريطاني وضعاً متفوقاً في البيروقراطية والمهن . لم يدرك الأقباط وحدهم خطر تقدم الإخوان ، بل ان غير المسلمين جميعاً ، ومن ضمنهم اليهود الذين لم يرغبوا في الهجرة الى فلسطين والمسيحيون الذين جاءوا الى مصر من أوروبا أو الشرق ، رأوا في انتشار حركة الإخوان في الشرق الأوسط خطراً كخطر الحزب النازي على غير الآريين أو الحركة الصهيونية على الفلسطينيين .

أما الذين لم يتأثروا برسالة البنّا من المسلمين فهم في الغالب الأعلى ثقافة من الأكثرية الإسلامية الذين يكوّنون نخبة مثقفة أفادت من الدراسة في المعاهد الفرنسية أو الأميركية أو البريطانية .

وأما بالنسبة الى الرجل العادي في شوارع بيروت أو أسواق بغداد فقد كانت الشيوعية والفاشستية تدللان على بضاعتيهما المتناقضتين ، وقد لاقت كلتا الفلسفتين بعض النجاح وخصوصاً بين الاقليات .

تأسست أول دكتاتورية بروليتارية في روسيا في نهاية ١٩١٧ ، وليس عجيباً ألاّ تجد سوى استجابة قليلة في الشرق الأوسط . كانت روسيا مرتبطة في أذهان الناس بالكنيسة الأرثوذكسية ، وكان الروس اعداءً تقليديين للامبراطورية العثمانية وبالتالي للإسلام . لذلك كان إلحاد الزعماء الشيوعيين غير مقبول لدى المتدينين . أما بدو الصحارى وقرويو الأناضول ومصر فلم يجهلوا معنى البروليتاريا فحسب بل الكلمة نفسها أيضاً . لم يستطع الحزبان التركيان الشيوعيان أن يتحديا قوميّة

أتاتورك ، وكانت نسبة الإخوان المسلمين الى الشيوعيين في مصر على الأقل ألفاً الى واحد .

ومع ذلك حدثت بداية جريئة حين اعترف الكومنترن في سنة ١٩٢٢ بأول حزب شيوعي مصري . أسس ذلك الحزب قبل عامين كحزب اشتراكي لا في القاهرة التي يطغي عليها الأزهر بل في الاسكندرية المؤلفة من عناصر مختلفة . رفض مؤسسو الحزب الثلاثة — وهم الجوهري جوزيف روز فتال ، والمحامي انطون مارون ، وحسني العربي أول مندوب الى الكومنترن — الأديان الثلاثة القديمة ، الاسلام والمسيحية واليهودية ، ودعوا الى « الاشتراكية العامية » التي انهى لينين باسمها الحرب بين روسيا وألمانيا وبدأ بناء الإتحاد السوفييتي . لم يستطع الحزب خلال العشرينات والثلاثينات أن يجند أكثر من ألفي عضو سدسهم من المصريين والباقون يونان ويهود . زادت صعوبات الحزب بالأخطاء التي ارتكبها قادته في الرأي . دفعتهم عقائدهم الى الاتصال بالعمال والفلاحين لا بالمثقفين ، ولولا ذلك لربما لاقوا نجاحاً أكبر . عجزوا عن أن يروا أن الصراع في سبيل التحرر كان أهم في نظر شعوب الشرق الأوسط من صراع الطبقات ، وهكذا بقيت الشيوعية كلمة غريبة تقريباً الى أن جاءت الانتصارات السوفييتية الجليلة في الحرب العالمية الثانية .

كان المثقفون والأقليات أكثر وعياً للحركتين الثوريتين الجديدتين في ايطاليا وألمانيا منهما للشيوعية السوفييتية . ذلك بأن الشرق الأوسط كان يشعر دوماً أنه أقرب الى الايطاليين والألمان منه الى الروس . ثم ان ألمانيا كانت حليفة تركيا في الحرب العالمية الأولى ، ويسكن القاهرة والاسكندرية عدد كبير من الإيطاليين ، كما أن عدداً كبيراً من العرب يعيش تحت الحكم الايطالي في ليبيا وارتيريا . ان العرب خاصة يستطيعون ان يفهموا عقدة النقص التي مثلت دوراً خطيراً في الفاشستية ، فلا العقيدة الإيطالية ولا الألمانية تستطيع ان تجتذبهم بقوة . ذلك بأن الفاشستية قامت لاحياء الامبراطورية الرومانية على حساب العرب واليونان والألبانيين والأحباش ، وقد وجدت مصر في الثلاثينات أن ايطاليا خطرة عليها كبريطانيا العدوة التقليدية . ومع ان الألمان لم يخضعوا بلداً إسلامياً الاّ أن عقيدتهم العرقية التي تمجد نقاوة الدم النوردي لم ترق للمتحدرين من نسل الفراعنة والفينيقيين والبابليين .

على أن شباك الحركتين المثيرتين — الاعجاب بالشباب ، والموسيقى العسكرية ، ومواكب حملة الشعلة ، والاخلاص لزعيم معصوم — قابلة للتكييف للحركات الفاشستية الأخرى .

كاد رجل واحد أن يزرع في جزء من الشرق الأوسط حركة فاشستية ناجحة . إنه أنطون سعادة الذي يؤمن تماماً بالقاعدة التي تقول إن القوميين ينشأون من الجماعات

ذات الآراء المتطرفة . كان والده ، الدكتور خليل سعادة ، احد المتعلمين اللبنانيين الكثيرين الذين رحلوا عن موطنهم الجبلي الجميل الفقير الى مصر ، فما لبثوا ان سيطروا على الحياة الثقافية والتجارية ، واصدروا صحفاً مشهورة كالأهرام ، وأسسوا دور نشر كدار الهلال . أما ما ساهم به الدكتور سعادة فقد كان قاموساً انجليزياً عربياً ، ولكنه لم يبق في مصر بل هاجر الى البرازيل وأصدر هناك مجلة للمجتمع السوري النامي . ولد أنطون في البرازيل سنة ١٩٠٤ وسط خليط من الهنود الأميركيين والزنوج الذين يتكلمون اللغة البرتغالية ، وهناك بدأ يطرح على نفسه السؤال الجوهري الذي شغله طوال حياته : « من نحن ؟ » كان سؤالاً عن الهوية زادته حدة بيئته المتعددة ، أما جوابه فقد تكهن به والده الذي كان وهو شاب يبحث في مشكلة استبدال الحكم العثماني الذي سبب الألم لكثيرين من المسيحيين . كانت القومية العربية البديل العام من ذلك الحكم لأن اللغة العربية يمكن ان تربط المسلمين والمسيحيين ، حتى اليهود الذين يتكلمون العربية . كذلك راودت اصدقاء الدكتور سعادة ومعاصريه فكرة اخرى هي تأسيس دولة سورية في المنطقة الشرقية من البحر الأبيض المتوسط.
عاد أنطون الى سوريا (ولم يكن يفرّق بين سوريا ولبنان) في أواخر العشرينات وهي لا تزال خاضعة للانتداب الفرنسي . وكان قد كوّن من آراء والده الغامضة فلسفة تخلصت من العربية والإسلام . قال : « نحن سوريون ، نشكل كياناً قومياً واضحاً » . لم يعتبر هو وأتباعه الاسلام سوى عارض أثّر في تطور الشعب السوري أكثر من ثلاثة عشر قرناً ، ولم ير في اللغة رابطاً مهماً ، وقد كان يزدري السمر الذين يتكلمون العربية كالمصريين والسودانيين . هناك بالنسبة إليه حقيقتان : الشعب السوري المغمور والوطن الجغرافي السوري . وقد حدد هذا الوطن مرتين : أولاً في الثلاثينات وكان « يمتد من جبال طوروس في الشمال الى قناة السويس في الجنوب ، فيضم شبه جزيرة سيناء وخليج العقبة ، ومن البحر السوري غرباً الى الصحراء في الشرق الى أن تلتقي بنهر دجلة».أما التحديد الثاني فقد جاء بعد الحرب وضمّ الى الوطن السوري جزيرة قبرص كنجم في الهلال الخصيب الذي ينحرف شرقاً فيضمّ العراق . في امكان سعادة ان ينافس هتلر في العلم الزائف المضجر . قال ان الكنعانيين ، والكلدانيين ، والآراميين ، والأشوريين ، والأموريين ، والميتانيين ، والأكادريين الذين يتحدرون من أصول مشتركة ، والذين حقيقتهم واندماجهم حقيقة تاريخية وعلمية لا نزاع فيها ، يكونون الأساس العرقي السيكولوجي التاريخي الثقافيّ ، بينما مناطق سوريا الطبيعية (الهلال الخصيب) تكوّن الاساس الجغرافي الزراعي الاقتصادي الاستراتيجي لوحدة سوريا .

أسست سراً في أوائل الثلاثينات منظمة سياسية عرفت بالحزب السوري القومي

وذلك لدفع ايديولوجية سعادة . أغضب هذا الحزب كل مصلحة يمكن تصورها . أوجد له اتجاهه العلماني الكره في الجامع والكنيسة ، وضمن له ضمه فلسطين الى الوطن السوري الاصطدام بالصهيونية ، وجعله اعتقاده ان رأس المال والعمل يجب ان يتحدا في ظل حكومة أبوية لعنة في نظر الاشتراكيين ، وأدت معارضته لسلطة الدولة المنظمة الى نفي زعيمه ثم مقتله . حاكم الفرنسيون أنطون سعادة في في سنة ١٩٣٦ بتهمة التآمر على الدولة ، وبعد سنتين انسحب من لبنان الى أميركا الجنوبية حيث أمضى فترة الحرب ، ثم رجع في سنة ١٩٤٧ الى المنطقة التي أحبها ، وتحدى الدولة اللبنانية التي خلفت الانتداب الفرنسي . وإذ أساء تقدير مدى انسجام لبنان المستقل مع رغبات اللبنانيين المسيحيين ، وخصوصاً الموارنة ، قام بانقلاب فاشل ، وهرب الى سوريا ، ولكن دكتاتوراً سورياً أرجعه الى بيروت حيث أعدم رمياً بالرصاص بعد محاكمة سريعة سرية .

على الرغم من أن الحزب السوري القومي لم يتوصل ، كالإخوان المسلمين ، الى الحكم في اي بلد من بلاد الشرق الأوسط ، إلاّ أن قوميته المتطرفة وتنظيمه العسكري وعنفه أظهرت في الشرق ، كما أظهر الإخوان المسلمون في مصر ، الموجات الصدامة التي أرسلتها أوروبا الى أضعف شواطىء البحر الابيض المتوسط . ان كثيرين من الرجال الذين كان لهم أثر في العالم العربي الشرقي بعد الحرب العالمية الثانية ، مهما كانت اتجاهاتهم السياسية ، امضوا مراهقتهم السياسية في الحزب السوري القومي .

الفصل الثاني

أعطت أوروبا المضطربة عقلياً المراهقين العرب قطبين للجذب والنفور ، وأعطت اليهود الذين لم تقتلهم جرحاً لا سابقة له . ظل المجتمع في الشرق الأوسط دون تغيير كبير بين ١٩٢٩ و ١٩٤٨ ، أما السنوات العصيبة بالنسبة الى العرب فقد أتت حين ذبح أسياد اوروبا قسماً من اليهود وأرعبوا بقيتهم . ولن يهز استقرار المجتمع العربي الذي يبدو أبدياً سوى وجود مجتمع يهودي هائج في وسطه .

قليلون من الناس خارج ألمانيا نظروا بجدّ حتى أوائل الثلاثينيات الى الحركة المعروفة بالاشتراكية الوطنية . كان احياء القبلية جزءاً من برنامج الحزب الذي نشر منذ ٢٤ فبراير ١٩٢٠ ونصت مادته الرابعة على ما يلي : « لا أحد سوى اعضاء الشعب يمكن ان يكون من مواطني الدولة ، ولا أحد سوى الذين دمهم ألماني ، مهما كانت عقيدتهم ، يمكن ان يكونوا من اعضاء الشعب . لذلك لا يمكن ليهودي ان يعتبر من أعضاء الشعب » . كان للحزب كتابان مقدسان أساسيان ، أحدهما كتاب «كفاحي » الذي كتبه ادولف هتلر وهو سجين بسبب محاولة انقلاب فاشل قام بها ، والثاني كتاب ألفرد روز نبرغ « أسطورة القرن العشرين » الذي يأتي في المرتبة الثانية في شريعة الدين الجديد . حاول روز نبرغ ان يبرهن على أن حرب الطبقات وهم ، وأن التاريخ لا يمكن ان يفهم إلاّ على اساس العرق ، وان الصراع الحقيقي إنما كان بين « القيم الروحية » . رفضت «الأسطورة » حتى صحة التعصب الكنسي . كانت الكنيسة دوماً تقبل ضمّ اليهود الى المسيحيين بالمعمودية ، ولكن الاهتداء لم يعن شيئاً لهتلر وروز نبرغ لأن الدمّ ، لا الإيمان ، هو « السرّ الذي حلّ محل الاسرار المقدسة القديمة وتغلب عليها » .

اصبحت اللامبالاة بهذه الآراء مستحيلة في شتاء ١٩٣٢—١٩٣٣ حين انتخب هتلر ، مؤلف كتاب « كفاحي » وزعيم الحزب النازي ، مستشاراً لأكبر دولة في في المانيا الغربية . أظهر النازيون بسرعة أنهم يعتزمون تطبيق فلسفتهم ، فصدر « قانون حماية الدم والشرف الألمانيين » الذي حرم الزواج أو أي علاقة جنسية بين اليهود والألمان ، واصبح اليهود قانونياً لا يستطيعون استخدام الألمانيات اللواتي لم يصلن الى سنّ اليأس مدبرات لمنازلهم ، وبينما سمح لهم بعرض « الأعلام

اليهودية » منعوا من رفع العلم الألماني . واستعملت الموضوعية العلمية الزائفة في تعريف اليهودي أو الشخص ذي الدم المختلط بأنه « ذلك الذي أحد أجداده أو جداته أو إثنان منهما يهودي العرق تماماً ، ويعتبر الأجداد اليهود والجدات اليهوديات ذوي دم يهودي تام اذا انتسبوا الى مجتمع يهودي ديني » . ثم ان جزءاً من هذا التعصب القومي أن على الفلاح ان يثبت أنه ليس فيه دم يهودي أو ملون منذ ١ يناير ١٨٠٠ . وهناك بند أخير أضاف لمسة غريبة قسرية وهي : « يحق للفوهرر مستشار الرايخ أن يعفي اي شخص من بنود هذه المراسيم الإدارية » .

لا عجب ان يثير تطبيق دولة جنود العاصفة لهذا التشريع شيئاً قريباً من المرض النفساني بين يهود أوروبا . ان الوقود الذي تصور هيرتزل ان يدير محركه قد تدفق من بئر غير منتظرة . ذلك بأنه توفر الآن لليهود الذين كانوا يلهون بالصهيونية سببان خطيران للهجرة الى فلسطين . احدهما واضح وهو أنها كانت مكاناً يلجأون اليه ، واذ واجهوا الطرد أو ما هو أسوأ فان قليلين منهم اهتموا بالسؤال عن سندات تملك صهيون ، والآخر سبب أعمق وربما كان أقوى وهو تدهور وضع اليهود الشديد في المجتمعات غير اليهودية . فإذا كان بلد له ثقافة ألمانيا العالية يمكن أن ينقلب الى القبلية فأي بلد آخر يكون معصوماً ؟ ان تفاؤلية يهود ألمانيا الطويلة الأمد لتستحق تقديراً عظيماً اذ اختاروا انجلترا واميركا ، لا فلسطين ، موطناً لهم ، وكانت مساهماتهم في فنون البلاد التي تبنتهم وعلومها لا تحصى .

بيد أن عدداً من اليهود اختار فلسطين وكان كافياً لإحداث أثر شديد في ذلك البلد الحسّاس . ذلك بأنهم لم ينضموا الى مجتمع متوازن أو مسالم تماماً ، فقد كان هناك بين المستوطنين اليهود في فلسطين تيار من الرأي الشديد التعصب حتى قبل الحرب العالمية الأولى . حين كان بن غوريون يلبس الطربوش العثماني ، وكانت فلسطين لا تزال تحت حكم الأتراك ، اشمأز الطالب موشيه مانوهين ، الذي اصبح والد عازف كمان شهير ، من الاتجاه العنصري الكلي . التحق مانوهين بمدرسة تحمل اسم هيرتزل ، وقد كتب يصفها : « طوال سنوات الدراسة في الجمنازيا كنا نستمع يومياً الى خطب رنانة في واجباتنا المقدسة نحو شعبنا وبلدنا وموطن اجدادنا . كانوا يطبعون في قلوبنا الصغيرة ان وطن الأجداد يجب ان يكون لنا خالياً من غير اليهود (العرب) ، وان علينا ان نكرس حياتنا لخدمة وطن الأجداد والدفاع عنه » . وجد موشيه مانوهين هذا الاتجاه شائعاً ومنفراً الى حدّ جعله يترك فلسطين ويستقر في كاليفورنيا .

أظهر صيف ١٩٢٩ — آخر فصل قبل الركود الاقتصادي — العشب الجاف الذي يوشك ان يسقط عليه شرر أوروبا اللاّسامية . في تلك السنة عقد المؤتمر

الصهيوني السادس عشر في زوريخ . ومع ان المعتدلين الذين يرئسهم حاييم وايزمن وناحوم سوكولوف سيطروا على المؤتمر ، إلاّ ان الخطاب الذي لفت النظر اكثر من غيره في اليوم الأول هو الذي ألقاه فلادمير جابوتنسكي زعيم حزب متطرف يعرف بالحزب التعديلي . حدد جابوتنسكي في خطابه ما عناه بفلسطين فقال : « ان فلسطين هي المنطقة التي أهم صفاتهـا الجغرافية هو هذا : ان نهر الاردن لا يكون حدّها بل يتدفق في وسطها » . وطالب في الخطاب نفسه أيضاً السلطة البريطانية المنتدبة بأن « تنظم الجهاز الإداري اللازم لفتح المنطقة على جانبي النهر لاستقبال جماهير كبيرة من المستعمرين » . وقد علق كرستوفر سايكس بقوله : ليس عجيباً تماماً ان تعطي اقوال من هذا النوع، تبعها تظاهر اليهود جميعاً من كل الأحزاب لتأييد سياسة الوطن القومي ، العرب فكرة عن ان يهود العالم يتجمعون للهجوم عليهم . » لم يكن شرقي الأردن في اي وقت من أوقات التاريخ يهودياً ، ولم يكن فيه في سنة ١٩١٨ سوى اثنين من اليهود .

شاهد صيف ١٩٢٩ الملتهب الجاف وصول كاتب أميركي شاب غير يهودي ، يدعى فنسنت شيبان ، الى فلسطين ، كان قد انضم وهو في جامعة شيكاغو الى جمعية يهودية ، وأصبح مولعاً بتقاليد اليهود وطعامهم ومسرحهم وصحبتهم . . وقد وصف نفسه بأنه يشارك رومين رونالد رأيه الذي عبر عنه في روايته جان كرستوف وهو ان « يهود أوروبا الغربية يكوّنون طبقة ثقافية دولية انتشر بوساطتها من بلد الى آخر كل شيء حسن في الأدب والموسيقى والفن » .

أمضى شيبان عشر سنين يتجول في العالم حتى وصل الاتحاد السوفييتي والصين ، وقبل بعد ذلك مهمة كلفته بهـا صحيفة « فلسطين الجديدة » التي تصدر في نيويورك لزيارة فلسطين والكتابة عن انطباعاته عن التجربة الاستعمارية اليهودية فيها .

كان أول شيء أثارته فلسطين في الأميركي الشاب أنهـا تشكل جزءاً أساسياً من العالم العربي المحيط بهـا . وجد القدس ، حيث أقام، عربية كالقاهرة وبغداد ، واليهود الصهيونيين غرباء عنهـا مثله . عرف مما قرأ ان القدس القديمة لم تتغير ، وان القسم الأكبر من الصهيونيين سكان القدس يعيش في أحياء خارج أسوار المدينة ، وان معظم فلسطين لا يزال بلداً عربياً .

بلغ شيبان في ٩ يوليو ان صحيفة عربية ذكرت انه قدم الى فلسطين على نفقة اليهود ، فدفعه الغضب الى سؤال نفسه : « هل أنا مستخدم عند اليهود أم لا ؟ اذا لم أكن فلم الغضب،واذا كنت فماذا بعد ؟ امضيت نحو نصف ساعة حتى رأيت ان ان علي ان أقرر هل أكون كما قالت الصحيفة العربية واقبل اي تعايق على الموضوع أم أقطع صلتي بالصهيونية كلياً واسير في طريقي » ؟ وقد ورد في فكرته ما يلي :

«تميز يوم الثلاثاء بشيء لم أفعله من قبل ابداً . لقد تخليت عن الف وخمسمائة دولار ! »

أصبح شيبان قادراً على التجول في فلسطين كمراقب حرّ ولم يلبث ان توصل الى نتيجتين : « ان الصعوبة بالنسبة الى الصهيونية في جوهرها شيء واحد فقط هي محاولة استيطان بلد مستوطن ، وان تصريح بلفور وثيقة لا تضمن فعلاً سوى شيء واحد هو دوام الاحتلال البريطاني لفلسطين » .

بدت الامبراطورية البريطانية في سنة ١٩٢٩ راسخة كجبل طارق . وقد اعتبر شيبان فلسطين « أسوأ مثل لغدر بريطانيا بالمصالح العربية بعد الحرب . هؤلاء العرب ليست لهـم حقوق سياسية من أي نوع ، ولا برلمان أو مجلس تشريعي ، يحكمون بالمراسيم ، والقانون هو ما يريده المندوب السامي أن يكون » .

ان المشكلة الأولى ، اي استيطان بلد آهل بالسكان ، هي ما حيّر القيادة الصهيونية التي كانت قد توحدت في الوكالة اليهودية . كان العرب يملكون كل الأرض تقريباً ، ويزدادون عدداً وتعليماً وثراء . أما الصهيونيون فكان عليهم ان يغروا العرب ببيع الأرض ، أو يحصلوا على تشريع يضطرهم الى البيع ، أو ان يخرجوهم بالقوة بطريقة ما وفي وقت ما ، وإلاّ بقي اليهود محصورين في جزء صغير مما اعتبروه ، على اساس ما ورد في التوراة ، وطنهم الأبديّ .

من حسن حظ شيبان الصحافي (وان كان الحظ قد جلب له الألم) انه جاء الى فلسطين في سنة اتصفت بالعنف ، ولكن محادثة خاصة سببت له من الرجفة أكثر من الاضطرابات الدموية ، فلا بدّ من رؤية ذلك العنف وتلك المحادثة في مجالهـمـا .

صادف منتصف اغسطس الذكرى السنوية لهدم الهيكل الذي تنبأ المسيح بهدمه وجاء الإمبراطور تيطس فحقق تلك النبوءة . قام منذ الفتح الاسلامي على انقاض الهيكل وحائط المبكى الحرم الشريف الذي يضم الأقصى وجامع الصخرة . وقد اعتبر المسلمون ، طوال العصور ، اليهود من أهل الكتاب ، وسمحوا لهم بالصلا أمام حائط المبكى بينما أصروا على أنه جزء من الوقف الاسلامي. أعترف حاييم وايزمن بهذا الوضع القانوني في حديث جرى في اوائل العشرينات بينه وبين ملك ايطاليا وأورده في مذكراته بقوله : « ليس في فلسطين أماكن مقدسة يدعيها اليهود فعلاً ما عدا قبر راحيل الذي لم يكن في يوم من الأيام موضع نزاع . لا نملك حائط المبكى ولم نملكه منذ أن هدم الهيكل » .

أخذ اليهود المتطرفون في سنة ١٩٢٩ يدعون ملكية حائط المبكى . وقد وجد شيبان ان هذا الحائط بدأ يستولي على الرأي اليهودي . حتى اليهود الذين أعلنوا أنهم بلا عقيدة دينية لم يستطيعوا البحث في هذا الموضوع دون أن يتهيجوا . لم يريدوا

الحائط لأنفسهم أبداً كي يصلوا أمامه أو يبكوا أو يعلقوا العرائض ، ولكنهم شعروا أنه لا بدّ للشعب اليهودي في فلسطين من ان يمتلك مكاناً مقدساً ، وحائط المبكى هو الأثر الوحيد الباقي من الهيكل .

التقى شيبان في منتصف أغسطس بامرأة أميركية دعاها في كتابه « البحث في التاريخ » الآنسة (س) ، وان كان قد ذكر اسمها الحقيقي في الشهادة التي أدلى بها أمام احدى اللجان الملكية البريطانية ، سبق ان قابلها في احدى الدوائر الصهيونية ، وقد جاءت من تل أبيب الى القدس لتراسل « نيويورك تايمز » ، فأخبرته ان مئات من الحالوتزيم ، أو الرواد الشباب من حزب جابوتنسكي وعلى رأيه ، سيذهبون الى حائط المبكى بعد غروب الشمس مسلحين ليحدثوا المتاعب للعرب ، وقالت ان الشجار سيكون مفيداً جداً للقضية الصهيونية لأنه سيثير يهود العالم ويزيد تبرعاتهم للوكالة اليهودية . ثم دعته الى مرافقتها لمشاهدة ما سيحدث .

والواقع ان ذلك لم يزعج احداً سوى عدد من اليهود الشرقيين الذين كانوا منهمكين في الصلاة ، أما العرب فانهم في تلك المناسبة لزموا بيوتهم .

في مساء اليوم نفسه اجتمع شيبان والصحافية الأميركية على مائدة العشاء ، فقالت : « لن يحدث شيء من الضرر اذا ما اصيب بعض الناس » . حاول شيبان أن يقنعها بسوء عاقبة العنف ولكنها ضحكت ، فقال لها إنها قد قتلت ما تبقى في نفسه من عطف على الحركة الصهيونية .

بعد أسبوع تحقق ما تكهن به شيبان ، فقد أدت الاضطرابات في المدينة المقدسة الى مقتل تسعة وعشرين يهودياً وثمانين عربياً وجرح عدد كبير من الفريقين ، فغضب على الصهيونيين الذين كانوا كما اعتقد سبب الكارثة ، وصدمته ضراوة غضب العرب ، وأذهله ، عدم فعالية الحكومة البريطانية .

كان غضب العرب ضارياً لأن قليلين منهم فرقوا بين الآنسة (س) والحالوتزيم وبين المثاليين أمثال غوردون ، وازداد افتراضهم ان اليهود اسواء وان الخلافات بينهم مجرد تكتيك ، فأضاف ذلك الى العنف نغماً حزيناً . بقيت تعاليم غوردون قوية حتى أواخر الثلاثينات ، ولم يؤيدها أحد مثل يهودا ماجنس ، وهو يهودي ارستقراطي من سان فرانسيسكو هاجر الى فلسطين وأصبح مستشاراً للجامعة العبرية في سنة ١٩٢٥ ، وبعد سنين انتخب رئيساً لها . وكان قبل ذلك صهيونياً ولكنه انفصل عن الصهيونية الرسمية في سنة ١٩١٥ بالسرعة نفسها التي اعتنقها بها .

اختلف ماجنس مع زعماء الصهيونية الذين بينما انكروا ان تكون الدولة اليهودية هدفهم لم يتفقوا فيما بينهم على شيء سواها ، وشك في إمكان تأسيس دولة يهودية في فلسطين ، أو ان اسست كان ثمنها عنفاً لا نهاية له . وقد بدأ « رابطة سلام » للعمل

في سبيل دولة ثنائية القومية يشترك فيها العرب واليهود ، ووضع في سنة ١٩٣٠ رداً بليغاً على اولئك الصهيونيين الذين ارادوا خلق دولة يهودية كالدول القومية الأخرى :

« يبدو ان الرغبة في السلطة والفتح طبيعية لكثيرين من الناس والجماعات ، ونحن الذين كنا محكومين في كل مكان يجب أن نحكم هنا ، وأقلية في كل مكان يجب ان نكون أكثرية هنا . كنا في المنفى ، والآن سنكون أسياداً في وطننا . سيكون لنا وطن ، وسنشجع الشعور بالاعتزاز والشرف والمجد الذي قيل لنا إنه جزء من مقومات المحبة القومية العادية ... قيل لنا اننا حين نصبح أكثرية سنظهر كيف يمكن لشعب حاكم ان يكون عادلاً وكريماً. ذلك كرجل يقول انه سيفعل اي شيء وكل شيء حتى يغتني كي يستطيع عمل الخير بالمال الذي جمعه . قد لا يصبح احياناً غنياً فيسقط ، واذا أصبح غنياً في هذه الظروف تكون قدرته على عمل الخير قد ضعفت بسبب عدم الاستعمال » .

حدّد ماجنس بدقة جديرة بالذكرى السياستين المتناقضتين اللتين واجهتا اعادة بناء صهيون بقوله : « ترى احداهما أننا نستطيع تأسيس وطن قومي هنا بكبت مطامح العرب السياسية ، ولذلك سيكون بالضرورة وطناً قائماً على الحراب فترة طويلة . واعتقد انها سياسة مقضي عليها بالفشل لما ستجلبه من الغضب ضدنا ، ولأن الرأي السليم في بريطانيا وضمير الشعب اليهودي نفسه سيثوران علينا . أما السياسة الأخرى فترى اننا نستطيع تأسيس الوطن هنا اذا كنا صادقين مع أنفسنا كديموقراطيين ودوليين ، ومنصفين للآخرين ومساعدين لهم ، واذا كنا نطلب الحماية لحياتنا وممتلكاتنا بينما نعمل بحماسة وفطانة وإخلاص لا يجاد طريقة للعيش والعمل مع جيراننا . »

كان ماجنس محبوباً لدى العرب الذين عرفوه ، لكنهم عرفوا ايضاً ان معظم شعبه اليهودي كان يعدّ سياسته غير عملية .

اصبحت روح جابوتنسكي في الجانب اليهودي بعد ١٩٢٩ جزءاً أساسياً من من العمل الصهيوني . كان فلاديمير جابوتنسكي نقيض ماجنس في كل شيء . جاء ماجنس من المحيط الهادىء بينما جاء جابوتنسكي من أودسا الواقعة بين البحر الأسود الهائج وبين السهوب المُبرمة . راقت له ، شأن الأوروبيين الهاربين من أوروبا ، آراء هيرتزل العلمانية القومية ، وأمضى معظم حياته في المنفى بعيداً عن فلسطين . ان وجهة نظر الرجل المتطرف قد تجعل رؤيته للأمور قاسية مشوهة .

لاحظ جابوتنسكي ، خلافاً لكثيرين من المعتدلين ، ان في فلسطين عرباً وتكلم عن مضامين الاستيطان اليهودي بنفاق أقل . قال : « لم أنكر ان عرف فلسطين سيصبحون بالضرورة ، خلال العملية ، أقلية في البلد ، ولكن ما انكرته هو أن ذلك شاق » .

طالب جابوتنسكي ، لدعم استيطان اليهود ، بجيش يهودي . فعل ذلك وهو في

منفاه في انجلترا ، في شهادة أمام لجان مجلس اللوردات . وتحدث الى النبلاء البريطانيين فقال ان والاستعمار لا بدّ من ان يصدم بالسكان الاصليين ،ولذلك لا بدّ من حماية المستعمرين . وقابل اليهود في فلسطين بالمستوطنين البريطانيين في كينيا حيث يجبر كل أوروبي على التدريب العسكري لينضم الى قوة الدفاع عن المستوطنين ، وطلب ان يكون دفاع اليهود عن انفسهم قانونياً كما هو الحال في كينيا . أراد جابوتنسكي ان يرفع النقاب الذي كان المعتدلون يخفون وراءه نواياهم ، وقال ان واجب بريطانيا أن تكشف للعرب كل ما تنطوي عليه الصهيونية ، وان تعطى اليهود حق تشكيل قوة عسكرية لمعالجة الاستياء العربي ، وان كان شخصياً مقتنعاً بأن ذلك الاستياءسيتبخر إذا واجه العرب قوة أكبر كثيراً من قوتهم .

وإذ اصبح جابوتنسكي ، لاماجنس ، القطب الجاذب لليهود الذين ضايقهم هتلر ، وارتفع معدل الهجرة الى فلسطين ارتفاع لأبحة الحمّى ، ازداد العرب اقتناعاً بأن اليهود يهدأون الى أن تتوفر لهم القدرة على أخذ ما يريدون .

إزداد تخوف العرب حين بدا في سنة ١٩٣٦ أن بريطانيا ستتخلى عن موقف بيلاطس وتتخذ موقف سليمان . فقد وجدت لجنة جديدة يرئسها اللورد بيل أن الانتداب غير عملي ، واقترحت تقسيم فلسطين الى دولتين عربية ويهودية محتفظة لبريطانيا بمقاطعة في الوسط تضم القدس . في التوراة قصة عن تهديد سليمان بقطع طفل الى نصفين ادعت امرأتان انه طفلهما ليعرف من منهما أمه الحقيقية ، ولكن هذه الخطة لم تنجح في فلسطين لان الفريقين واجها سليمان البريطاني بثورتين ، فقد قام العرب بثورة مسلحة خلال السنوات الثلاث التي سبقت الحرب العالمية الثانية ، وقام اليهود بثورة في السنوات الأربع التي تلتها ، فأكدت الثورتان رأي الدكتور كنج ومستر جرين في سنة ١٩١٩ في انه لا يمكن تنفيذ البرنامج الصهيوني إلاّ بجيش كبير .

اندلعت ثورة العرب من صيف امتدت فيه الاضرابات احتجاجاً على استمرار تصاعد الهجرة اليهودية . اختار العرب وقتاً غير ملائم للتحدي ، فقد كانت بريطانيا تعيد تسليح نفسها استعداداً لمحاربة المحور الألماني – الإيطالي . أعداد كبيرة من الجنود والبوليس قاتلوا العرب بالقوة الحمقاء نفسها التي أظهروها بعد الحرب في قتال قبرس وعدن ، وكانت لذلك النتيجة المناقضة نفسها . بعد ان قاتلوا العرب وجلدوهم واعدموهم وجمدوهم أذعنوا لوجهة نظرهم . ذلك بأن بريطانيا اذ كانت تواقة الى ضمان هدوء العرب في الحرب القادمة التي كان على اليهود أن يؤيدوها شاءوا أم أبوا ، وضعت الكتاب الأبيض الذي لبّى أكثر مطاليب العرب . وعدت الحكومة البريطانية في الكتاب الابيض ان تسمح بهجرة ٧٥٠٠٠ يهودي

فقط خلال السنوات الخمس التالية على ان تقف الهجرة اليهودية بعد ذلك ، إلاّ اذا كان عرب فلسطين مستعدين للقبول بها . وكانت حجة بريطانيا في ذلك ان الوطن القومي اليهودي يكون ، بحسب مفهومها له ، قد تحقق في نهاية تلك الفترة ، وستبقى للعرب في فلسطين اكثرية نسبتها اثنان الى واحد .

على الرغم من انتصار العرب في الظاهر كان انتصارهم نكبة لهم . ذلك بأن قيادتهم قضي على معظمها ، وانهك مجتمعهم . سلبتهم الثقة بالكتاب الأبيض أي حافز الى عمل آخر . واذ استكانوا الى الهدوء المطلوب امضوا فترة حرب مربحة يستغلون بيارات البرتقال أو يعملون للبريطانيين . ثم ان الجيش العربي في الجانب الآخر من نهر الأردن قام بدور مهم في قمع ثورة في العراق ضد الهاشميين ، أما عرب فلسطين فلم يحصلوا على خبرة اخرى في القتال .

كان الكتاب الأبيض بالنسبة الى يهود كبن غوريون ، لم يبقوا سراً هدفهم الى تأسيس دولة يهودية ، مقوياً أكثر منه كارثة لأنه ركّز طاقاتهم ، وسممها ، وزادتها محنة يهود أوروبا حدّة . وكان ايضاً إشارة الى الصهيونية بانتهاء علاقتها الخاصة ببريطانيا الرسمية . وقد لخصت السياسة الجديدة في شعار : محاربة الكتاب كأنه لا حرب هناك ، والقتال في الحرب كأنه لاكتاب أبيض هناك .

كانت سياسة واقعية تامة وان كانت نفعية . وجد منذ العشرينات جيش يهودي سري هو جيش الهاجناه ، خدم ألوف من أفراده مع الجيش البريطاني في كل أنحاء الشرق فاكتسبوا خبرة وتدريباً قيمين . ومن أمثلة ذلك ان موشيه دايان اشترك في الغزو البريطاني لسوريا بعد انهيار فرنسا .

شعر بن غوريون السياسي أن مصدر القوة سيكون الآن أميركا ، لأن الحرب ستترك بريطانيا منهوكة مهما كانت نتائجها . لذلك امضى في الولايات المتحدة خلال الحرب فترة طويلة وهو يحاول الحصول على تأييد الحكومة الأميركية لتشكيل جيش يهودي في فلسطين ولأغراض الصهيونية العامة فيها ، ويعمل ايضاً بين الهيئات اليهودية المختلفة ليعيدها لطلب الدولة اليهودية بعد الحرب .

عمل بن غوريون في الولايات المتحدة وتوصل الى نتيجة كالتي توصل إليها وايزمن في انجلترا قبل ربع قرن ، وكان جزء من منجزاته عكس سياسة وايزمن القائمة على التحالف مع الانجليز . بقي وايزمن حتى النهاية يزدري الغوغائية ويمجد الاعتدال ، أمّا بن غوريون فلم يزدر شيئاً يمكن أن يحقق هدفه ، وقد تأكد انتصاره على وايزمن في المؤتمر الذي عقد في مايو ١٩٤٢ في فندق بيلتمور بنيويورك . في ذلك المؤتمر طلب زعماء الصهيونية وأعيان اليهود الذين حضروا من كل أنحاء اميركا رفض السياسة الرسمية البريطانية كلياً واعلان فلسطين دولة يهودية مستقلة لها

السيطرة على الهجرة . كذلك طلبوا ان تدفع ألمانيـــا تعويضات للدولة اليهودية ، وان يبدأ ذلك بالتنازل عن كل الممتلكات الألمانية في فلسطين .

واذ أصبحت نهاية هتلر معروفة ، لقيت مطاليب بن غوريون تأييداً عاطفياً مشوباً بالاجرام . كان حزب العمال شريكاً ثانوياً في حكومة الائتلاف البريطانية في زمن الحرب ، وقد عقد الحزب مؤتمره السنوي في سنة ١٩٤٤ وضارع جابوتنسكي (الذي مات في نيويورك سنة ١٩٤٠) في طلب نقل السكان : « ليشجع العرب على الخروج كي يدخل اليهود » . لقد تصور الزعماء المسيطرون على الحزب ان تعويضاً مالياً ومساكن في احد البلاد العربية الأخرى كافية لتشجيع العرب على ترك بيوتهم .

واذا كان جابوتنسكي قد مات فقد ترك وراءه تلميذه مناحيم بيغن الذي كانت له آراء أخرى مستمدة من اوروبا المحتلة وهي كيف يبعد بريطانيا ويخرج العرب . وصل بيغن الى شرقي الأردن في سنة ١٩٤٢ في زي جندي بولوني قادماً من روسيا عن طريق ايران ، وما لبث ان فرّ من وحدته العسكرية وتسلل الى فلسطين مصمماً على تطبيق أساليب الارهاب لينفذ برنامج جابوتنسكي بكامله . ألف بيغن عصابة « ارغون تسافي ليئومي » التي عملت الى جانب الهاجناه ، وتعاونت مع عصابة اخرى ألفها ابراهام شتيرن على ادخال وسائل العنف الى الأرض المقدسة بصورة مباشرة وواضحة ، وكانتا أكثر عنفاً ونجاحاً حتى من الإخوان المسلمين في مصر .

ان اليهود في قرارهم محاربة بريطانيا — التي كانت مصالحها في الشرق الأوسط راسخة — غامروا بقمع أقسى من الثورة العربية قبل الحرب . ولكنهم درسوا الظرف بأعين أكثر دهاءً مما يستطيع العرب تركيزه على عالم الحقائق . ذلك بأن بريطانيا وان انتصرت اسمياً في الحرب إلاّ أنها كانت متوسعة جداً وضعيفة . ثم ان التهديد بمقاطعة بضائعها في نيويورك قد يتلف اقتصادها الذي اضعفته الحرب ، وتحسن أحوالها يعتمد على المعونة الأميركية ، وقد يؤدي عدم موافقة اميركا على القيود التي فرضها الكتاب الأبيض على الهجرة إلى الحدّ من تلك المعونة . كذلك عرف الزعماء الصهيونيون شيئاً على زعماء العرب ان يتعلموه وهو ملاحقة الهدف على عدة مستويات في آن واحد . في الخارج مثل وايزمن اعتدال رجل الدولة الراشد ، وفي فلسطين اظهر بن غوريون عدم الاعتدال المدروس ، وعمل جيش الهاجناه مع الوكالة اليهودية وكان مسؤولاً في الغالب عن اعمال الدفاع ، بينما هاجمت عصابتا أرغون وشتيرن اهدافاً أقرها الرأي العام المعتدل بعنف أدانه على الأقل من اجل السجلّ .

من الصعب الكتابة عن فترة الاضطرابات التي بدأت في نهاية الحرب دون تحيز . قليلون فعلوا ذلك . اذا كان الكاتب مؤيداً لليهود أظهر بريطانيا المهتمة بالبترول العربي فقط ضالعة مع المتعصبين العرب المهتمين بالقتل والسلب لحرمان ضحايا المذابح النازية ملجأ ، ومن هنا جاءت سلسلة الاغتيالات التي بدأت باللورد موين وزير الدولة البريطاني في القاهرة في سنة ١٩٤٤ وانتهت بالكونت برنادوت وسيط الأمم المتحدة ، وكانت تجاوزات قومية حتم بها رفض الاعتراف بما يدعيه اليهود من حق في فلسطين . واذا كان الكاتب مؤيداً للعرب أظهر ان العرب طردوا من ارض اجدادهم التي ملكوها قروناً بتواطؤ الغدر البريطاني والعنف الصهيوني . ثم ان الصحافيين ورجال الدولة البريطانيين كانوا مستاءين مما اعتبروه انكاراً يهودياً للجميل ، وحمل مقتل اللورد موين مستر ونستون تشيرشل على التفكير في مجلس العموم في إمكان تعديل تأييده للقضية الصهيونية الذي دام طوال حياته ، وأدى اغتيال رقيبين بريطانيين الى تفجر اللاسامية في بريطانيا وبين الجنود البريطانيين في فلسطين . لا متعة في سرد أعمال العنف اليومية التي ارتكبها الفرقاء الثلاثة في النزاع . اذا وضع نمر ودب في قفص واحد فلا بدّ من ان يغافلا الحارس ويقتتلا ، واتّهام العرب واليهود بالعنف والبريطانيين بالتّردد إنما هو كإلقاء اللوم على المصيدة أو تقريع الكرسي الكهربائي .

تقع جذور الإجرام في الماضي . حلم تيودور هيرتزل بشيء دون ان يحسب كلفته من الآلام البشرية . وأسوأ من ذلك ان الحكومة البريطانية وعدت بشيء ليس في حوزتها فريقين مختلفين ، الفريق المالك له فعلاً والفريق الذي ملكه فيما مضى ، فكان الانتداب الذي فرض لتنفيذ تلك الصفقة القائمة على الخداع ، منذ البداية، كمهمة «أليس» في أرض العجائب. ظهر في سنة ١٩٤٧ ان الانتداب غير عملي ، وأنه غير مربح لبريطانيا ، فعادت الى دور بيلاطس ، وتخلت عن المسؤولية التي طلبتها يوماً ، وأرجعت الانتداب الى الأمم المتحدة لأنها الخلف القانوني لعصبة الأمم .

كانت عصبة الأمم في سنة ١٩٤٧ لا تزال في دور طفولتها ، اعضاؤها من الدول العربية قليلون ، وأكثر البلاد الأفريقية والآسيوية غير مستقلة ، ودول اميركا اللاتينية تابعة للدول المؤسسة . لذلك كان نفوذ الولايات المتحدة في المنظمة الجديدة طاغياً،فعينت الجمعية العمومية لجنة خاصة لزيارة فلسطين ووضع تقريرعنها، فأوصت أكثرية اللجنة بمشروع لتقسيم فلسطين ، وأوصت الأقلية بمشروع دولة فدرالية ، وقد منح مشروع التقسيم اليهود أكثر من نصف مساحة البلد من ضمنها السهل الساحلي الخصيب والجليل الشرقي ، وتركت البقية للعرب ، أما القدس فقد

اوصت اللجنة بأن تكون منطقة دولية تديرها الأمم المتحدة .

عارضت مشروع التقسيم الدول العربية الخمس الاعضاء في الامم المتحدة على أساس أنه ينكر حق الأكثرية العربية في تقرير مستقبلها ، وقبله حتى أكثر اليهود تطرفاً لأنه كان خطوة عملية أولى في حلم جابوتنسكي . أجل التصويت على المشروع مراراً حتى تتوفر أكثرية ثلثي الأعضاء اللازمة لإقراره . سجل وزير الخارجية ، سمنر ويليس ، ما يلي : « بأمر مباشر من البيت الأبيض فرض المسؤولون الأميركيون كل نوع من الضغط ، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ، على تلك الدول خارج العالم الاسلامي التي عرف أنها مترددة أو معارضة للتقسيم . وقد استخدم البيت الأبيض الممثلين أو الوسطاء للتأكد من ضمان على الأقل الأكثرية اللازمة » .

كانت الأصوات الأخيرة الحاسمة أصوات ثلاث بلاد بعيدة عن الشرق الأوسط جاهلة بتعقيداته وهي الفيليبين وليبيريا وهاييتي ، وقد اقنع مونروفيا هارفي فايرستون صاحب أكبر مزارع المطاط في ليبيريا ، كما اقنع بورت–أو–برنس ادولف بيرل مستشار الرئيس الهاييتي .

اذا كان المشروع غير مقبول لدى العرب ، فقد كان غير عملي بالنسبة الى الجميع ما عدا الملائكة والسويسريين . لم تقدم الجمعية العمومية أي اقتراح بكيفية قيام الدولتين العربية واليهودية المتشابكتين، أما بريطانيا التي امتنعت من التصويت. فقد أعلنت التخلي عن الانتداب في ١٥ مايو ١٩٤٨ ، وبدلاً من أن تخطط لانتقال منتظم منعت الطرفين من إقامة نواة إدارة للدولة سلفاً ، وبذلك تركت اليهود في وضع أفضل من العرب لأن الوكالة اليهودية وجيش الهاجناه كانا متقدمين على أي شيء تحت تصرف العرب .

تبنت الجمعية العمومية مشروع التقسيم في ٢٩ نوفمبر بأكثرية ثلاثة وثلاثين صوتاً ، ومعارضة ثلاثة عشر صوتاً ، وامتناع عشرة من التصويت . استمرت الإدارة البريطانية ، خلال الأشهر الخمسة ونصف الشهر التي تلت ذلك ، تعمل في جو من العنف. ربما وصل البريطانيون الى نتيجة يائسة هي ان العنف وحده قد يسوي القضية ، فان كان ذلك فربما كانوا يفكرون على اساس خبرتهم في الهند حيث أعلنوا موعداً لرحيلهم وبذلك أجبروا الهندوس والمسلمين إما على التوصل الى حل أو ايجاد حل بعد فترة من المذابح . ويبدو أن الروس تصوروا في ذلك الوقت ان البريطانيين سيخرجون بمهارة ميكافيلية من باب البحر الأبيض المتوسط ليعودوا مع العرب الظافرين عن طريق شرقي الأردن ، فان كان ذلك فقد كانت لدى الروس صورة غامضة جداً عن القوى المتنافسة . إن العمل العسكري العربي كان يفتقر الى الرؤية الاستراتيجية بينما كان العمل العسكري اليهودي منسجماً

مع خطة طوارىء أعدت منذ زمن طويل . اشترك الهاجناه في حرب دفاعية لتوحيد المناطق المخصصة للدولة اليهودية ، بينما اتبع الإرهابيون الصهيونيون طرقهم الخاصة لحمل العرب الذين كانوا يشكلون خمسين بالمائة من سكان الدولة اليهودية على الرحيل . ليس من العدل أن نربط أكثرية الزعماء اليهود بالإرهاب وان كانت السياسة العامة القائمة على تشجيع العرب على الرحيل قد أفادتهم ، ولكن أوروبا الغاضبة المختلة ارسلت الى فلسطين متطوعين جدداً كان سكان فلسطين الأصليين غرباء عنهم تماماً كما كان الجزائريون غرباء عن الفرقة الأجنبية (وأكثر افرادها نازيون سابقون) التي بدأت أول مراحل صراع استعماري طويل في شمال أفريقيا .

لم يكن قد مضى على مناحيم بيغن ، قائد أرغون والمدافع عنها ، سوى ست سنين في فلسطين حين قام جنوده بعمل استنكره الكاتب اليهودي جون كيمشي واعتبره « أسود بقعة في السجل اليهودي » ، بينما دافع عنه بيغن واعتبره « نصراً » لولاه لما تأسست الدولة اليهودية » .

زار جاك دي راينير ، ممثل الصليب الأحمر في القدس ، في ١٠ ابريل ١٩٤٨ قرية ديرياسين العربية الصغيرة القريبة من المدينة المقدسة ، فاكتشف في هذه الزيارة وفي ثلاث زيارات لاحقة خلال اليومين التاليين جثث مائتين واربعة وخمسين رجلاً وامرأة وطفلاً من المدنيين ملقاة في آبار القرية أو مبعثرة على مقربة منها . وكان بين الباقين من أهل القرية أربعون طفلاً يتيماً أخذتهم امرأة يهودية غير صهيونية الى بيت أنا سبافورد للأطفال في القدس ، وكانت المسؤولة عنه . حين اقتربت من أحد الأطفال صرخ قائلاً : « انها واحدة منهم » ، واصابته نوبة قلبية طرحته أرضاً ومات على أثرها . ارسل بن غوريون برقية الى الملك عبد الله يعرب فيها عن أسفه على ما حدث في ديرياسين ، فأغضب بذلك كثيراً مناحيم بيغن الذي كان يؤمن بمنطق العنف ويشاركه فيه اليهود الذين فروا من اوروبا الشرقية. لا ريب أن ديرياسين ، هيروشيما المصغرة، ساعدت على تحقيق المراحل الأولى من برنامج جابوتنسكي ، فقد كتب بيغن قائلاً : « لقد بدأ العرب يفرون » ، صائحاً : « ديرياسين ! ». أما العرب فلم يصغوا الى الهيئة العربية العليا التي طلبت منهم البقاء في اماكنهم ، فهرعوا غير مسلحين ودون قيادة فعالة الى الطرق التي تؤدي بهم إلى خارج منطقة القتال،وقبل ان ترسل الدول العربية جندياً واحداً للدفاع عنهم كان اربعمائة ألف منهم قد هربوا من بيوتهم . ان وجود أكثرية عربية كان دوماً عقبة في سبيل دولة يهودية ، وقد وصف حاييم وايزمن الذي انتخب اول رئيس لاسرائيل الأمر الواقع بأنه : « اخلاء معجز للأرض ، وتسهيل معجز لمهمة اسرائيل » . وفيما يتعلق بالعرب الذين رحلوا الى البلاد العربية المجاورة ،

فإنهم لم يظهروا من المقاومة أكثر مما أظهر اليهود للسفاحين النازيين في اوروبا ، واثبتوا أنهم جيل مصعوق . ظلوا في خيامهم في الأردن وفي اكواخهم في لبنان يرددون كيف فقدوا بيوتهم ، أما أطفالهم الذين خرجوا معهم يتعثرون ، أو محمولين على ظهور آبائهم وصدور أمهاتهم ، فقد استنتجوا درساً واحداً فقط وهو أنهم بالقوة والإرهاب جردوا من املاكهم . واذ مرت الأعوام ، واصدرت الجمعية العمومية قرارات واحداً بعد الآخر تؤكد حقهم في العودة أو التعويض وتعيد تأكيده ، واذ عاشوا على الصدقات ، واغتصبت أراضيهم في غيابهم وأعطيت مزارعين جدداً ولدوا في أماكن بعيدة عن فلسطين ، فقد اصبح الجيل الذي ولد بعد سنة ١٩٤٤ من تلاميذ بيغن الكارهين له كما كان بيغن من تلاميذ اوروبا النازية المبغضين لها .

الكتاب التاسع

هيكل جانوس

« علينا أن نكوّن جزءاً من سور للدفاع عن أوروبا في آسيا ، مركزاً أمامياً للحضارة ضد البربرية » .

تيودور هيرتزل
الدولة اليهودية

« أيمكن ان نتجاهل ان هناك دائرة عربية تحيط بنا ، وان هذه الدائرة منا ونحن منها ؟ أيمكن ان نتجاهل ان هناك قارة افريقية شاء لنا القدر أن نكون فيها ، وعالماً اسلامياً تجمعنا وإياه العقيدة الدينية وحقائق التاريخ ؟ »

جمال عبد الناصر
فلسفة الثورة

الفصل الاول

يقع هيكل جانوس القديم ذو البوابة المقدسة عند الطرف الشمالي الشرقي من السوق الرومانية ، وللإله الذي يؤويه هذا الهيكل عارضان متناقضان احدهما يواجه الشرق والآخر يواجه الغرب . كان هذا الهيكل يغلق في وجه المتعبدين في أيام السلم ، ولذلك فإنه لم يغلق خلال سبعة قرون ونصف قرن قبل ولادة المسيح سوى أربع مرات .

في منتصف ١٩٤٨ كانت البوابة مفتوحة على مصراعيها فيما كان يعرف بالامبراطورية الرومانية الشرقية وما دعاه الغرب الشرق الأوسط ، ولكن روح المنطقة كانت لا تزال تبدو في اتجاهين .

في ١٤ مايو غادر فلسطين آخر مندوب سام عن طريق حيفا قبل الموعد المحدد بيوم واحد ، وفي مساء ذلك اليوم خاطب بن غوريون حشداً من الرجال والنساء في متحف الفن العصري في تل أبيب ، معلناً تأسيس دولة يهودية مستقلة دعاها « اسرائيل » .

لم يعين بن غوريون الحدود الجديدة لهذه الدولة . كان هيرتزل قد اقترح هضبة الأناضول في الشمال وقناة السويس في الجنوب كحدين ملائمين ، ولكن مشروع تقسيم ١٩٤٧ كان أقلّ امتداداً لأنه منح اليهود اكثر من نصف فلسطين الواقعة تحت الانتداب فقط . وفي الوقت الذي خطب فيه بن غوربون كانت السلطات اليهودية قد اخرجت الفلسطينيين من عدة مناطق مهمة مخصصة للدولة العربية . وقد ادعى بن غوريون بصراحة الشيخوخة ، بعد تسعة عشر عاماً ، أن تكتمه في مسألة الحدود كان مقصوداً ، لأنه كان يفكر في طفولة الولايات المتحدة التي كانت مؤلفة من مناطق قليلة على ساحل المحيط الأطلسي ثم قدر لها أن تمتد عبر القارة خلال قرن .

وقف البريطانيون الذين لم يعدوا اي انتقال منتظم لسلطة يراقبون من الجانبين .
كان القرويون وسكان المدن العرب الهاربون من خطوط القتال الى لبنان والأردن يفكرون في العودة بعد أسبوع أو شهر حين تهدأ الأمور . في القاهرة وبغداد ، وفي لبنان والحجاز ، تجمّع الناس حول الراديو في المقاهي ، وطلعت الصحف بعناوين كبيرة ، وقام الواعظون في المساجد وزعماء الطلاب في الصفوف ، يطالبون جميعاً بتأييد الفلسطينيين . كذلك باعة الفائض من العتاد الحربي عرضوا بضائعهم .

في اليوم نفسه أمر الملك فاروق جيشه بالتلفون من قصر عابدين بعبور القناة التي فتحها جده . وكان مرشد الإخوان المسلمين ثاني رجل في مصر ، ويقول البعض أول رجل ، قد أرسل متطوعين لمساعدة الفلسطينيين ، يقومون للعرب بما تقوم به عصابتا أرغون وشتيرن لليهود ، وكانوا قد تلقوا تدريباً أولياً على أيدي ضباط متعاطفين مع حركة الإخوان . وفي ضواحي القاهرة ودّع ضابط طويل وقور ، زوجته وطفلتيه الصغيرتين وانضم الى كتيبته التي ستغادر محطة السكة الحديد بالقاهرة الى سيناء . إنه جمال عبد الناصر الذي رقي الى رتبة رائد قبل أربعة أيام . في ليلة ١٦ مايو وصل القطار المزدحم بالجنود الى القناة ، وعبر جسراً معلقاً الى سيناء ، ووصل في الصباح الباكر الى مدينة رفح على الحدود المصرية الفلسطينية . كان الجنود بلا طعام ولا وسائل للنقل ، فاستأجر لهم اللواء محمد نجيب العامل في قوة الحدود شاحنات من السكان العرب . اما سلاحهم فكان بنادق قديمة دون تأييد جوي . دخل الجيش المؤلف من أربعة آلاف رجل مدينة غزة بسهولة ، وتقدم قسم منه عن طريق بئر السبع للاتصال بالجيش الأردني في منطقة الخليل . وفي القاهرة تغنت عناوين الصحف بالقوات المصرية الزاحفة كأنها عربات رعمسيس .

اتجهت افكار فاروق العسكرية ، في قصر عابدين الهادىء الكئيب ، لا الى رعمسيس بل الى جده ابراهيم باشا ، رجل الأسرة العسكري الذي قطع بجيشه الصحراء وحرر فلسطين وسوريا من السيطرة العثمانية . خالف فاروق بارساله الجيش الى فلسطين رئيس وزرائه النقراشي باشا الذي تردد في ذلك لأنه كان يدرك عدم كفاءة الجيش المصري المؤلف من عشرة آلاف جندي لم يشتركوا في حرب فعلية من قبل .
كان فاروق، القائد الأعلى للجيش المصري، في الثامنة والعشرين من عمره، يزن أكثر من مائتين وخمسين رطلاً ، وليس فيه ما يدل على الجندي سوى ذلك . ورث العرش في سنة ١٩٣٦ وهو طالب يدرس في انجلترا ، واستهل حياته كملك بخطاب بالعربية الفصحى وجّهه الى شعبه وأعرب فيه عن اهتمامه بسعادته ، فكان مؤثراً كالخطاب الذي ألقاه الملك ادوارد الثامن في الوقت نفسه . ثم تزوج فتاة مصرية جذابة تدعى فريدة ذو الفقار ، ولم يمض على زواجه سوى عشر سنين حتى دفن الطالب في اللحم المتورم .

ساعد المقربون الى القصر ، وأكثرهم من الإيطاليين ، على فساد الملك فاروق . ذلك بأنهم شجعوا الملك الشاب على الانغماس في النزوات الجسدية (باستثناء شرب الخمرة) ، فحاز الذين يوفرون له النساء والطعام المشهي ثقته وابعدوا نظره عن أعمالهم . ولكن فاروق سمن بسرعة وزاد نتوء بطنه ، وكان علاوة على ذلك غير مهيء لدور كازانوفا ، فانقلب الى تنتالوس يسعى للمذات عسيرة عليه . كان يمضي

ساعات الليل في لعب القمار أو في مشاهدة هزّ البطون في اوبيرج الأهرام ، ويرجع مترنحاً الى فراشه المزخرف عند الفجر . فينام معظم النهار ويؤخر أعمال الدولة الى ما بعد الظهر ، وذلك أمر كان يزعج وزراءه .

بيد أن شيئاً أكثر من الملذات الجسدية حطّم هذا الملك الذي كان ينتظر لـه مستقبل باهر . كانت نفس فاروق فاسدة بقدر ما كان لحمه منتفخاً . خلال الحرب العالمية الثانية كانت مصر ، كما في الحرب العالمية الأولى ، تحت تصرف بريطانيا لكن على أسس مختلفة ، فقد أصبحت عضواً في عصبة الأمم وحليفة لبريطانيا لا محمية . اراد رئيس الوزارة المصرية ان يرضي البريطانيين فقطع علاقات مصر بحكومة فيشي في فرنسا ، فأسخط بذلك الملك فاروق . واذ أراد فاروق ان ينتقم منه ، ورأى رومل يتقدم في الصحراء الغربية ، قرر تعيين صديقه علي ماهر رئيساً للوزارة . وفي ٣ فبراير ١٩٤٢ زار السفير البريطاني المتغطرس ، سير مايلز لامبسون، قصر عابدين وطلب من فاروق تعيين مصطفى النحاس باشا ، رئيس الوفد ، رئيساً للوزارة بدلاً من علي ماهر باشا . كان اختيار النحاس غريباً . ذلك بأن سجل الوفد في إثارة الشعور ضد بريطانيا يرجع الى يوم ألفه سعد زغلول في سنة ١٩١٨ ، وموقفه من الحرب كان واضحاً اذ قاوم السياسة البريطانية في مصر وطالب بإعلان القاهرة « مدينة مفتوحة » ، ولكن لامبسون قدر ان للوفد من الهيبة ما يمكنه من تحويل المصريين الى تأييد الحلفاء . واذ كان فاروق غير مبال بهذه الحجة ، بل غاضباً على الضغط البريطاني السافر ، فقد تردد في ذلك . في الصباح أرسلت السفارة البريطانية إنذاراً جاء فيه : على الملك ان يعين النحاس في الساعة السادسة مساءً وإلاّ تحمل المسؤولية . لكن فاروق لم يفعل شيئاً . وفي الساعة التاسعة مساءً ذهب لامبسون الى قصر عابدين ، وهو رجل له جسم دب كبير وأنف ثور ، ومعه ثلاث دبابات خفيفة ، يصحبه قائد الجيش البريطاني في مصر وضابطان من جنوب افريقيا .

أمر فاروق حرسه ألاّ يقاوموا . تقدم لامبسون وسأل باللغة العامية : « أين الولد »؟ عرض أحد الحجاب أن يأخذه الى صاحب الجلالة ولكن السفير دفعه قائلاً : « أعرف الطريق » .

دخل لامبسون على فاروق وفي جيبه وثيقتان كان على فاروق ان يختار احداهما ، وثيقة تنازل عن العرش ومرسوم بتعيين النحاس ، فوقع فاروق الغاضب الوثيقة الثانية ، وبذلك وقّع رخصة موت أسرته ، والنفوذ البريطاني في مصر ، والحكم الدستوري .

لم يستطع المصريون بعد ذلك ان يعتبروا الملكية رمزاً للاستقلال ، فقد اتضح ان البريطانيين محتلين لا حلفاء . فاز خليفة زغلول فقط بنصر موقت ، ولكن تعرض

النحاس للشبهة بقبول الحكم على يد لامبسون أدّى في النهاية الى القضاء على البرلمان وعلى حياته السياسية .

كان للحادث تأثير مباشر في فاروق . لو أنه تنازل أو قاوم لأصبح بطلاً ، وربما شهيداً ، ولكنه بقي كموظف بريطاني . كان له قصران في القاهرة ، وآخران في الاسكندرية ، وبيت ريفي في أنشاص ، واستراحة عند الأهرام ، وعشرات الألوف من الأفدنة الخصبة ، ولكنه فقد احترامه لنفسه واحترام شعبه له .

كان فاروق نقطة في مثلث القصر والسفارة والبرلمان ، وقد رأى في سنة ١٩٤٨ أن هذا المثلث بدأ ينهار ، أي نقطة فيه لا تتحمل الضغط . ولم يكن واهماً في ذلك ، حتى لقد قال منكتاً : « قريباً لن يبقى سوى خمسة ملوك : ملك انجلترا وملوك ورق اللعب الأربعة » .

بيد أن ملك انجلترا كان يرئس امبراطورية منحلة . فقدت في ١٩٤٧ أجمل جواهرها ، الراج الهندية ، وانفقت في الحرب احتياطيها ، واصبحت خزانتها مدينة أكثر من الخديوي اسماعيل ، وما زال الطعام مقنناً في بلدها . لم تخمد بريطانيا الثورة اليهودية بعد الحرب كما أخمدت الثورة العربية قبلها ، إما لأنها لم تستطع أو لأنها عادت لا تهتم بالطرق المؤدية الى القناة بعد ان استقلت الهند وباكستان . (كان تنازل بريطانيا عن فلسطين دليلاً على انكماش مطامحها في الشرق الأوسط) . سرّ ارتباك بريطانيا فاروق الرجل ، وأقلق فاروق الملك الذي قد يخلع . اذا ساءت الأمور كانت القاعدة البريطانية في منطقة القناة تمثل على الأقل طريقاً للنجاة . لكن اذا ساءت الأمور ، وقامت ثورة ، فإنها لن تأتي من السياسيين . ذلك بأن قيمة البرلمان كانت متدنية كالسفارة والقصر . كان الوفد لا يزال أقوى ضرس في فجوة فك كامل الأضراس ولكنه ضرس نخر ، عضّ فاروق فأخذ يتوق الى الثأر . وقد كان فاروق مقامراً ايضاً ، وحلم المقامر بالربح يحضن إمكان الخسارة . كان الوضع وضع مقامر ، كل نقطة في المثلث تعمل مستقلة عن الأخرى : البريطانيون يدافعون عن قواعدهم ، ورجال السياسة عن مكاسبهم الخاصة ، وفاروق يغامر في سبيل المجد .

كان الأرجح ألاّ تنجح تلك المقامرة ، ولكن فاروق كان يائساً ، اذا أيّد القضية الفلسطينية كسب حلفاء جدداً ، لا من النوادي القديمة لأن رجال الطبقة القديمة اعضاء نادي السيارات الملكي ونادي الجزيرة ونادي محمد علي كانوا يفزعون من المغامرات ، كما كان أكثرهم أجانب لا يعنيهم الأمر ، ولكن كانت هناك قوة تحتل مركزاً وسطاً ، ولها شيء من التأثير في الجماهير المصرية ، وهي جماعة الإخوان المسلمين الذين يرئسهم المرشد الأكبر حسن البنّا .

انه لمن السخرية في الظاهر أن تجمع بين الرجلين قضية واحدة ، فقد كانت هناك

هوة تفصل المرشد الزاهد عن الملك الأوروبي المزيف المنصرف الى الأكل والفسق ولعب الورق . ولكن كانت بينهما جسور . كلاهما أراد مقاومة البريطانيين ، ولم ينكر أي منهما أسطورة الآخر . كان فاروق يؤدي واجباته الدينية ، وتؤخذ لـه الصور اسبوعياً بعد صلاة الجمعة ، ولا يشرب الخمرة ، حتى ان النحاس باشا نفسه قال في فترة انحراف ان قصر عابدين أصبح القبلة الثانية بعد مكة . ربما ذكر هذا الملك فاروق بحلم أبيه بالخلافة . ثم ان جامعة الدول العربية التي اسست في سنة ١٩٤٥ بناء على اقتراح مستر أنطوني ايدن ، وزير الخارجية البريطاني ، هيأت له مجالاً للتأثير اوسع مما عرفه أبوه . فاذا تمسك الملك بالاسلام ، تمسك الإخوان المسلمون بالعرش . حين انتقل البلاط الى الاسكندرية في الصيف بعد الحرب ، اصطف كشافة الإخوان على الأرصفة التي مرّ أمامها ركب فاروق . وفي المؤتمر الأول الذي عقده الإخوان بعد الحرب لخصوا مطاليبهم السياسية (ومن ضمنها مقاومة بريطانيا) وأعربوا عن ولائهم لفاروق . أما وقد اتفق الإخوان على الإرهاب فقد استطاعوا أن يتفقوا مع الملك الفاسد .

ان الملك والإخوان كانوا بتأييدهم الفلسطينيين يستجيبون لمشاعر قوية عمت العالم العربي . بيد أن ما لم يعرفوه هو ضعف جيشهم وقوة اليهود .

الفصل الثاني

كان فاروق مقامراً فاشلاً . أما الإسرائيليون فقد استغلوا بمهارة هدنة منتصف الصيف ، وطافوا أوروبا لشراء السلاح ، وحاربوا مدركين انه ليست وراءهم بغداد أو القاهرة يتراجعون اليها ، فاندفعوا الى النقب في اكتوبر وفصلوا المصريين عن الأردنيين ، وكانوا قد احتلوا قبل ذلك منطقة الجليل بأسرها تقريباً ، بينما كان الملك عبد الله يخطط لضم ما تبقى من فلسطين العربية الى مملكته . ولكن المصريين في الجنوب قاوموا بعناد ، ومنع تمسكهم بالفالوجة وعراق المنشية الاسرائيليين من احتلال غزة . وفي ٢٨ ديسمبر شنّ المقدم جمال عبد الناصر هجوماً معاكساً حاسماً من عراق المنشية مكن المصريين من تحمل الحصار حتى انتهت الحرب بهدنة ٢٤ فبراير ١٩٤٩ . بيد أن هذا النصر الدفاعي الصغير كان أقل كثيراً من النصر الذي احتاج اليه فاروق ليرفعه الى درجة ابراهيم باشا . لم تكن الأمور في الداخل أفضل من ذلك . أخطأ في طلاق الملكة فريدة التي كان الناس يصفقون لها كلما ظهرت بينما راحوا يطلقون أصوات الاستنكار كلما ظهرت صورة الملك على شاشة السينما . لم يعد الملك قادراً على التجوّل في سيارته المكشوفة ، وصار يتنقل في العاصمة بحماية البوليس .

كان المجتمع المصري يتصدع بأسرع من طلقات البندقية . قتل خليفة راسل باشا في رئاسة البوليس خارج الجامعة ، ونجا النحاس باشا بأعجوبة من محاولات مماثلة . في آخر أسبوع من ديسمبر اقنع النقراشي باشا ، رئيس الوزارة ، الملك بضرورة القضاء على الإخوان المسلمين ، وبعد ثلاثة أيام بينما كان جمال عبد الناصر يقوم بهجومه المعاكس في النقب قتل النقراشي في مجلس الوزراء . قتله احد الإخوان المسلمين متستراً بلباس بوليس . اتخذ رئيس الوزراء الجديد ، إبراهيم عبد الهادي باشا ، من قمع الإرهاب مبرراً لفرض دكتاتورية حقيقية ، وبعد اسابيع قليلة اطلق رجال البوليس في ألبسة مدنيين النار على المرشد الأكبر ، حسن البنّا ، في احد شوارع القاهرة الهادئة فأردوه قتيلاً .

كانت مصر كئيبة كتركيا في سنة ١٩١٨ ، ولكن الأتراك كانوا واقعيين يميزون الكارثة حين يرونها ، أما المصريون فكانوا يزينون النكسات بالخرافات . لقد أخفى الانتصار في الفالوجة استيلاء اسرائيل على قسم كبير من فلسطين التي

خصصت للعرب ، كما أخفي الفشل المصري في حلّ مشكلة اصبح ثمن حلها في السنوات التالية باهظاً . بيد أنه جعل الشتاء مشرقاً ، واقيمت الاحتفالات للأبطال الظافرين ، ولكن جمال عبد الناصر إذ كان يعرف الحقيقة بدا في الاحتفالات متجهماً .

عرف رئيس الوزارة الحازم من التاريخ الأخطار التي تنجم عن الجيوش المقهورة ، وكان في الانقلاب الذي قام به الفريق حسني الزعيم في سوريا ما يذكره بذلك . كثرت الشائعات في مصر ، ووزعت منشورات تحمل توقيع « الضباط الأحرار » ، وتتضمن مظالمهم وهي السلاح الفاسد ، والقيادة العاجزة ، والفساد العام . وقد ربطت الشائعات الضباط الأحرار بالإخوان المسلمين ، ولم تكن مخطئة فقد كان محمود لبيب ، مستشار المرشد للشؤون العسكرية ، الصلة بين الفريقين والمشرف على تجنيد الضباط في حركة الإخوان .

ان الجيش الساخط وحركة الجماهير زادا الخطر . تحرى رئيس الوزارة أمر الضباط الأحرار ، وتكرر اسم الرائد ناصر أكثر من غيره ، فدعا بطل الفالوجة الى مكتبه ودار بينهما الحديث التالي :

— « أعرف عن جماعتك . واريد ان أعرف من ينتسب إليهم أيضاً . أتعرف محمود لبيب ؟ »

— « طبعاً . عملنا معاً من أجل الفلسطينيين » .

— « من قدمك إليه ؟ »

ذكر الرائد اسم نقيب في الجيش ، فسأله رئيس الوزارة : « اين نجد هذا النقيب » ؟ أجاب : « في الآخرة . مات في الحرب ! » كان باستطاعة المنظم الأكبر للضباط الأحرار ان يبتسم لتهديدات رئيس الوزراء الغاضبة ، لقد كذب بتوريطه رجلاً ميتاً لا يستطيع الكلام كي يحمي الصلة بينه وبين الإخوان الذي لا يزال حياً . ثم انه كان يمارس موهبة في الحيلة والدهاء تستحق التقدير ، ويتبع قواعد التآمر العادية ، في بلد يكثر فيه القيل والقال وانتشار الأسرار ، فمكنه ذلك من كتم المؤامرة التي ظلت تتفاعل سنة بعد أخرى دون ان يذكر احد عنها كلمة أو يفضح خائن أمرها . والواقع ان الضباط الأحرار الذين بلغ عددهم نحو الألف كانوا مؤلفين من خلايا كل خلية متصلة بالأخرى بضابط واحد . كانت ابتسامة ناصر الملطفة تخفي وراءها حذراً دائماً وشكاً بالفطرة ، ولكن نجاحه الأخير كمتآمر يرجع الى درجة سيطرته التي لا شك فيها على زملائه الذين كانوا مثله في المهنة والسنّ ، والى شعوره بمثل ما كانوا يشعرون واستجابته لحوادث شاركوه فيها جميعاً .

كان ناصر عادياً، وبمعان كثيرة رتيباً، نقائصه الوحيدة التدخين وشرب القهوة والسعي للسلطة ، وهي أمور شاركه اصدقاؤه فيها ، وقد قوّت هذه الحالة السوية

المهمة ظروف حياته وحوادثها الخاصة .

ولد في الاسكندرية حيث كان أبوه يعمل في دائرة البريد بعد ان انتقل اليها من قريته « بني مرّ » قرب أسيوط ، وكانت أمه من جنوبي القاهرة أيضاً ، فاكتسب منهما البنية القوية والطول المهيب والبشرة السمراء . حين بلغ الثالثة من عمره انتقلت الأسرة الى أسيوط ومنها الى الخطاطبة وهي بلدة على حدود الصحراء غربي القاهرة . كان طفلاً مفكراً ، واذ رأى رعاة الغنم قرب الخطاطبة لا يستطيعون أكل اللحم بينا يستطيع موظفو الحكومة الحصول عليه ، حيّره ذلك وسأل أباه عنه فكان جوابه : كذا الدنيا ! أرسله أبوه الى القاهرة ليلتحق بمدرسة ابتدائية ويعيش مع عمه ، فشعر بالحنين الى البيت ، ووجد العزاء في رسائل أمه . ولكن رسائلها انقطعت فجأة وهو في الثامنة من عمره ، وعمد أبوه الى الحيلة في إخفاء سبب انقطاعها . ولما نجح ناصر في الامتحان ورجع الى البيت لقضاء العطلة الصيفية أخبروه بموتها فكانت صدمة تركت أثرها في حياته ، وجعلته منطوياً على نفسه ميالاً الى كثرة التفكير .

ينضج الأطفال في مصر مبكرين . ولما بلغ ناصر الثانية عشرة من عمره بدأ يشترك في التظاهرات . وحدث في تلك الفترة ان طالب النحاس باشا ، بدعم من البرلمان ، إنهاء الاحتلال البريطاني ، فتدخل الملك فؤاد وحلّ البرلمان ، ووضع في رئاسة الوزارة بقوة البوليس أحد رجال السياسة ، فقام الطلاب بالشغب في شوارع المدن المصرية ، وكان ذلك بالنسبة الى ناصر بداية انهماكه في السياسة شأن أبناء جيله .

كان ناصر حين لا يصرخ « فليسقط الإنجليز » يحيك نسيجاً باطنياً زود حياته بأخيلتها الموجهة . وبما أن الشرق شخصي فقد كان يسكنه الأبطال والأوغاد . وكان البريطانيون الفكتوريون يحبون الأبطال أيضاً ، وقد قدم المستشارون منهم في وزارة المعارف المصرية لناصر احد أبطاله الأوائل ، وهو الأميرال نلسون في سيرة حياته المعدة لطلاب المدارس . أعجب ناصر بالفتى البحّار الذي خاطر بحياته لإنقاذ زميله (١) ، وسرّه تحطيم نلسون للأسطول الفرنسي في « أبو قير » ، وكان قبل ذلك قد ساءه احتلال نابليون لبلده ، ولكنه ما لبث ان اكتشف ان البريطانيين أكبر أعداء الحرية المصرية . ولما بلغ السادسة عشرة من عمره بدأ تأليف رواية عنوانها « في سبيل الحرية » ، تظهر الفصول الستة التي أكملها منها تأثره البعيد بوولتر سكوت ، ولكن الموضوع كان نجاح المصريين على البريطانيين في روزيتا سنة ١٨٠٧ .

كان أعظم بطلين في حياة ناصر في صباه النبي محمد والمهاتما غاندي، وكلاهما غير أوروبي . ولكنه رأى النبي أيضاً من خلال نظرة كاتب أوروبي هو توماس كارلايل

(١) هذه المعلومات عن أبطال ناصر في صباه مستمدة من حديث مع ناصر نفسه .

الاسكتلندي الذي اختار في كتابه « الأبطال وعبادة البطل » النبي محمداً نموذجاً للبطل كنبي ، فغيّر نظرة الغرب اليه ، وسرّ المسلمين ان يجدوا مؤرخ الثورة الفرنسية يعظم نبيهم ويجعله صانعاً للتاريخ. لقد اعجب كارلايل باخلاص النبي ، بينما اعجب ناصر بصبره اذ استمر في أداء رسالته سنوات طويلة على الرغم من قلة أصحابه خلالها.

أما بطل ناصر الثاني ، الذي دعاه ونستون تشيرشل « الفقير نصف العاري » ، فقد كان أغرب خصم للحكم الاستعماري الغربي خلال الثلاثينات . بينما كان السياسيون المصريون يقلدون الغرب في ألبستهم تحدى غاندي الأوروبيين بتعظيم الأشياء التي اعتبروها رمزاً لتأخر الهنود : المئزر (دهوتي) والمغزل . وأهم من ذلك ان غاندي ابتكر طريقة يستطيع بها الضعيف ان يقاوم القوي . اعتقد ان الشرّ لا يقاوم بالأسلحة الشريرة بل بقوة الروح ، وبدلاً من تسديد الرصاص الى الجسم يقبل المحارب الضعيف الألم وبذلك يسدد الى قلب الخصم سهام الندم فيحوله الى صديق حميم . لذلك اعجب المصريون الواعون لقوة بريطانيا بنتائج طريقة غاندي وأخذوها بجدّ . دعي غاندي الى قصر بكنجهام فدخله وهو يرتدي الصندل والمئزر . ومع ان ناصر اعجب بغاندي كمقاوم لا كمسالم الاّ أن كره سفك الدماء غطى طموحه كما غطى طموح الفتى سعد زغلول .

على ان ناصر ، في تكوينه موقفاً من التاريخ والعالم في الثلاثينات ، حصل على ثقافة متنوعة أغنى مما توفر لزغلول . كان الكتّاب الرزينون ، بالإضافة الى الصحافيين ، قد بدأوا يظهرون نتائج التفاعل مع الغرب ، كما كان توفيق الحكيم أكثر الروائيين المصريين تأثراً بأوروبا ، والروائي الذي مجّد مصادر القوة الدفينة في الخلق المصري ، الكاتب المحبب الى ناصر . ثم إن ناصر كان كثير القراءة . في سنة ١٩٣٣ ، وهي السنة التي تولى فيها هتلر الحكم ، نقل أبوه الى مركز بريد صغير في القاهرة ، وسكنت الأسرة بيتاً قريباً من دار الكتب المصرية ، فاكتسب من قراءة الكتب والصحف ثقافة سياسية لا تتوفر في أي مدرسة . ومما قرأ بشره كل كلمة نشرت لمصطفى كامل صاحب العبارات المؤثرة والمواقف المثيرة .

رأى ناصر وهو في سن المراهقة ، من خلال المناقشات التي كانت تدور في الصفوف ملتهبة كالنار في الهشيم ، ومن خلال الأضواء التي كانت تلقيها الكتب التي انكب على قراءتها في الليل والأسرة نائمة ، الشخصيات التي سيطرت في القرن الماضي . لم يفقد أبداً العطف على الخديوي اسماعيل الذي جدّد القاهرة ووسع الامبراطورية المصرية الى الجنوب في افريقيا ، فترك ذلك أثراً عميقاً في الشاب الذي كان يتصوّر الأجانب يزورون مصر لأنها ضعيفة ومتخلفة . ولكنه احتقر الخديوي توفيق بن اسماعيل الذي قايض بعرشه استقلال مصر . أما عرابي فقد كان بإمكانه

ان ينجح لولا افتقاره الى المقدرة الشخصية والى قوة تؤازره من الخارج . وأما السلطان عبد الحميد الذي كان يستطيع مساعدة عرابي لولا انه كان ضعيفاً جداً فقد شعر ناصر نحوه بازدراء ممزوج باستياء المصري الأسمر البشرة من التركي الشاحب اللون . كذلك لم يشعر بالإعجاب ولا بعرفان الجميل نحو اللورد كرومر الذي إنما كان يعمل لمصالح بريطانيا لا للمصالح المصرية . بقيت تحركاته نحو القومية العربية التي تعلقت عواطفه بها منذ أن اشترك في التظاهرات السنوية ضد تصريح بلفور في ٢ نوفمبر . كان احتجاج الطلاب المصريين على بريطانيا وعلى المستوطنين اليهود الذين فتحت لهم بريطانيا أبواب فلسطين أكثر منه تأييداً للعرب . ذلك بأن الرابطة بين المصريين والفلسطينيين كانت الاشتراك في المحنة . لم تشدد مصر في ذلك الحين على روابطها العربية ، بل كان معظم الكتّاب الجدد ، بحسب التقليد الاسماعيلي ، يشدد على روابط مصر بأوروبا كبلد من بلاد البحر المتوسط . كثيرون من المصريين كانوا لا يزالون غير متأكدين من أنفسهم ، يخافون الارتباط بالعرب الذين رأوهم من خلال نظرة الأوروبيين متخلفين . كان الأفندي المصري ، الذي لديه عدد من الروايات الفرنسية وذكريات اقامته في باريس ، لا يرى سوى القليل مما يربطه بمواطني بغداد أو عمان الخشنين ، وكان يكره مايري . ولكن نموّ الاستيطان اليهودي في فلسطين ، وسحق بريطانيا للمقاومة العربية ، جعلا القضية الفلسطينية تبدو حالة واضحة من حالات الاستخفاف الامبريالي بأماني الأهالي .

كان للشاب العنيد ناصر ، الذي بلغ الثامنة عشرة من عمره ، رأي عميق في كل موضوع له تأثير في بلده ، ولكن ذلك لم يكسبه مالاً . ثم ان أباه تزوج ثانية ، وأصبح ناصر واحداً بين أحد عشر ولداً ، فكان لا بدّ له من اختيار عمل لحياته ، وقد اختار الجندية التي أغرته كما أغرت من قبل أتاتورك لأسباب ثلاثة ليس الولع بالقتال بينها ، أولها ان الكلية العسكرية كانت تقدم منذ القرن التاسع عشر أعلى تربية متوفرة ، وثانيها اجتماعي وهو ان للضباط فرصة التقدم في المجتمع ، أما السبب الثالث فسياسي . مثل ناصر في المدرسة مرة واحدة فقط دور يوليوس قيصر في رواية شكسبير ، واستنتج أن قيصر كان ديمقراطياً استخدم الكتائب الغالية في دحر الأرستقراطية . وحين اختار الجندية لم يفكر في الحرب بقدر ما فكّر في الأسلحة ، ذلك بأن الأسلحة الحربية وحدها هي التي تستطيع الإطاحة بنظام محصن بغيض .

زادته صعوبة دخول الكلية العسكرية إغراءً بها . كان الالتحاق بهذه الكلية مقصوراً منذ ان تولى الخديوي توفيق الحكم على أبناء الطبقة التي يحمي الجيش مصالحها ، وقد تطلب طلب الالتحاق بهذه الكلية الأرستقراطية ومقابلة لجنة الاختيار وأمامها ملفه المدرسي الذي يحوي تقارير عن نشاطه السياسي وهو طالب، جرأة من الشاب ناصر.

– ما اسمك ؟
– جمال عبد الناصر .
– ما مهنة أبيك ؟
– يعمل في دائرة البريد .
– كموظف كبير ؟
– كلاّ ، كموظف صغير .
– من أين أنت ؟
– من بني مرّ في مديرية أسيوط .
– إذن أنتم فلاحون ؟
– نعم .
– أكان في أسرتكم ضباط ؟
– كلاّ .
– إذن لماذا تريد أن تكون ضابطاً ؟
– لأخدم بلدي .
– ألك أملاك ؟
– كلاّ ، أنا مواطن عادي .
– ألك كفيل ؟
– ان كنت تعني صاحب نفوذ ، لا . لا أحد .
– هل اشتركت في تظاهرات ١٩٣٥ ؟
– نعم .
– حسناً ، اذهب .

ظلّ ناصر يذكر المقابلة التي رفض فيها لافتقاره الى الواسطة وبسبب سجله المدرسيّ ، فلجأ الى الخيار الثاني وهو القانون ، ولكن ذلك لم يكن سهلاً كما كان في أيام سعد زغلول حين أحرقت ثورة عرابي أصابعه فدرس القانون وبلغ دخله السنوي منه خمسة آلاف جنيه ، فقد كان كل ما يحتاج إليه المحامي معرفة بالفرنسية ولساناً زلقاً ، كما كان الميدان خالياً . أما في زمن ناصر فقد كان الطريق الى كلية الحقوق في جامعة فؤاد في سنة ١٩٣٦ مزدحماً كترام القاهرة ، ولكنه كان لا يزال يدفع الى العمل السياسيّ .

طلب ناصر ، في الوقت نفسه وبعد أن بدأ الصف الأول في كلية الحقوق ، ان ينضم الى كلية البوليس ، ولكنه صدّ مرة أخرى ، فقد كان بوليس القاهرة سيبقى تحت اشراف راسل باشا عشر سنوات أخرى .

أمضى ناصر في دراسة القانون ستة أشهر فقط . وجاء انقطاعه مصادفة من جهة ، ونتيجة ارادته المتشبثة من جهة أخرى . كانت معاهدة ١٩٣٦ التي عقدتها حكومة الوفد مع بريطانيا قد نصت على بقاء جيش بريطاني يحمي قناة السويس ، ومعنى ذلك توريط مصر واقعياً الى جانب بريطانيا في أي حرب تنشب في المستقبل . وعلى اثر احتلال ايطاليا للحبشة ، وظهور الخطر الفاشستي ، شجعت بريطانيا حليفتها مصر على توسيع جيشها ، فانتهز ناصر الفرصة وقابل ابراهيم خيري باشا ، وزير الخارجية الجديد في وزارة الدفاع ، وسأله بصراحة محرجة : هل يتوقف الالتحاق بالكلية العسكرية على الواسطة أم على الجدارة ؟ كان ناصر محظوظاً إذ وجد في الوزير الجديد واسطته . ذلك بأنه كان ممن يستجيبون لصراحة ، ويهتمون اهتماماً كبيراً بتحسين الجيش واستبدال الضباط الميالين الى مهنة الجندية بأبناء الارستقراطيين المنصرفين الى لعب البولو ، فكان بذلك من حيث لا يدري زارع الثورة ، لأنه أدخل علاوة على عبد الناصر عدداً كبيراً من الشباب أمثاله ، قدّر لهم أن يحلوا محل الأمراء والباشوات والبيكوات الذين حكموا مصر في الثلاثينات ، منهم انور السادات ، عبد الحكيم عامر ، علي صبري ، عبد اللطيف البغدادي ، كمال الدين حسين ، زكريا محيي الدين ، وسواهم . هذا وقد ابتدع الباشا بدعة أخرى أهمّ من ذلك . اذا كان هؤلاء الشباب بذور الثورة ، فقد أعدّ التربة اللازمة لزرع هذه البذور . أراد أن يبعدهم عن مغريات الحياة في القاهرة فأسس لهم نادي الضباط الذي عرف فيه بعضهم بعضاً ، وتبادلوا الآراء ، ونشأ بينهم إجماع في الرأي .

أخصبت تلك البذور في معسكر منقباد القائم في الصحراء في منتصف الطريق بين القاهرة وأسوان . كان أولئك المتخرجون الجدد من الكلية العسكرية يجلسون في المعسكر حول النار يتجادلون طوال الليل حتى ينفخ في بوق الصباح . قال أحد العائدين من ذلك المعسكر : « كنا شباباً مفعمين بالأمل ، إخواناً في السلاح مرتبطين بالصداقة وبمصير مشترك . كانت مصر بلداً مريضاً ، وكان الاضطراب الاجتماعي والسياسي موضوع مجادلاتنا » . كانت تلك المجادلات تعوضهم من سأم الحياة اليومية الرتيبة . وكانوا منذ البداية تحت سيطرة الضابط الشاب الطويل المنطوي على نفسه الذي كانت رسالته الأساسية الى اخوانه الضباط : « يجب ان نحارب الامبريالية والملكية والإقطاع لأننا ضد الظلم والاضطهاد والعبودية . كل وطني يريد تأسيس ديمقراطية قوية وحرة . سيحقق هذا الهدف بالقوة اذا اقتضى الأمر . إن المهمة مستعجلة لأن البلد في حالة فوضى . الحرية حقنا الطبيعي ، والطريق أمامنا هو الثورة » !

كان الضابط الطويل النحيل ، عبد الكريم عامر ، أقرب صديق الى ناصر ، وهو من مصر العليا ، واذا قوبل بناصر فهو متهور متقلب . أما أنور السادات ،

المتحمس بين الجماعة ومؤرخها ، فقد كان مقامراً عاطفياً ظريفاً ومتعصباً للحرية المصرية .

بدت الحرب العالمية الثانية في سنة ١٩٣٩ بعيدة لثوار منقباد الطامحين كما بدت الأماني العربية لرجال الدولة في الكتل المتنافسة . حاولت بريطانيا دفع الشرق الأوسط ، كما حاول المحور إثارته ، ولكن لا الحلفاء ولا المحور كانوا مهتمين فعلاً بشعوب هذه المنطقة ، وقد قابلتهم تلك الشعوب بالمثل . نظر الضباط الشباب الى الحرب كحادث خطير يجب أن يدرس بانتهازية حذرة ، ان الحرب العالمية ، مهما كانت أسبابها ونتائجها ، تشكل زلزالاً سياسياً ، فما كان يبدو ثابتاً سيتحرك ، وما كان مائعاً قد يتجمد . لذلك أراد الضباط ان يتأكدوا من ان إعادة تنظيم الخريطة لن يكون مفيداً للإمبريالية . عنت الامبريالية أشياء مختلفة لمختلف العرب . عنت للمصريين والعراقيين والفلسطينيين سيطرة بريطانيا ، مباشرة أو بطريقة غير مباشرة ، على شؤونهم ، وللسوريين وعرب شمال افريقيا عنت فرنسا ، ولليبيين ايطاليا . كانت هناك فرصة حسنة لإضعاف الإمبريالية بكل أشكالها فيما بدا للشرق الأوسط حرباً أهلية أوروبية ، وسيكون ذلك أمل العرب في استعادة حريتهم .

امضى الملازم ناصر حرباً سلمية . واذ أراد ان يبتعد عن المراقبة تطوع مع عامر للخدمة في السودان فأمضى السنوات الثلاث الأولى من الحرب بعيداً عن القاهرة في شبه منفى يقرأ التاريـــخ والاستراتيجية العسكريين. كان لا يزال في السودان يوم أهين فاروق . بقي المصريون العاديون جاهلين بما جرى . ادعت جريدة باللغـــة الانجليزية في القاهرة أن الجمهور استقبل سير مايلز لامبسون استقبالاً ودياً وحياه بقوله : « لتعش بريطانيا ! » ، فرد السفير التحية بقوله : « لتعش مصر ! » لكن الجيش عرف القصة ، وقدم اللواء محمد نجيب استقالته لأن الجيش لم يعط فرصة الدفاع عن ملكه . كتب ناصر الى صديقه حسن الذي أطلعه في رسالة بعث بها إليه على تفاصيل الحادث : « تسلمت رسالتك واشعلتني القصة غضباً . لكن ما عسى أن نفعل إزاء الحقائق الواقعية ؟ والحقيقة اني اعتقد ان الاستعمار يلعب بورقة واحدة ، بقصد التهديد فقط . ولكن لو انه احس ان بعض المصريين ينوون التضحية بدمائهم ومقابلة القوة بالقوة لانسحب كأي امرأة من العاهرات » .

رقي ناصر في أواخر ١٩٤٢ الى كلية الأركان ، والفضل في ذلك لسمعـــة الاستخبارات المتزايدة وشهرتها . أصبح الآن أقرب الى مفاتيح السلاح ، لكن كانت لا تزال تعوزه الخبرة بالقتال .

كان أنور السادات الوحيد بين جماعة ناصر الذي غامر بالحرب ، فعاد عليه ذلك بالسجن لا بوسام . ان ما اجتمع في السادات من الجرأة والانتهازية وسوء الحظ

يمثل ناحية من حياة جيله .

قرر السادات منذ البدء جعل الخطر الذي تعرضت له انجلترا فرصة مصر . وكان قد دفع قرار كذلك في الحرب العالمية الأولى بعض العرب الى جانب بريطانيا وبعض الإرلنديين الى جانب ألمانيا . كانت للسادات في قراره التعاون مع المحور الألماني – الإيطالي أوهام قليلة فيما يتعلق بأهداف برلين وروما الأساسية . أعطى الألمان في مراحل الحرب الأولى شركاءهم الايطاليين الأولية في تقرير السياسة الخاصة بالبحر المتوسط والعرب ، لكنهم تجاهلوهم بعد انهيارهم في شمال أفريقيا . لم تدعم الدولتان الأماني العربية بصراحة وان كان هتلر قد استقبل مفتي فلسطين الأكبر واستخدمه للتأثير الى حد ما في مسلمي البلقان . أما إيطاليا الفاشستية فقد عاملت عرب ليبيا أكثر قليلاً من العبيد ، وعارضت روما بشدة اي تصريح بتأييد الأهداف العربية قد يفسر بأنه اعتراض على السيطرة الإيطالية على ليبيا ، تلك السيطرة التي أراد موسوليني ان تمتد الى تونس أيضاً . وفيما يتعلق بمصر قدرت روما تعاطف المصريين معها ولكن ساءها موقف الوفد العدائي من احتلال الحبشة.وأما الألمان فلم يكن لهم رعايا من العرب ولا التزامات عربية ، بل كانوا مقيدين بايديولوجيتهم . صنف هتلر الوطنيين المصريين في كتابه « كفاحي » مع أولئك « المشعوذين الآسيويين » الذين ظنوا أنهم يستطيعون اخراج بريطانيا من الهند . أما الوحيدون من سكان الشرق الأوسط الذين شعـــر المفكرون النازيون بقرابة نحوهم فهم أولئك الذين يشبهون الأسرة المالكة المصرية التي تستطيع ان تدعي علاقة بعيدة بالدم الآري . لذلك كان عباس حلمي الخديوي المخلوع وابن عم فاروق المنفي في اوروبا أقرب الأصدقاء الى الألمان ، وكانت تجمعه بالصناعيين في ألمانيا علاقات حسنة بينما احتفظ بروابط متينة بتركيا . كان عباس يعتبر القومية العربية مزاحاً ، كما رأى هتلر ان الفرع العبراني من العرق السامي « يفتقر الى تلك الصفات التي ميزت الأعراق الخلاقة التي أسست الحضارة». أكن الخديوي عباس ، المليونير السنوب ، الشعور نفسه نحو رعاياه السابقين ، وأنكر قابليتهم لتكوين دولة ودبلوماسية . وعلى الرغم من ان السادات كان في نظر النازيين والذين يعطفون على النازية نقيضاً للمثال النوردي ، إلا ان الألمان كانوا مستعدين لازعاج البريطانيين إذا كان ذلك لا يحرج شريكتهم في المحور .

كان عزيز المصري ، اللواء المتقدم في السن ، محترماً لدى الألمان الذين عرفوه في الشرق الأوسط ، فقد حارب الايطاليين بشجاعة قبل الحرب العالمية الأولى مع أتاتورك في الجيش العثماني ، وقاوم قومية حكام الأردن والعراق العربية الضالعة مع الانجليز ، وتمسك في الحرب العالمية الأولى بواجب المسلم في تأييد السلطان وحلفائه الألمان . وفي بداية الحرب العالمية الثانية أقصاه النفوذ البريطاني عن منصب رئيـــس

أركان الجيش المصري . ثم في سنة ١٩٤١ ارسل الألمان الذين كانوا يعدّون جيشهم في افريقيا لهجوم كبير رسولاً يتصل به ويقترح عليه التعاون معهم . وقد كان اللواء العاطل من العمل راغباً في زيارة قيادة الجيش الألماني اذا استطاع الخروج من مصر . تورط أنور السادات في مساعدته على الخروج . حاول طريقتين للتملص من البريطانيين الذين كانوا يسيطرون سيطرة تامة على موانىء مصر ومطاراتها . كانت الخطة الأولى إرسال غواصة ألمانية الى بحيرة بارولوس شمالي قناة السويس الى الغرب من بورسعيد ، ولكن البحيرة كانت قريبة جداً من المعسكرات البريطانية . أما الخطة الثانية فكانت تهريب اللواء في طائرة ألمانية ، ولكنها فشلت لأن السيارة التي نقلت اللواء الى مكان سري في الصحراء أصابها عطل . عندها حاول اللواء الهرب في طائرة مصرية مسروقة ولكنها اصطدمت بعمود في أثناء اقلاعها ، فقبض على عزيز المصري وأمضى زمناً في مستشفى احد السجون . أما السادات فقد اشترك في مغامرة أخرى غير متقنة انتهت به هو الآخر الى ما وراء الأسلاك الشائكة .

في يونيو ١٩٤٢ كان اسم رومل يتردد في القاهرة كناقوس الخطر ، حتى لقد وضع البريطانيون خططاً طارئة للرحيل الى فلسطين أو الى جنوب أفريقيا . في ذلك الجو المضطرب قدم الى بيت السادات ضابط صديق ومعه جاسوسان ألمانيان متخفيان في لباس ضابطين بريطانيين . أهمل ذانك الجاسوسان كل الاحتياطات الأولية التي يتخذها الجواسيس المحترفون : صرفا في القاهرة عملة ورقية بريطانية مزيفة عند يهودي مصري ، واحضرا معهما جهاز ارسال نصباه على سطح عوامة في النيل جعلاها مقراً لهما ، ثم أهملا عملهما وانصرفا الى اللهو ، وعطّلا جهاز الإرسال عمداً كي تطول إقامتهما في القاهرة . وفي احدى الليالي احضرا الى العوامة مومسين يهوديتين أرادتا ان تضاعفا أجرهما فوشتا بهما الى البوليس الحربي البريطاني . لقد كان من حسن حظ ناصر والضباط الأحرار أن تمّ اكتشاف أمرهما بهذه الطريقة ، فلو أن مصلحة الاستخبارات البريطانية هي التي اكتشفتهما لربما توسعت في التحقيق . استجوب الجاسوسين ، كما يقول لنا السادات ، ونستون تشيرشل نفسه وكان ماراً بالقاهرة في طريقه الى موسكو . وعد الألمانيان بتخفيف حكم الإعدام اذا اعترفا بمن كانا يتصلان من الأهالي فذكرا اسم السادات وصديقه الضابط فقط ، وحكم قاض عسكري بريطاني بطرد السادات من الجيش المصري ووضعه في معتقل قرب المينا جنوبي القاهرة .

هيأت مغامرة السادات والسيطرة البريطانية التامة على مصر لناصر ست سنوات أخرى من القراءة والتأمل قبل ان وجد نفسه في سنة ١٩٤٨ أول مرة في الخدمة العملية . في مخبأ في النقب اكتشف مثلاً ورطة مصر . « أقول لنفسي : ها هو وطننا هنا .

انه فالوجة اخرى على نطاق كبير . لقد غرر به ، ودفع الى معركة لم يعدّ لها ، ولعبت بأقداره مطامع ومؤامرات وشهوات ، وترك هناك تحت النيران بغير سلاح » . حين قابله ضابط اسرائيلي للبحث في دفن قتيل يهودي أراد ناصر ان يبحث في موضوع آخر : في الوسائل التي تغلب بها الاسرائيليون على بريطانيا وحصلوا على الاستقلال .

الفصل الثالث

بينما كان ناصر في الفالوجة يفكر في مصر لم يهمل اللاجئين المنتشرين كالزرازير حول الأسلاك الشائكة . رأى فتاة صغيرة تبحث عن كسرة خبز وسط نيران الجيوش ، فقال لنفسه إن ذلك قد يحدث لإبنته ايضاً . كان متأكداً من ان ما يحدث في فلسطين لا بدّ من ان يحدث لأي بلد في هذه المنطقة يسيطر عليه نظام القوى الحالي . ذلك بأن اسرائيل بدت في سنة ١٩٤٨ مجرد وجه من أوجه النظام الاستعماري ، وكانت مراكش وتونس محميتين فرنسيتين ، والجزائر لا تزال تعتبر جزءاً اساسياً من فرنسا ، ومستقبل ليبيا موضوع جدل بين الحلفاء الظافرين ، كما كانت بريطانيا تحتفظ بجيش من ثمانين ألفاً على طول قناة السويس ، وبنفوذ قوي على المملكتين الهاشميتين في العراق والأردن ، إذ كان العراق مرتبطاً بمعاهدة مع بريطانيا ، وكان ضباط الجيش العربي في الأردن من الانجليز . لخصت رسالة حرب فلسطين العميقة بآخر كلمات نطق بها ضابط مصري قتل في النقب : « اسمع ... ان ميدان الجهاد الأكبر هو في مصر » ! كان في كلمة الوداع هذه من السخرية أكثر مما بدا . لقد فهم منها الضباط الذين تناقلوها الكفاح ضد فاروق والبريطانيين والباشوات ، أما الذين عرفوا ان الضابط إنما قتل خطأ برصاصة احد رجاله فربما أضافوا أيضاً الكفاح ضد عدم الكفاءة .

كانت معركة الفالوجة، على تفاهتها اذا ما قوبلت بمعارك أتاتورك في غاليبولي، ناصرية مصغرة . كان قد قرر الحاجة الى الثورة ، والآن تأكد له أنه قائدها بعد الحادث الذي تعرض له اذ اصابت صدره رصاصة انقذه منها القرآن الكريم الذي كان يحتفظ به في جيبه ، فزاده ذلك قوة وتفانياً . خلال السنوات التالية التي اشتد فيها اليأس الوطني أطلق أفكاره في استطلاع المستقبل فكانت النتيجة بيانه الشخصي « فلسفة الثورة » الذي بدأه بقوله :

« قبل أن أمضي في هذا الحديث أريد ان اقف قليلاً عند كلمة فلسفة . ان الكلمة ضخمة وكبيرة . وانا احس وانا اقف حيالها أني امام عالم واسع ليس له حدود ».

ان السعي لعمق التفكير ، بنتائجه العجيبة التي لا مفرّ منها ، يتخلل صفحات البيان : « أنا أحد اولئك الذين يعتقدون ألاّ شيء يمكن ان يوجد في فراغ . حتى الحقيقة لا يمكن ان توجد في فراغ » . ربما في تلك المرحلة الأولى كان يتلقى المشورة من محمد حسنين هيكل الصحافي الغرّ الذي أصبح رئيس تحرير الأهرام والناطق

بلسان ناصر . والأرجح ان هيكل ، أكثر من ناصر ، هو الذي أدخل الإشارة الى « الشخصيات الست التي تبحث عن مؤلف » للويجي بيرانديلو : « لا أعرف لماذا أتصور دائماً ان في هذه المنطقة التي نعيش فيها دوراً يتنقل بلا هدف بحثاً عن ممثل يقوم به». ان الأسلوب العربي الضعيف الذي كان يفتتح به خطاباته العنيفة ضد أعدائه في السنوات التالية هو هنا في أصله بقلمه أو بقلم اي من أصدقائه . « ولقد آمنت بالجندية طوال عمري ، والجندية تجعل للجيش واجباً واحداً هو ان يموت على حدود وطنه ! » . يبدو هذا التأكيد من مدرس في كلية الأركان سلبياً بصورة غريبة ، أشبه برثاء شاعرة للذين ضحوا بحياتهم منه بكلمات قائد يخطط لموت الأعداء على الحدود لا لموت رجاله .

لكن على الرغم من كل هذه الأخطاء ، مضافاً اليها ان معلمي ناصر لم يعلموه أبداً أن يتدرب على الايجاز أو تجنب التكرار ، يشير بيان « الفلسفة » إلى تطور في عارض جانوس . من فترات الدراسة تبرز ، كأغنية عربية طويلة ، ومضات من الحقيقة : « لكل شعب من شعوب الأرض ثورتان : ثورة سياسية يسترد بها حقه في حكم نفسه بنفسه من يد طاغية فرض عليه ، أو من جيش معتد أقام في أرضه دون رضاه ، وثورة اجتماعية تتصارع فيها طبقاته ثم يستقر الأمر فيها على ما يحقق العدالة لأبناء الوطن الواحد » . ومهما تكن الحقيقة مقنعة فقد تمّ إدراكها في مصر وفي تركيا من قبل . أما الشيء الجديد فهو الصراحة والأيحاء الذاتي ومن ضمن ذلك ، كما سنرى ، بعض الاعترافات المذهلة . قلما اعطانا رجال الدولة الشرقيون دلائل على حياتهم الداخلية ، أما « فلسفة الثورة » فانها تزودنا بمفتاح نفتح به قلب ناصر قائد القومية العربية في الخمسينات ، ثم قائد الاشتراكية العربية التي نشأت منها في الستينات .

وبما أن السخرية في ملامح وجه جانوس فمن الملائم ان نعدّ كتاب « الدولة اليهودية » لهيرتزل سلفاً لبيان ناصر . ذلك بأن الرجلين يشتركان في الافتراضات ، فيحدد ناصر أهدافه بعبارات كان بالامكان ان يستعملها هيرتزل : « انها محاولة لاستكشاف اهدافنا والطاقة التي يجب ان نحشدها لنحقق هذه الأهداف ... محاولة لاستكشاف الظروف المحيطة بنا لنعرف أننا لا نعيش في جزيرة يغمرها الماء من جميع الجهات » . ثم إن أهدافه في ايجاد قاعدة لسلطة شعبه ، امكان استقلال وطني تام ، تربطه بخصمه أكثر مما تربطه بأسلافه في الشرق الأوسط لأنه يحمل آثاراً أوروبية ، كالتي حملها هيرتزل ، لا في ملبسه بل في روحه .

شخص جودا ماجنس ، اليهودي المسالم الذي تبرأ من هيرتزل ، ارادة السلطة بأنها طابع « الشعوب الأخرى » في أوروبا الحديثة . شغلت مشكلة السلطة أفكار ناصر كما شغلت هيرتزل . صنع هيرتزل محركاً ينقل اليهود من المنفى بين غير اليهود الى وطن خاص بهم ، أما مشكلة ناصر فكانت ذات علاقة بذلك وان اختلفت ، لم يرد

ان يبعد العرب عن الأوروبيين بل إبعاد الأوروبيين عنهم . فكّر طويلاً ، كضابط أركان ، في الهزائم المصرية ، وأخذ يبحث عن وسائل لمنع وقوعها في المستقبل ، فجاء بالحلّ البديهي التالي : على مصر أن تحول ضعفها — ذلك المركز الاستراتيجي الذي جعل نابليون يصفها بأنها أهم بلد — ضد معذبيها . تشبه هذه الرؤية للمصارعة السياسية تماماً الوقود الذي وصفه هيرتزل لإدارة محركه : « أقول ان هذه القوة — أي اللاسامية وردّ الفعل اليهودي لها — اذا احسن استعمالها كانت قوية الى حدّ يكفي تسيير محرّك كبير لنقل الركاب والبضائع ، وليكن نوع المحرك مهما كان » .

رأى ناصر مصر — المسيطر عليها بسبب موقعها الاستراتيجي — محط أنظار ثلاث من دوائر النفوذ المتحدة المركز : العربية ، والأفريقية ، والإسلامية . ان المصريين يتكلمون العربية ، ويعيشون في افريقيا ، وتسعة أعشارهم مسلمون ، لذلك فإن كلاً من الدوائر الثلاث يمكن ان ترى في مصر مركزاً أمامياً لمصالحها وتساعد في الدفاع عنها . أما هيرتزل فقد جاء بخطة مناقضة لذلك كلياً ولكنها متصلة به تماماً ، قال : « علينا أن نكون جزءاً من سور للدفاع عن اوروبا في آسيا ، مركزاً أمامياً للحضارة ضد البربرية » ! وقد رأى في المال اليهودي سلاحاً يغري به السلطان التركي . لم يكن المال العربي مثل هذا السلاح حين كتب ناصر فلسفة الثورة ، ولا يتعدى ما لديهم من رأس المال الذهب المخزون عند تجار بغداد ، وقطن مزارع الباشوات المصريين ، واللؤلؤ المستخرج من مياه الخليج العربيّ . ولكن ناصر تبين — وهو يقتبس من تقرير نشرته جامعة شيكاغو — سلاحاً أقوى من أموال اليهود : « ان البترول عصب الحضارة المادية ، تستحيل المصانع ووسائل النقل وأسلحة الحرب دونه قطعاً من الحديد . ان رأس المال المطلوب لاستخراج برميل من الزيت في أمريكا ٧٨ سنتاً ، وفي امريكا الجنوبية ٤٣ سنتاً ، وفي البلاد العربية ١٠ سنتات . ان عاصمة انتاج البترول في العالم قد انتقلت من الولايات المتحدة التي استنفدت آبارها ، وارتفع سعر الأرض فيها ، وزادت أجور الأيدي العاملة لأبنائها ، الى المنطقة العربية التي ما زالت آبارها بكراً ، وأراضيها الشاسعة بلا ثمن ، ويدها العاملة تقبل ما دون الكفاف . ولقد ثبت ان نصف الاحتياطي المحقق من البترول في العالم يرقد تحت أرض المنطقة العربية » . كتب هذا والكويت لم تكد تبدأ الانتاج . والبترول الجزائري والليبي لم يكن قد اكتشف .

تلقي « فلسفة الثورة » ضوءاً متوهجاً على ناصر نفسه وعلى الوضع المضطرب في مصر . قبل الرجل الذي اعجب بغاندي وكره العنف ، تحت تأثير الكآبة التي خلفتها هزيمة فلسطين ، فترة من الزمن خطة القتل الانتقائي التي اتبعها الإخوان المسلمون وعصابة أرغون . اعتبر ناصر والضباط الأحرار اللواء سرّي عامر مسؤولاً عن الأسلحة الفاسدة — القنابل اليدوية — التي تنفجر في وجه من يقذفها كما سمع أنور

السادات وصفها ، وكان قد سجن مرة أخرى خلال حرب فلسطين . اعترف ناصر بصراحة روسّو أنه اشترك في إحدى محاولات الاغتيال :

« كانت في نفسي حيرة تمتزج فيها عوامل متشابكة من الوطنية والدين ، ومن الايمان والشك ، ومن الرحمة والقسوة ، ومن العلم والجهل . ورويداً رويداً وجدت فكرة الاغتيالات السياسية تخبو جذوتها وتفقد قيمتها في قلبي . واذكر ليلة حاسمة اخترنا فيها واحداً قلنا انه يجب ان يزول من الطريق . درسنا ظروف حياة هذا الواحد ، ووضعنا الخطة بالتفاصيل ، وكانت ان نطلق عليه الرصاص وهو عائد الى بيته في الليل . رتبنا فرقة الهجوم ، وفرقة الحراسة ، وفرقة تنظيم الإفلات . خرجت بنفسي مع فرقة التنفيذ . كان المسرح خالياً كما توقعنا ، وكمنت الفرق في أماكنها التي حددت لها ، واقبل الواحد ، وانطلق نحوه الرصاص . انسحبت فرقة التنفيذ ، وغطت انسحابها فرقة الحراسة ، وبدأت عمليات الإفلات ، وادرت محرك سيارتي وانطلقت أغادر المسرح . وفجأة دوت في سمعي ولولة امرأة ، ورعب طفل ، واستغاثة . وصلت الى بيتي ، واستلقيت على فراشي وفي عقلي حمّى ، واصوات الصراخ ما زالت تطرق سمعي . بقيت اشعل سيجارة وراء سيجارة ، واسرح مع الخواطر الثائرة ، ثم تتبدد خواطري على الأصوات التي تلاحقني . أكنت على حق ؟ دوافعي كانت من أجل الوطن ! أكانت تلك هي الوسيلة التي لا مفرّ منها ؟ وأقول لنفسي في شك : أيمكن حقاً ان يتغير مستقبل بلدنا اذا خلصناه من هذا الواحد أو من واحد غيره ؟ اننا نحلم بمجد أمة ، فما هو الأهم ؟ أيمضي من يجب ان يمضي ، أم يجيء من يجب أن يجيء ؟ وأقول لنفسي في يقين هذه المرة : يجب ان يتغير طريقنا ! وكان عجيباً ان يطلع علي الفجر وأنا اتمنى الحياة للواحد الذي تمنيت له الموت في المساء . وهرعت في لهفة الى احدى صحف الصباح ، واسعدني ان الرجل الذي دبرت اغتياله قد كتبت له النجاة ! » .

راقب ناصر مملكة فاروق المنحطة كما يحدق الهرّ الى الفأر . لم يحتفظ أي مصري بالهيبة. أما حسن البنّا القتيل فلا يستطيع ان يحكم من القبر ،لأن المرشد الأكبر فقد هالة المصري المسؤول حين أيّد الاغتيال . كان فاروق يحاول عبثاً تقوية شعبيته . أعلن نفسه ملكاً لمصر والسودان ، ولكن ذلك إنما كان مجرد لقب لأن الجيوش البريطانية بقيت مسؤولة عن ذلك البلد الواسع جنوبي مصر . تزوج ناريمان صادق ولكن احداً لم يهتم، ودعم هجمات العصابات على البريطانيين على طول القناة ولكن النتيجة لم تكن أفضل من الحملة الفلسطينية لأنها زادت وضعه سوءاً . في ٢٥ يناير ١٩٥٢ أمر قائد منطقة القناة البريطاني مركز بوليس مصري استراتيجي بالتسليم ، ولكن البوليس قاوموا ببطولة بناء على تعليمات بالتلفون من وزير داخلية مصر الوفدي ، فسقط

منهم نحو سبعين قتيلاً . وفي اليوم التالي وقف بوليس القاهرة مكتوفي الأيدي يشاهدون الغوغاء يصبون البنزين على الحي العصري في القاهرة ويشعلون فيه النار ، بينما منظمو الحريق يطوفون في سيارات الجيب للتأكد من ان الغوغاء يدمرون ولا ينهبون . لم يعرف مخططو الحريق أبداً ولكن الأهداف التي تعرضت للنيران كالملاهي والخمارات ودور السينما والمخازن الكبيرة وفندق شبرد دلت على أنهم من الاخوان المسلمين . جلس فاروق في قصر عابدين ، كنيرون صغير ، يضحك من هزيمة الوفد المكروه ، وفي المساء دعي الجيش لإخماد الرماد !

تعاقبت على الحكم بعد ذلك ست حكومات ، وفي ١٠ تموز (يوليو) استمع هو واثنان من اصدقائه الضباط الى « شهرزاد » لريمسكي كورساكوف ، وحين رفع الإبرة عن الاسطوانة قال : « سنضرب في اول الشهر القادم » ، ولكن فاروق اكتشف المؤامرة ، وقرر تعيين صهره وزيراً للحربية كي يعتقل زعماءها ، فقدم الموعد الى ليلة ٢٢–٢٣ تموز (يوليو) .

كان الانقلاب سهلاً كصيد فرس نهر عجوز . جرت مقاومة رمزية قتل فيها جنديان ، وفيما عدا ذلك لم تسفك الدماء . أعلن السادات الانقلاب من الراديو الوطني بينما استنجد الملك الذي كان يقضي عطلته السنوية في الاسكندرية بالإنجليز في منطقة القناة . ولكن الانجليز لم يتحركوا لأن السفير الأميركي الذي كان يدعو الضباط الشباب « أولادي » نصحهم ألاّ يفعلوا ذلك . لقد كان فاروق مديناً بحياته لا للضغط الاميركي فحسب بل أيضاً لخلق ناصر . قال : « رأيت أننا ، اذا بدأنا بالعنف والدم كالثوار الفرنسيين ، لن نتوقف أبداً ، ففضلت فولتير » . كل واحد من اعضاء الزمرة أراد موت فاروق لأن اعدام الملك فقط يظهر أن للثورة أنياباً ونوايا حسنة . لكن ناصر رأى أن قتل الملك دون محاكمة يعتبر جريمة ، واذا حوكم كان في ذلك ضياع للوقت الثمين واعادة للماضي . لقد ظهرت الآن سيطرة ناصر التامة على زملائه ، ذلك بأن اشارته الى انه سيتخذ خطوة خطيرة انتحارية اذا أصروا على موت فاروق هيمن عليهم (١) . وفي ٢٦ تموز (يوليو) ١٩٥٢ أبحر حفيد الخديوي الذي افتتح قناة السويس في اليخت الملكي ، ومعه مائتان وأربع حقائب ، الى النوادي الليلية في أوروبا .

(١) هذه التفاصيل من أنور السادات . لم يكن محمد نجيب من اعضاء الفرقة ، طبعاً ، ولكنه اعجب بقرار ناصر الإبقاء على فاروق .

الفصل الرابع

سارعت الثورة الى محو الماضي ، فازيلت التماثيل وأسماء الشوارع المتصلة بأسرة فاروق أو استبدلت . غيّر اسم شارع فؤاد ، مثلاً ، فأصبح شارع ٢٦ تموز (يوليو) وهو اليوم الذي تنازل فيه فاروق عن العرش . اما تمثال محمد علي باشا الذي ربط الاسكندرية بالنيل بقناة ، وحوّل بذلك العمل الفذ تلك القرية الصغيرة التي كانت تعيش على صيد السمك الى ميناء كبير وعاصمة ثانية ، ذلك التمثال القائم في وسط ميدان فسيح واقع بين شارع البورصة المعمد وبين مباني الميناء القذرة ، فقد استحق البقاء . ولقد شهد ميدان محمد علي خلال عامين حادثين عظيمين وقع كل منهما في العراء في الليل ، ومثل ناصر فيهما الدور الرئيس .

في الحادث الأول الذي وقع في ٢٦ اكتوبر ١٩٥٤ وقف ناصر يلقي خطاباً على المنظمة الطيعة التي استعاض بها من أحزاب مصر المعادية له . لم تكن له ولا لهيئة التحرير الوطني جذور في الشعور الشعبي . كان حضور الاجتماع واجباً ، يسوده جو من الملل والأفكار الشاردة . وبينما كان ناصر يلقي خطابه الجدّي انطلقت فجأة ثلاث رصاصات حطمت احداها المصباح المعلق فوق رأسه وأخطأته الرصاصتان الأخريان . صاح ناصر وسط الهياج الفجائي : « ليقتلوا ناصر ! ليس سوى واحد من كثيرين » ! أثارت هذه المحاولة العطف والرعب ، وكانت بداية اندفاع أبعده عن الشعور المزعج بأنه يعمل دون تأييد ورفعه الى ذرى من الشهرة لا سابقة لها .

كانت « فلسفة الثورة » قد نشرت في السنة نفسها ، وربما لم يكن بالامكان نشرها قبل ذلك ، فلو قد نشرت لجلبت له النقد الذي كان لا يزال عرضة له . وقد وردت في « فلسفة الثورة » فقرة تلفت النظر أثارت ، بناءً على قول ناصر ، خيبة أمل أضعفت متعته بالصباح المشرق يوم أسقط فاروق :

« كنت أتصور دورنا على أنه دور طليعة الفدائيين ، وكنت أظن ان دورنا هذا لا يستغرق أكثر من بضع ساعات ويأتي بعدها الزحف المقدس للصفوف المتراصة المنتظمة الى الهدف الكبير . ثم فاجأني الواقع . قامت الطليعة بمهمتها ، واقتحمت سور الطغيان ، وخلعت الطاغية ، ووقفت تنتظر وصول الزحف المقدس . وطال انتظارها . جاءتها الجموع ولكنها كانت أشياعاً متفرقة وفلولاً متناثرة ، وبدت الصورة يومها قاتمة مخيفة . احسست وقلبي تقطر منه المرارة ان مهمة الطليعة لم تنته ،

بل أنها بدأت من هذه الساعة . كنا في حاجة الى النظام فلم نجد إلاّ الفوضى ، وكنا في حاجة الى الاتحاد فلم نجد إلاّ الخلاف ، وكنا في حاجة الى العمل فلم نجد إلاّ الخنوع والتكاسل » . وتابع ناصر كلامه قائلاً انه ذهب يلتمس الرأي والخبرة من اصحابهما فلم يجد سوى انانيين متحمسين لأخذ الثأر أو لإظهار مواهبهم .

ادعت الصحافية الاميركية ، دوروثي ثومبسون ، في مقدمة ترجمة انجليزية لفلسفة الثورة أنها أظهرت « مثالياً وطنياً مدفوعاً في البداية بإيمان ساذج جداً بشعبه » . ربما كانت الآنسة ثومبسون مدفوعة بإيمان ساذج جداً بالمؤلف . ذلك بأن ناصر ما كان ليستطيع النجاح في مؤامرته دون أشدّ التحسس مع شعبه . كان دوماً حساساً كورق عباد الشمس . توقع منذ البداية معارضة من رجال السياسة في نادي محمد علي ، وترحيباً مخلصاً من العامة . بيد أن الجهاز الفعّال للحكم الشعبي لا يمكن تأليفه إلاّ من مثل هؤلاء السياسيين أو من أبناء الشعب ، وكان ناصر لا يثق بهم جميعاً . وقد برر عدم الثقة هذه بأن المال والنفوذ الأجنبيين يمكن ان يسببا الفوضى دائماً في بلد فقير . لكن قراره عدم اشراكهم في الحكم يرجع الى تعقيدات باطنية لم تكشفها أقواله بل التخيلات التي قالها بها . ان فكرة « الزحف المقدس للصفوف المتراصة المنتظمة » أصبحت اللحمة في صور الفنانين المكسيكيين لا في مكان آخر ، ولكنها راقت لرجل اعتاد ان يصدر الأوامر ويجاب بكلمة « أفندم » . أشار في « فلسفته » الى دور ينتظر ممثلاً ، ولم يكن استعماله المفرد عرضاً ، فقد كان تدخله الحاسم ضد الأكثرية التي تحمست لقتل فاروق انسانياً ولكنه كان لا يقل عن ذلك استبدادية .

الأرجح ان ناصر قد عرف تماماً ان ثورته ستجد ترحيباً من عواطف الشعب المختلطة التي طالما خدعت . أما ما ضايقه فهو البطء الذي منحه به الشعب محبته .

على ان الشعب ليس ملوماً . كان فاروق وحكوماته الضعيفة المتعاقبة عموماً محتقرين في سنة ١٩٥٢ ، وكان الشعب مستعداً للهتاف لأي شيء جديد ، فقامت في الشوارع مهرجانات قصيرة . أما العاطفة الأقوى في الجوامع أو الصالونات ، في الصفوف أو المقاهي ، فقد كانت حبّ الاستطلاع ، ذلك بأن الشعب لم يكن يعرف احداً من أعضاء الزمرة العسكرية .

صحب الهياج والفضول شعور أكثر غموضاً ، شعور بالخـوف . خلفت المعسكرات قصر عابدين كمحور للحياة المصرية ، ولم يكن الجيش مؤسسة شعبية . ثم من تقاليد الفلاحين أن يتجنبوا الخدمة العسكرية ، والفلاحون الذين اصبحوا ضباطاً في الجيش انضموا الى طبقة غريبة . يضاف الى هذا أن خيبة الجيش في فلسطين اصبحت معروفة ، لكن الأسلحة التي عجزت عن قهر الهاجناه والأرغون تستطيع معالجـة المصريين بسهولة ، ومن هنا جاء التكمّ الحكيم .

أظهر الأفراد قلقاً بطرق مختلفة . سأل بالتلفون السفارة التركية أمير اصبح بلا بيت : « هل يرحب بأحفاد محمد علي اذا عادوا الى الجمهورية التركية » ؟ وأغلق بقال يوناني مخزنه ، ولاحظ كاتب بنك قبطي أنه لا أحد من الحكام الجدد يحمل اسماً مسيحياً ، وتساءل محام من الاخوان المسلمين على الرغم من فرحته : هل يتسع صدر الدكتاتورية العسكرية للمنافسين ؟ وأخفى استاذ جامعي ليست له عقيدة دينية كتب لينين حين سمع أنور السادات ، حليف الألمان خلال الحرب ، يعلن استقالة خالد محيي الدين العضو اليساري الوحيد في الزمرة العسكرية ، وخاطت راقصة باليه في الأوبيرج الذهب في معطفها واشترت تذكرة سفر الى بيروت ، وأخفى طالب نوبي في العاشرة من عمره رأسه ببطانية خوفاً من الفوضى ، ولم يتهيأ إلاّ لشخص واحد — صحافي — بدء نقاش صريح مع البكباشي ناصر . ذلك بأن المحررين في القاهرة الجاهلين ، كالقراء ، بالضباط المتآمرين عينوا صحافياً ليقتفي أثرهم . كان محمد حسنين هيكل قد غطّى اخبار حرب فلسطين ثم الحرب الكورية ، وقابل بعض الضباط الأحرار قبل الانقلاب ، ولكن كان لديه ميل الى السياسة ، وبتعلقه بناصر اختار الرابح .

كذلك اختار ناصر لنفسه رابحاً حين ارتأى ان يكون اللواء محمد نجيب قائداً صورياً للثورة ، وأن ظهرت فيما بعد اعتراضات عليه . فاز نجيب باحترام ناصر وصديقه الحميم عامر بعد موقفه من الاعتداء البريطاني في سنة ١٩٤٢ . بعد فحص دقيق لنجيب سمح له ناصر ، قبل الانقلاب بأشهر قليلة ، بتسلم منصبه كرئيس للضباط الأحرار . أبعد نجيب منصبه العالي عن التآمر اليومي ، وفي وقت الانقلاب لم يكن قد قابل سوى خمسة من أعضاء الزمرة . كان رب الأسرة الذي تعدّى الخمسين من عمره خير بديل من فاروق ، وقد جعل الثورة جذابة ومحترمة ، وساعد وجهه السمح في البلاد العربية على دحض ما قيل من تواطؤ الاميركيين مع الانقلابيين ، كما أظهر في الداخل موهبة جديدة على المصريين .

لكن نجيب بدأ ، كإمبراطور روماني اقنع بألوهيته ، يعتقد أنه كان كما نودي به : محرر مصر وبطلاً ثورياً . رفض كلواء تلقى الأوامر من ضباط صغار ، وشك كمحافظ في أهدافهم البعيدة . اشتكى الى الدبلوماسيين الأجانب ورجال السياسة المحليين ، وراح يبحث حوله عن حلفاء .

خسر رجال السياسة والإخوان المسلمون واليساريون شيئاً كثيراً ، ولكن نجيب إنما كان بمساعدتهم له ضد ناصر يتحدى رجلاً متفوقاً عليه في المكائد . ان خلاصة الخطوات التي تمكّن ناصر بها من الاستيلاء على السلطة الشخصية التامة تظهر ناحية فولاذية في طبيعته لا يمكن استخلاصها من اعترافاته في كتاب « فلسفة الثورة » .

دام النظام البرلماني بعد الانقلاب . وكان الوفد لا يزال اعظم منظمة سياسية في مصر ، يملك شبكة من المؤيدين في القرى يعطون أصواتهم كما يأمرهم أصحاب الأراضي . وكان سكرتير الوفد العام ، فؤاد سراج الدين ، الذي لا يقل بدانة وفساداً عن فاروق ، رمز هذه المنظمة السياسية الضخمة أكثر من النحاس نفسه . ولكن استغلال سحر نجيب في رحلة موفقة في الدلتا ساعد على كسف الوفد . ومما كان له أثر اقوى من ذلك قانون جديد صدر في سبتمبر وقرر حداً أعلى للملكية الفردية للأرض بمائتي فدان . شمل القانون عشر اراضي البلد فقط الصالحة للزراعة ولم يكن كافياً لتغذية الفلاحين الجياع ، لكنه قضى بصورة فعّالة على سلطة كبار الملاكين السياسية . ثم جاءت الخطوة الثانية وكانت مرسوماً مشكوراً يقضي بأن تسجل الاحزاب السياسية في وزارة الداخلية برامجها وموظفيها وأموالها . وفي اوائل الشتاء شملت المحاكمات العسكرية زعماء الوفد ومن بينهم زوجة النحاس وصديقها الحميم سكرتير الحزب ، وذلك في فضيحة الأسلحة الفاسدة . يكفي ما ذكرته عن الأشهر الستة الأولى ، وقد استغرق القضاء على ما تبقى من الدستور ستة أشهر أخرى . حلت الاحزاب السياسية في يناير ، وحلّ الاتحاد القومي محل هيئة التحرير . أما الملكية التي بقيت في شكل وصاية على ابن فاروق الطفل فقد ألغيت رسمياً في حزيران (يونيو) ، وأعلن محمد نجيب رئيساً للجمهورية ورئيساً لمجلس الوزراء ، بينما تولى ناصر نائباً لرئيس الجمهورية ووزيراً للداخلية .

واجه ناصر بعد التخلص من الدستور ثلاث عقبات : نجيب ، والإخوان المسلمين ، واليسار المصري . أحسّ هؤلاء جميعاً بالخطر المشترك ، واذ حاولوا التكتل استعجلوا نهايتهم .

قام ناصر بالخطوة الأولى في النزاع الطويل النهائي بطرد ضابط كبير كان مقرباً الى نجيب وناقداً للزمرة العسكرية . وفي فبراير ١٩٥٤ زودته تظاهرات الطلاب بمبرر لسحق الإخوان المسلمين الذين نظموا تلك التظاهرات ، دون استشارة الرئيس نجيب . إزاء هذه الاعتداءات الواضحة على سلطته حاول نجيب طريقة صعبة على الجميع إلاّ من كان فائق المهارة : التراجع المدروس . ذلك بأنه اذ كان متأكداً من شعبيته ، قدم استقالته الى الزمرة العسكرية في ٢٣ فبراير ١٩٥٤ ، كما قدمها قبل زمن طويل الى فاروق ، فقبلت . لم يقنط نجيب . من معتقله في البيت أقر حركة قام بها اليسار لمصلحته . كان الشيوعيون المصريون يرتابون في ناصر بقدر ارتياب الإخوان المسلمين فيه ، وقد وجدوا في خالد محيي الدين قائداً كان صديقاً لناصر وعضواً قديماً في المؤامرة . دعا خالد في اليوم التالي لاستقالة نجيب الى اجتماع احتجاج في معسكر الفرسان . وهكذا جاء دور ناصر لتلقين درس معلم في تكتيك التراجع . سمح للشوارع

باظهار محبتها لنجيب الخرافي والترحيب بعودته الى الرئاسة ، لكن الجيش الذي يبغض معظمه اليسار رفض تحقيق رغبته في جعل محيي الدين رئيساً للوزارة . في ساحة قصر عابدين التي تحدى فيها عرابي الخديوي توفيق اشترك نجيب وناصر في احتفال بتسوية الأمر ، فتمت تهدئة المصريين مرة اخرى بخرافة . بدلاً من التورط في مجزرة اتفق قادتهم العسكريون على ارجاع النظام الديمقراطي بعد اصلاحه بصورة ملائمة . اظهر ناصر في هذه النقطة قدرة نادرة على التحرك في اتجاهين متعاكسين في وقت واحد . ملأ السجون سراً بالشيوعيين والإخوان المسلمين ، وطهّر في الوقت نفسه الجيش والبوليس . ثم أخذ يعدّ في الظاهر لانتخابات حرة ، واستقال في ٩ مارس من منصبي رئاسة الوزارة ورئاسة مجلس قيادة الثورة . وبعد ذلك انسحب المراقبون العسكريون من الصحف التي ازعجوها ، ورحب الصحافيون الذين أتعبهم تقييد ألسنتهم سنتين بالعودة الى الحياة السياسية الطبيعية ، والأرجح أن المثقفين المصريين تمنوا ذلك أيضاً .

لكن ناصر كان يعرف ما يفعل . خطط باستيلائه على مفاتيح السلاح للسيطرة على مستقبل مصر وإعادة تشكيله بقدر ما تسمح فرصه ومثله ، وهي المفاتيح نفسها التي فتحت لشركائه الرئيسين الأبواب الى اهداف أكثر مادية . ان الألف ضابط الذين اشتركوا في الثورة ، والضباط الكثيرون الآخرون الذين صفقوا لنجاحها كونوا مع أسرهم طبقة جديدة واسعة ، زادت كثيراً توقعاتها للرفاهية المادية ، ولمعت أمام اعينها ممتلكات الطبقة الحاكمة الثرية المؤلفة من عناصر مختلفة من انحاء العالم . لذلك عنى لهم الرجوع الى المعسكرات المغبرة تراجعاً عن كهف علاء الدين . اقترح ناصر في ٢٥ مارس على الزمرة العسكرية تعيين يوم ٢٥ يوليو موعداً لعودة الاحزاب السياسية وحق الانتخابات الحرّ للجميع ، فرأت الطبقة الجديدة في ذلك خيانة للثورة ، وقامت هيئة التحرير ونقابات العمال بالتظاهرات ، فشلّ البلد وخضع نجيب . لقد هدد نجيب ، بأمله في محاربة ناصر بارجاع النظام الغربي ، الطبقة التي يستمد كلاهما سلطته منها ، فكان عليهما ان يدفعا الحساب ، وقد دفعه الآن اللواء نجيب ، أما ناصر فقد عاد الى رئاسة الوزارة ، ورجع المراقبون العسكريون الى الصحف ، وبعد أشهر اعتقل نجيب في بيته فلم ترتفع همسة واحدة دفاعاً عنه .

ازاء تطور الحوادث الأخيرة اعطت الرصاصات التي اطلقت في ميدان محمد علي بالاسكندرية البوليس ناصر مبرراً لإزالة العقبة الباقية أمام ناصر الثائر . حكم على المرشد الأكبر الجديد للإخوان المسلمين بالسجن المؤبد ، وشنق ستة من قادتهم ، اما الاتباع فقد ترك للبوليس تولي أمرهم .

اصبحت سلطة ناصر تامة وان كانت دون تباهٍ . لم يبرح الفيلا القريبة من معسكر

العباسية التي استأجرها قبل ١٩٥٢ . أقيم حولها سور عال أخفى التوسيع المتواضع فيها ، ونصبت في مكتبه شبكة من التلفونات وصلت صوته بكل مركز للسلطة في الدولة . وقد عنى ذلك سيطرة تامة على الثورة كما عنى ، بما أن له عينين واذنين فقط ، تأخيرات كثيرة في أداء الأمور البسيطة . ولقد كان باستطاعة الرجال الذين وثق بهم احداث التشويش وجمع الثروات الكبيرة قبـل ان يجد الوقت للتدخل . اصبحت للبيروقراطية الجامدة واجبات جديدة لكن مسؤوليتها قلّت عن الماضي . قادت ناصر ريبته الفطرية الى تنظيم عدة دوائر سرية منفصلة قريبة من نظام التوازن والكبح ، فأمكن أن يكون كل ذلك مرهقاً للثورة لو أن ناصر البوليس الثوري لم يمض السنتين التاليتين في التحول الى شيء آخر : الى قائد تجسدت فيه الآمال المصرية والعربية . فعل ذلك كالسائر في نومه من الفراش الى البراد ، الذي يترك الشعور بالعقبات يوجهه في طريقه . قال : « أنا لا أفعل بل أرد الفعل » . لقد أظهر توصله الى الشهرة شيئاً أقل وعياً وأكثر غموضاً من موهبته في التآمر : عبقرية تترك افضليات الشعب العاطفية توجه أعماله . كان يقرأها كما يقرأ العراف رغبات زبائنه الباطنية ، يخطىء احياناً ويتردد غالباً ، لكنه يصل الى الباعث الرئيس أخيراً . كانت عملية مجردة مـن المنطق ، قادته احياناً ضد معتقداته الخاصة الواعية .

ازدادت شعبية ناصر بحله نزاعين خارجيين كانا يزعجان الملكية ، حلّ احدهما باتفاقية أخرجت بريطانيا من مصر (وان تركت لها حـق العودة في حالـة حرب كبرى) ، وحلّ الآخر باتفاقية اخرجت البريطانيين والمصريين من السودان الذي أصبح في سنة ١٩٥٦ جمهورية مستقلة . وربما كان يرغب في حل سهل للقضيـة الفلسطينية . قال : « في بداية الثورة كنت ضد تكوين جيش كبير . كنت مسالماً حتى بالنسبة الى اسرائيل . ان الضباط هم الذين أصروا على خطرها ، أما أنا فقـد أردت التركيز على بناء مصر ، لكن كل ذلك تغير ليلة أغار الإسرائيليون على غزة ، اذ رأيت أن علينا ان نحصل على السلاح » (١) .

ادت الغارة على غزة ، بعد مضي ست سنوات على استقلال الدولة اليهودية ، الى مقتل اثنين وأربعين جندياً مصرياً وجرح ثلاثين ، وأظهرت ان المشكلة الفلسطينية لن تحل عن طريق الأمم المتحدة . كان اول طلب قدمته اسرائيل في ديسمبر ١٩٤٨ للانتماء الى المنظمة الدولية قد رفض لأنها احتلت من الأراضي العربية أكثر مما خصص لها مشروع التقسيم . وبعد توقيعها الهدنة مع جيرانها العرب في ربيع ١٩٤٩ قبلت عضواً على أساس التزام قرار التقسيم والسماح للاجئين العرب بالعودة . ان حـق

(١) من مقابلة بين ناصر والمؤلف .

اللاجئين في استعادة أملاكهم أو التعويض منها يعكس مبادىء القانون الدولي الذي تقرر بموجبه ان يأخذ اليهود أنفسهم تعويضات ضخمة من الأملاك التي تركوها في أوروبا النازية .

لكن يشك في ان تكون القيادة الاسرائيلية قد خطرت ببالها فكرة السماح بعودة العدد الكبير من اللاجئين ، والمبرر الذي كانت تقدمه غالباً لرفض التقيد بطلب الجمعية العمومية هو انه يعني ضمّ طابور خامس قوي الى اسرائيل . وهناك سبب آخر أقوى وهو ان الصهيونيين لم يستطيعوا في عهد الإنتداب ان يشتروا سوى ٧ بالمئة من أرض فلسطين ، فعمد الاسرائيليون الى طرد مليون عربي من أرضهم ، ووضعوا تشريعاً غايته ابقاء الأرض خالية أبداً منهم . ذلك بأنهم يستطيعون بموجب نظام وصفه كاتب يهودي بأنه « غريب حتى في العصور الحديثة » مصادرة أموال المتغيبين دون تعويض لمصلحة اسرائيل ومواطنيها الجدد . وقد جاء معظم الهجمات القوية على هذا التشريع من يهود احتفظوا بمثلهم كهارون غوردون أو جودا ماجنس . كتب « دون بيرتز » في دراسة لطريقة اسرائيل في معاملة الأقلية العربية فقال : « كل عربي في فلسطين ترك مدينته أو قريته بعد ١٩ نوفمبر ١٩٤٧ كان عرضة لتصنيفه متغيباً بموجب الأنظمة » . وتابع بيرتز قوله فأظهر كيف طبق هذا النظام على عكا ، وهي مدينة مخصصة في الأصل للعرب بموجب مشروع التقسيم ، ولكن اليهود استولوا عليها في القتال الذي دار بعد انسحاب البريطانيين وقدوم الجيوش العربية . كانت قـد نشأت حول مدينة عكا العربية القديمة ، كما هي الحال في فلسطين عموماً ، ضاحية عصرية معظمها يهودي وفيها كثيرون من العرب الأثرياء . « كل العرب الذين لهم املاك في المدينة الجديدة صنفوا كمتغيبين على الرغم من أنهم لم يبتعدوا سوى امتار قليلة داخل المدينة القديمة . كذلك الثلاثون ألف عربي الذين هربوا من مكان الى آخر داخل اسرائيل ، ولم يتركوا البلد أبداً ، كانوا عرضة لاعتبارهم متغيبين » . وأكثر من ذلك ظلماً ، من وجهة النظر العربية ، حق الحاكم العسكري الاسرائيلي في إعلان منطقة عربية معينة منطقة محظورة ، وحرمان العرب أصحابها من دخولها ، وبذلك تصبح عرضة للمصادرة .

أما ما بدا جوراً نظرياً للإنسانيين من اليهود المقيمين في اميركا ، فقد شعر بـه الفلسطينيون كاعتداء صارخ . حشر ربع مليون عربي تحت الإدارة المصرية في قطاع غزة ، فكانوا من وراء الأسلاك الشائكة يرون أراضيهم الخضراء في أيدي الغرباء . كان ناصر لا يستطيع ، كزعيم عربي ، ان ينكر آمال اللاجئين في العودة بينما تدعم الجمعية العمومية هذه الآمال في كل سنة . وبما أنه كان لا يستطيع ان يطلب للفلسطينيين شيئاً أقل مما تطلبه الجمعية العمومية ، لم يتمكن من القيام بشيء عملي لارجاعهم .

واذا كان قد سمح للاجئين بالإغارة على ما يعتبرونه أرضهم ، فربما كانت حجته ان هذه الأعمال اليائسة قد تذكر الدول التي خلقت المشكلة الفلسطينية بأنها لم تحلّ بعد .

كانت الغارة على غزة جزءاً من عادة رد فعل اسرائيل لما رأته تحدياً عربياً . وقد سبقتها غارتان اخريان : واحدة على قبية في اكتوبر ١٩٥٣ قتل فيها خمسة وسبعون شخصاً وهدمت القرية ، وأخرى على نحالين في ٢٩ مارس ١٩٥٤ قتل فيها أربعة عشر شخصاً ودمرت القرية أيضاً . وقد تبعت ذلك غارات كثيرة أخرى ، كان الرأي العام الدولي في كل منها يعنف اسرائيل . ولكن الغارة على غزة كانت أول غارة على مصر الثورية ، فاضطر ناصر كقائد انقلاب إتهم العهد السابق بإضعاف الجيش ، وكضرورة للبقاء السياسي ، إلى الحصول على وسائل الدفاع . لمح بعد الغارة مباشرة الى انه اذا لم يستطع الحصول على السلاح من المصادر التقليدية في الغرب سيتجه الى الشرق . وربما اعتبر هذا التلميح تهديداً فارغاً .

كان ناصر في ابريل لا يزال يأمل أن يعطيه الغرب السلاح الذي طلبه لجيشه . وفي الشهر نفسه سافر الى اندونيسيا ، آخر بلد تغلغل فيه الإسلام ، حيث رحبت باندونغ بأول مؤتمر للزعماء الأفرو آسيويين . نتج عن هذه الرحلة اكتشافان : الأول ان العرب ، لا المصريين وحدهم ، افتخروا بالشاب الناطق باسمهم الذي كان يتنقل بين رجال السياسة بيسر ، لا يقل امتيازاً أو شهرة عن نهرو الهند أو شو إن-لاي الصين . والثاني ان غرائز ناصر اكتشفت حلقة جديدة من القوة فيما قد يدعى « الأكثرية الصامتة » من الحنطيين أو السود أو الصفر الذين جربوا السيطرة الغربية ، وقد كان أقوى شعور مشترك بينهم الرغبة في النجاة من التنافس بين الدول .

جاء الاعتراف « بعدم الانحياز » في فترة حرجة كانت تمرّ بها علاقة الشرق الأوسط بالغرب . أقدمت تركيا ، بسبب مخاوفها التقليدية من التوسع الروسي ، على محالفة أميركا واستمدت من ذلك بعض الفائدة . أما في بقية الشرق الأوسط فقد كان الوضع مختلفاً . زاد اعتماد اسرائيل على التأييد الأميركي الدبلوماسي والمالي لكن لم تكن عضواً رسمياً في اي تحالف غربي ، بينما نظرت فرنسا المتورطة مع القومية العربية في الجزائر بعطف الى دولة ملتزمة بموقف معاد للعرب . وأما الدول الأخرى التي بدأت بالثورة العربية فمنها ما أفلت حديثاً من النفوذ البريطاني ومنها ما كان يحاول الإفلات . وكان الاهتمام بروسيا السوفييتية آخذاً في التضاؤل بين الاسرائيليين وضئيلاً بين العرب .

كان جون فوستر دالاس ، وزير خارجية الولايات المتحدة في حكومة ايزنهاور الأولى ، كارهاً للشيوعية كره إليزابيت تيودور لليسوعيين . رأى ان تفسخ

الامبراطوريات التقليدية قد يفتح للإتحاد السوفييتي باباً الى الجنوب ، فكان هو ونظراؤه من البريطانيين تواقين الى إعادة جمع العرب في شبكة مأمونة من الأحلاف والقواعد .

كان اعتراض ناصر في ١٩٥٤ – ١٩٥٥ على الصداقة الأميركية أقل من اعتراض كثيرين من العرب ، فقد تمتع بالتأكيد الأميركي الدبلوماسي وببعض العون المادي . وفي أواخر ١٩٥٥ كان شديد العداء للشيوعية لأسباب غير أميركية كما اثبتت مقدمته لكتيب ضد الشيوعية نشر في تلك السنة عنوانه « حقيقة الشيوعية » ، هاجم فيها الماركسية من جهة نظر تحررية وفردية ودينية . كذلك كان يرتاب في الشيوعيين المصريين ويرى أنهم أكثر ولاء لمصالح الاتحاد السوفييتي منهم لمصالح وطنهم .

لو أن الغرب فرض تسوية لقضية فلسطين قائمة على قدر من الإنصاف للاجئين ، وزود المصريين بأسلحة دفاعية ؛ ولو ان رجال الدولة الغربيين تصرفوا بصورة أكثر براعة ، لربما غامر ناصر بالانضمام الى تحالف غربي وخسر شهرته مقابل المكاسب المادية . وما عرف بحلف بغداد لربما أصبح بدلاً من ذلك حلف القاهرة . ولكن السياسة الغربية في الشرق الأوسط كانت تكهنية كتصريح بلفور ، وقد تمّ وضعها الى حدّ بعيد في العاصمة نفسها . وبينما كان البريطانيون في ١٩١٧ حكام عالم تعبين أصبحوا في ١٩٥٤ تعبين منفعلين متنازلين عن حكم العالم ، كما كانت سياستهم غير مترابطة . شددوا من جهة على الخطر السوفييتي الذي اقتضى تعاون البلاد جنوبي القفقاس بتعزيز قواها العسكرية ، ومن جهة أخرى قابلوا طلب العرب للأسلحة بحجة ان قوى الجيوش العربية مجتمعة يجب ألاّ ترجح على قوة اسرائيل التي كان عدد سكانها في ذلك الحين لا يزيد على مليون . وقد صحب انعدام المنطق هذا جهل مطبق وذلك بجعل نوري السعيد ، رئيس وزراء العراق وحليف بريطانيا ، راعياً للحلف المقترح ضد الشيوعية . وهكذا عقدت في بغداد في ١٩٥٤ معاهدة بين عراق نوري السعيد وبين تركيا عدنان مندريس ، على ان تنضم اليها فيما بعد بريطانيا وإيران وباكستان والولايات المتحدة . لقد اسرعت بريطانيا بوضعها نوري السعيد في هذا المقام في هدم ما شغلت بخلقه منذ أيام جيرترود بل ، لأن تأكيد زعامة الهاشميين كان أمراً لا تستطيع مصر تجاهل خطره . ذلك بأن مصر كانت أكبر الدول العربية وأكثرها تقدماً . وقد اعترف دستور جامعة الدول العربية بوضعها المهيمن فنص على أن يكون الأمين العام مصرياً وأن تكون القاهرة مركز الجامعة . ولو جاء التحدي من لبنان لكان أقل مضايقة لأن لبنان لن ينافس مصر إلاّ في حقل التعليم ، أما العراق فيملك ثروة هائلة ، وقد كانت بغداد في العصور الوسطى لا القاهرة أكبر مدينة عربية ، فاذا ما تمت تنمية بترول العراق وكبريته وازيل الملح من أرضه الزراعية الواسعة فعادت

الى خصبها ولو كما كان في العصور الوسطى فقط ، أصبح العراق الحديث أغنى من مصر وأقوى . ولهذا كان ردّ فعل ناصر لهذا التحدي لعن حلف بغداد . وقد أظهر مؤتمر باندونغ ، كما أظهرت نتائجه ، كم كان موقفه مستحسناً لدى العراقيين والعرب الآخرين .

عاد ناصر من أندونيسيا الى القاهرة التي جاءها دانيال سولود ، الدبلوماسي السوفييتي الجديد ، بتفسير للسياسة السوفييتية غير ستاليني . حاول سولود أن يثبت ان العرب والروس تجمعهم أهداف معينة على الرغم من اختلاف النظم الاجتماعية . تخشى روسيا امتداد شبكة الدفاع الغربي الى الجنوب منها ، اما العرب الذين لم يكادوا يتخلصون من الحكام الغربيين فلا يريدون عودتهم بمظهر جديد . وفي سبتمبر جاء ردّ فعل آخر من ناصر ، وذلك نتيجة تجدد رفض الغرب تزويده بالسلاح ، فأعلن اتفاقية تقوم روسيا بموجبها ، عن طريق تشيكوسلوفاكيا ، بتزويد مصر بكمية كبيرة من الأسلحة الحديثة . ان الرضى الذي ساد الطبقة العسكرية رددت صداه عاطفياً الجماهير العربية التي لم تر في الاتفاقية تغلغلاً شيوعياً في المنطقة بل عملاً من أعمال التحدي . وهكذا وجدت خارج الشرق الأوسط ، منذ أكثر من قرن ، قوة يلجأ إليها المتحدون العرب .

فسّر هذا الدرس بسرعة مذعورة في الغرب ، وتصاعد الخلاف ، ولكن كلما زاد توعّد الغرب زادت شعبية ناصر . وفي ديسمبر ١٩٥٥ أثنت بريطانيا بلا وعي على نفوذه المتزايد بارسال رئيس أركان الامبراطورية الى عمان العاصمة الثانية في المنطقة التي اعتبرت آمنة . وكان كل شيء في نشأة الملك حسين ، ومن ضمن ذلك تلقيه العلم في هارو وساندهيرست ، يفرض عليه الاعتماد على بريطانيا . ولكن التظاهرات التي قامت في الشوارع وغذاها الفلسطينيون الذين يكونون ثلثي سكان الأردن جعلته يقرر ، هو ومستشاروه ، انه ليس من الحكمة الانضمام الى حلف بغداد الذي يرئسه اسمياً ابن عمه فيصل الثاني ملك العراق . ثم اتخذ في مارس ١٩٥٦ خطوة أكثر إثارة في الإتجاه الوطني فعزل فجأة وبمبادرة شخصية غلوب باشا قائد الجيش العربي . كان عزل غلوب باشا الفجائي مأساة إليمة للرجل الذي أمضى ستاً وثلاثين عاماً جندياً مع العرب ، وقاد الجيش العربي الأردني ستة عشر عاماً ، وجعله قوة منظمة جريئة متضامنة . كان غلوب باشا مخلصاً للعرب ، لم ير اي تناقض بين ما هو صالح لهم وبين ما هو صالح لبريطانيا ، وكان تقديسه للوطن الذي تبناه لا يقل عن تقديسه لوطنه الأصلي ، وقد دفن ولده في عمان وكان ينتظر أن يدفن هو أيضاً بين الأردنيين الذين أحبهم . كانت دوافع الملك حسين الى التخلص من هذا الموظف المخلص ، وطنية .

استقبل سلوين لويد ، وزير خارجية بريطانيا المحافظ ، وكان يزور القاهرة ، الخبر كعرض حاقد من ناصر لقدوته على الإزعاج ، فقررت بريطانيا استعمال الاقتصاد للقيام بالدور الذي كانت تقوم به البوارج في الماضي ، فقطعت اولاً نصف مشترياتها من القطن المصري ، وفكرت ثانياً في سحب التأييد الأنجلو – أميركي للسدّ العالي في أسوان أكبر مشاريع ناصر الداخلية . في الوقت نفسه زادت مصر بيوع القطن للكتلة الشرقية وأعلنت في مايو ١٩٥٦ اعترافها بالصين الشيوعية .

أصبح السدّ العالي ضرورياً لكبرياء مصر ، ضرورة القطن لبنيانها الاقتصادي السابق . كان الكثير من مياه النيل لا يزال يذهب هدراً ، فالري جنوبي أسيوط يتم عن طريق الحياض ، أي غمر الارض بمياه النهر مرة في السنة ، وقوة النهر في توليد الكهرباء . دعا بعض المهندسين الى بناء سلسلة من السدود الصغيرة على النيل من أسوان الى القاهرة ، ودعا آخرون الى بناء سدّ كبير بين تلال الغرانيت جنوبي السدّ الذي أقامته بريطانيا قرب أسوان ، فراقت ضخامة هذا السد لرجال الثورة . والأرجح أنه لا لبريطانيا ولا الولايات المتحدة قصدت بجدّ المساعدة على بناء السدّ نظراً الى نفقاته الباهظة التي لن يقرها رأي عام كونته الصحف الموالية لإسرائيل المعادية لمصر . ومهما يكن فقد اخبر مستر دالاس ، في يوليو ١٩٥٦ ، السفير المصري في واشنطن ، ان الولايات المتحدة قد سحبت عرضها لبناء السدّ في أسوان نظراً الى عدم استقرار الاقتصاد المصري . أما بريطانيا التي يرجح أن تكون هي التي دفعت دالاس الى اتخاذ هذه الخطوط فقد اعلنت سحب عرضها في الوقت نفسه. كانت بريطانيا واثقة من ان الاتحاد السوفييتي سينظر في تمويل السدّ بعين عدائية كعينها ، فقد كان الحزب الشيوعي محرماً في مصر وكثيرون من اعضائه في السجن . لقد زجّ ناصر في وضع رجل طلب قرضاً من مدير بنك فرفض طلبه لا في مكتبه بل أمام اصدقائه وأعدائه على السواء، وكان الأمل أن يؤدي ذلك الى تحطيمه أو خضوعه .

اصابت بريطانيا في شيء واحد . لقد ولّت الأيام التي كان فيها الإنذار أو الصدّ يهدىء الرجال في المكاتب الفخمة الذين يلبسون الطربوش ويحملون في ايديهم السبحة ، ويحملهم على كتم اليأس المحزن . ان انتشار الراديو الصغير الرخيص أوجد ملايين المستمعين من العرب الذين كانوا يتتبعون كل حركة في اللعبة السياسية كما يتتبع الأميركيون لعبة البيسبول والانكليز لعبة كرة القدم ، وقد لاحظوا الأهانة التي وجهت الى ناصر ، وعرفوا ان القصد منها محاولة الحط من قدره .

وقف ناصر مرة ثانية ، في جوّ عالمي متوتر ، خطيباً في ميدان محمد علي

بالاسكندرية في ٢٦ يوليو ، وهو يوم الذكرى الرابعة لتنازل فاروق عن العرش .
كان الاجتماع ليلاً أيضاً ولكن التفاعل بين ناصر وبين مستمعيه كان في هذه المرة داوياً كعاصفة صيفية . لم يعد « واحداً بين كثيرين » بل الشخصية الوحيدة التي يتطلع الشرق الأوسط إليها . حتى نوري السعيد ، وكان قد جاء لندن مع الملك فيصل في زيارة رسمية ، أدار احدى أذنيه نحو ميدان محمد علي خلال العشاء .

كانت خطب ناصر القديمة تفجر المستمعين ، ولكنه في هذه المرة تكلم باللغة العامية ، لغة المقاهي والبيوت . كان الخطاب مرتجلاً ولكن معداً من قبل . ذلك بأن رجالاً مؤتمنين في مصر كانوا في عدة أماكن يحملون غُلُفاً مختومة تحتوي تعليمات مفصلة لاحتلال مكاتب شركة قناة السويس وأملاكها ، على أن يفتحوها حين يذكر اسم « دي ليسبس ».حين أعلن ناصر بين الهتافات الصارخة تأميم قناة السويس لاستخدام دخلها في تمويل السد كان التأميم قد تم . وهناك بعيداً في لندن تسلم نوري السعيد وقد شحب وجهه ، الخبر من وكالة الأنباء فالتفت الى مضيفه أنطوني أيدن وقال : « يجب أن تضرب الآن . إضرب بسرعة ! »

الفصل الخامس

بعد خمسة أشهر من التحدي الناصري انسحب آخر الغزاة البريطانيين من بور سعيد.أصغى سير أنطوني إيدن الى نصف نصيحة نوري السعيد ، وضرب ضربته ، ولكن ليس بسرعة،ولا وحده كما قصد نوري . أبحرت قوة فرنسية مع البريطانيين عائدة الى قبرص ، وبعد بضعة اسابيع أخلت اسرائيل تحت ضغط شديد من الولايات المتحدة قطاع غزة وأجزاء من سيناء كانت قد احتلتها . ثم تقدمت قوات الطوارىء التابعة للأمم المتحدة وراء الغزاة وحطت في الجانب المصري من خط هدنة ١٩٤٩ لأن اسرائيل لم تسمح لها بالإقامة في أرضها .

قال مراسل بريطاني في الشرق الأوسط : « وهكذا حدث أن خسرت مصر المعركة وربحت الحرب » . أما راديو القاهرة فقد أذاع على العالم العربي قصة اخرى جعلت حتى خسارة المعركة أمراً مشكوكاً فيه . زينت المدارس من بيروت الى أم درمان بتماثيل الجنود المصريين الأبطال الذين كانوا يصطادون المظليين الهابطين بالمئات ، وصور إعلان عام ملصق حذاء جندي مصري يسحق شخصاً معقوف الانف وعليه نجمة داوود ، ودعي يوم ٢٣ ديسمبر في روزنامة العطل المصرية « يوم النصر » . وحين زار جمال مدينة بور سعيد في يوم الذكرى الأولى اضطر المشير عامر الى استعمال عصاه لإبعاد الجماهير عن سيارة المنتصر .

أما في هيكل جانوس فكل شيء ساخر . لا شيء كما يبدو وان كانت الخرامات ، كالفسيفساء والمومياء ، تدوم طويلاً في الهواء الجاف .

اشتركت في حادث السويس سنة ١٩٥٦ ثلاثة أطراف ، ومن المهم ان تقويم أهداف كل طرف ومدى تحقيق هذه الأهداف أو فشلها .

كان الطرف الأول ما دعاه العرب الغاضبون « الاستعمار » . كانت بريطانيا وفرنسا صاحبتا أكبر امبراطوريتين ، تتحولان بسرعة الى دولتين غير استعماريتين . بعد ان منحت بريطانيا منذ ١٩٤٥ الاستقلال عدداً من الشعوب في آسيا وافريقيا احتفظت في الشرق الأوسط بمستعمرتين فقط هما قبرص وعدن ، وبقي لها نفوذ في مملكتي العراق والاردن الهاشميتين ووضع ممتاز في الكويت والإمارات العربية على شاطىء الخليج الغربي . اما فرنسا فقد كانت تتبع نظرياً سياسة تحرير المستعمرات منذ تصريح الجنرال ديغول في برازافيل سنة ١٩٤٣ ، وقد خسرت في ١٩٤٥

لبنان وسوريا بفعل الضغط البريطاني ، وكانت في ١٩٥٦ مشغولة بحرب استعمارية ضارية في الجزائر لم يضاهها سوى التورط الأميركي في فيتنام بعد عشر سنين . كان في الجزائر جيش فرنسي مؤلف من نصف مليون جندي يؤيدهم مليون من المستوطنين الفرنسيين يحاربون تسعة ملايين فلاح جزائري . قدمت مصر لثوار الجزائر عوناً معنوياً اكثر منه مادياً ، فقد كانت الجزائر تنتسب الى الدوائر الثلاث التي عرفها ناصر بانها تحيط بمصر ، اذ كانت عربية وافريقية وإسلامية في وقت واحد . ارتاحت فرنسا غاضبة الى الاسطورة القائلة ان ناصر كان مسؤولاً عن الانشقاق الجزائري كما ارتاحت لندن الى الأسطورة القائلة ان ناصر هو الذي طرد جلوب باشا .

كانت قناة السويس رمزاً عاطفياً للبلدين . خططها الفرنسيون ودفعوا الكثير في سبيلها وكان الأفراد منهم يملكون أكثرية الأسهم الخاصة في الشركة ، أما البريطانيون فقد استفادو ر كثيراً من الأسهم التي اشتراها دزرائلي ، ولكن الأهم من الربح فائدتها كصلة بين بريطانيا وبين امبراطوريتها شرقي السويس . ومع أن أهميتها قد تضاءلت بعد خسارة هذه الامبراطورية فقد بقيت نقطة حساسة في نظر جيلين من الانجليز .

بيد ان العقول الرزينة التي خططت الاستراتيجية الامبراطورية ادركت ان القناة كانت رمزاً ، وان المهم هو علاقة مصر الاستراتيجية بكتلتين كبيرتين من الماء : بالبحر المتوسط كامتداد للمحيط الأطلسي وبالبحر الأحمر كامتداد للمحيط الهندي ، وكذلك ببحر جوفي من البترول محيط بها .

اتخذ قرار الضرب بعد تأميم القناة فوراً ، لكن الضربة نفسها تأخرت بينما أعدّ الستار المبرر لها . كان هدف غزو السويس واضحاً ، محاولة لإعادة توطيد السيطرة الانجلو – فرنسية لا لاحتلال منطقة القناة فقط ، وقد بررت بمقدار تحصينها لمواقع بريطانيا وفرنسا في الشرق الأوسط . عنى ذلك لبريطانيا شدّ البراغي الرخوة في نظام سيطرتها غير المباشرة على العراق والأردن ، وربما مدّ هذا النظام الى مصر بعد اذعانها ، واسكات الأسقف مكاريوس في قبرص ، ومنع اي اضطراب حديث في جنوبي شبه الجزيرة العربية . أما فرنسا فستكون مكافأتها في حالة هزيمة ناصر القضاء على حركة الاستقلال الجزائرية .

لكن بريطانيا وفرنسا كانتا تمثلان قوة أكبر منهما، وقد أظهر رئيس الوزراة البريطانية بحرصه على تجنيد التأييد من مستعملي القناة الآخرين ، وبادعاءاته الأخيرة ان للشيوعيين خططاً للاستيلاء على المنطقة . كانت تلك القوة هي «الغرب» بمعنى ،والشعوب البيضاء بمعنى آخر ،والبلاد المتقدمة ضد البلاد النامية بمعنى ثالث ،

وأخيراً النظام الرأس مالي . ثم ان لبلاد غربية اخرى مصالح مادية واستراتيجية في الشرق الأوسط كالاحتكار الأميركي الذي ينتج بترول الملكة العربية السعودية وبيعه ، وهولندا التي لها مصلحة كبيرة في شركة نفط العراق . لقد كان العالم العربي ، استراتيجياً ، ، الجناح الجنوبي لحلف شمال الاطلسي .

وإذن فقد بررت المغامرة الأنجلو – فرنسية نفسها كطريقة حكيمة لا لضمان مصالح بريطانيا وفرنسا المباشرة فحسب بل ايضاً مصالح اوروبا الغربية واميركا الشمالية الأكثر تعقيداً .

كانت اسرائيل الطرف الثاني في الغزو . طار بن غوريون سراً الى فرنسا للبحث في هجوم ثلاثي تقوم فيه اسرائيل بدور مخلب القط ، لان الغزو الإسرائيلي لسيناء يعطي بريطانيا وفرنسا ، وهما من اعضاء مجلس الأمن الخمسة الدائمين ، مبرراً للتدخل ظاهراً لمنع إلحاق الضرر بالطريق المائي الدولي، وباطناً لاعادة سيطرتهما على الشرق الأوسط .

أما دوافع اسرائيل الى ربط نفسها ببريطانيا وفرنسا فلم تنطو على ولاء خاص للخطة الهيرتزلية في توفير قاعدة أمامية لأوروبا ، بل نبعت من الشعور بحيرة شديدة إثر تحقيق الاستقلال . على الرغم من نجاحها في تنمية الأرض المغتصبة وإسكان اليهود الآتين من الخارج فيها ، تحولت الدولة التي خطط لها أن تهدم الغيتو الى غيتو أوسع وأحكم اغلاقاً . اشترك الاسرائيليون في مزاج قومي يرهب الأماكن المغلقة . لم تكن لديهم مواصلات برية في اي اتجاه ، بل كانوا يعتمدون على الطرق البحرية الى العالم الخارجي عبر البحر المتوسط ، أما الطرق البحرية الى الشرق فكانت مسدودة . استولى الإسرائيليون على قرية أم رشرش الواقعة على خليج العقبة بعد مضي أسبوعين على اتفاقية الهدنة في سنة ١٩٤٩ وسموها « إيلات » ، ولكن إيلات كانت مقطوعة عن البحار الكبيرة لأن المدخل الوحيد الى خليج العقبة عبر المياه المصرية في ممرات تيران ، وقد أبقت مصر هذه الممرات مغلقة في العهدين الملكي والجمهوري . كذلك منع المصريون السفن والشحنات الاسرائيلية من عبور قناة السويس (وكانت بريطانيا قد اغلقتها في وجه الألمان في الحربين العالميتين) ، وردت مصر على طلب الأمم المتحدة فتح القناة للملاحة الاسرائيلية بالرفض الى أن تذعن اسرائيل لقرارات الأمم المتحدة الخاصة بمشروع التقسيم وعودة اللاجئين . اتبعت اسرائيل سياسة الانتقام لضرب اللاجئين بقسوة من جهة ، وللتخلص من عزلة الغيتو من جهة أخرى ، لكن تلك السياسة لم تمنع تسلل الفلسطينيين اليائسين أو تهدىء عداوة جيران اسرائيل العرب .

زحفت المدرعات الاسرائيلية على سيناء في ٢٩ نوفمبر ١٩٥٦ ، وقدمت تل أبيب تفسيرين لذلك الانتهاك الخطير لميثاق الأمم المتحدة ، عرض أحدهما غزو

سيناء كمجرد غارة انتقامية على نطاق أوسع ، وعرضه التفسير الآخر كحرب وقائية هدفها تحطيم السلاح الروسي الجديد قبل أن تتقن مصر استعماله. وبما ان ميثاق الأمم المتحدة لا يقرّ الغارات الانتقامية ولا الضربات السبقية فان التفسيرين الاسرائيليين لم يقنعا سوى القليل من اعضاء الأمم المتحدة ، وقد عجزا عن اقناع الولايات المتحدة التي اشتركت قبل اسبوعين مع بقية مجلس الأمن في إدانة الغارة الاسرائيلية على قرية السموع في الأردن ، تلك الغارة التي أدّت الى نحو مائة وخمسين إصابة وهدمت أكثر من مائة بناية .

تنبثق سياسة اسرائيل العربية من اجماع مركزي لا يناقشه أحد ، وهو الحاجة الى ضمان بقاء المجتمع اليهودي في فلسطين . احتج خلفاء غوردون وماجنس بأن الأساس النهائي الوحيد لبقاء اسرائيل هو قبول الدولة اليهودية لدى جيرانها العرب ، وقالوا ان القوانين المحلية التي حولت العرب في اسرائيل الى مواطنين من الدرجة الثانية أو غرباء مغامرين ، وزادت ضغينة العرب ، غير مجدية وغير خلقية . امـا المتطرفون ، ومنهم بن غوريون ومناحيم بيغن ، فقد ارادوا زيادة سكان الدولـة اليهودية وتوسيع حدودها . ادعى بن غوريون ، حين أعلن الغزو ، «أن الجيش الاسرائيلي لم يحاول احتلال أرض العدو في مصر نفسها وقصر عملياته على تحرير المنطقة من شمالي سيناء الى رأس البحر الأحمر» ، ووصف جزيرة تيران بأنها «جزيرة يوتفات جنوبي خليج إيلات التي حررها الجيش الإسرائيلي» .

وهكذا ستكون العملية من وجهتي النظر المتضاربتين — المسالمة والتوسعية — نجاحاً لاسرائيل اذا فازت بقبول العرب أو أسست شيئاً قريباً من امبراطورية اسرائيلية قائمة على القوة المضمونة .

أما اهداف مصر في ١٩٥٦ ، بأضيق المعاني ، فقد كانت الاحتفاظ بقنـاة السويس ، وبأوسعها إحباط اي محاولة تقوم بها الامبريالية لاستعادة سيطرتها . ويمكن تحقيق الهدف الأول اذا فشلت محاولات بريطانيا وفرنسا للاستيلاء على الممر المائي ، بينما لا يتحقق الهدف الثاني الأصعب إلاّ اذا لم تعد اسرائيل «سوراً في آسيا للدفاع عن اوروبا ، وقاعدة أمامية للحضارة ضد البربرية» . كذلك كان في مصر إجماع على انه يجب ألاّ يسمح لاسرائيل بالتوسع ، وكان فيها متطرفون يريدون قذف الاسرائيليين في البحر ومعتدلون يأملون في السلام عن طريق التفاوض في المستقبل مع زعماء يهود لهم سياسات أقل عدواناً من سياسة بن غوريون أو بيغن .

دان بريطانيا وفرنسا حلفاؤهما منذ البداية . رأت الدول الغربية الأخرى أنها اذا تغاضت عن إحياء سياسة البوارج عادت العدد المتزايد من الدول التي تخلصت من الاستعمار . أما الولايات المتحدة فقد أغضبها خاصة أمران : توقيت العملية مع

انتخابات الرئاسة التي تقوم فيها أصوات اليهود بدور غير صغير . ومع أن ايزنهاور عاد الى الرئاسة بأكثرية زائدة على الرغم من معارضته لعمل اسرائيل إلاّ انه اشتم رائحة التهديد . والأمر الثاني اخفاء خبر الغزو عنها من دولتين حليفتين ، ومن اسرائيل الدولة الصديقة . هذا وقد هزّ الرأي العام الحرّ استعمال القوة والأكاذيب التي قنعت بها الغزوة ، وفي الأمم المتحدة هدد داغ همرشولد ، الأمين العام ، بالاستقالة اذا لم يجبر مجلس الأمن الدول الثلاث المعتدية على الانسحاب .

ربما كانت خسارة المعركة منشطة لبريطانيا وفرنسا كبعض العلل لبعض المرضى ، وربما كانت عملية حلّ الاستعمار المثيرة بحاجة الى صدمة تواجه بها الدولتان الحقائق المتغيرة وتعملان على أساسها . قيل ان مشكلة الملك لير لم تكن نبذ السلطة بل نبذها بصورة غير تامة . لذلك كان أسهل على بريطانيا وفرنسا ، بعد ١٩٥٦ ، التخلي عن امبراطوريتيهما الاستعماريتين . وقد أدت موافقة فرنسا على حرية الجزائر التامة الى علاقات بها وبالدول العربية الأخرى أطيب مما كانت تتكهن به .

قررت المصالح الغربية داخل بريطانيا وفرنسا ووراءهما ومن حولهما ان خطأ واحداً يجب ألاّ يعني خسارة الحرب ، وقد أصبحت كيفية حماية هذه المصالح في الشرق الأوسط شغلاً جديداً انهمكتا فيه وصحبته أخطاء جديدة .

فسّر جناحا الرأي الاسرائيلي حوادث ١٩٥٦ بطرق مختلفة . آلم خلفـاء غوردون وماجنس ان يروا اليهود مشبعين بالاتجاه الفاشستي ، متهمين من قبـل الآخرين بالعدوان . لم يفز الاسرائيليون بقبول جيرانهم العرب بل ورطوا أنفسهم كمتآمرين في محاولة إحياء الماضي الاستعماري . أظهر حادث واحد فظيع بعيد عن جبهة القتال ان ما كان يخشاه ماجنس قد وقع . إنه مذبحة كفر قاسم التي حدثت في ١٩٥٦ في اليوم نفسه الذي أقدمت فيه اسرائيل على غزو مصر . فقد اعلنت حكومة اسرائيل منع التجول في القرية بينما كان معظم رجالها في المزارع خارجها ، ولمـا عادوا في المساء اطلقت عليهم النار لمخالفة منع التجول الذي لا علم لهم به ، فقتل منهم ستة واربعون رجلاً ، ولم ينشر عدد الجرحى . لم تعترف الحكومة بذلك إلاّ بعد مضي اسبوع على الحادث وانتشار الخبر الذي لم يعد بالامكان إخفاؤه . ثم ان الاعتراف الاسرائيلي اقتصر على كفرقاسم ، ولكن التقارير الموثوقة تقول ان الحادث نفسه تكرر في قرى عربية أخرى .

لم يحاول دعاة العنف الاحتفاظ بغزة ولا بسيناء ، ولكنهم حصلوا لقاء الجهد الكبير على مغنم صغير . ذلك بأن الضغط الأميركي الذي أجبر الاسرائيليين عـلى الانسحاب ضمن مقابل ذلك ان تقوم قوة تابعة للأمم المتحدة بحراسة شرم الشيخ عند رأس سيناء ، وبذلك سكتت المدافع التي كانت تغلق خليج العقبة وأصبح بالامكان

استعمال إيلات في تصدير البضائع الى افريقيا والشرق الأقصى واستيراد البترول من إيران .

على ان دعاة العنف الاسرائيليين حصلوا على تعويض أكبر في المدى البعيد . درس زعماء الصهيونية نتائج الحملة بوضوح لا تظلله العاطفة ، وأدركوا أنهم خسروا حملة في حرب طويلة ، وان سبب ذلك ارتباطهم بحلفاء مكشوفين أقل تصميماً منهم . ان انسحاب بريطانيا وفرنسا جعل من المستحيل عليهم ألاّ يقتفوا أثرهما . كانت اسرائيل بحاجة الى حلفاء في هجومها على مصر لحماية تل أبيب وحيفا من الغارات الجوية ، وقد أمنت الطائرات الفرنسية هذه الحماية . كان درساً قاسياً ، أظهر ان على اسرائيل في الحملة التالية ألاّ يكون لها حلفاء ظاهرون يشاركونها النصر أو يضطرونها الى التراجع . وكي تستغني عنهم عمدت الى بناء قوة جوية كبيرة بأية كلفة ودون ضجة . اما الحلفاء الخفيون فكانت ، طبعاً ، ترحب بهم .

ان عبقرية المصريين في خلق الأساطير منعتهم من تحليل حوادث ١٩٥٦ بروية كما يفعل الأوروبيون أو الأسرائيليون المتمرسون بالأساليب الأوروبية . لم تربح مصر معركة عسكرية لأن حملة سيناء هذه ، من ناحية عسكرية دقيقة ، التي كانت ستتبعها حملة ثانية، كانت اخفاقاً تاماً للجيش المصري . ذلك بأن ضباط عامر ، بعد أربع سنوات من الحكم العسكري ، حاربوا بمهارة أقل من مهارة ضباط فاروق . كثيرون منهم نزعوا الزي العسكري وارتدوا الجلبيّة واختفوا في بيوت بور سعيد بينما القناصة المراهقون في زوايا شوارع « المدينة البطلة » هم الوحيدون الذين أبدوا مقاومة حقيقية . كذلك لم تربح مصر الحرب لأن الحرب لا تربح إلاّ حين يوقع صلح ملائم لمصالح العرب .

أما ما ربحته مصر فهو معركة إرادة القوة والدبلوماسية . لم يفكر شعب مصر ولا ناصر نفسه في الاستسلام ، وهذا شيء رائع في التاريخ المصري . أدار ناصر حملته في الأمم المتحدة دون خطأ ، كما أدار حملته ضد محمد نجيب ، وكانت النتيجة بقاء مصر في الميدان .

عرض هذا النصر المعنوي على الرأي العام كأنه نصر احرزه الجيش . هناك حادث واحد قد يغني عن ذكر الكثير . هتف المصريون للمتطوع السوري ، جول جمال ، الذي ضحى بحياته واغرق وحده البارجة الفرنسية « جان دارت » ، وقد ظلت هذه البارجة أسابيع وأشهر بعد ذلك تبحر في البحر المتوسط الشرقي بهدوء وسلام ، ومع ذلك بقيت أسطورة جول جمال سائرة دون تحدّ .

اجهضت الأسطورة اي طلب شعبي ، يطلب في اي بلد يدفع الضريبة ، لتغيير ضباط الجيش وإعادة تنظيمه وتدريبه ، وبدلاً من ذلك ازدادت سلطة الضباط وارتفع

مقامهم الاجتماعي بين ديسمبر ١٩٥٦ وبين المناسبة التي جاءت بعد عشر سنين ونصف السنة وأعطتهم فرصة ثانية للتألق .

كان للنصر الذي اعتاد عبد الناصر الاحتفال به سنوياً حتى ديسمبر ١٩٦٦ أثر غادر فيه . بينما كان يتحدث عن الأسطورة اعترف في محادثاته الخاصة بعجز الجيش العربي عن التغلب على اسرائيل في المستقبل القريب ، وبخطئه في تكهنه بأن إيدن لن يهاجم مصر . ولكن رضاه عن معجزته الدبلوماسية كان يطغى على مثل هذه الاعترافات الثانوية . شعر ان الدبلوماسية يمكن ان تحل اي مشكلة قادمة أيضاً . كانت الدبلوماسية خاصة ببيزنطيا التي زالت منذ أمد بعيد ولكن شبحها ما زال ماثلاً في الشرق الأوسط . استعمل الحكام البيزنطيون بدل قوة السلاح التآمر ، وأحياناً السم ، ودوماً فن تحريض عدوّ على آخر . لا ريب ان بيزنطيا انهارت أخيراً ، ولكن انتهاءها استغرق قروناً كثيرة . عرف ناصر ، ولكن اختار ألاّ يعرف ، أنه أنقذ بمجموعة ظروف قد لا تتكرر : المبادىء العتيقة لرجال مثل هيوز جيتسكيل زعيم المعارضة في بريطانيا والرئيس أيزنهاور وجون فوستر دالاس ، فضيلة داغ همرشولد الماضية ، مرحلة الحرب الباردة التي تنافس خلالها الاتحاد السوفييتي وأميركا في كسب ودّ الدول الصغيرة ، وفوق كل شيء الرأي العام الحرّ الذي لم يعتد استعمال الهجوم الجوي في العلاقات اليومية بين مجتمعات ليست في حرب رسمية . أهمل ناصر هذه الدروس أو أساء فهمها . ان ثقته المتزايدة بقدرته على عمل شيئين في آن واحد ، أي بالخداع ، ستجد وسيلة لتبرير هزيمته التكرار في حملة ثانية بعد عشر سنين . ستظهر ميزة الرجل العجيبة لا في سيره الهجين نحو الهزيمة بل في خروجه منها .

كما في المأساة اليونانية ، حيث العشاء من لحم البشر ينتج عسر الهضم بعد نصف جيل ، كذلك تأخر ظهور آثار خلق الأساطير ، وكانت نتيجة النصر الفورية تمجيد ناصر في مناطق أخرى من مناطق ألف ليلة وليلة .

كانت المنطقة الأولى والأكثر إثارة سوريا ، مائدة الشرق العربي الدوّارة ، ذات الأرض المنبسطة الصحراوية الحمراء ، والسهول المرتفعة ، والواحات الزمردية الموزعة بين سكان المدن الفرديين الثرثارين وبين الفلاحين الصارمين . رفض السوريون قومية أنطون سعادة الاقليمية ورأوا أنفسهم طليعة مناضلة لقومية عربية أوسع بعثها النضال . كان السوريون متحمسين وغير ثابتين على معتقداتهم . شعر زعماؤهم في الأيام الأولى من سنة ١٩٥٨ أنهم مهددون بموجة شيوعية ، وطاروا معاً الى القاهرة — المركز الجديد المشرق — لعرض خضوعهم على ناصر وطلب الانضمام الى دولته . وقع ناصر في شرك . ذلك بأن ميثولوجيته الخاصة وحنينه العميق إلى العظمة منعاه من الرفض أو فرض الشروط ، فكانت النتيجة اتحاد مصر وسوريا في جمهورية « عربية

متحدة » واحدة بعد اقتراع ساحق يفوق الاقتراع الذي جرى لانتخاب فيصل ملكاً للعراق . كانت اسرائيل والبحر يفصلان بين قطري هذه الدولة الأفرو – آسيوية الأولى والوحيدة ، واذ حاولا التغلب على هذه الصعوبة بانكار وجودهما ، واذ حاولا أيضاً دمج شعبيهما المختلفين جداً ، حظرت الجمعيات المحلية أو القطرية ، وأصبح ذنباً أن يكتب الصحافيون « مصر » أو « سوريا » . كانت هذه الوحدة المفروض أنه لا انفصام لها بين شريكتين غير متساويتين . ذلك بأنه لم يكن في سوريا ثورة اجتماعية من اي نوع ، وكانت تحكمهما نخبة من الطبقة الوسطى قائمة على التجارة والصناعة الصغيرة والالتزام الزراعي الناجح جداً . وكانت الفروق بين الفلاح السوري والفلاح المصري لا تقل عن آثار مناخين متناقضين ، اذ أن مناخ آسيا الغربية أقسى من مناخ أفريقيا المصرية . ربما كان بالامكان توحيد فلاحي البلدين ، ولكن بورجوازيي دمشق وحلب كانوا فوضويين ، صريحين ، مؤيدين لمبادىء الحرية ، يعتبرون حق استبدال العملة في بيروت كما يعتبر الأميركيون حق امتلاك السلاح . ثم ان العملة السورية كانت أقوى من العملة المصرية ، وقد استبدلت مصر بنخبتها المتنوعة (كان اليونان والإيطاليون الذين تركوا مصر بعد ١٩٥٢ يشبهون البورجوازيين السوريين) طبقة من المتعلمين الذين كانوا موظفين غير مستقلين يرهبهم الجيش . بدت الناصرية في ربيع ١٩٥٨ المفعم بالنشاط منبعاً للامل . جاء في أغنية شعبية مصرية : « أنا سوري وأنت مصري » . ولكن الأحلام الجميلة بالوحدة والمجد سرت عدواها الى أكثرية المسلمين اللبنانيين المسحوقين ، وأثارت مخاوف النخبة المسيحية في جمهورية لبنان الصغيرة . جرى الموازنة على تقليد الاعتماد على دولة مسيحية قوية تؤيدهم ضد البحر الإسلامي المحيط بهم . وقد بدت الولايات المتحدة في ١٩٥٨ راغبة في اقتفاء أثر فرنسا وبريطانيا في أداء هذا الدور . ومع أن مستر دالاس فعل ما لا يقل عن غيره لانقاذ ناصر ، فقد أحزنه المدخل الذي وفرته حملة السويس للنفوذ الروسي ، وكي يحمي أية أنظمة تقليدية تشعر بأنها مهددة بالموجة اليسارية الجديدة وضع « مبدأ ايزنهاور » . اتخذ كميل شمعون في آخر سني رئاسته للجمهورية اللبنانية قرارين مشؤومين : محاولة تغيير الدستور لينتخب رئيساً دورة ثانية ، وقبول « المبدأ » . اتهمه المسلمون بخرق « الميثاق الوطني » ، وهو اتفاق غير خطي على ألا يورط المسيحيون الموالون للغرب لبنان في أحلاف مع اوروبا او اميركا بينما يراعي المسلمون مخاوف المسيحيين من ان يبتلعوا اذا ما انضم لبنان الى وحدة عربية .

اندلعت الحرب الأهلية الحاقدة الخائبة طوال الصيف ، والتزم الجيش اللبناني (بقيادة الجنرال شهاب رئيس الجمهورية التالي) الحياد . تلقى حزب شمعون تأييداً لا من الولايات المتحدة فحسب بل أيضاً من المحافظين في كل الشرق الأوسط ، أما

المعارضة الناصرية فلم تكن إسلامية كلياً ، إذ كان البطريرك الماروني أبرز المعارضين لشمعون .

راقبت الدول العربية هذه الحرب بيقظة . زودت مصر وسوريا الثائرين بالسلاح والهتاف ، بينما ساعدت شمعون المملكة العربية السعودية والعراق .

ان ازدياد نفوذ ناصر إثر الوحدة المبهجة بين مصر وسوريا أصاب نوري السعيد بالذعر ، وكان قد أتم اتحاده بالأردن دون أن يهلل له أحد . ربما كان نوري السعيد قد شاخ فلم يستطع أن يرى ان هجوم ايدن على مصر مع اسرائيل كحليفة قد حكم على الملكية في العراق بالزوال . أصبح الآن صعباً على اي رجل دولة عربي أن يؤيد قول « جيرترود بل » إن ما هو صالح لبريطانيا صالح للعرب . لم يسكت المعارضة العراقية منذ ١٩٥٦ سوى اضطهاد الشرطة . ادرك نوري السعيد في صيف ١٩٥٨ ان العراق سيصبح في عزلة اذا ما ربح ناصر لبنان ، فوضع خطتين موقتتين للهجوم . أما وقد قدم لشمعون في مايو ويونيو التأييد المعنوي والمالي ، فقد قرر في يوليو نقل فرقة من الجيش مؤتمنة الى الأردن لامكان استعمالها ضد سوريا ، وعزم في الوقت نفسه على السفر الى أنقرة مع الملك الشاب لحضور اجتماع عادي لحلف بغداد يبحث فيه كيفية مقاومة خطر الناصرية ، وكان عدنان مندريس ، رئيس الوزارة التركية ، يشارك نوري السعيد تماماً خوفه من الشيوعية .

في الصباح الباكر من يوم ١٤ يوليو ، بينما كان الملك يحلق ذقنه ، تحدى جنود عبد السلام عارف وعبد الكريم قاسم أوامر الابتعاد عن العاصمة في طريقهم الى الأردن وزحفوا الى بغداد ، فاحتلوا محطة الراديو ودعا عبد السلام عارف العراقيين منها الى ثورة دموية . وفي الوقت نفسه احاط الجنود بالقصر الملكي ، وكانوا قد ادخروا بعض الذخيرة من المناورات ، فقضوا على الحرس وقتلوا جميع الرجال والنساء والخدم دون انذار ، ولم ينج منهم سوى الشابة زوجة الوصي عبد الإله ، فقد وجدها احد الضباط لا تزال حية وهمس في أذنها ألا تتحرك . في مساء ذلك اليوم دفنت جثة الملك في مكان سري ، وجررت جثة عبد الإله في الشوارع ، أما نوري السعيد فقد عاش يوماً آخر ثم اكتشف أمره حين شاهد أحدهم حذاءه تحت العباءة ، ودفن بسرعة ، ثم نبش قبره واخرجت جثته فداستها حافلات الأمانة الى ان تحولت كما قال شاهد عيان الى ما يشبه البسطرمة .

كان أحد الشوارع المهمة في بغداد يحمل اسم الملك فيصل فغير الآن وسمي باسم المنتصر : جمال عبد الناصر . ومع أن جنود البحرية الأميركيون نزلوا على الشاطىء جنوبي بيروت إلا أنه قد حل محل شمعون رئيس آخر كان أكبر هدف له إقامة علاقات حسنة بالجمهورية العربية المتحدة .

الفصل السادس

كانت مصانع الأساطير أقوى من كتائبها . علاوة على استوديوهات التلفزيون التي تبث برامج أكثر من بريطانيا، وهوائيات الراديو التي تحرض أفريقيا بأكثر من عشر لغات ، والصحف ، والمطابع التي تنشر في كل ست ساعات كتاباً جديداً ، أخرج استوديو مصر ، هوليوود القاهرة ، بميزانياته الضئيلة أساطير الثورة . دارت احدى الروايات حول ابن بستاني أصبح ضابطاً ، وأحبته إبنة احد الإقطاعيين ، وبعد ١٩٥٢ توفرت له بهجة مصادرة أرض ذلك الإقطاعي . وكان لها مشاهدون في بيروت وقفوا على الكراسي يهتفون للضابط وهو يؤدي قسم التحرير . أما أهم تلك الروايات فهي « الناصر صلاح الدين » ، وفي هذا العنوان استغلال لمعنى اسم ناصر ، ويظهر الزهرة الأسطورية التي اصبح ناصر الآن سداها .

كان صلاح الدين محارباً استطاع في عصر فاسد غير مثالي ان يوحّد بقوته مصر وسوريا ، وان يهزم بجرأته الصليبيين . ولذلك فإن تشبيه ناصر ببطل الإسلام العظيم في القرون الوسطى ، وتشبيه اسرائيل بالدولة الصليبية ، ساعدا على اغراء السوريين بالثورة المصرية ، وكذلك الميالين الى العروبة في لبنان وأولئك العراقيين الذين ردّدوا تفسير عبد السلام عارف لثورة ١٤ يوليو .

قد لا تكون الأسطورة كذباً ، بل قد تكون طريقة مشرقة أو مشجعة لما يواجه من تعقيدات قد يحتاج فهمها ، لولا ذلك ، الى جيل من الكتب المدرسية . قال المفكر اليهودي مارتن بوبر ان « كل انسان حي متأصل في أسطورة حية » ، ولم يكن آدم ونوح وموسى بحسب تفسيره للعهد القديم سوى أساطير نموذجية من حسن الحظ انها بقيت بعد ان قضى رجال الدين المتأخرون على الأساطير .

ولكن الأساطير قد تشبه أيضاً الجدران المبيضة التي تخفي عن زوار الدولة ما وراءها من أقذار . قوّت اسطورة النصر اعصاب مصر ، وشجعت الأفراد على العمل في اصلاح الأرض وفي التربية والنهضة الصناعية على نطاق واسع . ولكنها ساعدت أيضاً على اخفاء بعض العيوب الخطيرة في المجتمع المصري . أنقذت من النقد الجيش الذي بينما كان لا يتقن عمله بقي الطبقة الحاكمة ، وأصبحت هذه الطبقة في ظل أسطورة الحماية أكثر غطرسة وطمعاً بالسلطة وعلاواتها . واهم شيء فعلته أنها حجبت عجز بيروقراطية دائمة التوسع وطغيان المخابرات .

اتسعت البيروقراطية استجابة لطرق جديدة كثيرة تدخلت بها الدولة في حياة المصريين العاديين ، كانت احياناً مفيدة . ولكن سياسة ضمان التوظيف للعدد المتزايد من خريجي الجامعات كان سبباً آخر . لو أن هذا العدد الكبير من الخريجين وضعوا للعمل في الطرق ، أو حصروا في مكان مغلق يكتبون الأوراق ثم يحرقونها لكان الوضع أفضل ، ولكن بدلاً من ذلك وضع في مكتب سبعة موظفين بينما يكفي واحد او اثنان لإدارة أعماله ، وبما أن كل موظف يحتاج الى بعض المسؤولية لإرضاء كبرياءه ، عدا قراءة الصحف أو شرب القهوة ، فإن ذلك أدّى الى عرقلة مصالح المراجعين . ولما كانت رواتب البيروقراطيين قليلة فقد انتقموا لأنفسهم بأن أضافوا الى ألقاب العهد القديم محاكاة الطباع المتعالية .

اذا كانت البيروقراطية آفة سلبية ، فان المخابرات سرطان ايجابي . كانت هذه المصلحة مكتظة بالموظفين أيضاً ، وقد اكتسبت أساليب الجستابو أو الأجبو الشريرة . ويعود بعض بذور هذا السياج البيزنطي إلى الناحية التآمرية في طبيعة ناصر ، والبعض الآخر الى وجود أعداء خارجيين لا ريب فيه . فقد كان يعتقد أن المخابرات الاسرائيلية هائلة كالمخابرات الاميركية . فجرّ عملاؤها القنابل في مركز الاستعلامات الاميريكي في الاسكندرية ، ولولا ان الفاعلين قد ألقي عليهم القبض فوراً (فأحدث ذلك ضجة داخل اسرائيل عرفت « بفضيحة لافون ») لساءت علاقات أميركا بمصر في وقت أبكر .

كانت البيروقراطية ومكافحة الجاسوسية ستزعجان المصريين وحدهم لولا ان اسطورة صلاح الدين قد صدرت النظام المصري الى سوريا . لم يكن في الشريكة الصغيرة في الجمهورية العربية المتحدة سوى بيروقراطية صغيرة خاصة جداً . ذلك بأن تدخل دمشق في حياة الناس كان أقل من تدخل القاهرة . ومع ان السوريين خبروا الطغاة إلاّ أنهم لم يعرفوا تقليد الشرطة السريين ، ولم يعتد أحد منهم وهو جالس في المقهى ان يتلفت حوله قبل ان يهاجم الحكومة بعنف .

وقعت الطبقة الوسطى السورية في حب أسطورة ناصر ، وخرجت بواقع اتخذ شكل الرؤساء المصريين والأنظمة المصرية ، وكان المتنفس الوحيد لمشاعرهم الاتحاد القومي الذي خلف هيئة التحرير . بيد أن هذا الاتحاد الذي اعتبر عوضاً من البرلمان لم يمارس رقابة على القرارات الحكومية ولا كان له صوت لمنعها . ثم انه لم يستشر في صيف ١٩٦١ حين سنت سلسلة قوانين اشتراكية للقطرين . فقامت مجموعة من الضباط ، تعمل لمصلحة الطبقة التي تضررت أكثر من غيرها بهذه القوانين ، بالقبض على عبد الحكيم عامر نائب ناصر في سوريا ، واعلنت الانفصال . أراد ناصر في بادىء الأمر أن يحافظ على الوحدة بالقوة ، ثم عدل عن ذلك مصرحاً بأنه يكره

سفك الدم العربي ، والأرجح أنه خاف أيضاً على حياة خير أصدقائه .

لم تكن هذه آخر مرة يهان فيها عبد الناصر علناً ويبدو أنه قد انتهى . ثم لم يكن بين اعدائه الفرحين الملك سعود والملك حسين فحسب بل أيضاً عبد الكريم قاسم الذي أصبح « زعيم العراق الأوحد » . جاء فشل الناصرية في العراق قبل فشلها في سوريا . ذلك بأن دعاة الوحدة مع مصر شددوا كثيراً على بلد تخشى الفئات الرئيسة فيه سيطرة السنيين العرب . كان عبد الكريم قاسم غريب الأطوار ضيق الاطلاع ولكنه كان ايضاً رجلاً فاتناً ، وقد فهم تعقيدات العراق كما فهمها نوري السعيد ، فابتعدت بغداد في عهده عن معانقة القاهرة .

لكن ناصر قد أظهر ، كما في صراعه مع نجيب ، موهبة غير عادية في تحويل التراجع الى هجوم معاكس ، وتلقى درساً قاسياً من الصدّ السوري . ادرك ان القومية العربية ستظل قاحلة اذا تركت دون مضمون اجتماعي . حين رأى التجار السوريون تضارباً بين مصالحهم وبين الوحدة العربية لم يترددوا في التنكر للوحدة ـ أما الفرع السوري للاتحاد القومي فقد انفصل ايضاً مع المنفصلين . وأما في القاهرة فإن اعضاء نادي الجزيرة شربوا نخب السوريين اذ توقعوا ان ما حدث في القطر الشمالي قد يتكرر في القطر الجنوبي . لذلك قرر ناصر ان الطريقة الوحيدة للمحافظة على الثورة هي القضاء على قوة أعدائها المالية وجعل الناس الذين يدركون المكاسب المالية ، لا الأسطورية ، يقومون بالدفاع عنها .

ان الأسماء التي برزت في الكتاب السنوي لنادي السيارات الملكي ، ظهرت الآن آخر مرة في قائمة الاشخاص الذين وضعت أموالهم تحت الحراسة . وفي الوقت نفسه ، بعد مباحثات حرة مع لجنة مؤلفة من اساتذة الجامعات والفلاحين والوزراء والعمال والنساء ، وضع ناصر « الميثاق الوطني » الذي حوى نقداً وبرنامجاً .

حوّل ناصر القومية العربية خلال سنة واحدة الى اشتراكية عربية . لم يوجهه اي نموذج فكري . كان في صغره قليل الاهتمام بالنظريات الاقتصادية شأن بطله مصطفى كامل ، وحين أصبح حاكماً لم يكف عن وضع اليساريين في السجون . بيد ان سببين عمليين ساعدا على توجيه خطاه . ان نوعاً من الاشتراكية يمكن ان يساعد على سدّ الهوة بين الحكام والمحكومين ، ولذلك قرر ناصر أن يكون على الأقل نصف أعضاء الاتحاد الاشتراكي العربي ، ثالث محاولاته لايجاد أداة دستورية لدولته ، من الفلاحين او العمال . كذلك اعتقد ناصر ان الاشتراكية توفر وسيلة تمكن المصريين العاديين ، ببطء ولكن بصورة أكيدة ، من زيادة الانتاج الوطني بحيث تصبح حصة كل واحد كافية لحفظ الكرامة والصحة . ان الدولة ، في بلد رأس المال الخاص فيه محدود جداً ، هي التي تستطيع وحدها بالضرائب او القروض جمع رأس المال

اللازم للتنمية الصناعية التي تعرد بالنفع على الفائض من السكان . هنا أيضاً طريقة لاستعمال الطاقة البشرية بفعالية أكثر مما يجري في المكاتب الحكومية .

مرة أخرى اختار ناصر سبيله كالسائر في نومه . ان البعد الاشتراكي الجديد لثورته قد حول الهزيمة الى نصر ، ولكنه لم يكن نصراً بلا ثمن .

بدأ النصر بتغيرات فجائية في العالم العربي . بدا ناصر في سنة ١٩٦١ معزولاً ومعرضاً للخطر ، ولكنه خلال عامين عزل أعداءه . استقلت الجزائر واتبعت سياسة قريبة من سياسة مصر ، واسقط الاشتراكيون من حزب البعث الداعي الى الجامعة العربية الانفصاليين السوريين ، ومع أنهم كانوا منافسين لناصر إلاّ أنهم شاركوه في معظم افتراضاته الأساسية ، وقتل في العراق عبد الكريم قاسم وحلّ عبد السلام عارف محلّه .

على أن أعظم تغلغل لناصر كان في اليمن ، المملكة العربية الجبلية النائية ، أفقر بلاد العرب وأكثرها تخلفاً . في اواخر صيف ١٩٦٢ مات يحيى إمام اليمن وخلفه ولده البدر الذي كانت له آراء ناصرية لم يقرها أبوه . ولكن البدر لم يجد الوقت لتطبيق تلك الآراء ، اذ ثار عليه عبد الله السلال ، وخلعه ، وطلب المساعدة من مصر . جاء هذا الطلب بعد مرور سنة على انفصال سوريا ، فلم يستطع ناصر رفضه ، وقرر المجازفة بإقدام العرب على سفك الدم العربيّ .

كان ضعف المصريين جهلهم بالشرق العربي . ان الامبريالي البريطاني الذي يحمل شهادة جامعية عالية يمضي عشرين عاماً في السودان أو كردستان يجمع مقتطفات من عادات الشعب وتقاليده وحكاياته وأقواله المأثورة . لكن لم تكن لدى ناصر ولا المصريين الذين ارسلهم لمساعدة السلال أية فكرة معينة عن تل النمل الذي ذهبوا لازعاجه . ذلك بأن اليمن مجتمع عشائري أفسده الشك المتبادل كاسكتلندا في القرن السابع عشر ، وقسمته المذاهب الدينية كألستر الحديثة .

اندلعت في وديان جبال اليمن حرب جانوس حتى ١٩٦٧ ، ونشرت من السخر بقدر ما سفك من الدم العربي . في تلك الحرب بين القديم والجديد ، أيدت بريطانيا القديم من قاعدتها العصرية في عدن ورفضت الاعتراف بالجمهورية ، فاستطاع الملكيون بالمعونة البريطانية والسعودية وبمجموعة متنافرة من المرتزقة والشذاذ أن يقاوموا في الوديان المستعصية . اما المصريون فقد مثلوا دور التجديد نفسه الذي طالما رفضوه ، ذلك الدور الذي قام به الفرنسيون في زمن نابليون . وعلى الرغم من الكثير من الآلام والدمار قرب المصريون أهل اليمن من الأخطار والوسائل العصرية .

بيد أن ذلك إنما تمّ بثمن مضاعف دفعته مصر . دلت الحرب اليمنية على بداية ما وصفه حسنين هيكل فيما بعد بأنه « انقلاب صامت » . حوّل الجيش المصري اليمن

الى إقطاعية خاصة ، فحارب وألقى القنابل ، واغتنى أيضاً ، لا الضباط فحسب بل النقباء والمتطوعون الذين تقاضوا ، بحسب المقاييس المصرية ، رواتب ضخمة . كانت تكاليف الحرب ثقيلة على مصر ثقل حرب فيتنام على اميركا . كان العبقري العسكري ، المشير عامر ، رئيساً سياسياً اكتسب اخلاص رجاله برعايته مصالحهم . أصبح الجيش شركة مغلقة اقتنع افرادها بأنهم لن يخوضوا حرباً خطيرة ، وكوفىء الطيارون أو صغار الضباط الذين تدربوا في الاتحاد السوفييتي بوظائف مريحة اذا كانوا ممن يوثق بهم ، واذا لم يكونوا خدروا ايضاً بمثل هذه الوظائف المريحة . كان على رأس كل مشروع حكومي تقريباً أحد الضباط ، وكثر عددهم في السفارات في الخارج . لم يعد أحد يستطيع تحدي الجيش ، فلا تحقيق في أموره ولا تقويم لها ، حتى عبد الناصر كان عاجزاً عن محاسبته . وبينما كان فساد الجيش قبل ١٩٦٢ خفياً أصبح الآن مكشوفاً لكل من له عينان للرؤية وأذنان للسمع . في الوقت الذي شحت فيه العملة الصعبة في مصر كان نساء الضباط يصلن الى باريس ومعهن محافظ منفوخة وحقائب فارغة ويرجعن بها الى القاهرة ملآنة . لقد حمى الجيش نفسه من الانتقاد باستعمال قوى الأمن دون رحمة .

وهكذا اقتربت مصر من منتصف الستينات بنسخة خاصة لوجه جانوس.ظهر ناصر للعالم عموماً أنه اذا لم يكن دكتاتوراً فهو حاكم شعبي لا تقيد سلطته الحاجة الى الانتخاب . والواقع انه كان يدفع ثمن مجيئه الى الحكم بانقلاب عسكري . كان هو والجيش مرتبطين ارتباطاً وثيقاً ، لأنه لو تحرك ضد الجيش لقضي عليه . أما الشعب فقد كان يمتدح الجيش لأنه ظن أنه سيدافع عنه .

الفصل السابع

أثار استمرار قوة الأسطورة الناصرية مخاوف الحكام العرب . ذلك بأن وجه القاهرة المثالي أثّر كثيراً في العرب ، سواء من كان منهم يعيش في العراق أو ليبيا ، في السودان او اليمن ، لأنه راق لما كانوا يشتركون فيه وقد رجح على ما كانوا ينفردون به . ان معظم الذين يتكلمون العربية ، مهما اختلف ماضيهم الثقافي او العرقي ، خبروا بدرجات متفاوتة مذلة الاحتلال الأجنبي . لم يشعر العرب السعوديون واليمنيون بذلك إلا قليلاً لأنهم كانوا يقيمون على حدود الامبراطورية العثمانية فالبريطانية . أما في لبنان فان المسلمين كرهوا الوجود الفرنسي أكثر من الموارنة الذين رحبوا به أحياناً كحماية لهم . وأما الجزائريون والليبيون والتونسيون والسوريون والعراقيون والسودانيون فقد عرفوا كما عرف المصريون تحكم الأوروبيين . ثم ان الفلسطينيين الذين لم يطردوا من أربعة أخماس بلدهم أصبحوا في اسرائيل مواطنين من الدرجة الثانية .

كان للاسطورة من قوة التبرير ما جعل حلم السيطرة المذل يرتفع على الاعتبارات الدنيوية على الرغم من أن الجيش المصري لم يفعل شيئاً يثبت قوته في سنة ١٩٥٦ وما بعدها . لم يستطع أحد أن ينكر أنه احتفظ بقناة السويس متحدياً بريطانيا وفرنسا ، وكان تورطه في اليمن أقل من تورط الأميركيين في فيتنام . يضاف الى هذا ان وقوف بريطانيا وقوى أخرى غامضة وراء الملكيين اليمنيين أمكن ان يكون أمراً يلامون فيه . ثم ان جاذبية المصانع القائمة على التكنولوجيا الحديثة للعرب لم تكن أقل من جاذبية القوة العسكرية ، وقد أصبحوا فخورين بالمصانع الحديثة . وقد كان لناحية المساواة في المجتمع المصري أثرها الشديد ، شعر به أكثر من غيرهم أولئك الذين كانوا يتوقون الى العدالة الاجتماعية وخصوصاً من كان حكامهم مسرفين .

سببت قوة الأسطورة كوابيس للمحافظين ولا سيما بعد ما أصاب الملك فيصل وعبد الإله ونوري السعيد ، وبعد مقتل عبد الكريم قاسم على يد عبد السلام عارف ممثل الأسطورة في العراق ، فنسبوا اليه مكائد كل الاضطرابات والعنف في المنطقة ، وهاجموا ناصر ونظامه عن طريق الإذاعات السرية ، وفي الصحف التي يسيطرون عليها في الداخل أو يقدمون لها اعانات مالية في بيروت ، وبالشائعات التي انتشرت في العالم العربي بأسرع من برقيات التهاني في الغرب .

سار الهجوم على ثلاثة خطوط لاقت درجات مختلفة من النجاح . اعتبر تبنيه الاشتراكية وصداقته للاتحاد السوفييتي خيانة للإسلام ، ولكن تأثير ذلك كان ضعيفاً لأن معظم العرب ارادوا السلاح من أي مصدر . واقوى من ذلك احتجاج أعداء ناصر بأن الاقتصاد الحرّ جلب للأفراد (والعرب فرديون) ربحاً أكثر من الاشتراكية البيروقراطية. ولكن أقوى هجوم تعرض له ناصر هو اتهامه بالتساهل مع اسرائيل ، والزعم ان الاميركيين رعوه في السنوات الأولى بسبب « واقعيته » في قضية فلسطين ، ذلك الزعم الذي قوّاه رجال المخابرات الأميركية الثرثارون في المنطقة ، وقد قدموا دليلاً على ذلك قبول ناصر بوجود قوة الطوارىء الدولية على أرضه لحراسة حدوده مع اسرائيل . قيل ان تلك القوة حمت مصر من غارات انتقامية كالتي عاناها الأردن ، ومنع الفلسطينيين من الغارة على اسرائيل . وهناك دليل آخر وهو شرم الشيخ التي مكن وجود الأمم المتحدة فيها اسرائيل من استيراد البترول الإيراني عبر المياه الاقليمية المصرية فخليج العقبة الذي تحده دول عربية .

كان ناصر في شتاء ١٩٦٦ – ١٩٦٧ مهتماً بالمشكلات الاقتصادية اهتمامه بالانتقادات اللاذعة . وصل الاقتصاد المصري النقطة الخطرة التي تسبق غالباً الانطلاق في البلاد التي تصنعت حديثاً . كانت البضائع المصنوعة لا تزال رديئة وان كانت ستتحسن ، والعمال الصناعيون لا يزالون مبتدئين وان كانوا سيصبحون عمالاً ماهرين ، والسدّ العالي لا يزال يستهلك الكثير من النقد والخرسانة وان كان في النهاية سيعوض أكثر من تكاليفه ، لكن حتى تلك الفترة انفق الكثير ولم يبق شيء من النقد لشراء قطع الغيار الضرورية فاغلق كثير من المصانع ، كمصنع السيارات ، أبوابه .

في هذا الوضع الذي اقتضى انتزاع أية مكاسب ، انتزع ناصر بصورة خطرة . ذلك بأن سوريا التي جلب له عدم ثبات تأييدها أخطر نكسة عرضته للخطر ثانية باقتراحها حلفاً عسكرياً . ان عقيدة ناصر الخاصة بالوحدة العربية والغارات الإسرائيلية الأخيرة على الأردن أجبرته على الترحيب بذلك العرض الذي كان يعادل فرض الضرائب دون تمثيل . وهكذا وقعت في نوفمبر ١٩٦٦ اتفاقية دفاع قضت عليه ان يدافع عن سوريا اذا تعرضت لخطر أكيد لكنها لم تعطه سيطرة على سياسة سوريا ولا سمحت له باستعمال المطارات السورية .

كان الحلف نفخة خفيفة في شراع واه ما لبث أن بدأت تهب عليه في أوائل ١٩٦٧ رياح قوية ، لا في مصر وحدها بل في الشرق الأوسط بأسره . لكن المصريين ، ككل القوميين المنطوين على أنفسهم ، لم يدركوا الوضع المقابل لمأزقهم عبر الأسلاك الشائكة في اسرائيل . كانت البطالة تزداد في مصر بصورة لا يمكن قبولها ، والشعب يشعر انه محصور في طريق مسدود . أما الإسرائيليون فقد شعروا أن الوقت لتحقيق

أمنهم قد اقترب . كلا الخصمين كان بحاجة الى نجاح . احتاج ناصر الى دفعة لهيبته بينما زعماء الاسرائيليين الذين كانوا واقعيين منذ أيام الانتداب رأوا النجاح على أسس أكثر واقعية .

أوجدت سوريا المتفجرة الفرصة لكل من الطرفين . ذلك بأن الخلاف على الحدود بين شمالي اسرائيل وبين جنوبي غربي سوريا هيّأ في غياب الأمم المتحدة منطقة للتحكك بين البلدين،ودلت سلسلة حوادث في اوائل ١٩٦٧ على أن الحوادث الآتية ستكون أسوأ . دخلت الجرارات الاسرائيلية المنطقة المنزوعة السلاح فدمرتها الطائرات السورية ، وسارع الاسرائيليون الى اسقاط ست من طائرات الميغ السورية ، وتحدث السوريون عن حشود اسرائيلية كبيرة على حدودهم . وما كانت التقارير السورية وحدها لتخلق أزمة ولكن الروس ، بناء على قول ناصر ، أخبروا وفداً برلمانياً في أثناء زيارته لموسكو أنهم يعتبرون الغزو الاسرائيلي لسوريا وشيكاً .

وهكذا أقدم ناصر على أكبر خدعة في حياته بينما أعدت اسرائيل لنجاح حاسم . كان الجيش المصري أصغر من الجيش الذي تستطيع اسرائيل تعبئته في يوم واحد على الرغم من ان عدد سكان مصر يزيد على عدد سكان اسرائيل خمسة عشر ضعفاً . ثم ان قسماً كبيراً من الجيش المصري كان لا يزال في اليمن يسيطر على المدن والطرق الرئيسة . عرف ناصر والمشير عامر أنهما غير مستعدين لمواجهة اسرائيل ، ولكن تهديدات اسرائيل لسوريا في منتصف مايو اضطرت ناصر الى بعض الاجراءات التي كان القصد منها تأييد حليفته ، وإسكات ناقديه ، وصرف الأنظار عن المشكلات الاقتصادية . طلب من الأمم المتحدة سحب قواتها من الحدود ، وارسل دباباته من القاهرة الى سيناء ، وصار كل عدد من صحف القاهرة يحمل وعيداً أو تهديداً ، فأثارت التحركات العامة والأناشيد العسكرية العرب المتأثرين بالأسطورة المصرية . حذرت الولايات المتحدة مصر ، وتوسل اليها الاتحاد السوفييتي ، ألاّ تبدأ الضربة الأولى . ولكن ناصر لم يفكر أبداً في شيء من ذلك ، بل قرر ارسال زكريا محيي الدين الى نيويورك ، أكثر رجاله المحافظين وأحبهم الى الأميركيين ، للتوصل مع الأمم المتحدة الى تسوية للملاحة عبر ممرات تيران ، والاهتمام مقابل ذلك اهتماماً جاداً بمشكلة فلسطين ، والحصول على معونة أجنبية مكافأة لمصر على اعتدالها .

اقنعت المهرجانات والخطب أولئك الذين عرفوا الشرق الأوسط بأن آخر شيء يدور في فكر ناصر هو غزو اسرائيل ، ولو كان جاداً في ذلك لاسترجع جيشه من اليمن . ولكن هذه المهرجانات والخطب نفسها زودت اسرائيل بأول سلسلة من الظروف الملائمة لحرب سبقية . كتب احد رجال المخابرات الأميركية ، وكان قد عرف ناصر تماماً ، يقول : « حين تركت القاهرة الى لندن ... أخبرت اصدقائي انني

أراهن بآخر دولار على ان ناصر قد عرض نفسه لبيرل هاربر على الرغم من أن بعثة زكريا الى واشنطن قد تلقت تأكيد الاسرائيليين أنهم لن يهجموا حتى يسمعوا ما سيقوله في نيويورك » . ان حديث ناصر عن القتال وموسيقاه العسكرية ، بالإضافة الى كميات كبيرة تلقاها من السلاح السوفييتي ، أثارت العطف على اسرائيل ، على الأقل في الغرب ، وأظهرتها كحمل مقيد يقترب الجزارون منه ، بينما الاحتياطي الاسرائيلي ، خلافاً للجيش المصري المقيد في اليمن ، هرع الى الجبهة من كل مكان حتى من لندن ونيويورك . هناك ظرف آخر ملائم وهو مزاج حكومة جونسون في واشنطن التي صبت استياءها من فيتنام على البلاد الأخرى المعادية المزعجة كمصر .

درست الحكومة الاسرائيلية تماماً هذه الحكومة الأميركية ، وعرفت انها اذا أزمت الوضع ، على الرغم من تحذيرات واشنطن لها ولمصر من بدء القتال ، ستجد في الأمم المتحدة حليفاً يفهمها هو آرثر غولدبيرغ ، ممثل الولايات المتحدة، اذا سارت الأمور سيراً حسناً ، واما اذا ساءت فستجد في الاسطول السادس حامياً تلجأ اليه أخيراً .

تكرر الشعوب ماضيها في أسوأ أزماتها . ان الأيام الأولى من حزيران (يونيو) ١٩٦٧ تذكر ، على الأقل قراء هذا الكتاب ، بصيف ١٨٨٢ حين نشبت الحرب بين المصريين والانجليز . ردد ناصر الآن تهديدات عرابي البليغة ، ورفض مثله ان يقوم بالضربة الأولى التي أمكن وان لم يربح الحرب ان تنزل في العدو خسارة فادحة ، وكما أن عرابي أخطأ في عدم اغلاق قناة السويس ، كذلك اهمل ناصر اتخاذ الاحتياطات الأولية . وأخيراً كان ناصر يكره فعلاً سفك الدماء .

ادعى ناصر فيما بعد أنه لم يخبر كبار قواده العسكريين بأن الحرب واقعة لا محالة فحسب ، بل قدر ان يوم ٥ حزيران (يونيو) سيكون على الأرجح اليوم الذي سيبدأ فيه الهجوم الاسرائيلي . وقد حلل رئيس تحرير الأهرام الوضع في ٢٦ مايو ما يلي : « لا بد لإسرائيل من أن تلجأ الى السلاح ، والاصطدام المسلح بين الجمهورية العربية المتحدة وبين العدو الاسرائيلي لا مفر منه » .

أمضى الجنود ليلة المعركة الحاسمة في التل الكبير سنة ١٨٨٢ في اللهو ، وقد همس بعضهم فيما بعد ان الطيارين المصريين أمضوا ليلة ٥ حزيران (يونيو) ١٩٦٧ ضيوفاً على أحد الأعراس وأصبحوا مصابين بالدوار .

في الصباح الباكر من ذلك اليوم الذي تنبأ به ناصر صدر على العالم اول بلاغ عسكري من تل أبيب جاء فيه ان قوة مدرعة مصرية هاجمت جنوبي اسرائيل وأن قوى الدفاع الاسرائيلية تصد الهجوم . وفي اليوم نفسه صدرت بلاغات عن ليفي اشكول رئيس حكومة اسرائيل ، وأبا ايبان وزير خارجيتها ، وموشيه دايان وزير الدفاع ، تقول ان اسرائيل تخوض حرباً دفاعية وانها لا تنوي احتلال بوصة واحدة

من الأرض . أما البلاغات المصرية فقد ادعت تحقيق نجاح في الجو ما لبث أن ذوى كالأزهار البرية التي تقتطف في الصحراء ، أو كادعاءات اسرائيل في بلاغاتها الأولى .

قضى سلاح الجو الاسرائيلي الحسن التدريب ، خلال ساعات ، قضاء تاماً على سلاح الجو المصري الذي كانت طائراته مصفوفة على أرض المطارات في يوم صحو من ايام حزيران . كذلك ضربت اسرائيل مطارات الأردن وسوريا ، واذ فقد العرب وسائل الدفاع ضد القنابل والقنابل المحرقة فقد قضي عليهم ، فانهزمت مصر اولاً ، ثم تبعها الأردن ، وأخيراً سوريا .

في ٩ حزيران (يونيو) وقف ناصر كئيباً متعباً وألقى على شعبه خطاباً جاء فيه ما يلي : « ...وأقول لكم بصدق ، وبرغم أية عوامل بنيت عليها موقفي في الأزمة ، فانني على استعداد لتحمل المسؤولية كلها . ولقد اتخذت قراراً أريدكم جميعاً أن تساعدوني عليه . لقد قررت أن اتنحى تماماً ونهائياً عن أي منصب رسمي وأي دور سياسي ، وأن اعود الى صفوف الجماهير أؤدي واجبي معها كأي مواطن آخر . ان قوى الاستعمار تتصور أن جمال عبد الناصر هو عدوها ، وأريد أن يكون واضحاً أمامهم ، أنها الأمة العربية كلها وليس جمال عبد الناصر . والقوى المعادية لحركة القومية العربية تحاول تصويرها دائماً بأنها امبراطورية لعبد الناصر ، وليس ذلك صحيحاً لأن أمل الوحدة العربية بدأ قبل جمال عبد الناصر ، وسوف يبقى بعد جمال عبد الناصر . ولقد كنت أقول دائماً إن الأمة هي الباقية ، وان اي فرد مهما كان دوره ومهما بلغ اسهامه في قضايا وطنه هو أداة لإرادة شعبية وليس هو صانع هذه الإرادة الشعبية . وتطبيقاً لنص المادة ١١٠ من الدستور الثالث المؤقت الصادر في شهر مارس ١٩٦٤ ، فلقد كلفت زميلي وصديقي وأخي زكريا محيي الدين بأن يتولى منصب رئيس الجمهورية » .

اذا كانت دوافع الناس وأعمالهم تذكرنا بما جرى في سنة ١٨٨٢ ، فان المسرح والقواعد قد تغيرت . اندفع الجنرال ولسلي ، بعد معركة التل الكبير ، نحو القاهرة مدركاً أن كسب الحرب ، خلافاً لكسب المعركة ، لا يتحقق إلا بالقدرة على فرض شروط الصلح على العدو . أما في سنة ١٩٦٧ فإن مجلس الأمن فرض وقف اطلاق النار على المتحاربين فكان ذلك سيئاً للعرب لأن المجلس بإلحاح من الولايات المتحدة لم يطلب من الاسرائيليين الانسحاب الى الحدود التي شنوا الحرب منها . ولكن اسرائيل لم تحتل أية عاصمة عربية ، وأظهر ناصر أنه أوسع حيلة من عرابي وأكثر مرونة . ان عبارات الاستقالة نفسها تخفي عزمه على المقاومة .

كان هناك فرقان حاسمان بين وضعيهما في الداخل والخارج . في ١٨٨٢ ذاب

التأييد الشعبي لعرابي فوراً وخضعت مصر بأسرها للخديوي توفيق ، ولم يبق مخلصاً للّواء المهزوم ، كما أشار محاميه الانجليزي ، سوى خادمه الزنجي . أما في ٩ حزيران (يونيو) ١٩٦٧ فان جموع المصريين الزاخرة التي وقفت امام شاشة تلفزيون كبيرة في ميدان قصر النيل تستمع الى خطاب الرئيس الذي اعلن فيه استقالته اندفعت تطالب الرجل الذي قادها الى الهزيمة بأن يخلصها منها .

كذلك اختلف العالم الخارجي في الحالتين اختلاف المسرح المصري . في صيف ١٨٨١ تطلع عرابي الى الشمال طالباً العون من صاحب قصر يلدز ، ولكن عبد الحميد كان أعجز من ان يحرك إصبعه لنصرة المصريين . اما في ١٩٦٧ فقد التفت ناصر الى الشمال ، الى الاتحاد السوفييتي الذي كان يعدّ للاحتفال بذكرى تأسيسه الخمسين . ان ناصر في إطاعته غرائز المقاومة فيه وفي شعبه حصل على دعم ثانية اقوى دولتين في العالم وعلى دعم حلفائها . بعد أيام من وقف اطلاق النار تدفقت عليه من الاتحاد السوفييتي أسلحة جعلت المقاومة ممكنة .

عقدت الدول العربية (باستثناء سوريا) في أواخر الصيف مؤتمراً في الخرطوم تمّ الاتفاق فيه على السعي لحلّ سلمي على ألاّ يكون ذلك بالتفاوض مع اسرائيل التي أصبحت في موقف قوي بعد احتلالها أرضاً عربية تبلغ اربعة أضعاف مساحتها قبل حزيران . وقد كان ذلك نتيجة منطقية للاعتراف بخسارة المعركة لا الحرب . لقد كونت الدول العربية مجتمعة كتلة هائلة من الصعب دفعها الى العمل ، ولكن لا يقل صعوبة عن ذلك إكراهها على قبول الهزيمة . ان اللعبة الرياضية التي يجيدها العرب هي السباحة مسافة طويلة .

الفصل الثامن

ان حرب ١٩٦٧ التي لم تحلّ شيئاً أصبحت أزمة ستة أيام في صراع متقطع وخطر ، وكانت نتائجها تختلف كثيراً عما تكهن به او أراده أولئك الذين تورطوا فيها بصورة مباشرة أو غير مباشرة .

كانت احدى النتائج اغلاق قناة السويس ، وفي نوفمبر ١٩٦٩ تحولت الإسماعيلية والسويس الى مدينتي أشباح ، فقد دمرت القنابل الاسرائيلية الجوامع والكنائس والبيوت فيهما . ولكن إغلاق القناة كان أقل ضرراً ، على الأقل بالنسبة الى الدول القوية ، مما كان منتظراً . ذلك بأن الناقلات العملاقة صارت تنقل بترول الخليج بالدوران حول جنوب أفريقيا ، كما ان اكتشاف حقول بترول جديدة غربي القناة ، وخصوصاً في الجزائر وليبيا ، أنقص من أهميتها . على أن الطريق البحرية الطويلة من البلاد الواقعة على المحيط الهندي الى أوروبا سببت لهذه البلاد ضيقاً .

اصبحت ثلاث جمهوريات ومملكة واحدة في القرن العشرين معادلة للتيجان التي شغلت الخديوي اسماعيل . ولكن ميزان القوى انتقل من غربي أوروبا ، واصبحت الولايات المتحدة التي كانت غائبة رسمياً يوم افتتاح القناة ، لكن مهتمة باغلاقها بصورة غير رسمية ، أقوى دول العالم . أيّد الرأي العام الأميركي عموماً اسرائيل في الحرب ، وساعدتها الأسلحة الأميركية ، ومن ضمنها قاذفات الفانتوم ، على الاحتفاظ بالأراضي العربية المحتلة الى أن تتمّ التسوية . ثم ان الدبلوماسية الأميركية ، بعد حرب حزيران مباشرة ، دعمت اسرائيل في الأمم المتحدة لا بمعارضة اي طلب لربط وقف اطلاق النار بالانسحاب من الأراضي المحتلة فحسب ، بل أيضاً بتجنيد التأييد ضد أية محاولة سوفييتية لحمل الجمعية العمومية على ادانة اسرائيل . عزا العرب التأييد الأميركي لإسرائيل الى جماعة الضغط اليهودية القوية في الولايات المتحدة ، ولكن هناك أسباب أخرى ، منها ان الأميركيين كالكثيرين من الأوروبيين شعروا بالذنب لأنهم لم يعملوا مبكرين في منع الآلام التي تعرض لها اليهود في أوروبا . ثم إن من تقاليدهم الاعجاب بالفعّال والنفور من الخاسر ، وقد وجدوا اليهود – الذين جاءوا من أوروبا وفي بعض الحالات من أميركا – أقرب إليهم من العرب . وكان الأميركيون يأملون أن يؤدي النصر الاسرائيلي الى عدد من التغييرات المرغوب فيها ، منها أن تشويه سمعة الأنظمة العربية المتطرفة سيهدىء منطقة غنية بمواردها مهمة

باستراتيجيتها . يضاف الى هذا ان رفض اعتراف العرب باسرائيل سينتهي أخيراً .

ان ربط اميركا نفسها باسرائيل أضرّ بمصالحها واضعف احترامها في العالم الاسلامي بأسره . حتى في تركيا أزعجت تظاهرات الطلاب الجنود الأميركيين . أما في البلاد العربية فقد كان الرأي العام صاخباً ضد اميركا ، وجاءت مرارته انعكاساً للإعجاب القديم . وقع اول ردود الفعل في مايو ١٩٦٩ حين أطاح الثوار السودانيون الموالون لناصر بالحكومة التي لم تكن علاقتها بأميركا غير ودية . اعتبر المسؤولون الأميركيون الذين كانوا يزورون المنطقة ثورة الرأي العام قليلة الأهمية . قال احدهم : « نستطيع ان نترك البلاد العربية المأهولة بالسكان للسوفييت ، ونكتفي بالصحارى القليلة السكان والبترول » . بيد أن القوميين العرب استولوا في سبتمبر ١٩٦٩ على الحكم في مملكة ليبيا الصحراوية ، وكانت « القدس » كلمة السرّ بينهم ، وطلب النظام الجديد من الولايات المتحدة فوراً إخلاء « ويلس » أكبر قاعدة جوية أميركية خارج اميركا الشمالية . والأرجح ان استمرار الصراع سينطوي على انقلاب في أماكن أخرى .

خيب آمال العرب ما بدا خلال حرب الأيام الستة من سلبية الاتحاد السوفييتي . كانوا قد اقنعوا أنفسهم بأن لهم في روسيا حليفة ملتزمة . لكن الحذر الروسي خلال القتال كانت له أسبابه ، منها الرغبة في تجنب اصطدام مسلح مع الولايات المتحدة ، والهزيمة العربية التامة التي لا يمكن ان تغيرها أية معونة غير مباشرة . على ان أكثر العرب أدركوا أنهم اذا أرادوا المقاومة لن يجدوا دولة تمدهم بوسائل ذلك غير الاتحاد السوفييتي . ومع ان روسيا قدمت السلاح بسعر رخيص إلاّ أنها تسلمت كميات كبيرة من بضائع الاستهلاك المصرية والسورية . بيد أن مكاسب الاستراتيجية كانت هائلة ، فقد استطاعت بفضل الصداقة العربية ان تصبح اول مرة في التاريخ من دول البحر البحر المتوسط . والمحتمل جداً ان تتبع بلاد أخرى في الشرق الأوسط المثل الليبي وتنتج حكومات ثورية الطابع . ومعنى هذا، اذا استمر النزاع بين العرب واسرائيل ، امكان تحول الشرق الأوسط كله الى منطقة نفوذ سوفييتي بينما لا يبقى لأميركا سوى فرموزا اسرائيلية مكبرة .

أما بريطانيا وفرنسا — الدولتان اللتان كانتا مسيطرتين في ١٨٦٩ — فقد أصبحتا في ١٩٦٧ دولتين كبيرتين ثانويتين . غير ان فرنسا ربحت الكثير نتيجة السياسة التي اتبعتها في حزيران (يونيو) وما بعده . كان الرئيس ديغول ، قبل نشوب الحرب مباشرة ، قد حذر قائلاً انه سيقاوم الجانب الذي يبدأ القتال . وبما أن اسرائيل كانت ولا ريب هي التي اطلقت الرصاصة الأولى فقد رفض ديغول تزويدها بمزيد من السلاح ، واشتد الحظر بعد الغارة الإسرائيلية على مطار بيروت المدني في سنة ١٩٦٨ .

برر ديغول موقفه هذا على أساس ان الحرب السبقية غير مقبولة في عالم السلاح النووي ، أما غضبته للبنان فمردها الى دور فرنسا التقليدي في رعاية الموارنة . وورث جورج بومبيدو موقف ديغول ، فجعل فرنسا مرضية للعرب العاديين كما كانت فرنسا نابليون الثالث ويوجين مرضية للخديوي اسماعيل . وقد زادت شهرة فرنسا رغبة معظم العرب في اصدقاء آخرين علاوة على الاتحاد السوفييتي ، كما أكسبهم راحة نفسية ان يجدوا بلداً غربياً يفهم قضيتهم .

وأما بريطانيا ، الظافرة في خصامها مع فرنسا في القرن التاسع عشر ، فقد اصبحت الآن بعد الولايات المتحدة ، تعاني خسائر مماثلة وان كانت أقلّ .

على أن بريطانيا المشهورة بدبلوماسيتها هي التي وضعت صيغة لإحلال السلام في الشرق الأوسط ، فقد وافق مجلس الأمن بالإجماع في نوفمبر ١٩٦٧ على قرار وضعه جورج براون ، وزير خارجية بريطانيا ، أكد فيه بعد المقدمة بناء على ميثاق الأمم المتحدة عدم القبول بالاستيلاء على أراضٍ بواسطة الحرب ، وأيّد مبدأين في توازن مبهم : اخلاء اسرائيل أراض احتلتها في حرب حزيران (يونيو) مقابل اعتراف العرب بوجودها . عهد الى الدكتور جونار يارنغ ، مبعوث الأمم المتحدة ، ببحث تنفيذ هذين المبدأين مع الأطراف المعنية . وبعد بعض التردد قبلت مصر والأردن القرار مع الإصرار على أنه يعني انسحاباً اسرائيلياً تاماً ، وان اشارة القرار الى تحقيق تسوية عادلة لمشكلة اللاجئين الفلسطينيين تعني اختيارهم العودة أو التعويض . أخذت اسرائيل تراوغ ، فأعلنت مرة ان دمج القدس في اسرائيل غير قابل للمفاوضة ، ثم قالت ان كل شيء قابل للمفاوضة اذا دخل العرب في مفاوضات مباشرة ، وذلك أمر سبق للعرب رفضه ولم يتطلبه منهم قرار مجلس الأمن . أما سوريا وعدد من الدول العربية الأخرى فقد رفضت القرار لأنها لم تقبل مبدأ وجود دولة يهودية في فلسطين العربية .

تنقل الدكتور يارنغ كثيراً بين تل أبيب والعواصم العربية في ١٩٦٨ . لكن الاسرائيليين رفضوا الالتزام بجدول زمني للإنسحاب أو بتصريح واضح أنهم سينسحبون ، بينما رفض العرب الالتزام بشيء الى ان يتم الاتفاق على الجدول الزمني أو تلتزم اسرائيل بالانسحاب . وفي ١٩٦٩ بدأت الدول ، بدفع من فرنسا ، مباحثات ثنائية ورباعية من أجل الحيلولة دون انفجار حرب اخرى خطيرة ، وإمكان التوصل الى سلام دائم ، وظهرت الولايات المتحدة في هذه المباحثات مدافعة عن اسرائيل والاتحاد السوفييتي مدافعاً عن العرب . أما فشل هذه المحاولات في التوصل الى نتائج فيمكن فهمه من تحليل كيفية تأثير حرب الأيام الستة في الأطراف الرئيسة المتورطة في المشكلة مباشرة .

بدت خسائر مصر في الحملة مشلّة من النظرة الأولى : معظم الأسلحة السوفييتية ، ونحو خمسة عشر ألف ضابط وجندي (معظمهم في أثناء التراجع عبر سيناء) ، وشبه جزيرة سيناء ، وتألق الأسطورة . كانت خسارة الجنود ، وان لم تبلغ ربع ما خسرته بريطانيا في معركة «السوم» ، فادحة لأن مصر كانت تفتقر الى الاحتياطي العسكري. أما خسارة سيناء فكانت مهمة لأمرين، الأول ان سيناء غنية بالمعادن ومن ضمنها البترول ، والثاني انها حاجز استراتيجي بين الدلتا وفلسطين ، اذ يستطيع الاسرائيليون من مواقع متقدمة فيها ضرب مدن القناة والدلتا بالقنابل. وأما فيما يتعلق بالأسطورة فلم يعد أحد ينسب العصمة الى ناصر أو الصفات الإسبارطية الى جيشه .

بيد أن هذه الخسائر ما لبثت أن عوضت . ارسل الاتحاد السوفييتي الى مصر من الأسلحة أكثر مما فقدت ، وبضعة آلاف من الخبراء السوفييت الذين وفروا للمصريين تدريباً أفضل من قبل ، واكتشفت مصر آبار بترول جديدة مهمة على شاطىء البحر الأحمر وفي الصحراء الغربية عوضتها من خسارة آبار سيناء ، كما عوضتها الدول الغنية بالبترول ، المملكة العربية السعودية والكويت وليبيا ، من خسارة دخل قناة السويس . أما خسارة الأسطورة فكانت أليمة . في الأشهر الخمسة الأولى التي تلت الهزيمة كان الضباط المصريون يخجلون من الظهور بألبستهم الرسمية ، وشعر المصريون في الخارج بالمذلة ، ولم يخف العرب الآخرون شعورهم نحوهم . غير ان ذلك الألم كان نافعاً ، فقد أصبح مزاج المصريين أكثر هدوءاً ، واعتبر ناصر في السنوات الأخيرة من حياته القائد الوحيد الذي يستطيع توحيد البلد الى أن يتحقق السلام . أما بالنسبة الى ناصر فقد وجد أخيراً الفرصة لوضع الجيش في مكانه : على الحدود بعيداً عن النفوذ والسيطرة في القاهرة ، وقد تمّ ذلك اثر انتحار المشير عبد الحكيم عامر ، صديق ناصر الحميم .

لم تكن مكاسب اسرائيل وخسائرها أقلّ تناقضاً . كانت الهيبة (العنصر المحيّر الذي سعى ناصر له وفقده) قوتها الرئيسة الجديدة . ولكن الهيبة لم تكن هدفها في الحرب ، بل كانت دوافعها الى الضربة السبقية معقدة كسكانها القليلين المدججين المتنوعين . لم تكن ما أعلن في صباح ٥ حزيران (يونيو) ، أي ضربة خاطفة انتقاماً من غزوة مصرية ، ولا كان الاهتمام بإيلات أكثر من شيء رمزي وان كانت خطوط المواصلات في نظر اسرائيل رموزاً مهمة . كان المعتدلون في اسرائيل يأملون ان يؤدي تحطيم الأسلحة المصرية التي قد تصبح في المستقبل خطرة الى حمل جيرانهم غير الواقعيين الى حدّ مثير على قبول الدولة اليهودية . ومهما كانت أبعاد تلك الدولة فقد أرادوا لها الأمن . والصعوبة المعقدة انما كانت في اختلاف الرأي حول حدود هذه الدولة ، اذ كان بعضهم ومن ضمنهم بن غوريون المتقاعد ميالين الى قبول

اسرائيل ١٩٦٧ كحقيقة تمنوا تحقيقها ، بينما كثيرون من السياسيين الاسرائيليين تكلموا عن احتلال هذا الجزء من الأرض ثم ذاك الجزء .

ولكن اسرائيل كسبت في حرب الأيام الستة الأرض والهيبة . اسست المستوطنات في مرتفعات الجولان السورية ، وفي الضفة الغربية من الأردن ، حتى في سيناء وغزة . بيد أنه لا احتلال الأرض الموقت ولا الهيبة يمكن أن يجلبا الأمن . كانت خسائر اسرائيل قبل ١٩٦٧ من الغارات على الحدود غير منتظمة وصغيرة ، أقل ولا شك كثيراً من الخسائر التي كانت تنزلها بالعرب غاراتها الإنتقامية بين آونة واخرى . وقد أمكن أن تتوقف الخسائر كلياً لو أن مشكلة الفلسطينيين اعتبرت أفضلية مهمة كالدفاع . أما بعد ١٩٦٧ فإن عدد الإسرائيليين الذين قتلوا أو جرحوا تزايد باستمرار حتى بلغ في بعض أشهر ١٩٦٩ — ١٩٧٠ نحو مائة ، واذا عبّر عن هذا الرقم الشهري على أساس خسائر اميركا في فيتنام ، آخذين بعين الاعتبار كثرة عدد سكانها ، بلغ نحو عشرة آلاف . وكانت اسرائيل في سنة ١٩٧٠ تصرف من النقد على الدفاع أكثر من ثلاثة ملايين دولار يومياً ، ولذلك كانت الأراضي المحتلة موقتاً تقدم دخلاً ضئيلاً بالنسبة الى هذه الخسارة في الدم والمال .

أدرك كثيرون من الإسرائيليين ان الأنهار أو الصحارى أو المرتفعات الاستراتيجية لن تجعل اسرائيل آمنة ابداً ، فلا يأتي الأمن إلاّ بموافقة العرب . ان خطوة سخية ، عودة الى تقليدها الديني بعد حزيران (يونيو) ١٩٦٧ ربما كانت تستطيع أن تذيب عداء العرب لإسرائيل وشكهم في المتطرفين الاسرائيليين ، ولكن تلك الخطوة لم تتمّ . كان ائتلاف ضعيف يسيطر على أقوى جيش في الشرق الأوسط ، وكان المعتدلون عاجزين عن طلب السلام بصراحة بينما استمر المتطرفون في توسيع قائمة الأرض التي اعتبروها غير قابلة للتفاوض .

ان القسوة التي صحبت الاحتلال الاسرائيلي جعلت المواجهة بين اسرائيل وبين الفلسطينيين ، آخر وأهم فريق في النزاع في الشرق الأوسط ، أقرب وأشدّ عنفاً . ان كل واحد من أفراد الشعب الذي يبلغ عدده مليونيين ونصف مليون نسمة — أو نحو سكان اسرائيل اليهود — كان يعيش بعد حرب حزيران إما في منفى مكروه أو تحت الحكم الاسرائيلي .

كان معظم الفلسطينيين قبل حرب حزيران يقيم في الجانب العربي من خطوط الهدنة . ثلاثمائة ألف منهم حشروا في قطاع غزة الضيق لا يستطيعون زيارة مصر دون جواز ، والعدد الأكبر منهم في ضفة الأردن الغربية اضطهدهم جيش من البدو مخلص للعرش الهاشمي . أما الذين هاجروا الى البلاد العربية الأخرى فكانوا في حال أفضل قليلاً .

كان الجيل الأول من الفلسطينيين في الشتات عاجزاً لأنه كان مصعوقاً . خسر الفلاحون بخسارتهم الأرض سبب بقائهم ، فأقاموا في المخيمات البائسة يأخذون صدقة الأمم المتحدة وينجبون الأطفال . أما سكان المدن فقد أخذوا معهم الى المنفى مواهب كثيرة ، ذلك بأن الكفاءات الفلسطينية التقليدية كان قد صقلها نظام تربوي بريطاني رائع . كثيرون منهم ذهبوا الى المعاهد العالية في اوروبا أو أميركا ، وآخرون جمعوا ثروة من بلاد آبار البترول على الخليج ، ومنهم من حصل على خبرة في الكليات العسكرية العربية ، لكن عدداً أكبر من هؤلاء اكتسب خبرة في السجون العربية حين اظهروا دلائل على أن لديهم ما يقولونه في أمر مستقبلهم . ذلك بأن كل الحكومات العربية ، باستثناء سوريا ، حاولت وهي تستغل محنة اللاجئين ان تمنعهم من بدء مناوشات خطيرة مع اسرائيل .

أما الجيل الثاني من الفلسطينيين ، اولئك الذين حملهم آباؤهم معهم وهم فارون ، فقد نشأت لهم نفسية خاصة . كان لآبائهم أمل في بعض الانصاف من الأمم المتحدة أو معجزة من الدول العربية تنقذهم ، أما هم فلم يكن لهم ذلك الأمل ، بل شعروا أنهم لن يخسروا سوى خيامهم .

بدأت حركة الفدائيين الفلسطينيين المستقلة بحادث صغير لم يثر الانتباه في يناير ١٩٦٥ ، سنتين قبل حرب حزيران . بعد غارة صغيرة على اسرائيل نشرت جماعة دعت نفسها « العاصفة » البلاغ التالي :

« ... ونحن نعلن للعالم ارتباطنا بتربة الوطن وخيره ، ولا يحركنا إلا إيماننا بأن هذا هو الطريق السليم لإخراج قضيتنا من العزلة التي عاشت فيها طيلة السنوات الماضية . فإلى جماهير شعبنا الفلسطيني ، والى امتنا العربية الواحدة ، والى أحرار العالم كله ، نتجه بهذا النداء لتأييد طلائع العاصفة في كفاحها الثوري البطولي . واننا نعاهد شعبنا أن نظل على العهد ، ولن نلقي السلاح الفلسطيني حتى تتحرر فلسطين وتعود الى مكانها الطبيعي في قلب الأمة العربية » .

في ذلك الوقت لم تعتبر اسرائيل التي اعتادت الغارات احياناً ، ولا معظم الدول العربية التي كانت تعارض النشاطات التي لا تقرها ، ذلك البلاغ أكثر من كلام بليغ .

أكسبت هزيمة الجيوش العربية في ١٩٦٧ الحركة التي مثلتها العاصفة دافعاً جديداً هائلاً ، فقد أصبحت للفلسطينيين قضية يستطيعون مقابلتها بقضايا أوروبا المحتلة في الحرب العالمية الثانية . بدأ الصراع العربي ضد اسرائيل يلقى اول مرة بعض العطف في الغرب . ان صور البيوت العربية التي نسفها الاسرائيليون انتقاماً من اعمال المقاومة (او الإرهاب كما دعته طبعاً سلطات الاحتلال) قد أثارت العطف في بلاد لا تزال تذكر الاحتلال النازي . ثم ان العنف يولد العنف . كلما زادت

هجمات الفدائيين زادت اعمال الانتقام قسوة . كانت سلسلة ردود الفعل شبيهة بما حدث في بلاد اخرى احتلها غزاة آخرون كالبريطانيين والفرنسيين والألمان والايطاليين . احترم الفدائيين عالم عربي فقد أبطاله ، ومع أنهم كانوا مقسمين الى منظمات ، ولم توفر لهم ارضهم غير المشجرة سوى حماية قليلة ، إلا ان العالم العربي الواسع كان وراءهم ، ذلك العالم الذي اغتنى فجأة بالنقود التي جاءته من البترول وارتبط بدول صديقة . لم يفتقر الفدائيون الى المال ولا إلى السلاح .

ذكرت « فتح » ، أول منظمات المقاومة ، ان هدفها جعل اسرائيل وغزة والضفة الغربية — اي ما كان يدعى فلسطين — دولة مركزية علمانية يعيش فيها اليهود والمسلمون والمسيحيون الفلسطينيون كأسواء . كانت معارضة كلياً لعبارة وايزمن « اسرائيل يهودية كما ان انجلترا انجليزية وفرنسا فرنسية » ، ولكنها أهملت الدعاية العربية المتطرفة وأظهرت استعدادها لمعاملة كل اليهود الذين سيتعايشون معها كمواطنين فلسطينيين .

تحدث الفدائيون عن « الثورة الفلسطينية » أكثر من حديثهم عن الكفاح من اجل التحرير . لم تكن ثورتهم على تقليد هيرتزل وايزمن فحسب بل كانوا معارضين أيضاً لزعمائهم الاقطاعيين الذين قادوهم الى الكارثة في عهد الانتداب البريطاني ، وكان تحديهم للدول العربية الأخرى أساسياً . شمل طلبهم عملاً عربياً جديداً جاداً ، وتحديهم اسرائيل بحرب العصابات ، العرب الآخرين جميعاً . لا ريب ان همجات الفدائيين ستشجع اسرائيل على التوغل في الأردن ومصر وسوريا ولبنان ، ولكن كثيرين من مفكريهم يرحبون بذلك لأن توسيع منطقة القتال هو وحده ما يجعل الاسرائيليين ينتشرون في الشرق الأوسط كما انتشر الفرنسيون في الجزائر .

أول مرة في تاريخ الشرق الأوسط الحديث يجد الرأي العام العفوي — لا الرأي العام الذي يرعاه وزراء الارشاد القومي— ناطقين باسمه، لا يمكن ، لأنهم مسلحون ، قمعهم بسهولة . وقد اعطى ذلك الحركة الفلسطينية الحق في ان تدعو نفسها ثورة. ولا ثورة ، طبعاً ، مقبولة لدى اولئك الذين تهدد مصالحهم أو تضعف هيبتهم . ان الاسرائيليين الذين أملوا بوعي أو غير وعي أن يتلاشى الفلسطينيون في الصحارى رأوا في بعث هذا الجيل الثاني خطراً عليهم ، فأطلقوا على الفدائيين لقب « الإرهابيين » الذي كان البريطانيون قد اطلقوه على رجال العصابات الاسرائيلية في الجيل الماضي .

أطرت الحكومات العربية الفدائيين علناً ، وقامت بدعاية لعملياتهم ولكنها شعرت ، كالاسرائيليين ، ان هذه الحركة المسلحة المستقلة خطر عليها . واضح جداً ان هجمات الفدائيين التي انطلقت من الأردن ولبنان دفعت الاسرائيليين الى الانتقام عادة بنسبة عشر أعين بعين واحدة فدمرت الضفة الشرقية من نهر الأردن وهددت بتحويل

لبنان الجنوبي الى منطقة حرام . حاولت فتح أن تخفف التوتر بين مختلف المنظمات الفدائية وبين الحكومات العربية محتجة بـأن العرب جميعاً ، مهما كان ميلهم الايديولوجي وتقليدهم ، يجب أن يتحدوا . ولكن الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين التي تشكل الجناح المتطرف في حركة المقاومة ، والتي يرئسها الدكتور جورج حبش ، كانت ترى أن الاسرائيليين انما استطاعوا ان يقيموا دولتهم بسبب فساد المجتمع العربي ، ولذلك فلا فائدة من محاربة الامبريالية والصهيونية تحت لواء رجال أدى ضعفهم والخصومات بينهم الى الهزيمة . وبناء على ذلك فان الثورة الاجتماعية شرط أساسي وأولي للتحرير .

كوّن نفوذ الفدائيين وقوة حججهم تحدياً حتى لزعامة عبد الناصر الذي كان رمز الحركة الثورية العربية بلا منازع . إزاء هذا التحدي ، وفشل مهمة يارنغ ، أقرّ ناصر « حرب استنزاف» ضد اسرائيل لن تنتهي إلاّ حين تظهر اسرائيل استعدادها للانسحاب من كل الأراضي المحتلة . ردت اسرائيل على ذلك بالإغارة بأحدث الطائرات الأميركية على اعماق مصر ، وكان هدفها تشويه سمعة عبد الناصر واسقاطه عسى أن تكون الحكومة المصرية الجديدة أكثر استعداداً لقبول الشروط الاسرائيلية . بيد أن الدمار الذي احدثته الغارات الجوية في الدلتا ومقتل عشرات الأطفال أديا ، كما حدث في الحرب العالمية الثانية وفي فيتنام ، الى التفاف الشعب المصري حول زعامة ناصر ، واصبح من المستحيل سياسياً على الاتحاد السوفييتي ان يبقى مكتوف اليدين بينما تهدم اسرائيل الأسس الصناعية لثورة عبد الناصر ، فكانت النتيجة الفوريـة للغارات الجوية الاسرائيلية زيادة تورط الاتحاد السوفييتي في الدفاع عن مصر .

ما دامت الصواريخ السوفييتية قد وقفت في وجه طائرات الفانتوم الأميركية فليس من الصعب تصور الخطوة التالية: مواجهة بين القوتين الأميركية والسوفييتية . ان الخطر الواضح في أن تؤدي مشكلة الشرق الأوسط الى تهيئة زناد حرب نووية كان احتمالاً يسحر القليلين .

بدّدت اكفهرار صيف ١٩٧٠ مبادرة أميركية في مشروع روجرز لتسوية المشكلة الفلسطينية نهائياً . وقد أدهش الجميع تقريباً اعلان ناصر إثر عودته من زيارة طويلة لموسكو في ٢٣ يوليو استعداده لقبول المقترحات التي نقلها اليه وليام روجرز ، وزير خارجية الولايات المتحدة ، وهي وقف اطلاق النار على طول قناة السويس ثلاثة أشهر على أن تنشط خلالها مهمة الدكتور جونار يارنغ .

اما اسرائيل التي لم تنتظر ان يوافق ناصر على هذه المقترحات فقد قبلتها أيضاً لكن بعد تردد طويل . وسرعان ما احتجت بأن المصريين نقلوا الصواريخ أرض ــ جوّ الى قرب القناة ، فقاطعت المحادثات وقوت في الوقت نفسه سلسلة مواقعهـا

الدفاعية على الضفة الشرقية من القناة .

هاجم الجميع فوراً وبعنف قبول مصر لمشروع روجرز ما عدا قسم قليل من الفدائيين. ان قرار ٢٢ نوفمبر الذي بني عليه المشروع عنى اعترافاً واقعياً من العرب باسرائيل كما كانت في ٤ حزيران ١٩٦٧ ، اي اسرائيل تضم أربعة أخماس فلسطين التي كانت تحت الانتداب . لا ريب أنه جرى حديث في انصاف اللاجئين الفلسطينيين ولكن قليلين صدقوا أن تعيد اسرائيل طوعاً الأراضي التي استولت عليها أو تسمح بعودة اصحابها الأصليين . وإذ كان الفلسطينيون يعيشون في منطقة لا تحفظ الأسرار ، فقد علموا أن الاميركيين أخبروا عبد الناصر والملك حسين سراً ان الولايات المتحدة لن تستعمل نفوذها في حمل اسرائيل على الانسحاب إلاّ إذا سيطرت الحكومات العربية المعنية على الفدائيين . في ذلك الجوّ المريب ظنّ الفدائيون ان المخابـرات الأميركية ناشطة في عمان ، ولم يصدقوا التكذيب الرسمي لاتصال الحسين شخصياً بالزعماء الإسرائيليين . ان ما يبدو واقعياً في الغرب بدا لهم خيانة .

استعمل ناصر الهجوم الفلسطيني الشديد على قبوله مشروع روجرز في قمـع مظهر قوة الفدائيين الوحيد في مصر ، أي محطاتهم الإذاعية . احتج ، على الأقلّ علناً ، بأنه لا تناقض بين القبول المصري لمشروع روجرز وبين حق الفلسطينيين في متابعة القتال . وبما انه لم تكن في مصر قوة فلسطينية مسلحة مستقلة فانه لم يتخذ اجراءات أخرى .

أما حسين في الأردن فقد كان في وضع مختلف . كان حتى حرب ١٩٦٧ قادراً على قمع اي مظهر استقلالي بين الأكثرية الفلسطينية في مملكته . كانت أداته للحكم الجيش العربي الذي كونه البريطانيون واستخدموه في أغراضهم الخاصة . يعكس هذا الجيش الانقسام في المجتمع الأردني . فالكتائب المدرعة والمدفعية معظم رجالها من البدو الذين عرفوا منذ أيام الرسول بعدم المبالاة بأي شيء ما عدا متع الغزو ومغانمه ، أما المشاة فبينهم نسبة كبيرة من الفلسطينيين ألاكثر تعليماً من زملائهم البدو والاكثر وعياً سياسياً. واذ كان حسين متأثراً كثيراً بوالده طلال وبجده عبد الله فقد كان له عارضا جانوس . من ناحية كان يستجيب لحجج القومية العربية ويقول : « إننا جميعاً فدائيون » ، ومن ناحية أخرى كان يتبع تقليد أسرته في الاصغاء الى نصائح اقربائه لاثبات سلطته على الفلسطينيين. لذلك حين خطف فدائيو الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين في شهر سبتمبر عدة طائرات، فأحرقوا واحدة في مطار القاهرة واخذوا الطائرات الثلاث الباقية مع ركابها الى « مطار الثورة » شمالي الأردن ، اعتبر هذا العمل تحدياً للدولتين واتخذ الملك حسين منه مبرراً تاماً لسحق حركة الفدائيين.

لا بدّ من ان يكون ناصر قد عرف ان ملك الأردن سيفرض سلطته على الفدائيين

الأكثر جموحاً ، ذلك بأنه لو وجدت في مصر دولة كهذه ضمن الدولة لما تساهل ناصر في أمرها وهو الرجل العسكري ذو المزاج الاستبدادي . يضاف الى هذا ان الفدائيين جعلوا من الصعب عليه وعلى شريكه الأردني ان يتابعا الحلّ السلمي الذي اعتبرا أنه يخدم خير مصالح العرب . بيد ان احداً منهما لم يتصور ان العملية الملكية ستدوم طويلاً أو تؤدي الى مذبحة . لم يستطع الملك حسين ان يعتمد في هذه العملية على المشـــاة الذين هم الأداة العادية للبحث عن الفدائيين الذين يقيمون في مخيمات اللاجئين حول عمان ، بل استخدم المدفعية في دكّ تلك المخيمات . بقيت القاهرة طوال اليومين الأولين من الحرب الأهلية في الأردن قلقة صامتة ، وإذ وقف ناصر على تفاصيل القتال المريعة اضطر كقائد للحركة الثورية العربية الى الوقوف ضـــد ملك الأردن ، وفي الوقت نفسه بذل كل جهده واستعمل كل نفوذه للتوصل الى تسوية بين الفدائيين وبين النظام الذي كانوا يشبهونه بحكم نيرون .

بدا عبد الناصر في اكتوبر ١٩٧٠ ، كما في صور الدعاية المنتشرة في كل انحاء الشرق الأوسط ، نشيطاً تعلو وجهه ابتسامة جذابة . ولكنه كان قد أصيب في الشتاء بنوبة قلبية ، ونصحه أطباؤه بالراحة فازداد بدلاً من ذلك تمسكاً بالسلطة وشغل في آن واحد مناصب رئاسة الدولة ورئاسة الوزارة ورئاسة الاتحاد الاشتراكي العربيّ . في هذا الوضع واجه أخطر أزمة في حياته سببها تدخل سوريا الى جانب الفدائيين وخطر تدخل اسرائيل وربما الولايات المتحدة الى جانب الملك حسين الأمر الذي كان سيعرض زعامته للخطر إذا ما وصل النزاع الى نقطة تحتّم عليه ان يختار بين الملك حسين وبين الفدائيين الذين وصفهم في ٢٣ يوليو بأنهم أنبل قوة ظهرت في العالم العربي منذ هزيمة ١٩٦٧ . في أثناء المؤتمر الذي عقد في القاهرة للبحث في هذه المشكلة خرج لوداع احد الوفود ، ولما رجع الى بيته وافته منيته ، فنعاه أنور السادات على التلفزيون لشعب مصعوق غير مصدق . كانت أسطورة عبد الناصر قوية الى حدّ أن جنازته فاقت جنازة بطله مصطفى كامل ، وبكاه الناس بصورة هستيرية في كل مدينة من مدن العالم العربي ، واظهر عظماء العالم الذين حضروا جنازته — ومن بينهم رئيسا وزارة الاتحاد السوفييتي وفرنسا ، ووزير خارجية بريطانيا ، ورئيس وزراء تركيا — الى أي حدّ رفع هيبة مصر في العالم . كان عبد الناصر ، على الرغم من كل سوء تقديراته ، أعظم رجل دولة عربي منذ القرون الوسطى ، وقد قضى ضحيـــة المشكلة الفلسطينية .

حين رحب الخديوي اسماعيل في ١٨٦٩ بزوار الإسماعيلية الغربيين تكهن المتشائمون الذين اسقطوا من حسابهم إمكان الاتفاق بين الشرق والغرب بحريق هائل على ضفاف البسفور والممرات بين آسيا وأوروبا . ولكن كنعان العهد القديم أو فلسطين

العرب اصبحت بدلاً من ذلك ساحة أشرس قتال . فتح هيكل جانوس أبوابه نحو البلد الذي اقترح هيرتزل ان تبنى فيه دولته اليهودية وفرض بلفور تناقضات تصريحه بشأنه . قد يصبح ، في بلد العجائب ممراً لعابري السبيل بين الشرق والغرب ، لكن اذا فشلت المناقشات واستمر العنف في التصاعد قد يصبح قبراً لا يمكن التكهن بعمقه ، موقعاً لا لقدس جديدة بل لأرمجدون .

تاريخ الشرق الاوسط في حوالي مئة سنة ، منذ ما بعد منتصف القرن التاسع عشر بقليل حتى الستينات من قرننا الحاضر : من اسماعيل الكبير مروراً باحتلال مصر وثورة اتاتورك وقيام اسرائيل ، حتى عبد الناصر .

وضع الكتاب مؤرخ بريطاني عايش بعض حقبات هذا التاريخ . فقد جاء الى هذه المنطقة في الثلاثينات وما يزال يعيش فيها مما اتاح له جمع المعلومات من مصادرها الاولية . وكذلك اعتمد على مصادر عديدة محفوظة في ارشيفات بعض الدول التي كان لها دورها في احداث المنطقة خلال المئة عام الاخيرة .

٢٠ ل ل او ما يعادلها